تجليد
صالح الذكر
بيروت - المزرعة

892.709 B36tA V.2

بيومي، السباعي.

تاريخ الادب العربي - في العصر العباسي.

MAR 4 A1275 C299

892.709
B36tA
V.2

J. LIB.

16 JUN 1979

NO 15
NO 23

12 Jan 70

10 MAY 1971

1 JUN 1973

SAFET LIB.

25 JAN 1994



392709
B36tA
3

تاريخ الأدب العربي

الجزء الثاني

في العصر الإسلامي

تأليف

السباعي بيومي بك

وكيل كلية دار العلوم بجامعة فؤاد

وأستاذ تاريخ الأدب العربي سابقاً

حقوق الطبع محفوظة

١٩٥٢

ملتزم الطبع والنشر

مكتبة الأنجلو المصرية

١٦٥ شارع محمد بك فريد (عماد الدين سابقا)

(صبحي وشركاه)

مطبعة لجنة البيان العربي

١ شارع مقطم باشا بالأمتين - لاظوغلي

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين

تاريخ الأدب العربى

فى العصر الإسلامي

جمعنا فى هذا العصر بين عصرين ، عصر صدر الإسلام ، والعصر الأموى ، ولكن لا على أن نلقى القول عنهما مجتمعين ونصدر عليهما الأحكام معاً ، فإن ذلك إذا حاوله محاول جاء كلامه عاماً لا يثمر ولا يفيد وجاءت أحكامه بعيدة عن مواطن الرشد والسداد ، لأن كليهما على ما بينه وبين قرينه من تشابه بعيد عنه بما حدث فيه من أحداث واختص به من أمور .

لهذا فإنا فاصلون بينهما فى القول فصلا وجاعلو عصر صدر الإسلام بحكم سبقه أولا ومدته ثلاث وخمسون سنة تبدأ بقيام صاحب الدعوة ﷺ بها فى مكة قبل الهجرة باثنتى عشرة سنة وتنتهى بمبايعة الحسن بن على رضى الله عنه معاوية بالخلافة سنة إحدى وأربعين مبايعة انتهت بجعل الولاية على المسلمين ملكا عضوضاً لا كما كانت فى عهد الخلفاء الراشدين .

عصر صدر الإسلام

أثر الإسلام فى العرب ولغـــة العرب

لغة الأمة مرآة ترى عليها صورتها بالحال التى هى عليها وهى شديدة الحس والتأثر بكل ما يعتريها ومن ثم كانت الانقلابات السياسية والدينية والاجتماعية ذات أثر بين فى اللغات، وبقدر ما يكون لتلك الانقلابات من قوة وسعة يكون التأثير فى اللغة صعوداً وهبوطاً رفعة وانحطاطاً.

ندلى بهذه التقدمة لنحكم بأن الإسلام وهو ذلكم الانقلاب الهائل الخطير قد غير من أوضاع الأمة العربية تغييراً تناولها فى كل ناحية من نواحيها بدرجة لم تك لأى حدث فى أية أمة سواها حتى ليقال دون مبالغة ولا تزيد إنه خلقها خلقاً جديداً جعلها فى حسها ومعناها غير ما كان عليه أسلافها فكان لذلك فى اللغة من الأثر البالغ والتغير الكبير ما نحن بصد إجماله الآن وتفصيله فى مظاهر اللغة بعد.

الانقلاب الحسى

عاش العرب جاهليتهم محصورين فى جزيرتهم لم يخالطهم فيها غيرهم ولم يرتحلوا هم للاقامة بعيداً عنها، وهى كما تعلم جزيرة على سعتها ليس فيها نهر يجرى ولا سهل يزرع كما للأمم حولها، إنما هى أرض تكاد تتقاسمها الصحارى والنجود وفيها من الجبال ذات الأودية محط الغيوث والأمطار ما ينبت العشب والكلأ تعيش عليه ماشيتهم من إبل وضأن ومعز، وعلى تلك الماشية هم يعيشون، فهى بلاد يحيا أهلها حياة البدو إلا من كان منهم فى بعض أطرافها من الحضر المتمصرين وإنهم لقليل.

طالبتهم هذه الحياة أن يجيدوا وصف الأرض فى الناحية التى عليها بلادهم، من الصحارى المترامية الأطراف ذات الرمال المحرقة والمفاوز المهلكة ومن

النجود العظيمة تشقها الأغوار البعيدة ومن الأودية المطمئنة تحدها الجبال الشامخة وأن يجيدوا بالتبع لذلك نعت الإبل من رواحل وجزر ، فعلى الإبل حين الرحلة عمادهم ومن لحمانها وألبانها شبعهم وريهم ومن أصوافها وأوبارها ملابسهم وخيامهم كما يجيدون وصف نبات البادية من كلأ وعشب ، ورياحينها من عرار وبهار وشجرتها ذات الصلة الوثيقة بها وهى النخلة التى برع البدو فى معرفتها والوقوف على خصائصها حتى لم يتركوا منها شيئاً دون استخدام وانتفاع .

وطالبتهم وهم قوم يعيشون فيها على المطر ، إذا جادهم أخصبوا وأمرعوا وإذا أخلفهم أجدبوا وأقحطوا ، أن يطيلوا النظر إلى السماء يتعرفون مواطن السحب والغمام ، الممطرمنها والجهام ، ومهاب الرياح باردها وحارها مستقيمها ونكبائها ، لما لها من العلاقة الوثيقة بالأمطار ، على أن لهم إلى نظر السماء إذا صفا الجو وتبددت الغيوم حاجة أخرى ، فإن بها من النجوم ما عليه هدايتهم وفيه إرشادهم حيث يسرون فى ظلمات الليل البهيم ، وما كان مسراهم غالباً إلا فيه فراراً من حر الشمس التى تذيب بوهجها فى صحابهم أدمغة الضباب .

وطالبتهم وهم قوم رحل ينتجعون منابت الكلأ لا يستقر بهم قرار أن يعدوا للرحلة عدتها فيتخذوا ببوتهم من الشعر يرفعونها إذا ارتحلوا ويضربونها إذا أقاموا وأن يجيدوا نسجها من الصوف والوبر ويحسنوا رفعها بالأعمدة والأوتاد وتثبيتها بالأطناب والأسباب .

ثم طالبتهم أخيراً أن يكونوا فى مآكلهم وملابسهم على حال من التقشف والتبدى لا تدع لهم تلوناً فى مأكل ولا تأنقاً فى ملبس ولا تنوعاً فى آنية ولا قنية لأثاث أو رياش مما هو بالحضر كثير المشاهدة وليس عنه لسكان المدن محيص .

هذا هو الميدان الحسى الذى كانت تتطلع فيه العرب جاهليتها ومنه تنتزع حواسهم وبه تتأثر مشاعرهم فلا يصدرون فى تصويرهم إلا عنه ولا يصفون فى حسهم إلا منه ، ولكن الإسلام إذ جاء غير من كل هذا ، فلم يكد يطالبهم

بالجهاد والغزو فى ممتلكات الفرس والروم حتى خرجت جماهيرهم إليها خروج السيل المندفع ، فلم يمض صدر من خلافة عمر رضى الله عنه إلا وقد خلفوا هاتين الدولتين فأزالوا الأولى عن رقعتها فارس والعراق، وضعضعوا الثانية بما أخذوا من مصر والشام وبهذا احتلوا ما اتسع من الأرضين يفلحونها ويزرعونها ، واستوطنوا عظم من المدن يتمتعون بخيرها ونعيمها ، وشاهدوا من مجالى الطبيعة الجديدة الأنهار الجارية والسهول المخصبة ومن آثار الحضارة العريقة ما أنتجته حكمة فارس وصنعة الروم وعلم مصر فتبدلت بهم الحال غير الحال ونسوا الصحارى وإبلها والنجاد ووهادها والبوادى ونبتها ولم تعد حياتهم حبساً على المطر يتشوفونه فى الجو المتلبد ويتسمعونه فى الريح المزجى ولا هدايتهم وقفاً على السماء الصافية ذات النجوم اللامعة . ولا طلب عيشهم رهناً بالرحلة يشدون أكوارها ويعتلون أقتابها فمات من كلامهم كل هذا وخلصوا منه إلى ما يقابله مقابلة الحضارة للبداوة أو التنعم للتقشف بل السعادة للشقاء وكانوا بذلك جد منتفعين ، فما هى إلا ساعة من نهار حتى أشربوا هذه المدنية وتغذوا بها وامتلكوا ناصيتها وزادوا فيها وظهر ذلك عليهم ظهوراً حقاً ليس بالمقلد ولا المعار ، ثم ما هى إلا عشية أو ضحاها حتى طبعت هذه الحضارة بطابعهم واستحقوا عن جدارة بما حوروا وابتكروا نسبتها إليهم فقيل الحضارة العربية كما كان يقال حضارة كذا وحضارة كذا ، وحوت لغتهم كل هذا فأحسنت تصويره وأجادت نعته وأصبحت تسمع فيها منذ الصدر الأول فى ميدان الحس ما لم تك تسمع فى حسن أداء وسعة خيال وإن كتب المغازى والفتوح لملأى بالأمثلة والشواهد على ما جد فى هذا الباب وسيأتى شطر منه بعد .

الانقلاب المعنوى

جاء الإسلام والعرب شتى المذاهب مختلفة المشارب لا دين يجمعهم ولا عقيدة تنتظمهم ، فمنهم المشرك عابد الصنم والوثن وماهو إلا حجر ينحته

بيده وينقلب بعبده دون نفع يرجى ولا ضر يخشى . ومنهم الصابئ عابد الكواكب والنجوم لا يرى فى أفولها نقصا ولا فى اختلاف أحوالها طعنا. ومنهم المجوسى عابد النار والشمس يسجد لها فى طلوعها ويقيم بيوت النيران تعظيما لشأنها . ومنهم الدهريون الذين ينكرون البعث والنشور ويقولون « ما هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر » . ومنهم الزنادقة الثنويون الذين يجعلون الصانع اثنين فاعل خير هو النور وفاعل شر هو الظلمة ويقولون إنهما قديمان باقيان . ومنهم عباد الشياطين مخافة شرها وعباد الملائكة رجاء خيرها . ثم منهم اليهود والنصارى ومنهم غير من ذكرنا.

فجاء الإسلام يدعوهم إلى دين واحد أساسه شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت من استطاع إليه سبيلا فبدأ تلك القواعد الخمس بالتوحيد وجعل الجهاد من أجله فرضا وآذنهم أنه يغفر ما يشاء لمن يشاء إلى أن يشرك به قال عز شأنه « إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء » وبذلك وحد بينهم فى العقيدة وجمعهم فى صعيد واحد للعبادة وكان هذا الاتحاد القلبى النعمة الكبرى التى امتن بها عليهم حيث يقول لهم (واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا) .

وجاء الإسلام والعرب أسرى أوهام وخرافات يدينون بالعرافة والكهانة ويعتقدون فى الزجر والعيافة بل فيما هو دون ذلك من سائر الأوابد ، كالصدى والهامة وتعليق الحلى على الملدوغ ليسلم وكى الصحيح ليبرأ الأجرب وضرب الثور لتشرب البقر ووطء المقلات دم الشريف ليعيش ولدها إلى غير ذلك مما قد ران على قلوبهم وغشى أبصارهم فانتزعه الإسلام منهم وانتزعهم منه ، وبذلك خلصت من الأوهام عقولهم وسلمت من التخريف أفكارهم .

وجاء الإسلام والعرب تدين بالعصبية والقوة يفنى كثيرهم قليلهم ويأكل قويهم ضعيفهم، لا يزالون النهب والسلب والابتزاز والغصب تقوم

بينهم الحرب لأوهى سبب ويطول على بقائها فيهم الأمد فتفنى لذلك كبارهم وتنقطع منه ذراريهم وأنسالهم، جاء فكان عليهم راية السلام يستظلون بظلها وآية الوئام يعملون على تأييدها فلا قتال إلا فى نشر دين الله ولا غزو إلا فى إعلاء كلمته، وبذلك تم توحيد كلمتهم وصاروا يدا واحدة على من سواهم فى غير تفاخر بالآباء والأجداد ولا تكاثر بالأموال والأولاد، وكما سوى بينهم فجعل أكرمهم عند الله أتقاهم جعل هذا أساس تفضيلهم على غيرهم فلا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى.

وجاء الإسلام وفى العرب غلظة دونها أكباد الأبل وقسوة أهون منها قسوة الحجارة، يقتلون أولادهم للفاقة ويئدون بناتهم للقالة (وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه فى التراب) فنعى عليهم جفوتهم وشد النكير على فعلتهم إذ اختتم تلك الآية بقوله (ألا ساء ما يحكمون) وقال (وإذا الموءودة سئلت بأى ذنب قتلت) فسلكها مع جسام الحوادث تهويلا لها وتبشيعاً وقال فى موطن آخر (ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم إن قتلهم كان خطئاً كبيراً) ثم أكثر مطالبتهم أن يكونوا أرقاء القلوب رحماء فيما بينهم فكانوا كما أراد وظهر ذلك فيهم ظهور الشمس حتى فى الشخص الواحد من مخضرميهم وآية ذلك عمر رحمة الله، كان فى جاهليته أقسى القساة وفى إسلامه أرحم الرحماء إلا ما أجاب بشدته فيه داعى الدين.

وجاء الإسلام والعرب مضطربة فى معاملتها تأكل الربا الفاحش وتلعب الميسر المدمر وتستقسم على أعمالها بالأنصاب والأزلام فتكف عما أرادت وتقدم على ما كرهت، فأحل البيع وحرم الربا ونهى عن الميسر والاستقسام حيث نهى عن الخمر ونظم لهم معاملتهم فبدل من ظلمهم عدلا ومن فوضاهم نظاما وجعل لهم تشريعاً مدنياً شاملا لم يسبقه مثله ولم يلحقه إلا ما هو منه أو هو دونه وكذلك فعل فى التشريعين الشخصى والجنائى وسائر التشريعات

الأخرى مما لا تزال السمحة تعلو به سائر الشرائع وتمد العالم منه بالبرهان الساطع والنور اللامع الذى لا ينقطع ضوءه ولا يخبو شعاعه والذى لا يزال على مدى الأيام تتكشف أسراره وتتضاعف أنصاره فيعترف به الجاحدون ويرى بعد نظره المتبصرون وإن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون.

هذا طرف مما أتى به الإسلام مغيراً لنفسيات العرب فى عقائدهم وعباداتهم، عاداتهم وأخلاقهم، معاملاتهم ونظم حياتهم، وما كان أسرع ما طبعوا عليه وعملوا به واتخذوه الإمام الذى لا يعصى والقدوة التى لا تنسى، وظهر ذلك فى عامة أحوالهم وأولاها لغتهم، فقد حادوا بها عن القديم إلى الجديد فلم يك فيها للمعبودات السالفة شأن ولا للأوهام والخرافات ذكر إلا ما كان على سبيل الزراية والعيب، كذلك لم تبق ميدانا للتفاخر بالعصبية والدعاء بدعوة الجاهلية، وتحسين ما تقبحه العقول، والاقدام على ما تنفر منه النفوس دون تورع ولاحياء، إنما صار الشأن فيها كل الشأن لإقرار كلمة التوحيد ونشر معالم الدين والعمل على تغذية الأمة بروحه ووقفها على أسراره حتى تستعصم بحبله الذى لا ينقطع وتستمسك بعروته التى لا تنفصم وشتان بين ما كان وبين ما أصبح لذلك كائنا من كلام، فقد هجرت ألفاظ وجدت ألفاظ وماتت معان ونشأت معان وعدل عن أغراض إلى أغراض وما هذا بالمحتاج إلى إيراد الشواهد وضرب الأمثـــال وستأتى فى أبواب النثر والشعر بعد.

« التحدى »

وإذن فقد تغير من العرب بالاسلام حسهم ومعناهم بصرهم وبصيرتهم إن استوحوا الخيال فمن ميدان غير الميدان وإن استلهموا القلب فمن نفس غير النفس ووجدان غير الوجدان، على أن التغير لم يقف عند هذين الانقلابين وقد كانت فيهما الكفاية كل الكفاية بل أمدهم بعامل آخر هو القرآن الكريم فى تمام إعجازه فكان أمامهم المثل الحى وموطن المحاكاة

والتقليد فى كل ما يحاولون من قول ويريدون من كلام .

بهرهم القرآن ببديع أسلوبه ومحكم آياته وتلاؤم فواصله فخروا أمامه ساجدين وطفقوا به يستعينون ومنه يقتبسون فكان المنبع المعين ذا الماء الصافى والقرار المسكين ، ومع تمام عجزهم عن محاكاته ظهر أثره فى كلامهم لفظا وأسلوبا معانى وأغراضا . فأخذ بيد اللغة إلى الذروة التى بلغتها ونهض بها إلى المكانة التى احتلتها وحق للباحثين فى الأدب من أجل ذلك أن ينسبوا إليه كل ما حدث بها من رقى وظهر فيها من قوة وسلطان .

نعم إن للانقلابين السالفين من التأثير فى اللغة ما كنا نجد آثاره لو جاء الكتاب كما جاءت الكتب قبله بلغة لا إعجاز فيها ولا إفحام وإلا سلبنا الأحداث الدينية والسياسة قوتها وطعنا فى نظم العمران والاجتماع ووقفنا إزاء الحوادث تكذب دعوانا وتقوم شاهدة على النقيض منها ولكن القائلين بهذه النسبة لا يقفون من أثر القرآن فى اللغة عند حد الفصاحة والبلاغة فى الألفاظ والأساليب من حيث التعبير عن المعانى والأغراض والمطابقة التامة لمقتضيات الأحوال حتى يكون لما أوردناه آنفا محل للايراد ، إنما يتجاوزون هذا الجانب منه إلى أنه موطن التشريع والتعليم والتقويم والتهذيب وإلى أن هذا الانقلاب المعنوى قد جاء بدعوته وتم على يده فكل ما عرا العرب منه إليه ينتسب ومنه ينشعب لا مبالغة فى هذا ولا مراء — أما ذلكم الانقلاب الحسى فمرجعه إليه آت من تشريعه الجهاد فإن الدعوة المحمدية لم تجئ خاصة بقوم صاحبها كما كانت سوالف الدعوات بل جاءت عامة للناس كافة ، وتقرر لتحقيق هذا التعميم الجهاد وكلف صلى الله عليه وسلم أن يدعو الأمم جمعاء إلى دين ربه فأما أجابوا وسمعوا وإما غزاهم لسعادتهم بالسيف غزوا ، كذلك فعل فى حياته وبه اقتدى خلفاؤه بعد مماته فخرج العرب من جزيرتهم إلى ما أسلفنا من أقاليم ذات مزارع وأنهار ومدن وأمصار شاهدوا فيها ما شاهدوا من كل جديد عليهم وتأثروا بما تأثروا من كل غريب عنهم وبذلك انقلبوا الانقلاب الحسى المذكور . ولولا تشريع الكتاب

للجهاد تشريعاً جعل الموت فيه إلى العرب أحب من الحياة وجعل الخنساء وقد قضت جاهليتها باكية أخاها لأبيها تسجد لله شكراً حين جاءها من القادسية نعى بنيها — أقول لولا ذلك — لما فتح العرب تلك الفتوح ولما خرجوا من جزيرتهم للجهاد ثم للاقامة هذا الخروج . من هنا يكون صدق الدعوى واستقامة الكلام وبهذا أدين ، ومن ثم وجب أن يكون للقرآن دراسة مستفيضة فى صدر الإسلام تشرح ما له باللغة من علاقة وفى شتى نواحيها من تأثير ضامة إلى ذلك على سبيل الإجمال ما قد يعتبر فى ظاهره من غير الموضوع ولكن لا بد منه أن يكون وهذا ما سنجرى عليه إن شاء الله تعالى وهو المستعان .

القرآن الكريم

١ — نزوله

القرآن الكريم هو ذلك الكتاب الذى نزل على محمد صلى الله عليه وسلم عن طريق الوحى إليه من ربه ، نزل به الروح الأمين على قلبه ليكون من المنذرين بلسان عربى مبين ، والوحى لغة مصدر وحيت إليه كأوحيت إذا كلمته بما تخفيه عن غيره فهو إعلام فى خفاء وقد يطلق ويراد منه الموحى به وهو كل ما ألقيته إلى غيرك ليعلمه ولكنه غلب فى الحالين على ما كان بين الله وأنبيائه ومن ثم عرف شرعاً بأنه عرفان يجده النبى فى نفسه مع اليقين بأنه من قبل الله أو بأنه كلام الله تعالى المنزل على أنبيائه .

وليس فى إمكان الوحى خلاف لأن الله جلت قدرته أوجد هذا العالم وحدة متصلة الأجزاء فى مواليده الثلاثة من جماد ونبات وحيوان فترى فى بعض الجماد شيئاً من خواص النبات كالنمو وفى بعض النبات شيئاً من خواص الحيوان كالحس ثم هذا الحيوان لم يزل الرقى فى الحس يطرد فى أنواعه حتى وصل بالإنسان إلى هذا الحد الذى مازه عن جميعها وجعله كأنه جنس آخر ليس منه ، لما ظهر فيه من قوى الشعور والفكر والإرادة التى هى مظاهر العقل وهذه القوة العاقلة التى ميزت الإنسان من سائر الحيوان قد تفاوتت فيه تفاوتا بعيدا لم يك منشؤه اختلاف مراتب التعليم فحسب بل رجع كثير منه إلى أصل الفطرة التى لا كسب للانسان فيها حتى أصبح ما هو نظرى عند شخص بدهياً عند من هو أرقى منه وهكذا لم تزل المراتب تعلو وترتقى حتى اتصلت فى بعضه بما هو فى هذا العالم ألطف من المادة مما نعرفه بالملأ الأعلى أو الوجود اللطيف فشعرت به بصيرته وإن غاب عن بصره ، فنفوس الأنبياء عليهم السلام قد بلغت من نقاء الجوهر فى أصل الفطرة مبلغاً عظيما جعلهم فى الذروة العليا من مراتب الإنسان فأصبحوا

بمحض الفيض الألهى مستعدين لأن يتصلوا بالله فى علاه فترات يوحى إليهم فيها بما يتلقونه من تعاليم يبلغونها ويدعون إلى العمل بها مع تأييدهم بالمعجزة التى تفحم الناس على الأيمان بهذا الاتصال وإن عجزت نفوسهم لقصرها عن فهم كنهه وإدراك كيفه على الوجه الذى بينا :

وللوحى كيفيات ، منها أن يأتى به الملك النبى صلى الله عليه وسلم مسبوقا بمثل صلصلة الجرس صوتا متداركا يسمعه ولا يكاد يثبته أول ما يسمعه ثم يفهمه بعد ، ولعل الحكمة فى هذه الصلصلة أن يفرغ له سمعه فلا يبقى فيه مكانا لغيره ، وهذه الحالة أشد حالات الوحى عليه . قال عبد الله بن عمر . سألت النبى صلى الله عليه وسلم هل تحس بالوحى ؟ فقال « أسمع صلاصل ثم أسكت عند ذلك فما من مرة يوحى إلى إلا ظننت أن نفسى تقبض » . ومنها أن يأتيه فى صورة الرجل فيكلمه كما قال صلى الله عليه وسلم « وأحيانا يتمثل لى الملك رجلا فيكلمنى فأعى ما يقول وهو أهونه على » . وإنما كانت هذه أهون من تلك لأن الاتصال فيها يأتى بانسلاخ الملك عن ملكيته إلى البشرية بعكس الأولى فان الاتصال فيها يجىء من انسلاخ رسول الله عن البشرية إلى الملكية ولذلك كان يفصم عنه فيها فى شدة القر وهو يتفصد عرقا. هاتان هما أغلب حالات الوحى والأولى أكثر من الثانية . وهناك حالان أخريان ، أن ينفث الملك فى روعه الكلام نفثا كما قال صلى الله عليه وسلم « إن روح القدس نفث فى روعى » أو أن يأتيه فى النوم فيكلمه . على أنه يمكن ارجاعهما إلى السابقتين . أما كلام الله سبحانه وتعالى لنبيه فى اليقظة كما فى حديث الاسراء أو فى النوم كما فى بعض الأحاديث الأخرى فالصحيح أنه ليس فى القرآن منه شىء إذ كله نزل على الحالات السابقة بوساطة الملك وإن كان بعضهم عد من الكلام المباشر آخر البقرة من (آمن الرسول) وبعضا من سورتى الضحى والشرح .

هذا وقد نزل القرآن منجما فى بضع وعشرين سنة، ولم يتركنا نبحث عن الحكمة فى تنجيمه فجاءها ظاهرة فى كثير من آيه قال حكاية عن الذين كفروا وإجابة لهم،

(وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة ، كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا) وقال (وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا)

وأول ما نزل من القرآن كان فى شهر رمضان وهو (اقرأ باسم ربك الذى خلق خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم علم الإنسان مالم يعلم) وآخر ما نزل على الصحيح آيات الربا والدين وهما (يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا مابقى من الربا الخ) و(يأيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه الخ) والآية بينهما وهى (واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون) من سورة البقرة . أما القول بأن الآية (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا) ينبغى أن تكون آخر ما أنزل كما هو رأى البعض على أن تكون النعمة القرآن فليس حجة ، إذ المعروف أن هذه الآية نزلت بعرفة عام حجة الوداع حين حج المسلمون البيت وحدهم وكانوا من قبل يخالطهم فى حجه المشركون .

وللقرآن إحصاءات كثيرة من حيث نزوله أهمها المكى والمدنى ، وقد اختلف فيهما ، فقيل المكى ما وقع خطابا لأهل مكة ولو فى المدينة والمدنى ما وقع خطابا لأهل المدينة ولو فى مكة ، ولكن هذا لا يتفق والغرض من بيان المكى والمدنى وهو معرفة السابق من المسبوق والناسخ من المنسوخ ، على أن من القرآن ما نزل بغير هذا الخطاب . وقيل المكى ما نزل بمكة ولو بعد الهجرة ، والمدنى ما نزل بالمدينة ولا يكون طبعاً إلا بعدها ، ولكن هذا ليس شاملا أيضاً لأن من القرآن ما نزل فى غيرهما . والذى عليه المعول أن المكى ما نزل قبل تمام الهجرة ولو فى غير مكة كالذى نزل عليه صلى الله عليه وسلم وهو فى طريقة إلى المدينة مهاجراً ، والمدنى ما نزل بعد تمام الهجرة ولو فى مكة كالذى نزل عام الفتح أو فى حجة الوداع ، وأغلب القرآن نزل بمكة لأن البعثة كانت فيها ولطول ما أقام النبى بها .

ويغلب على معانى الآيات المكية الدعوة إلى التوحيد وذم الشرك وإثبات البعث والترغيب فى الثواب والترهيب من العقاب ووصف الجنة والنار وسائر السمعيات وذكر القصص السالف للأنبياء والآداب العامة اللازمة للحياة ، كما يغلب على ألفاظها شدة الأسر وقوة التبليغ ليشتد بها عضد رسول الله ويقوى جانبه حيث يعز الناصر ويقل المعين . أما الآيات المدنية فقد غلب عليها ذكر الحوادث فى الغزوات لاستخلاص العبر منها ، وتفصيل ما شرع من العبادات والمعاملات للعمل بها ، وبيان ما أصبح يحتاج إليه هذا المجتمع الجديد من النظم الاجتماعية الملائمة فى عبارات تلائم ذلك من السهولة أحياناً والجزالة حيناً .

وفى تمييز المكى من المدنى على الرأى الذى تخيرنا آنفاً خلاف كبير ، غير أن المعتمد عليه أن المدنى عشرون سورة وهى : البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنفال والتوبة والنور والأحزاب والقتـــال والفتح والحجرات والحديد والمجادلة والحشر والممتحنة والجمعة والمنافقون والطلاق والتحريم والنصر ، والمختلف فيه أربع عشرة هى الفاتحة والرعد والحج والرحمن والصف والتغابن والإنسان والتطفيف والقدر والبينة والزلزلة والإخلاص والفلق والناس ، والثمانون الباقية مكية . وإذ نرجح فى المختلف فيه مكية الفاتحة والتطفيف والقدر والإخلاص والفلق والناس ، ومدنية الثمانى الباقيات يكون المكى ستا وثمانين سورة والمدنى ثمانيا وعشرين ، وهو الذى عليه التحقيق فى المصحف المصرى الأميرى الذى تمت مراجعته سنة سبع وثلاثين وثلثمائة بعد الألف . هذا على أن بعض السور فى كل نوع يشتمل على بعض الآى من الآخر ، وكل ذلك تميز معروف ولكن تقع التسمية للسورة بالغالب فيها .

٢ — جمعه وروايته

كانت الآية أو الآيات أو السورة إذا نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم أسمعها الحاضرين من أصحابه ، وإذا لم يك منهم حضور أبلغهم إياها وأعلمهم موضعها فيحفظونها ، وكانوا يتشوفون مثله إلى الوحى تشوف الظمآن إلى زلال الماء ، فكان كل ماينزل دائم الحفظ فى جمهرتهم ، غير أن جلهم كان يحفظ ولا يقرئ ، وأشهر مقرئيهم سبعة هم عثمان وعلى وزيد بن ثابت وأبى ابن كعب وعبد الله بن مسعود وأبو الدرداء وأبوموسى الأشعرى ، ولم يك يقتصر رسول الله فى المحافظة على القرآن على حفظ الحفاظ بل كان يطلب إلى كتاب وحيه وأشهرهم عثمان وعلى وزيد بن ثابت وأبى بن كعب أن يكتبوا ما نزل فى العسب واللخاف والعظام والرقاع ، فكان القرآن فى عهده مكتوبا فى هذه الأشياء كما هو محفوظ فى الصدور مرتب الآى ، غير أن تلك الأشياء لم تك مجموعة بعضها مع بعض بل كانت مفرقة عند أصحابه حين لحق بالرفيق الأعلى .

ولم تزل الحال كذلك حتى كانت حروب الردة واستحر القتل فى واقعة اليمامة بالقراء فقتل منهم نحو السبعين وخشى عمر أن يستحر بهم فى سائر المواطن فيذهب كثير من القرآن ، فأهاب بأبى بكر أن يأمر بجمعه فاستدعى رضى الله عنه زيد بن ثابت فقال له على ما حدث زيد عن نفسه : « إنك رجل شاب عاقل لا نتهمك وقد كنت تكتب الوحى لرسول الله فتتبع القرآن فاجمعه ، قال زيد فو الله لو كلفونى نقل جبل من الجبال ما كان أثقل على مما أمرنى به من جمع القرآن ثم قال فتتبعت القرآن أجمعه من العسب واللخاف والعظام والرقاع وصدور الرجال حتى وجدت آخر سورة التوبة مع أبى خزيمة الأنصارى لم أجدها مع غيره » يقصد (لقد جاءكم رسول من أنفسكم) إلى آخر السورة ، فكانت تلك الصحف عند أبى بكر حتى قبض ثم عند عمر حياته ثم عند حفصة بنت عمر أم المؤمنين إلى ان طلبها منها عثمان رحمه الله

للجمع الثانى أو الثالث إن سمينا ماحدث فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم جمعا على غير المشهور من عدم تسميته بالجمع لأنه لم يعد الكتابة إلى جمع الصحف بعضها مع بعض كما كان فى جمع أبى بكر وقد تقدم ، وفى جمع عثمان وهاهو ذا :

تقدم أن حفظة الصحابة للقرآن فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم كانوا كثيرين وأن أشهر مقرئيهم سبعة ذكرنا أسماءهم فمن هؤلاء السبعة أخذ التابعون وهم كثيرون جداوعن التابعين أخذ الجم الغفير من المسلمين فامتلأت بالقراء على عهد عثمان الأمصار وأفضى ذلك إلى انفراج مسافة الخلف فى رواية الكتاب وحدث أن تنبه لذلك حذيفة بن اليمان وهو يغازى أهل الشام فى فتح أرمينية وأذربيجان مع أهل العراق فأفزعه هذا الخلاف ولم يكد يعود من غزوه حتى أسرع إلى عثمان يقول له : أدرك الأمة قبل أن يختلفوا اختلاف اليهود والنصارى ، فأرسل عثمان إلى حفصة أن أرسلى إلينا الصحف ننسخها فى المصاحف ثم نردها إليك فأرسلت بها إليه فأمر زيد بن ثابت الأنصارى وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن ابن الحارث بن هشام القرشيين أن ينسخوها فى المصاحف ، وكان مما قاله للقرشيين إذا اختلفتم أنتم وزيد فى رسم شىء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش فإنه إنما أنزل بلسانهم ، ففعلوا وكان ذلك فى خمسة مصاحف على المشهور بعث بأربعة منها إلى مكة والكوفة والبصرة والشام وأبقى عنده بالمدينة خامسها ، وقيل كانت ستة على أن ما أبقاه لنفسه كان له خاصة غير مصحف المدينة ثم أمر بكل ما عدا ذلك أن يحرق ورد الصحف القديمة إلى حفصة كما قال وعرف مصحفه بمصحف عثمان أو بالمصحف الأمام .

من ذلك يتبين أن الغرض مما سمى جمعا فى عهد رسول الله على غير المشهور كما تقدم كان ترتيب الآى فى سورها ، ومن جمع أبى بكر كان المحافظه على القرآن أن يضيع بعضه بذهاب القراء ومن جمع عثمان كان توحيد الرسم لكيلا ينشأ عن الخلاف فيه تعدد القراءات . وإذن ترتيب الآى فى سورها توقيفى بعمل رسول الله صلى الله عليه وسلم من غير ما خلاف . أما ترتيب

السور فقيل كان بتوقيف منه أيضاً عرفه من معارضة جبريل له فيما كان ينزل كل عام وفى القرآن كله مرتين بعد تمام نزوله فى السنة الأخيرة . وقيل كان باجتهاد الصحابة بدليل اختلافهم فى هذا الترتيب ، فقد كان مصحف علىّ مرتب السور على حسب النزول وكانت مصاحف غيره على الترتيب المعروف مع بعض خلاف بينهم فيه كمصحف أبى بن كعب وعبد الله ابن مسعود ولا يتفق هذا مع التوقيف وهذا هو الأرجح ، ولا اعتداد بما يقوله ذوو الرأى الأول من أن الترتيب لو وقع بالاجتهاد لتوالت التسابيح وذوات الألف واللام والميم كما توالت الحواميم ، ولما فصل بين طسم الشعراء وطسم القصص بالنمل ولا بين ذوات الألف واللام والراء بالرعد ، إذ لا يبعد أن يكون الصحابة قد استأنسوا بشىء فى اجتهادهم عن رسول الله غير التوقيف حملهم على مخالفة الظاهر فيما سلف مما لم يك يقضى به مطلق الاجتهاد ، كما لا يبعد أن تكون المعارضة وإن وقعت لمراجعة الترتيب فى آى السور لا السور نفسها قد وقعت فى بعض السور مجتمعة على الترتيب المعروف .

وبعد فإذا كان المصحف الأمام قد ضبط الرسم على عهد عثمان كيلا تتسع مسافة الخلف بين القراء فمن أين تعددت القراءات وحدث فيها من التنوع الشىء الكثير ، والجواب عن هذا أن تعدد القراءة لم يك مرجعه اختلاف الرسم وحده بل كثيره يرجع إلى اختلاف العرب فى لهجاتها وفى نظرها إلى إعمال بعض الأدوات أو إهمالها وبخاصة إذ لم يأت القرآن كله بلغة قريش بل أتى فيه ما ليس بالقليل من غيرها وبذلك كان يقرأ رسول الله ويقرىء صحابته . هذا على أن بعض الاختلاف فى القراءة كان مرجعه رسم المصحف الأمام نفسه لأن الخط العربى لأول الإسلام لم يك بالغاً حد التوسط بله الاتقان كما قال بذلك فى مقدمته ابن خلدون حيث حكم هذا الحكم ثم قال « وانظر ما وقع لأجل ذلك فى رسم المصحف حيث رسمه الصحابة بخطوطهم وكانت غير مستحكمة فى الإجادة فخالف الكثير من رسومهم

ما اقتضته رسوم صناعة الخط عند أهلها واقتفى التابعون من السلف رسمهم فيه تبركا بما رسمه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم خير الخلق من بعده المتلقون لوحيه من كتاب الله وكلامه ، فهذا مع خلو الكتابة من الأعجام والشكل إذ ذاك ومع ما تقدم من اختلاف لهجات العرب قد فتح أمام القراء أبوابا واسعة للخلاف جرياً وراء التجويز والتأويل ، فلم تكد تتم المائتان حتى تجاوز الحصر عدد القراء ولكن الناس مع هذا التجاوز كانوا على قراءة سبعة مشهورين على ترتيب سنى وفياتهم وهم :

١ — عبد الله بن عامر المتوفى سنة ١١٨ بالشام وأشهر رواته أبو الوليد هشام بن عمار وأبو عمرو عبد الله بن ذكوان .

٢ — أبو معبد عبد الله بن كثير المتوفى سنة ١٢٠ بمكة وأشهر رواته البزى أبو الحسن أحمد بن محمد وقنبل أبو عمر محمد .

٣ — أبو بكر عاصم بن أبى النجود المتوفى سنة ١٢٧ بالكوفة وأشهر رواته أبو بكر شعبة بن عياش وأبو عمر حفص بن سليمان .

٤ — أبو عمرو بن العلاء المتوفى سنة ١٥٤ بالبصرة وأشهر رواته الدروى أبو عمرو حفص بن عمر والسوسى أبو شعيب صالح بن زياد .

٥ — نافع بن نعيم المتوفى سنة ١٦٩ بالمدينة وأشهر رواته قالون أبو موسى عيسى بن مينا وورش أبو سعيد عثمان بن سعيد .

٦ — أبو الحسن على بن حمزة الكسائى المتوفى سنة ١٨٩ بالبصرة وأشهر رواته أبو الحارث الليث بن خالد والدروى المذكور فى رواة أبى عمرو ابن العلاء .

٧ — أبو عمارة حمزة بن حبيب المتوفى سنة ٢١٦ وأشهر رواته أبو محمد خلف بن هشام وأبو عيسى خلاد بن خالد .

فهؤلاء السبعة هم الذين اشتهروا بالأخذ عنهم أصلا ثم جاء القراء الثلاثة بعد هؤلاء فكانت القراءات عشرا وهم :

١ — أبو محمد يعقوب بن اسحق الحضرمى المتوفى سنة ٢٢٥ بالبصرة

وأشهر رواته رويس محمد بن المتوكل وروح بن عبد المؤمن .

٢ — أبو محمد خلف بن هشام المذكور فى رواة حمزة المتوفى سنة ٢٢٩ بالكوفة وأشهر رواته اسحق الوراق وإدريس الحداد .

٣ — أبو جعفر يزيد بن القعقاع المخزومى المتوفى سنة ٢٣٠ بالمدينة وأشهر رواته ابن وردان وابن جماز .

ثم عرفت القراءات الأربع لمحمد بن محيصن المكى والأعمش الكوفى والحسن البصرى ويحيى اليزيدى ، فكانت القراءات أربع عشرة ، والمشهور أن السبع متواترة والثلاث آحاد والأربع شاذة ، ولكن هذا الحكم باعتبار الأغلب فيها ، إذ القراءة تنقسم إلى صحيحة لا يجوز ردها ولا يحل إنكارها ويجب على الناس قبولها وهى ما صح سندها ووافقت العربية ووافقت رسم المصحف الأمام وتسمى المتواترة أو المشهورة سواء أكانت عن الأئمة السبعة أم عن غيرهم ، ومتى اختل ركن من هذه الأركان الثلاثة أطلق عليها ضعيفة أو شاذة أو باطلة ، فالضعيفة ما صح سندها وخالفت الرسم أو العربية وتسمى الآحاد ، والشاذة ما لم يصح سندها ووافقت الرسم والعربية . أما الباطلة فهى ما زيدت فى القراءة على وجه التفسير كقراءة سعد ابن أبى وقاص « وله أخ أو أخت من أم » بزيادة « من أم » خلافا للمعروف .

بقى أن نذكر شيئا عن معنى قوله صلى الله عليه (أنزل القرآن على سبعة أحرف) وهو حديث متواتر لا مطعن فيه . فبعضهم يفسر الأحرف باللغات ويقول إن القرآن وإن نزل معظمه بلغة قويش قد جاء فيه ما ليس بالقليل من لغات غيرها وإن هذه اللغات لا تجاوز ست قبائل هى كنانة وأسد وهذيل وضبة من إلياس ، وبنو سعد وثقيف من قيس وكل هذه مضرية . وبعضهم لا يحصر اللغات النازل بها القرآن فى سبع ويقول إن المراد بالأحرف ما تختلف فيه تلك اللغات وإن وجوه الاختلاف لا تعدو سبعة أشياء هى الابدال والتقديم أو التأخير والزيادة أو النقصان وعلامات الإعراب وحركات البناء والتفخيم والأمالة ؛ وكلها واردة فى القرآن .

وبعضهم يقول إن المراد بالأحرف وجوه القراءات التى تتقلب على الكلمة الواحدة فإنها لم تتجاوز على كثرة ماعرف بعد حصر وجوه القراءات فى أية كلمة سبعة تغيرات . وكل هذه الأقوال مبينة على تفسير معنى الأحرف من جهة الألفاظ . وهناك من يفسرها من ناحية المعانى ويذكر لذلك سبعة أشياء لا تخرج عن دائرتها مرامى القرآن على خلاف فى عد هذه الأشياء ثم يرجح هذه الناحية ويبين الأغراض السبعة بحديث آخر تنتهى روايته إلى ابن مسعود عن النبى صلى الله عليه وسلم وهو (نزل القرآن من سبعة أبواب على سبعة أحرف ، زاجر وآمر وحلال وحرام ومحكم ومتشابه وأمثال ، فأحلوا حلاله وحرموا حرامه وافعلوا ما أمرتم به وانتهوا عما نهيتم عنه واعتبروا بأمثاله واعملوا بمحكمه وآمنوا بمتشابهه وقولوا آمنا به كل من عند ربنا) ولكن هذا ليس نصا إذ يجوز أن هذا التفسير للأبواب لا للأحرف . على أن فريقا ثالثا قال إن الحديث من المشكل الذى لا يتعين معناه لاشتراك الحرف فى معان كثيرة منها ما ذكرنا ومنها غيره مما لا يبعد معه التأويل والله ورسوله أعلم بالمراد .

٣ — إعجـــازه

بعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم يحمل إلى العرب فى غير مواربة دعوتهم إلى الخروج من دينهم والاقلاع عن كثير من عاداتهم وصفاتهم خروجا يتجردون به عما كان يعبد آباؤهم ويغيرون من أجله صفات الأشياء الواقعة بين أيديهم فيحلون كثيراً مما كان حراما ويحرمون أكثر منه كان طلقا حلالا ثم شاء أن تكون معجزته إليهم وفق ما كان للأنبياء قبل فى الباب الذى يعرفون لأنفسهم فيه نبوغا ويدينون بأن لهم على ولوجه قوة واقتدارا وهو باب الإعراب والبيان . فقد عرف ذلك منهم ولهم منذ القدم ولم يزالوا يذهبون فيه قدما ويرقون به صعدا حتى جاء الإسلام وقد

بلغوا فيه المبلغ الذى لا يدانى وعلوا فى الفصاحة والبلاغة علواً كبيراً ؛ فعقدت لذلك أسواقهم وزخرت به مجامعهم وأنديتهم .

شاء ذلك فأنزل إليه كتابه بأسلوب راعهم وبيان بهرهم يدعوهم إن صدقوا إلى الخروج عما هو لهم كما بينا آنفا وإنه لعسير على النفس وهى بنت الوراثة والعادة أن تترك ما كان عليه الآباء والأجداد وتخلص من عادات اختلطت فيها بالدماء واللحوم فان أبوا إلا طغياناً وكفراً وتكذيباً لمحمد فيما قال إنه من عند ربه وبهتا ، كان لهم أن يقروا على ما ورثوا وعلى محمد أن يقبع فى داره تاركا ما ادعى ولكن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن أو شىء من مثله إن كانوا صادقين .

تحداهم الكتاب هذا التحدى وأخذ يتنزل فى المقدار الذى يتحداهم به من القرآن كله إلى عشر سور إلى سورة واحدة إلى آيات يسيرة فى عبارة قارصة وسخرية لاذعة وهم ذوو الأنفة والحمية والغضبة الجائحة المضرية ، واضعاً هذا الأتيان فى كفة والإلقاء إلى محمد بالسلام فى أخرى وما كان محمد بذى العشيرة المدافعة ولا الكثرة الرائعة فان عشيرته الأدنين كانوا عليه لا له صامدين ضده لا معه وهو ذلك الرجل الذى نشأ يتيما فقيراً لا يملك من حطام هذه الدنيا شيئا ولا من جاهها كثيراً ولا قليلا سوى ماهيأه له المولى جل شأنه من استكمال صفات النبوة وتوافر ماتحتاج إليه هذه الدعوة فتركوا الأتيان بشىء من مثل هذا القرآن ، وهم فرسان الفصاحة ، ورجال البلاغة وحملة لواء البيان . وفضلوا أن يبوءوا مخذولين مقهورين تاركين حميتهم وأنفتهم ينالها ما لم يك ينالها من خزى وعار ، ومسلمين أنصارهم وشيعهم يتسللون إلى محمد لواذاً مؤمنين فما ذلك وعن أى شىء يكون ؟ إنه للدليل الناصع والبرهان القاطع على أن أولئك القوم قد عجزوا حقاً عن التكلم بمثل هذا القرآن ولو قدروا لتكلموا ولقارعوا محمداً بالحجة وألحموا حتى تسقط دعواه فى يده وتقع نبوته صرعى لا ترى لها من مقيل .

على أن محمداً هذا لم تكد تتجمع حوله الأنصار والأتباع ويحس بشيء من القوة المادية والمتاع حتى انتقل فى سبيل الهداية من الدعوة باللسان إلى الدعوة بالسنان فشن عليهم الغارات تلو الغارات لا يزال يغاديهم بها ويراوحهم وهو فى كل ذلك يتحداهم فلم يك منهم إزاء هذا الموقف الجديد فى خشونته ، وشدة وطأته عليهم وقوته ، إلا ركوبه أيضا كما يركب المضطر صعاب الأمور ويقبل المرغم عجزاً ماتعافه النفوس ؛ ثم لم يزل يعمل فيهم السيف وهم كارهون ويقتل منهم الصناديد وهم راغمون ويحتل عليهم الديار وهم وادعون طيلة من الزمن كافية لإحراج الصدور وإخراج ما عسى أن يكون قد بقى فى الكنانة من سهام ، فلم يجيبوا هذا التحدى على كثرة ما أحرجوا ولم ينثروا من كنانتهم غير ما نثروا وبذا حقت عليهم كلمة الإعجاز وكان الذين آمنوا بها أضعاف من آمنوا بالسيف والقتال وصح لكل إنسان أن يسوق ما قدمنا دليلا عقليا على الإعجاز يخص به العرب أولا وسائر الناس ثانيا دون حاجة إلى التعرض للوجوه الفنية للاعجاز ، ولا إلى شرط الوقوف على العلوم البلاغية فيمن يساق إليهم هذا الدليل .

حدث الجاحظ فى هذا الموضوع قال .

بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم أكثر ما كانت العرب شاعراً وخطيباً وأحكم ما كانت لغة وأشد ما كانت عدة ، فدعا أقصاها وأدناها إلى توحيد الله وتصديق رسالته . دعاهم بالحجة فلما قطع العذر وأزال الشبهة وصار الذى يمنعهم من الاقرار الهوى والحمية دون الجهل والحيرة حملهم على حظهم بالسيف فنصب لهم الحرب ونصبوا له وقتل من عليتهم وأعمامهم وبنى أعمامهم وهو فى ذلك يحتج عليهم بالقرآن ويدعوهم صباحا ومساء إلى أن يعارضوه إن كان كاذبا بسورة واحدة ، فكلما ازداد تحديا لهم بها وتقريعا لعجزهم عنها تكشف من نقصهم ما كان مستوراً وظهر منه ما كان خفيا فحين لم يجدوا حيلة ولا حجة قالوا له أنت تعرف من أخبار الأمم ما لا نعرف فلذلك يمكنك ما لا يمكننا قال فهاتوها مفتريات فلم يرم

ذاك خطيب ولا طمع فيه شاعر ولو طمع فيه لتكلفه ولو تكلفه لظهر ذلك ولو ظهر لوجد من يستجيده ويحامى عليه ويكابر فيه ويزعم أنه قد عارض وقابل وناقض . فدل ذلك العاقل على عجز القوم مع كثرة كلامهم واستجابة لغتهم وسهولة ذلك عليهم وكثرة شعرائهم وكثرة من هجاه منهم وعارض شعراء أصحابه وخطباء أمته ، لأن سورة واحدة أو آيات يسيرة كانت أنقض لقوله وأفسد لأمره وأبلغ فى تكذيبه وأسرع فى تفريق أتباعه من بذل النفوس والخروج من الأوطان وإنفاق الأموال وهذا من جليل التدبير الذى لا يخفى على من هو دون قريش والعرب فى الرأى والعقل بطبقات ولهم القصيد العجيب والرجز الفاخر والخطب الطوال البليغة والقصار الموجزة ولهم الأسجاع والمزدوج واللفظ المنثور . ثم تحدى به أقصاهم بعد أن ظهر عجز أدناهم . فمحال أكرمك الله أن يجتمع هؤلاء كلهم على الغلط فى الأمر الظاهر والخطأ المكشوف البين مع التقريع بالنقص والتوقيف على العجز ، وهم أشد الخلق أنفة وأكثرهم مفاخرة والكلام سيد عملهم وقد احتاجوا إليه والحاجة تبعث على الحيلة فى الأمر الغامض فكيف بالظاهر الجليل المنفعة ، وكما أنه محال أن يطيقوه ثلاثا وعشرين سنة على الغلط فى الأمر الجليل المنفعة فكذلك محال أن يتركوه وهم يعرفونه ويجدون السبيل إليه وهم يبذلون أكثر منه .

هذا ما قاله إمام المترسلين وزعيم البيانيين أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ فى الاستدلال على أن عجز العرب عن مجاراة الكتاب كان حقاً واقعاً نقله إلينا التواتر الصحيح الذى لا يتطرق إليه الشك ولا التأويل . وقد رأيت إثباته هنا عقب ما قدمت عن هذا العجز من الناحية العقلية إدعاماً له وأنه الحجة البالغة والبينة القاطعة لمن لم يرد الدخول فى تفاصيل الإعجاز وبيان الوجوه التى اعتورها فى شأنه العلماء عيا منه عنها أو عجزاً من السامع فى فهمها ليكون هذا بمثابة مقدمة للاعجاز قبل الخوض فى هذى الوجوه .

وجوه الإعجـــاز

١ — ليس بين العلماء خلاف فى أن العرب عجزوا أمام تحدى القرآن إياهم فلم يأتوا بشىء من مثله ولكن منهم من لم ينسب هذا العجز إلى ضعف فيهم أقعدهم عن المحاكاة ولا إلى قوة بلاغية فى القرآن وقفوا أمامها خاسئين ، وإنما نسبه إلى أن الله سبحانه وتعالى صرفهم مع قدرتهم أن يحاكوه صرفا وهذا هو القول بالصرفة المنسوب إلى النظام زعماً منه أن ذلك أدل على تأييد الله لرسوله لأن إعجاز القادر أقوى دلالة على هذا التأييد ممن عجزه حق ولقصور فيه ، ولكن ذلك قول ظاهر الفساد واضح البطلان لم يقل به غير صاحبه ، ولولا أنه النظام أحد شيوخ المعتزلة وأستاذ الجاحظ ، وإن كان الجاحظ لم يرتض منه هذا القول على ما ذكرنا ، ما تعرض لنقده أحد من الباحثين ، وهذى أدلة الفساد إن كان فى حاجة إلى تدليل .

أولا : — لو كان عجز العرب بالصرفة ولم يكن القرآن نفسه معجزاً لخلا من كل فضيلة له على غيره من الكلام ، ولصدر عن كثير من العرب عجب ودهش من تلك القوة الخفية التى تحول بينهم وبين أن يقولوا ولا تزال فى صدورهم أفئدة لم تزلزل وفى أفواههم ألسنة لم تعقد ، فما بال ذلك لم يصدر وما بالهم كان الظاهر عليهم ، وهم نقدة الكلام ، وصيارفة القول العجب العاجب من فصاحة القرآن ، والدهشة الآخذة من بلاغته ، حتى كان الكثير منهم على عناده وكفرانه يسجد لفصاحته وبيانه وقد أثر فى ذلك الكثير وله أسلم الجم الغفير . روى أن أعرابياً سمع قوله تعالى « فلما استيأسوا منه خلصوا نجيا » فقال أشهد أن مخلوقاً لا يقدر على مثل هذا الكلام . وروى أن آخر سمع قارئاً يقرأ (فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين) فسجد وقال سجدت لفصاحته ، وهذا عمر على قسوته وشدته قبل إسلامه دخل على أخته وزوجها وهما يقرآن سورة طه فرق قلبه لما سمع وأتى النبى صلى الله عليه

وسلم فأسلم من ساعته ، وإنا لنسوق هنا حديث الوليد بن المغيرة وقد سمع من النبى عليه الصلاة والسلام (إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون) فرق قلبه لهذا البيان وعلمت بذلك قريش وهو فيهم من هو فأتاه أبو جهل فقال له يا عم إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالا ليعطوكه كيلا تأتى محمداً تعرض لما يقول فقال قد علمت قريش أنى من أكثرها مالا قال فقل فيه قولا يبلغ قومك أنك كاره له فقال ، وماذا أقول فوالله ما فيكم رجل أعلم بالشعر منى ولا برجزه ولا بقصيده ولا بأشعار الجن والله ما يشبه الذى يقول شيئاً من هذا ، ووالله إن لقوله الذى يقول لحلاوة وإن عليه لطلاوة وإنه لمثمر أعلاه مغدق أسفله وإنه ليعلو ولا يعلى عليه وإنه ليحطم ما تحته ، قال لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه قال فدعنى حتى أفكر فلما فكر قال (هذا سحر يأثره عن غيره) ذلك ماقال الوليد بن المغيرة ذو المال والولد والقوة والعدد وأحد رجلى القريتين اللذين تمنت قريش أن لو كان القرآن نزل على أحدهما كما حدث الله عنهم بقوله (وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم أهم يقسمون رحمة ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا ورحمة ربك خير مما يجمعون) فهو رجل مكة ورجل الطائف عروة بن مسعود ، نعم ذلك ما قال بعد تفكير وتقدير وإصرار على ما به من جحد وعناد وهو يدل على ما لم يقدر على إخفائه فقد صرح فى حديثه أن القرآن لا يشبه شيئاً مما يقولون ووصفه بما وصفه ، مما دل على هذه المغايرة وأخيراً كان حكمه عليه قوله فيه (هذا سحر يأثره عن غيره) فجاء ذلك الحكم حاملا فى ثناياه أن بالقرآن قوة خارقة تنظر قريش إليها نظرتها إلى السحر وكفى بهذا من المعاندين إذعاناً وتسليما . وما دمنا قد سقنا هذا الحديث من عدو طاغ شهادة منه على الأعجاز ، والفضل ما شهدت به الأعداء ، فلنسق تصوير القرآن لهذا الحادث شاهداً آخر فى الموضوع إياه فقد جاء قصصه ، رائعاً

معجزا قال سبحانه لنبيه وقد ساءه صلى الله عليه وسلم صد قريش للوليد أن يسلم واستسلام الوليد لها فى رميه القرآن بالسحر ، قال يؤسيه ويصبره ويهدد هذا المفتون ويزجره « ذرنى ومن خلقت وحيداً وجعلت له مالا ممدودا وبنين شهودا ومهدت له تمهيدا ثم يطمع أن أزيد . كلا . إنه كان لآياتنا عنيدا سأرهقه صعودا إنه فكر وقدر فقتل كيف قدر ثم قتل كيف قدر ثم نظر ثم عبس وبسر ثم أدبر واستكبر فقال إن هذا إلا سحر يؤثر إن هذا إلا قول البشر سأصليه سقر وما أدراك ما سقر لا تبقى ولا تذر لواحة للبشر عليها تسعة عشر ، فهذه الآيات قد صورت الحادث تصويرا شمل أطرافه فى بلاغة وقوة أداء ، من بيان مكانة الوليد ، ومقدار ما شمله لذلك من غرور جعله يقول ما يقول ، وأن ذلك لم يغنه شيئاً فيما أراد الله له من سعير .

وثانياً لو كان إعجاز القرآن بالصرفة كما يقول النظام وليس ذلك لفضيلة فيه لزالت الصرفة بزوال زمن التحدى ولأصبح فى مكنة الفصحاء والبلغاء أن يقولوا مثله لخلوه فى ذاته من صفة الإعجاز ولكن شيئاً من ذلك لم يكن ولن يكون ، فقد تبارى بعد ذلك فرسان الكلام وأتى رجال النثر بغاية ما فى طوقهم من بيان ومع هذا بقى بينهم وبين ما جاء به القرآن البون الشاسع والمدى البعيد على ما أمدهم به من هدى وأنالهم إياه من رشاد فتأيد بهذا ما كان من إجماع الصدر الأول على أن معجزة الرسول العظمى باقية ما بقى الزمان وأن لا معجزة له باقية سوى هذا القرآن ثم كان ما كان من تدوين علوم الفصاحة والبلاغة وتعبيد الطريق إليهما لكل طالب لها راغب فيهما ، ولكن بدلا من أن يعين ما وضع لها من قواعد وفصل من فصول ، رجال الكلام إلى أن يشبهوا فيما يقولون شيئا من القرآن أراهم الشقة بعيدة عنهم والمحاولة مستحيلة عليهم ، لما تكشفت عنه تلك القواعد من مزايا القرآن التى لا تحصى وفضائله التى لا تستقصى حتى لقد عمد إمام المؤلفين ورئيس البلغاء والمتكلمين عبد القاهر الجرجانى إلى تسمية ما ألفه فى هذا الباب « دلائل الإعجاز » وليس بعد إقرار مثله

إقرار ولا ينبئك مثل خبير وإنما يعرف الفضل من الناس ذووه .

٢ — ومن العلماء من قال إن التحدى جاء فى كلام الله القديم القائم بنفسه وهو إحدى صفاته العشرين ومن ثم وقع العجز لأنه محال أن يتهيأ للبشر فى صفة من هذه الصفات ما لله جل شأنه فيها ، وليس هذا بأقل غرابة من القول بالصرفة إن لم يكن أغرب منه ، فإن الكلام القديم قبل صوغه فى هذه الصورة التى بلغ بها لا مثل له ولا وقوف للعرب على كنهه فكيف يتحداهم إلى شىء غير معروف لهم والتكليف بغير المعروف لا تسيغه العقول ولا تقبله الأفهام ، فإن قيل إن المراد تحديهم بما تضمنته هذه الصورة بعد تبليغها ، قلنا إذن الإعجاز فى المعانى لا الألفاظ وإذن تكون سائر الكتب المنزلة معجزة كالتوراة والإنجيل لأنها صور معبرة عن كلام الله القديم وما قال بذلك إنسان ولا ذكرت تلك الكتب عن نفسها شيئا من هذا كما ذكر وردد القرآن ، على أن فى القرآن نفسه ما يفهم أن التحدى كان يطلب إلى العرب الأتيان بمثل هذه الصورة اللفظية فى نظمها وتأليفها دون النظر إلى معانيها ، فإنهم حين قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم كما حدث الجاحظ آنفاً أنت تعرف من أخبار الأمم ما لا نعرف فلذلك يمكنك ما لا يمكننا ورموه بافتراء الكتاب على الله قال لهم فهاتوها مفتريات كما هى الآية « أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين فإن لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله وأن لا إله إلا هو فهل أنتم مسلمون » ومع هذا لم يرم ذلك منهم خطيب ولا طمع فيه شاعر كما أسلفنا وفى ذلك دلالة كافية على أن القرآن أعجز بنظمه البديع وتأليفه العجيب الذى أنتج البيان الرائع وأتى بالسحر الحلال .

٣ — وذهب فريق من العلماء إلى أن القرآن أعجز بما تضمنه من التنبؤ بالغيوب والكشف عما فى الضمائر مصيبا فى ذلك كله الإصابة جميعها ، وبما اشتمل عليه من القصص الحق لسير الأولين وأخبار الماضين مما لا يقف على مثله عالم بالسير دارس للآثار ، ولكن ذلك لا ينهض وحده دليلا على

الأعجاز لأنهم إن كانوا يريدون منه أن العرب عجزت عنه لعدم قدرتها على أن تتنبأ صادقة ولاستحالة وقوفها على مثل ما جاء به قصص القرآن ، لخروج التنبؤ عن طوق البشر ولأنها من حيث القصص لم تك على علم بالسير ولم تسلك لها سبيل التحصيل فإنا لا نرتضى ذلك أيضاً دليلا على الإعجاز الذى يجب أن يكون للقرآن وإلا كان ما ورد فى الكتب المنزلة قبله مخبراً عن غيب أو قاصا لقصص وما أكثر هذا الأخير فيها معجزاً كذلك وقد سبق أن هذا لم تذكره تلك الكتب عن نفسها مثل ما ذكر القرآن وأنه لم يقل به إنسان ، كما سبق أن رسول الله حين قالوا له أنت تعرف من أخبار الأمم ما لا نعرف ورموه بالافتراء قال فهاتوها مفتريات وتحداهم بذلك القرآن فما أقدموا ولا حاولوا ، بل كان ما ورد فى القرآن نفسه بعيداً عن التنبؤ والقصص وهو معظمه فاقداً صفة الإعجاز وفى مقدور العرب أن يحاكوه مع أن الإعجاز ثابت لكل كم منه تحقق فيه القدر الذى تنازل إليه التحدى من السورة القصيرة أو الآيات اليسيرة كما هو منطوق الكتاب وعليه يكاد ينعقد الاجماع .

أما إذا أرادوا أن محمداً وهو بشر لا يمكن أن يكون مصدر هذه الغيوب كما لا يمكن وهو أمى لا يقرأ ولا يكتب أن يكون جعبة هذه الأخبار وخاصة إذ لم يعرف عنه فى الحال الأولى سحر ولا كهانة ولا فى الثانية اتصال بمن كانوا على بعض العلم بهذه الآثار ، وأنه وهذا شأنه لابد أن يكون صادقاً فى نسبته هذين إلى الله الذى هو وحده المستأثر بعلم الغيوب ودون غيره الملم بتواريخ الأولين وبذلك تثبت نبوته وينسحب الصدق إلى سائر النواحى من القرآن ، نقول أما إذا أرادوا هذا ، فانا لا نقبله دليلا على الإعجاز أيضاً بالمعنى المراد لأنه يفتهى بنا إلى ما انتهى إليه الأمر الأول إذ كل ما بينهما من فارق أنا اتخذنا فى الأول عجز العرب وفى الثانى عجز محمد كليهما دليلا ، على أن بعض الكتاب يحتم عن طريق معناه أنه من عند الله وبذلك تثبت نبوة محمد ويتناول الصدق سائر الكتاب ، ولكنا لا زلنا على

هذا وعلى ذاك بعيدين عن إثبات الأعجاز للقرآن إنباتا ينال جميعه بالذات لا بعضه بالنظر إلى معناه ثم يأتى على سائره كما تقدم بطريق الاستنباط .

إلى هنا انتهينا من ذكر الوجوه الثلاثة التى لم نرتضها دليلا على الأعجاز ومنه يتضح أن الأولين مرفوضان جملة وتفصيلا أما الثالث فمع عدم نهوضه وحده دليلا على إعجاز الآيات لذات الآيات صالح أن يساق حجة للغرض من الأعجاز على النحو الذى بيناه ولهذا لا يفوتنا أن نذكر شيئا عن القصص والنبوءات . أما القصص فمن أهم مظاهر القرآن وهو الكثير الغالب فيه فلندع التمثيل له الآن اعتمادا على هذا الظهور ولنكتف هنا ببعض ما ورد فيه من الآيات المفهمة استحالته على رسول الله إن لم يكن من عند الله والموضحة مدخله إلى الأعجاز ، قال الله تعالى « وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذا لارتاب المبطلون » وقال « وما كنت بجانب الغربى إذ قضينا إلى موسى الأمر وما كنت من الشاهدين » وقال أيضا « وما كنت بجانب الطور إذ نادينا ولكن رحمة من ربك لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يهتدون » وقال والقول فى هذا الباب كثير « تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا » .

وأما النبوءات فعلى قلتها فى القرآن أدل من القصص على الغرض من الأعجاز وهذا شطر منها حيث لا عودة إليها فيما سيأتى من كلام . قال الله تعالى (ألم غلبت الروم فى أدنى الأرض وهم من غلبهم سيغلبون فى بضع سنين) وقد غلبوا فى هذا البضع وقال (لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رءوسكم ومقصرين لا تخافون) فدخلوا كما قال ، وقال فى قصة بدر (سيهزم الجمع ويولون الدبر) كما قال فيها (وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم ، وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ، ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون) فصدق فى ذلك كما صدق فى إخباره عما فى نفوسهم من ودهم أن غير ذات الشوكة تكون لهم

ومن تحقيق ما أراده هو من أن ذات الشوكة هى التى تكون لهم ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون ، وهذا من تلبيثه عما فى الضمائر ، ومنه ايضا قوله على لسان رسوله فيمن تخلفوا عنه فى إحدى الغزوات (أحد) (لن تخرجوا معى أبدا ولن تقاتلوا معى عدوا) فانهم لم يخرجوا معه بعد ، وكذا قوله لليهود (قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين) فما تمناه أحد منهم تحقيقا لقوله بعد (ولن يتمنوه أبدا بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين ، ولتجدنهم أحرص الناس على حياة ومن الذين أشركوا ، يود أحدهم لو يعمر ألف سنة وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمر والله بصير بما يعلمون) لهذا ذكر الباقلانى فى كتابه (إعجاز القرآن) عن أصحابه وغيرهم ثلاثة أوجه للاعجاز ، جعل أولها الأخبار عن الغيوب وثانيها الأخبار عن قصص الأولين وثالثها ما آن أن نشرع فيه مرتضين إياه الوجه الحق للاعجاز فقد قال (والوجه الثالث أنه بديع النظم عجيب التأليف متناه فى البلاغة إلى المدى الذى يعلم عجز الخلق عنه) وهو ما نريد ولكن على خلاف معه فى التفاصيل .

الوجه الحق للاعجاز

قلنا إن الوجه الحق الذى نرتضيه دليلا على الاعجاز هو الوجه الثالث من الوجوه التى ذكرها الباقلانى فى كتابه (إعجاز القرآن) وهو أنه بديع النظم عجيب التأليف متناه فى البلاغة إلى الحد الذى يعلم عجز الخلق عنه ، وإنما ارتضينا هذا الوجه دون غيره لأنه الثابت لجميع القرآن فى كل قدر تنازل إليه التحدى من السورة القصيرة والآيات اليسيرة ثبوتا ذاتيا له دون نظر إلى ماعسى أن يكون فيه من تلبيث أو قصص مما صلح على ما مر آنفا لأن يكون دليلا على الاعجاز من ناحية الغرض لا الناحية التى نريد . إذ الاعجاز الذى نريد هو إعجاز الأسلوب الذى قد جاء فى ألفاظه بديع النظم عجيب التأليف وفى معناه متناهيا فى الابانة والاعراب فجمع بذلك

بين طرفى الفصاحة والبلاغة جمعا أنتج البيان الرائع الذى أتى فى كل غرض قصد اليه بما ليس فى مقدور انسان من بيان ، فان للبيان فى الكلام بعد اشتماله على ما يجب لتحقيق الفصاحة والبلاغة درجات متفاوتة تفاوت مراتب المروءة بعد الواجب لا تزال يعلو بعضها بعضا كما تتعالى طبقات الأجواء حتى يكون فرق ما بين الدنيا والعليا كفرق ما بين الأرض والسماء ، وفى هذا الميدان الفسيح يتبارى الفصحاء والبلغاء فترى فيهم المسف الدانى والمحلق الرفيع وما منهم من ترى فى كلامه عيبا يسلبه صفة الفصيح البليغ . ألا ترى إلى الشاعرين يكون كلاهما مبرزا يرمى بشعره فصيحا بليغا فاذا ما وازنت بيهما فى قصيدين لم تظفر بعيب فيهما ولكنك مع هذا تضع قصيدة أحدهما فى منزلة غير التى تضع فيها الأخرى صعودا أو هبوطا لما تحسه وقد لا تعرف كيف تعلله من تفاوت درجة البيان واختلاف قوة الرمى إلى المقصود . وبقدر ما يكون للشاعر أو الخطيب أو الكاتب من قدرة قوية على تملك زمام الألفاظ ، وتصرف واسع فى المعانى ، يبعد فى بيانه عن أقرانه الآخرين . فالقرآن الكريم أتى فى هذين البابين الألفاظ والمعانى فى كل غرض رمى إليه بالعجب العجاب الذى عقدت دونه الألسنة وحارت أمامه العقول فلم يفكر أحد فى مجاراته بله الاقدام على تلك المجاراة . فجاء هذا دليلا على الاعجاز أى دليل . وإلا فمن فى مقدوره أن يكون له كلام بهذا القدر الباسق من الطول ثم هو يخلو فى ألفاظه ومعانيه على اختلاف أغراضه ومراميه من كل ما يعاب ويشتمل بعد هذا على آيات من الحسن الفائق بينات وسورات من الجمال الرائع باهرات ، قال عز من قائل (أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا) نعم لو كان من عند غير الله لوجدوا فيه هذا الاختلاف ، فان قول البشر بالغا ما بلغ فى قوة البيان لابد أن تجد به السقطات والزلات فى الألفاظ والمعانى على السواء ، وإن عز عليك ذلك فى غرض تهيأ له المتكلم وطبع عليه حتى صار فيه صفى الخاطر رخى العنان كالوصف لدى امرىء القيس والمدح عند زهير

والاعتذار فى شعر النابغة — وبعيد هذا أن يكون — فالتمسه فى أغراض له أخر تجده بيناً موفورا .

هذه هى ناحية الإعجاز ومهما عينها استحال على رسول الله نفسه كما استحال على غيره أن يكون من كلامه القرآن لأنه بشر وما كان لبشر ان يقول هذا ، على أن له صلى الله عليه وسلم قبل أن يكون رسولا كلاما وله بعد الرسالة كلاما وكلا الكلامين شديد الشبه بأخيه بيناهما معاً بعيدان عما لم ينسبه إلى نفسه ونسبه إلى الله سبحانه وهو القرآن ، بعد كلام العرب عنه فى بلغاء قريش وسائر عدنان وفى قحطان . وإذا كان من المحال عقلا أن يكون للرجل الواحد فى كلامه لونان مختلفان وأسلوبان متباينان فكيف يتفق هذا لمحمد لو أراده على فرض المستحيل ، وأسلوب المتكلم قطعة من نفسه وما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه . ثم إذا كان هذا العجز بادياً فى المحسات كما تراه فى عدم تمكن الكاتب مهما حاول إخفاء خطه فى التوقيعات ، فهو فى باب المعنويات أبدى وبنسبته إلى الاستحالة أولى ، ولعل قريشا لهذا كانت تصف رسول الله بالكهانة والسحر حين كانت تقول إن هذا قوله لاعتقادها أنه يستحيل على بشر لم يعتمد على قوة خفية تؤيده فتجعله يقول ما ليس فى مقدورها ولا فى مقدور غيرها أن يقول .

هذا وإن لنا بعد كل ما تقدم أن نتلمس بعضاً من آيات الفصاحة والبلاغة المعجزة فى القرآن حتى نحس بعض الإحساس بالناحية التى قلنا إنها الوجه الحق للاعجاز فلا يكون كل إيماننا به عن تقليد شأن من ليس لهم بعلوم العربية حذق ولا فى فنون بيانها افتنان ، راجين من الله فيما نحاول التوفيق إذ المطلب عزيز المنال يكاد يكون خارجا عن مكنة التصوير ، قال السكاكى « إعلم أن شأن الأعجاز عجيب يدرك ولا يمكن وصفه » .

ولما كان هذا الإدراك لا يكون إلا بالذوق ، والذوق إنما يتهيأ لذوى الفطر السليمة الذين قد راضوا أنفسهم بالخطب والرسائل والشعر ، واشتغلوا بعلوم البلاغة من بيان ومعان وبديع ، حتى صار لهم بذلك ملكة ودراية يمكن أن يعتمد عليها فى معرفة الكلام وفضل بعضه على بعض ، فإنى سأتخذ هذه العلوم الثلاثة نبراساً أهتدى به إلى تصوير ما أريد ، وعلى الله الإعتماد .

القرآن معجز بفصاحته وبلاغته

كان فى العرب ذو الفصاحة والبلاغة ، وفى كلامهم الفصيح البليغ ، والفصاحة تتحقق للمتكلم بمقدرته عن ملكة على إيراد كلامه معبراً عن المعنى الواحد بتعابير مختلفة فى مراتب الوضوح دون تعرض المعنى فى أحدها لخفاء . وإنما يجىء اختلاف التعابير فى مراتب الوضوح عن طريقين : طريق الحقيقة المبالغ فيها بالتشبيه ، وطريق الخروج عنها خروجاً يمكن من إرادتها ولكن لا تراد وهذه هى الكناية ، أولا يمكن وإن حوول ذلك وهذا هو المجاز فهذه الثلاثة هى مباحث علم البيان دون الحقيقة المجردة حيث لا تفاضل فيها فى مراتب الوضوح ، غير أن الفصاحة لا تبحث عما تقدم فى أى كلام إلا إذا خلصت مفرداته قبل ذلك من تنافر الحروف وغرابة المعنى ومخالفة القياس ، وخلت تراكيبه من تنافر الكلمات وضعف التأليف وتعقيد الألفاظ حتى لا يكون للبيان بعد ذلك سوى تخليصه من التعقيد المعنوى تحقيقاً للوضوح الذى تبحث فى مراتبه تلك الأشياء الثلاثة من تشبيه وكناية ومجاز . ومن ثم كان لا بد لمن يريد مزاولة البيان أن يكون صحيح الذوق ليتقى التنافر فى الحروف والكلمات ، على علم بمتن اللغة ليكون صادق الحكم على الغريب ، ملما بالصرف والنحو ليعرف مخالفة القياس وضعف التأليف والتعقيد من جهة الألفاظ ، إذ كل هذه وسائل للبيان وإن لم تك من علم البيان . أما البلاغة فتتحقق للمتكلم بمقدرته عن ملكة أيضاً على جعل كلامه الفصيح مطابق المعنى لمقتضيات الأحوال خبراً كان أو إنشاء بتحقيق ما تستلزمه تلك المطابقة فيه ، كأن يوجز أو يطنب فى غير المساواة كل فى الموضع الذى يقتضيه ، وكأن يفصل أو يصل ، ويقصر أو يطلق ، ويؤكد أو يرسل ، إلى غير ذلك من مباحث علم المعانى الذى يحقق البلاغة فى الكلام بعد أن يحقق الفصاحة فيه البيان ، وليس

لعلم البديع معهما سوى وجوه تحسين الكلام ولكن سميت الثلاثة بعلوم البلاغة على سبيل الاصطلاح .

ذلك ما كانت تتحقق به فى مجموع كلام العرب لا جمعيه الفصاحة والبلاغة ووجوه التحسين ، وقد جاء كله فى جميع القرآن بحال أوضح ظهوراً وأبعد مراماً وأكثر مقداراً ، بعيداً عن التكلف والاستكراه ، سهل المأخذ عذب الايقاع ، فبذ العرب فيه من جميع النواحى ، ثم بذهم فى ناحية أخرى فريدة ليس لهم فيها شىء هى ناحية تفصيله بفواصل الآى وسنتكلم عليها الآن لأنها أظهر شىء فى بدع الأسلوب ثم نعود إلى فضل القرآن فيما تقدمها مما جاء مشاركا للعرب فيه بقدر ما يسمح المقام .

فواصل القرآن

تكلمت العرب الشعر والنثر فجاء فى شعرها الرجز والقصيد وفى نثرها المسجوع واللفظ المزدوج والمنثور ، وبدهى أن القرآن جاء نثرا لا شعرا ولكنه لم ينضو تحت أقسامه السالفة لا بمجموعة ولا فرادى ، فما هو باللفظ المنثور يرسل كله إرسالا خالياً من كل قيد يراه القارئ أو يلحظه السامع فى التقفية والوزن ، ولا هو بالمزاوج الجمل والعبارات بحيث نرى كل اثنتين منهما أو أكثر على خلوهما من التقفية متعادلتين تقريباً فى الأقيسة والموازين ، كما أنه ليس بذى التقفية الحرفية التى نراها فى الأسجاع ، إنما هو كلام فصله الله آيات كما قال : « كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير » فجاءت آياته متلاحقات تختم فى كل سورة غالباً بمقاطع متشابهات تشعر بالانتهاء دون أن تتقيد بحرفية السجع أو موازنة الازدواج ودون أن تخلو كل الخلو من مظاهر التقييد . هكذا جاء معظم القرآن فلم يقبل أن يطلق عليه اسم من هذه الأسماء بل عرف وحده باسم خاص هو الفاصلة وهى مقطع الآية كقرينة السجع فى النثر وقافية البيت فى الشعر ، أما قليله فقد جاء فيه ما يشبه المزاوج أو المسجوع وكان يصح أن يسمى بهما

لولا أنه قد خرج فى كثير منهما بالطول خروجاً لم تكن تألفه العرب فى غير سجع الكهان ، وقرب بذلك من التفصيل الذى وسعهما ولم يأب منهما القصير فقصرت التسمية عليه دون المعروف من أقسام المنثور وعلى ذلك تعارف العلماء .

هذه هى الفاصلة فى القرآن ، ولقد كان يمهد لها فى آيه تمهيداً تقع به مستقرة فى مقرها وتأتى متعلقاً معنى الكلام بمدلولها . انظر قوله تعالى « لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير » كيف وقع اللطيف لما لا يدرك والخبير لما يدرك بالترتيب ، وقوله على لسان قوم شعيب « قالوا يا شعيب أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل فى أموالنا ما نشاء ، إنك لأنت الحليم الرشيد » كيف جاء الحلم مناسباً لما تقدم فى الآية من ذكر العبادة ، وجاء الرشد ملائماً لما تلا ذلك من التصرف فى الأموال ، وكذا قوله : « أولم يهد لهم كم أهلكنا من قبلهم من القرون يمشون فى مساكنهم إن فى ذلك لآيات أفلا يسمعون ، أولم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز فنخرج به زرعا تأكل منه أنعامهم وأنفسهم أفلا يبصرون » فإنه ختم الآية الأولى بالسمع لأنها معنوية تهدى وختم الثانية بالبصر لأنها محسوسة ترى .

من أجل ذلك كانت الآية ترشد إلى فاصلتها كل ذى قلب مفكر ولسان معبر ، قال زيد بن ثابت أملى علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية « ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين . ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين . ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقاً آخر » فعند ذلك قال معاذ بن جبل « فتبارك الله أحسن الخالقين » ، فضحك رسول الله ، فقال له معاذ : مم ضحكت يا رسول الله قال بها ختمت . وكانت الفاصلة إذا غيرت أمام من تلك صفته أبى هذا التغيير على محدثه ولو لم يك حافظاً للقرآن ، روى أن أعرابياً سمع قارئاً يقرأ « فإن زللتم من بعد ما جاءتكم البينات فاعلموا أن الله عزيز

حكيم ، ولكنه جعل الفاصلة « غفور رحيم » ولم يك الأعرابى يقرأ القرآن فقال أما إن كان هذا كلام الله فلا ، إن الحكيم لا يذكر الغفران عند الزلل بعد البينات لأنه إغراء عليه .

هذا اختلاف الفاصلة لاختلاف الآيات . على أن من الفواصل ما كانت تختلف لتغير لفظة واحدة فى آيتين قال الله تعالى « وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون » فجعلها بعد الشعر من الإيمان لأن مخالفة القرآن له ظاهرة تدعو إلى سرعة التصديق ، وبعد الكهانة من التذكير لوجود مشابهة تدعو إلى بعض تدبر وتفكير . بل كانت تختلف الفاصلة فى الآية الواحدة تأتى فى موضعين لاعتبارين قال الله تعالى فى سورة إبراهيم « وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفار » وقال فى سورة النحل « وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الله لغفور رحيم » فأتى بها فى الآية الأولى من صفات المنعم عليه وفى الثانية من صفات المنعم وكلتاهما مناسبة للآية فى ذاتها لتعلقها بالله والإنسان ، ولكن الحديث فى إبراهيم كان مسوقا قبلها لتعديد نعم الله على الناس وهم لا يشكرون حيث يقول بعد هذا التعداد وهو طويل (وآتاكم من كل ما سألتموه) وفى النحل كان فى ذكر صفات الله ، ألا تراه قبل ذلك يقول (أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون) ومن هذا النوع ما جاء فى ثلاثة مواضع مثل قوله تعالى فى سورة المائدة (ومن لم يحكم بما أنزل الله) فقد قطعها بثلاث فواصل مختلفة هى (فأولئك هم الكافرون) و (فأولئك هم الظالمون) و (فأولئك هم الفاسقون) ، لأن الحكم فى الأولى يقصد من جحد ما أنزل الله ، وفى الثانية يقصد من خالفه على علم ، وفى الثالثة يعنى من خالفه عن جهل . فلا غرو إذن أن تتحد الفاصلة متى بقيت المناسبة ولو كان المحدث عنه مختلفا ، كما فى آيتى الإستئذان من سورة النور فقد ختمت كلتاهما بما ختمت به الأخرى وها هما هاتان لترى وجه ما نقول (يأيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم والذين لم يبلغوا الحلم

منكم ثلاث مرات . من قبل صلاة الفجر . وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة ، ومن بعد صلاة العشاء ، ثلاث عورات لكم ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن ، طوافون عليكم بعضكم على بعض ، كذلك يبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم . وإذا بلغ الأطفال منكم الحلم فليستأذنوا كما استأذن الذين من قبلهم كذلك يبين الله لكم آياته والله عليم حكيم) .

هذا وقد يفيد ظاهر الفاصلة عدم ملاءمتها للاية ولكن تدبرا قليلا فى المعنى يدفع هذا الظاهر ويكشف عن ملاءمة وثيقه الصلة شديدة الارتباط . من ذلك مثلا مجىء (العزيز الحكيم) فاصلة لآيات يقضى ظاهرها أن تكون الفاصلة (الغفور الرحيم) كما فى قوله تعالى (إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم) فإن قوله وإن تغفر لهم يقتضى ظاهره مجىء الفاصلة من الغفران ، غير أن من يعلم أنه لا يغفر لمستحق العذاب فى نظر الناس إلا ذو العزة الذى ليس فوقه عزيز ثم هو مع ذلك يعلم أن الله يرى ما لا يرى الخلق من حكمة يجهلونها فى الغفران ، لا يتردد فى أن فاصلة الآية هى ما ختمت بها لا ما لوح به ظاهرها . وآيات هذا النوع كثيرة وكل واحدة منها توحى أنها بفاصلتها وفاصلتها بها أحق وأولى من غيرها .

إلى هنا كل ما تقدم من فواصل كان يهدى إليه المعنى العام للسياق وفى القرآن فواصل أخرى كثيرة كان يمهد لها فوق ذلك بالألفاظ نفسها أو بلازم معناها . فمن النوع الأول ما وافقت فيه الفاصلة أول الصدر مثل « وهب لى من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب » أو آخره مثل (أنزله بعلمه والملائكة يشهدون وكفى بالله شهيدا) أو كلمة تخللته مثل (قال لهم موسى ويلكم لا تفتروا على الله كذبا فيسحتكم بعذاب وقد خاب من افترى) ، والنوع الثانى كثير ومنه قوله تعالى (وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذاهم مظلمون) لأن انسلاخ النهار من الليل يستلزم الظلمة فجاءت الفاصلة منها ، ووقعت بالمد والنون الجارية عليهما فواصل السورة . وقد راعى القرآن فى معظم فواصله انتهاءها بحروف المد واللين والنون وهاء السكت لأنها تمكن

القارىء من الترنم والترتيل .

هذا وقد تقصر الآية حتى تكون هى الفاصلة ، وحينئذ يراعى القرآن فى الآية وما قبلها أشياء فى التقفية والوزن وفى تمام المقابلة أو عدم تمامها ، ومن ثم جاءت منها المتفقتان وزناً لا تقفية مع عدم تمام المقابلة كما فى قوله « يوم يكون الناس كالفراش المبثوث وتكون الجبال كالعهن المنفوش » وهذه هى الموازنة ، أو مع تمامها كما فى قوله « وآتيناهما الكتاب المستبين وهديناهما الصراط المستقيم » وهذه هى المماثلة ، والمتفقتان تقفية لا وزنا مع عدم تمام المقابلة كقوله (إلا حميما وغساقا جزاء وفاقا) وهذا هو التفويف ، أو مع تمامها كقوله (والليل إذا عسعس والصبح إذا تنفس) ، وهذا هو التطريف ، ثم المتفقتان تقفية ووزنا مع عدم تمام المقابلة كقوله (فيها سرر مرفوعة وأكواب موضوعة) ، وهذا هو التوازى ، أو مع تمامها كقوله (إن الأبرار لفى نعيم وإن الفجار لفى جحيم) وهذا هو التفريع ، ومنه ماكان يجمع فوق ذلك إلى حرف الفاصلتين المتحد اتحاد حرف أو اثنين أو ثلاثة قبله ، فلا يشعر القارىء بشىء من التكلف مطلقاً ، مثال الحرف (فأما اليتيم فلا تقهر وأما السائل فلا تنهر) و (ألم نشرح لك صدرك ووضعنا عنك وزرك الذى أنقض ظهرك ورفعنا لك ذكرك) ومثال الحرفين (والطور وكتاب مسطور) و (ما أنت بنعمة ربك بمجنون وإن لك لأجراً غير ممنون) ، ومثال الثلاثة (إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون ، وإخوانهم يمدونهم فى الغى ثم لا يقصرون) .

هذا ولقد تصرف القرآن فى تهيئة التراكيب للفاصلة تصرفا واسع المدى وكان مع ذلك محتفظاً أيما احتفاظ بتبعية اللفظ للمعنى بل كثيراً ما آتاه هذا التصرف مآرب أخرى وهذان شيئان امتاز بهما على سائر أجناس الكلام وبرع فيهما . فمن ذلك تقديم المعمول على العامل فى قوله (أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون) وقوله (إياك نعبد وإياك نستعين) ومنه تقديم الصفة الجملة على المفردة نحو (ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه

منشورا) وإيراد الجملة الاسمية دون الفعلية نحو (ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين) أو المفرد لا الجملة نحو (وليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين) والظاهر بدل الضمير مثل (والذين يمسكون بالكتاب وأقاموا الصلاة إنا لا نضيع أجر المصلحين) وصيغة المفعول بدل الفاعل نحو (حجاباً مستورا) أو الفاعل بدله نحو (من ماء دافق) وحذف المفعول نحو (فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى) والإتيان بهاء السكت نحو (ما أغنى عنى ماليه هلك عنى سلطانيه) . ومنه تذكير اسم الجنس أو تأنيثه مثل (أعجاز نخل منعقر) و (أعجاز نخل خاوية) ، ومثله فى ذلك الصفة نحو (وكل صغير وكبير مستطر) و (لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها) ومجئ صيغة المبالغة بدل الوصف نحو (وما كان ربك نسيا) بدل ناسيا . أو بدل صيغة مبالغة غيرها نحو (إن هذا لشىء عجاب) بدل عجيب . واختيار مرادف على آخر مثل (سأصليه سقر) أو حركة على أخرى نحو (فأولئك تحروا رشدا) وإنابة حرف عن آخر نحو (بأن ربك أوحى لها) بدل إليها ، إلى غير ذلك مما مائت به كتب الشواهد ونبهت على كثير منه أسفار التفاسير .

وفى هذا القدر عن الفاصلة ما فيه الكفاية فلنعد إلى غيرها مما وعدنا بالكلام فيه .

فصـــاحة القرآن

إذا تـكلمنا عن فصاحة القرآن يجب أن يكون كلامنا فيها راجعاً إلى أمرين ، أحدهما يتعلق بالأسس التى لابد منها فى تحقيق الفصاحة للمفردات والتراكيب على الوجه الذى بيناه ، والثانى يتعلق بالكلام من حيث اختلاف طرائق التعبير فيه إلى ما سبق من تشبيه وكناية ومجاز ، وقد اخترنا أن يكون عنوان الأول ممهدات الفصاحة وعنوان الثانى درجة الفصاحة كما رأينا أن نسوق الـكلام فيهما على هذا الترتيب .

أولا ـــ ممهدات الفصاحة

اشتمل القرآن الـكريم على ما يقرب من ثمانين ألف كلمة لم تخرج واحدة منها عن حد الفصاحة الذى رسمه العلماء ، فلا تنافر حروف ولا مخالفة قياس ولا غرابة معنى ، كما اشتمل على أكثر من ستة آلاف آية لم تتنافر فيها الـكلمات ولم يعترها ضعف التأليف ولم يصب معناها التعقيد ، ومهما أجهد الإنسان نفسه باحثاً منقبا ليظفر بشىء مخالف لهذا كما هى الحال فى كلام أفصح الفصحاء على طول القرآن وقصر ما قال كل فصيح ، فإنه لاشك راجع صفر اليدين مما يحاول ، مملوء القلب يقيناً بصدق ما نقول ، وهذه ثلاث نبذ تتناول أطراف الموضوع .

١ ـــ تنافر الحروف وتنافر الـكلمات

تخف الـكلمة أو تثقل أو تـكون بين بين ، بحسب الانتقال فى مخارج حروفها من مخرج إلى آخر يلائمه أو لا يلائمه أو يكون وسطا ، فان مخارج الحروف إما من الحلق وتسمى العليا أو من الشفة وتسمى الدنيا أو من الفم وتسمى الوسطى ، وهذه الثلاثة تنوع النطق بالـكلمات الثلاثة اثنى عشر

نوعا لا يلتقى فى أحدهما مخرجان ، لأن البدء بكل مخرج يتناوب عليه أربعة أنواع ، اثنان يشتمل كلاهما على المخارج الثلاثة واثنان يختمان بالمخرج المبدوء به ، ولكن ليست كل هذه الأنواع مع خلوها من التنافر الحرفى متحدة فى خفة النطق بل منها الكثير الخفة والمتوسط والقليل ، فتكون الكلمة كثيرة الخفة مثلا إذا انحدر فيها النطق من الأعلى إلى الأوسط إلى الأدنى كعلم ، وقليلتها إذا كان بالعكس كملع ومتوسطتها إذا كان من الأوسط إلى الأعلى إلى الأدنى كلمع أو من الأعلى إلى الأدنى إلى الأوسط كعمل وعلى هذا تقاس بقية المخارج . أما إذا توالت الحروف من مخرج واحد فإن الخفة تزول ويدنأ الثقل ولكنه يكون قليلا فى المخارج الدنيا ومتوسطاً فى الوسطى وشديداً فى العليا ، وهنا يحدث تنافر الحروف الذى يسلب الكلمة فصاحتها ، ويزداد شدة إذا زادت الكلمة عن الثلاثة وتردد فى حروفها . وعلى مثل هذا يكون تنافر الكلمات ولكن بتنزيل الكلمة فى الجملة منزلة الحرف فى الكلمة ولو كانت كل مفردة فى ذاتها بعيدة عنه ، ولذلك اشترط فى فصاحة الكلام فصاحة كلماته ، على أنه قد يجتمع التنافر فيهما فى آن وليس هذا فى حاجة إلى ضرب أمثال فليلتمس فى كتب البلاغة .

هذا هو التنافر بنوعيه ، ومع دورانه فى كلام الفصحاء مختلف الألوان قد خلا منه بنوعيه القرآن كما خلا من اللهجات غير المستحسنة فى المفردات وهى الآتية من طريق الإبدال ، كالتاء بدل السين فى التات ، والتاء بدل الطاء فى سلتان ، والكاف بدل التاء فى عصيك ، والنون بدل العين الساكنة قبل الطاء فى أنط ، والظاء بدل الضاد أو العكس فى قول الأعرابى لعمر (أيظحى بضبى) والجيم المشددة بدل الياء المشددة وقفاً فى علج وهى العجعجة ، والشين من كاف المؤنث فى كشكشة تميم ، والسين من كاف المذكر فى كسكسة بكر والميم من لام التعريف فى طمطمانية حمير إلى غير ذلك مما كانت القبائل تستعمله وعف عن استعماله القرآن ، ثم تحقق فيه بعد الخلو من هذه الأشياء أن جاءت جمهرة كلماته ثلاثية ، والثلاثى أخف أنواع الكلمات ، ثم وقعت

حروفها شديدة الائتلاف بعضها مع بعض بقدر ما وقعت هي قوية الانسجام مع أخواتها فى التراكيب ، واحصاءات القرآن تدل على أن مالا تكثر خفته من كلماته نادر فى حكم المعدوم ، فمثلا ليس فيه كافان متعاقبان إلا فى لفظتى (مناسككم) و (سلككم) ولا حاء بعد حاء فى كلمة واحدة مطلقاً ولا فى كلمتين إلا فى موضعين هما (عقدة النكاح حتى) و (لا أبرح حتى) ولا غينان كذلك فى كلمة مطلقاً ولا فى كلمتين إلا فى موضع واحد هو (ومن يبتغ غير الإسلام) ولا شدتان متواليتان نتيجة الغن والإدغام إلا فى أربعة مواضع هى (نسيا رب السموات) ، (فى بحر لجى يغشاه) و (قولا من رب) و (زينا السماء) .

ولقد كان القرآن يجمع كثيراً من الحروف المتحدة المخارج فى الآية الواحدة أو يردد فيها حرفاً بعينه فلا يغير هذا من صفة الفصاحة شيئاً لما كان يودعه نظم الحروف من حسن السبك وجمال الالتئام ، فمن ذلك أنه جمع فى الآية (قيل يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب أليم) على قصرها ثمانية عشر ميما فى النطق ، وجمع فى آية الدين ثلاثة وعشرين كافا وهى أشد من الميم ، وهذه سورة العصر ، وهى ثلاث آيات قصار قد أتى فيها بعشرة واوات ، وآية الكرسى قد بدأها بلفظ الجلالة وهو مركب من اللام والهاء ثم دارت اللام فيها ثلاثا وعشرين مرة والهاء أربع عشر مرة ، فلم يشعر القارىء فى ذلك ولا فى أمثاله وهى كثيرة بشىء من الثقل بل بالعكس قد شعر بأن له وقعاً كوقع الرنة الموسيقية تتردد فى لحن من الألحان فتربط بين أجزائه وتكسوه من الحسن ما تستلذه الأسماع . ومن هنا يدرك السر فى اختيار حروف الفواصل متماثلة أو متقاربة ، وفى التزام القرآن فى كثير من المواطن حرفاً واحداً أو نوعاً من الحروف المتحدة المخارج يكثر منه ، كالتزامه القاف فى سورة قاف ، وبعض حروف الحلق فى مثل قوله (فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود) كما يدرك فى أنه إذا ساق

التركيب سهلا لم يساقط فيه شيئا من الكلم الفخام وإذا فخمه لم تجد أثراً لرقيق الكلمات إلى غير ذلك مما تكامل فيه فجعل له فى هذا الباب ائتلافا ليس مثله ائتلاف ، وانسجاماً دونه كل انسجام .

٢ — مخافة القياس وضعف التأليف

وضع الصرفيون قواعد علمهم فجاءت منطبقة على ما اتفق على النطق به مجموع العرب فى بنية الكلمات ، غير أن من تلك القواعد ما وضع للتقريب لا للقياس فلم يسلب ما خالفه صفة الفصيح وإن سمى باسم الشاذ كما فى أفعال الثلاثى ومصادره الخارجة عن ضوابط الأبواب . ومنها ما وضع ليقاس عليه بحيث إذا خالفه لفظ عد مخالفاً للقياس وخارجا عن دائرة الفصيح كالفك فى موضع الإدغام فى قول الشاعر :

مهلا أعاذل قد جربت من خلقى أنى أجود لأقوام وإن ضننوا

وكالزيادة المؤدية إلى ما ليس أصلا فى الكلام كقول الآخر (من حوثما نظروا أدنو فأنظور) وحوثما لغة فى حيثما ، وكالنقص المجحف مثل (درس المنا بمتالع فأبان) يريد المنازل ، وكالعدول عن صيغة معروفة إلى أخرى غير معروفة مثل سلام يراد به سليمان فى قول الحطيئة .

فيها الزجاج وفيها كل سابغة جدلاء محكمة من نسج ســـلام

إلى غير ذلك مما لم يخل منه كلام الفصحاء .

وكذلك وضع النحويون قواعدهم فجاءت منها المطردة التى يعد المخالف لها لحناً لا يجوز فى الكلام أو بعبارة أخرى لا يسمى ما دخله اللحن كنصب الفاعل ورفع المفعول ونحوهما فى عرف البيانيين كلاما ، إذ الكلام ما كانت له صفة واعتبار . ومنها الغالبة المشهورة عندهم وهذه هى التى يعد ما خالفها ضعيف التأليف غير فصيح كعود الضمير على متأخر لفظا ورتبة فى قول الشاعر :

لما رأى طالبوه مصعبا ذعروا وكاد لو ساعد المقدور ينتصر

وكمجيء الضمير المتصل بعد إلا فى قول الآخر :

ليس إلاك يا علـى همام سيفه دون عرضـه مسلول

ونحو ذلك مما خالف المشهور الفصيح .

فالقرآن الكريم قد خلا كل الخلو من مخالفة القياس وضعف التأليف ، وتجاوز ذلك مما هو من سقطات الأفراد إلى ترك غير المستحسن من اللهجات على شيوعها فى كثير من قبائل العرب المعروفة بالفصيح صرفية كانت أم نحوية إلا ما كان على سبيل تعدد القراءات .

فمن الصرفية تلتلة بهراء وهى كسر حروف المضارعة إلا همزة إخال فإنها عامة الكسر عند الجميع . والخلخانية الأزد وهى حذف بعض الحروف من غير علة كشا الله . ووهم كلب ووكمها والأول كسر هاء الغائب دون أن يسبقها كسر ولا ياء ساكنة ، والثانى كسر كاف المخاطب بعد الكسرة أو الياء الساكنة أو قبل ميم الجماعة . وقصر أولاء الأشارية ومد إلى الموصولة عند تميم . وقلب ألف المقصور ياء إذا أضيف إلى ياء المتكلم مع إدغامها فيها عند هذيل .

ومن النحوية إلزام المثنى الألف عند كلب وكنانة وبنى الحارث . واستعمال ذو وفروعها بمعنى الذى وفروعها عند طيء ، وحذف نون اللذين واللتين رفعا عند بلحارث من مذحج . وإجراء الذين مجرى جمع المذكر السالم رفعا عند عقيل وهذيل . وإلزام الأسماء الخمسة الألف قصراً أو إعرابها بالحركات على النقص ، وحذف ياء المنقوص نصباً كحذفها رفعاً وجرا . وإلحاق الضمائر بالأفعال على أنها علامات تثنية وجمع ، إلى غير ذلك مما هو معروف عن النوعين فى اللهجات .

وإنه ليجمل بنا هنا أن نذكر شيئاً عما ظهر بمظهر الخروج على بعض ما قدمنا فى القرآن ، مثل قوله تعالى (إن هذان لساحران) وقوله (لكن الراسخون فى العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك والمقيمين الصلاة والمؤتمون الزكاة) وقوله (إن الذين آمنوا والذين هادوا

والصابئون) فبعض الباحثين ينسبه إلى خطأ كتاب المصحف الإمام مستنداً على ما حدث به هشام بن عروة عن أبيه قال سألت عائشة رضى الله عنها عن لحن القرآن (وذكر هذه الآيات) فقالت « يابن أخى هـذا عمل الكتاب أخطئوا فى الكتاب » ثم يؤيد هذه النسبة بما رواه عكرمة عن نفسه قال لما كتبت المصاحف عرضت على عثمان فوجد فيها حروفاً من اللحن فقال لا تغيروها فإن العرب ستغيرها بألسنتها أو قال ستعربها بألسنتها ثم قال لو كان الكاتب من ثقيف والمملى من هذيل لما وجدت فيه هذه الحروف .

غير أن إسناد هذا إلى عثمان على تفسير اللحن بالخطأ ضعيف مضطرب ، وإلا فكيف يجعل للناس إماماً ويترك فيه لحناً فى حين أن الصحابة رضى الله عنهم كانوا لا يلحنون فى الكلام فضلا عن القرآن الذى تلقوه عن النبى صلى الله عليه وسلم كما أنزل وحفظوه وضبطوه وأتقنوه ، وكيف يظن بهم اجتماعهم على الخطأ فى كتابته وعدم تنبههم إليه ورجوعهم عنه ، ألا إن ذلك بعيد التصديق عن عثمان عقلا وشرعا وعادة على معنى أن اللحن كما تقدم هو الخطأ الذى لا يجوز ولذلك يطعن فيه بضعف الإسناد . أما حديث عائشة فلا يقال فيه بالتضعيف لصحة الرواية وإنما يقال إنها تريد الخطأ فى عدم كتابة الأولى لا أن ما كتبوه خطأ فى ذاته لا يجوز فإن ما لا يجوز مردود بالإجماع . ويقال فيما ذكره عروة فى سؤاله من كلمة اللحن إنه إنما يعنى باللحن القراءة واللغة لا الخطأ بدليل أن هناك قراءات أخر على مقتضى السياق فيما تقدم ونحوه ، ولهذا لا نقول بما سبق من خطأ الكتاب خطأ ذاتياً بل بما انتهينا إليه من أنه خطأ فى عدم كتابة الأولى . على أن هناك تأويلا لكل خارج عن الظاهر من آيات . فيقال فى الآية الأولى هنا مثلا إنها على لغة من يلزم المثنى الألف من كلب وكنانة وبنى الحارث ، أو إن هذان ليس بمثنى لأن مفرد المثنى يشترط فيه أن يكون معرباً فهو على صورته ولذلك يبنى ، أو إن اسم إن ضمير شأن محذوف والجملة بعدها خبرها

أو خبرها لفظ هذان واللام داخلة على مبتدأ محذوف أى لهما ساحران ، أو إن الألف فى هذان أتى بها لمناسبة الألف فى لساحران وفى يريدان ، أو إن بمعنى نعم . ويقال فى الآية الثانية إن المقيمين منصوب على القطع للمدح ، أو معطوف على مجرور قبله هو ما أو الكاف فى إليك أو فى قبلك أو الضمير فى منهم . أما الصابئون فى الآية الثالثة فيقال إنه مبتدأ حذف خبره أى كذلك ، أو معطوف على محل إن مع اسمها وهو الرفع أو على الفاعل فى هادوا ، أو إن بمعنى نعم والذين مبتدأ والصابئون معطوف عليه .

٣ — الغرابة والتعقيد

قد ضممنا فيما سبق ، تنافر الكلمات إلى تنافر الحروف لأن مرجعهما الاثنين الذوق السليم ، وجمعنا بين مخالفة القياس وضعف التأليف لأن اتقاءهما يكون بقواعد النحو والتصريف ، وكان الظاهر أن نضم إليهما تعقيد الألفاظ لأنه إلى قواعد النحو يرجع كما يرجع الضعف لولا أنه لم يخالف مثله مشهور القواعد وإنما جاء من اجتماع عدة أشياء لا غبار على شىء منها حين الانفراد ، ولكن اجتماعها هو الذى يحدث الإضطراب فى التركيب فيصيب المعنى من هذه الناحية بالخفاء ، كما يصيبه التعقيد المعنوى من حيث التصوير مع استقامة الألفاظ ، وكما تصيب الغرابة معانى المفردات لعدم معرفة المدلول ، فناسب لذلك أن نسلك الثلاثة فى عنوان .

أما الغرابة فقد انتشرت فى كلام كثير من الفحول فى حين اختار القرآن كلماته ظاهرة المعنى واضحة المراد فأصبح بذلك مفهوما حتى لغير الخاصة من الدهماء ، ولقد كانت اللفظة ترد فى ثناياه غير بارزة المعنى فى ذاتها للسواد فيشع عليها أسلوبه شعاعاً يكشف عن معناها ويصوب إليها نوراً يبين من غرضها ومرماها فإذا هى أمامه كفلق الإصباح . وكثيراً ماكان يعدد الأسلوب من معانى اللفظة الواحدة تعداداً لا يخرج على كثرته عن معناها الأصيل ، خذ لذلك مثلا كلمة الهدى فقد جاءت فى قوله تعالى

(أولئك على هدى من ربهم) بمعنى البيان وفى قوله (ويزيد الله الذين اهتدوا هدى) بمعنى الإيمان وفى قوله (ولقد جاءهم من ربهم الهدى) بمعنى القرآن وفى قوله (وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا) من الدعاء وفى قوله (أعطى كل شىء خلقه ثم هدى) من الإلهام وفى قوله (إن الله لا يهدى كيد الخائنين) من الإصلاح ، إلى غير ذلك من معانيها التى قاربت العشرين معنى ، ومثلها فى تلك كلمات كثيره كالصلاة والرحمة والسوء والفتنة والروح والقضاء والذكر والدعاء وغيرها مما ورد متنوع المعانى باختلاف الأساليب على مثل تلك الكثرة أو يزيد .

وكما كان الأسلوب يسبغ على اللفظة الواحدة معانى تختلف باختلاف السياق كان كذلك يقبل من الكلمة فى الموضع الواحد جملة معان يحتملها التفسير دون أن تخرج على السنة وسائر الكتاب ، من ذلك قوله تعالى (انفروا خفافاً وثقالا) فقد احتمل تفسيره شباناً وشيبا أو أغنياء وفقراء أو أعزابا ومتأهلين أو نشاطا وكسالى أو أصحاء ومرضى وكل ذلك سائغ مقبول ، ومنه قوله تعالى (ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات) فقد قيل الظالم المضيع للواجبات المنتهك للحرمات والمقتصد فاعل الواجبات تارك الحرمات والسابق الذى يزيد عن المقتصد فيتقرب بالحسنات ، وقيل بل الظالم مؤخر الصلاة إلى نهاية وقتها والمقتصد مصليها خلاله والسابق مؤديها أوله ، بل قيل الظالم مانع الزكاة والمقتصد مؤتيها وحدها والسابق الزائد عليها بالصدقة . وقد تختلف القراءة فى كلمة فتفسر على كل قراءة تفسيراً فيكون كل ذلك صالحا وهذا كثير ومن أمثلته (لقالوا إنما سكرت أبصارنا) فقد قرىء بتخفيف سكرت على معنى أخذت وبتشديده على معنى سدت ، ومن أمثلته أيضا قوله تعالى (سرابيلهم من قطران) على أن القطران كلمة واحدة لما تهنأ به الإبل أو كلمتان إحداهما القطر اسم للنحاس ، والثانية آن بمعنى ذائب من شدة الحرارة ولكن سهلت همزته .

وأقصى ما ذكر فى القرآن من غريب لم يعد أمثال ما كان يسأل عنه ابن عباس ،زعما من السائلين أنه لم يرد فى الأشعار فكان يأتى له بالنظائر والأمثال ، كييأس بمعنى يعلم فى قوله تعالى (أفلم ييأس الذين آمنوا) ومثله قول الشاعر :

لقد يئس الأقوام أنى أنا ابنه وإن كنت عن أرض العشيرة نائيا

ونحاس بمعنى دخان فى قوله (يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس) ومثله :

يضىء كضوء سراج السلـــ ـط لم يجعل الله فيه نحاسا

وتحسونهم بمعنى تقتلونهم فى قوله « إذ تحسونهم بإذنه » ومثله :

ومنـــا الذى لاقى بسيف محمد فحس به الأعداء عرض العساكر

ومقيت بمعنى قادر فى قوله (وكان الله على كل شىء مقيتا) ومثله :

وذى ضغن كففت النفس عنه وكنت على مســـاءته مقيتا

وينغضون بمعنى يحركون فى قوله (فسينغضون إليك رءوسهم) ومثله :

أتنغض لى يوم الفخـار وقد ترى خيولا عليها كالأسـود ضواريا

إلى غير ذلك مما قد سئل عنه وهذا أوغل ما فيه فى الغريب ، ومنه يتضح أن لا غرابة تسلبه صفة الفصيح ، كما يتضح أن سياق ما ورد فيه من آيات كان مقربا لمعناه أيما تقريب ، على أنه مع الإغضاء عن إيضاح السياق لا يمكن أن يقاس بأمثال ما ورد فى فصيح الكلام ملجئا بغرابته القارىء على أدبه إلى استصحاب معاجم اللغة للوقوف على معناه .

وأما التعقيد فقد عرا بنوعيه كثيراً من كلام الفصحاء والبلغاء فخفيت معانيه خفاء كبيرا لاضطراب التراكيب بتعقيد الألفاظ ، أو خفاء أكبر منه لسوء التصوير بعدم استقامة التفكير حتى أصبح تلمسها عسيراً على الجهابذة المتبصرين ، والشواهد على ذلك تملأ كتب البلاغة ومواطن النقد والمحاكمات إذ لم يكد يسلم من التعثر فيهما علم من أعلام البيان على قلة ما قال ، وقد سلم القرآن منهما على طوله المديد وعلى كثرة ما عالج من معان

زادت فى عددها عن عدد الآيات ، وقد تقدم أن آياته جاوزت ستة الآلاف . فكان فى كل غرض قصد إليه مستقيم التركيب عذب الأسلوب واضح المعنى صحيح التفكير وهذا حكم يصدق على جميع القرآن من حيث سلامة التركيب دون الاستثناء وعلى معانيه من حيث الوضوح إلا ما أتى متشابها كما سيأتى لحكمة أرادها الله فيه .

ولقد راعى القرآن فى معانيه الجزئية فوق ما تقدم من صحة ووضوح ، وجود الروابط والصلات بين كل طائفة يجمع بينها معنى عام حتى أصبح التلاؤم شديداً والانسجام بينا ، وصارت أغلب سوره تتصل فواتيحها بخواتيمها اتصال تناسب أو اتحاد فى حسن ابتداء وجمال انتهاء ، وتجمع بينها كلا متعاشق الأجزاء يرمى إلى غرض واحد أو أغراض فيها على تعددها تناسب وائتلاف وهذا شىء واضح للعيان . فمن الربط بين الفاتحة والخاتمة عن طريق الإتحاد ما تراه فى سورة الحشر من تسبيح وفى الممتحنة من نهى المؤمنين عن موالاة الكفار وهما قصيرتان ، وما تراه فى سورة النحل من ذكر القرآن ، وفى الأحزاب من ذكر الكافرين والمنافقين والمشركين وهما متوسطتان ، ثم ما تراه فى سورة البقرة عن الإيمان وفى آل عمران عن الكتاب وأهل الكتاب وهما طويلتان ، وعليك الرجوع إلى هذه الآيات، كما عليك التماس الربط فيه عن طريق التناسب فهو يتناول معظم القرآن ولذا آثرنا التمثيل دونه للاتحاد . على أن المناسبة فى كثير من السور كانت تتعدى السورة إلى غيرها فتظهر أحياناً واضحة بين فاتحتها وخاتمة ما قبلها أو بين خاتمتها وفاتحة ما بعدها فتلمس ذلك أيضاً فهو كثير يبديه مجرد الالتماس .

أما التناسب بين ما تضمنت كل سورة من آيات فقد بلغ القرآن فيه درجة الأعجاز إذ جاءت كل آية فى سورتها تابعة لما قبلها متبوعة لما بعدها على اختلاف هذه التبعية من وجوه . فمنها ما يظهر فيها الإرتباط بين الآية اللاحقة والآية السابقة من حيث تعلق الكلم فيها بعضه ببعض لعدم تمام

السابق من غير اللاحق او تمامه بدونه ولكن يقع منه اللاحق موقع التأكيد أو البدل أو البيان أو الإعتراض ، وهذا كثير جدا ولا يحتاج الوقوف على التناسب فيه إلى تأمل . ومنها ما يكاد يظهر بمظهر المستقل ولكن قليلا من التأمل يكشف عن جهة جامعة من أنواع العلاقات ولهذا كان من عادة القرآن ذكر الرحمة بعد العذاب . والرغبة بعد الرهبة . والوعد والوعيد أو التوحيد والتنزيه بعد بيان الأحكام ليكون ذلك باعثاً على العمل أو مبيناً عظم الآمر الناهى ، كما كان من عادته أن يخرج من شيء إلى شيء لمناسبة تسمح بهذا الخروج ، ثم تارة يعود إلى ما كان فيه فيكون ما خرج إليه استطراداً وتارة لا يعود فيكون انتقالا ، مثال الأول خروجه فى قصة إبراهيم من سورة الشعراء وكان الحديث قبلها فى قصة موسى إلى وصف المعاد عقب قوله على لسان إبراهيم (ولا تخزنى يوم يبعثون يوم لا ينفع مال ولا بنون) إلى آخر ما ذكره فى وصف اليوم فانه عاد بعده إلى قصص الأنبياء بالدخول فى قصة نوح وهذا هو الاستطراد ، ومثال الثانى انتقاله فى سورة صاد من ذكر الأنبياء إلى ذكر المتقين بقوله (هذا ذكر وإن للمتقين لحسن مآب) فإنه أنهى السورة ولم يعد إلى ذكر الأنبياء وهذا هو الخروج . ومع ذلك فالمناسبة دائماً ثابتة فيه لأن لكل سورة أمراً كلياً يهيمن على حكم الربط بين آياتها متى عقله القارىء بالنظر إلى الغرض العام الذى سيقت له وما يحتاج إليه ذلك الغرض من أغراض خاصة تبين له وجه النظم مفصلا واضح الروابط بين الأحكام .

هذا على أنه قد تخفى المناسبة أحياناً فتحتاج فى نفسها إلى فضل علم بأسباب التنزيل ، ومن أمثلة ذلك وهى قليلة قوله تعالى « لا تحرك به لسانك لتعجل به إن علينا جمعه وقرآنه فإذا قرأناه فاتبع قرآنه ثم إن علينا بيانه » فان هذه الآية قد وردت فى سورة القيامة بين أوصاف اليوم الآخر ولما خلصت السورة دون هذه الآية ، ولكن السبب فى وجودها ظاهرة الخروج راجع إلى أسرار التنزيل فقد حدث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أنزل عليه

ما أنزل من أول السورة إلى قوله تعالى « ولو ألقى معاذيره » بادر إلى تحفظه فحرك بما نزل لسانه متعجلا به ، ولما كان فى هذا انشغال له عما هو نازل من سائر السورة لفته المولى سبحانه وتعالى بهذه الآية ثم عاد إلى تكملة ما بدأ به . وفى الآية مناسبات أخر فضلت عليها ما اخترت كما فضلت التمثيل بها دون غيرها لأنها أبعد الآيات فى ظاهرها تعلقاً بسورتها .

وكما تختفى المناسبة أحياناً وهى موجودة فتكون الآية محل كلام ، كذلك قد تظهر بعض الآيات بمظهر الاختلاف ولا اختلاف ، فمن ذلك ما ذكره الله سبحانه وتعالى عما خلق منه آدم ، فقد جعله التراب والطين والحمأ والصلصال فى كثير من الآيات فأشعر ذلك بالمخالفة ولكن لا خلاف لأن مرجعها كلها إلى جوهر واحد هو التراب الذى منه تشكلت هذه الأشياء . ومنه قوله تعالى « فاتقوا الله ما استطعتم » مع قوله « اتقوا الله حق تقاته » ووجه عدم المخالفة أن الأولى فى الأعمال والثانية فى العقائد وكذا قوله (فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة) مع قوله (ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم فلا تميلوا كل الميل) فإن الأولى فى توفية الحقوق والثانية فى ميل القلب ، ومن أمثلة هذا النوع فى الآية الواحدة قوله تعالى (قل أئنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين وتجعلون له أندادا ذلك رب العالمين . وجعل فيها رواسى من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها فى أربعة أيام سواء للسائلين . ثم استوى إلى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين . فقضاهن سبع سموات فى يومين وأوحى فى كل سماء أمرها وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا ذلك تقدير العزيز العليم) فإن ظاهرها يقتضى أن خلق الأرض والسماء استغرق ثمانية أيام وهذا ينافى المجمع عليها من أنها ستة لا غير ، ولكن التدبر فيها يرى أن اليومين الأولين الخاصين بخلق الأرض داخلان فى الأربعة بعدهما إذ كان جعل الرواسى وتقدير الأقوات فى يومين أتماهما أربعة ثم كان خلق السموات فى يومين ثالثين أكملا سلفيهما ستة أيام كما هو المعروف . وهناك آيات أخر

من هذا النوع لا يخفى التوجيه فيها على ذوى البصائر والعقول .

أما الاختلاف بمعنى التناقض فلا وجود له ألبتة فى القرآن .

تلك كلمة أسلفناها عن معانى القرآن فى صحتها ووضوحها وتلاؤمها وعدم اختلافها ، وإنه لمن الضرورى وقد امتد بنا الحديث هذا الامتداد أن نشفع تلك الكلمة بأخرى موجزة عن مبهمات القرآن ومتشابهاته . فأما المبهمات فنقصد بها الآيات ذوات الحاجة إلى إيضاح وهى نوعان نوع فسره القرآن فى موضع غير موضعه كقوله تعالى « صراط الذين أنعمت عليهم » فانه بين هؤلاء فى آية أخرى هى « فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين » وكقوله « وإذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلا » فقد فسره فى سورة النحل بقوله (وإذا بشر أحدهم بالأنثى) وكذا قوله (أحلت لكم بهيمة الأنعام إلا ما يتلى عليكم) فانه مفسر بقوله (حرمت عليكم الميتة) إلى آخر الآية . ونوع ترك تفسيره لأسباب ظاهرة ، منها اشتهاره نحو « اسكن أنت وزوجك الجنة » فمعروف أنها حواء . ومنها التستر عليه نحو (ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا ويشهد الله على ما فى قلبه وهو ألد الخصام) فقد نزلت فى الأخنس بن شريق ولم يذكر الله اسمه تسترا عليه لما علم من أنه سيسلم ويحسن اسلامه . ومنها ألا يكون فى ذكره فائدة كما فى الآية (أو كالذى مر على قرية) ومنها سوقه سوق العموم وإن كان فى الأصل خاصا كما فى قوله تعالى عن ضمرة بن جندب (ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله) ومنها تعظيمه بالوصف كما فى قوله تعالى (والذى جاء بالصدق وصدق به) يقصد النبى وأبا بكر إلى غير ذلك من الأسباب .

وأما المتشابهات فهى ما استأثر الله تعالى بعلمها إذ ليس فى قدرة العقول الوصول إلى حقائقها ولعله لا شىء منها فى القرآن إلا أوائل السور المبدوءة بالحروف ، والحكمة فى وجودها مع استغلاق معناها هى اختبار العباد فى درجات الإيمان فان من لم ترسخ عقائدهم ن يقفوا عندها وقفة الزيغ والإلحاد

كما قال الله سبحانه وتعالى ذاكراً ذلك (هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ومايعلم تأويله إلا الله، والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولو الألباب) إذ المختار أن الموقف فى هذه الآية على لفظ الجلالة والكلام بعدة مبتدأ وخبر . وبعض العلماء لا يقف بل يعطف فيشرك الراسخين فى العلم فى التأويل ولكن ذلك غير مؤيد ، فان المؤولين لم يصلوا إلى مقنع فى تأويلهم كما سترى مما يقولون . فبعضهم يجعل هذه المبادىء الحرفية مأخوذة من مبادىء أسماء الله تعالى أو من مبادىء جمل ينسبها سبحانه إلى نفسه ويقول إن ذلك اختزال جرت على بعضه العرب فى نحو قول القائل .

بالخير خيرات وإن شرا فا ولا أريد الشر إلا أن تا

يريد وأن شرا فشر ، إلا أن تشاء . وبعضهم يجعلها أسماء للسور أو أو أسماء لله لما روى من أن علياً رضى الله عنه كان يقول « يا كهيعص اغفر لى » أى يا مسمى بهذا الاسم أو يا قائل هذه السورة من سورك . وبعضهم يقول إنها مركبة على حساب الأعداد فى « أبجد » لأشياء موقوتة فى علم الله . وكل هذا لم يلتفت بنا إلى معنى معروف كما رأيت . وأخيراً هناك رأى لا بأس من إيراده وإن كان لا يضح عن سوابقه ، ذلك قول من يقول إنها إعلام للعرب ومن بعدهم بتركيب القرآن الذى أعجزهم من حروف لغتهم وإشارة إلى شىء من النظام الذى ورد عليه ذلك التركيب فى أنواع الكلمات ونسبة دورانها فيه وغلبة الحروف التى بدئت بها كل سورة على غيرها فيها ، ولذلك كثر ذكر الكتاب بعد كل حروف بدئت بها سورة ، حتى شمل كل السور إلا ثلاثا هى العنكبوت والروم ونون . على أن أصحاب هذا الرأى قد ظفروا بأشياء غاية فى العجب انتهوا إليها بعد بحثهم . فقد وجدوا مثلا أن السور التى بدئت بالحروف ثمان وعشرون بعدد حروف الهجاء . وأن الحروف التى دارت فيها هى نصف تلك الحروف . وأنها مشت

الغرض أتم أيضاح من حيث القضاء الشامل الذى لا يبقى شيئاً يمكن أن يكون به انتفاع . وكقوله تعالى فيمن آتاه آياته فانسلخ منها فأصبح لا يجيب بعنف ولا لين « واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فاقصص القصص لعلهم يتفكرون ساء مثلا القوم الذين كذبوا بآياتنا وأنفسهم كانوا يظلمون » فهؤلاء والكلب سواء لا يجيبونك إلى الإيمان تسوت أم لنت كما لا يطيعك الكلب إلى ترك اللهث حملت عليه أم تركت . وكقوله تعالى فى عدم انتفاع المشركين بمن يدعون على حاجتهم إلى الانتفاع « وهم يجادلون فى الله وهو شديد المحال له دعوة الحق والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشىء إلا كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه وما دعاء الكافرين إلا فى ضلال .

وجاء فيه التشبيه المعنوى الطرفين كقوله تعالى « أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشى به فى الناس كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها » ولكن هذا على عكس سابقيه فى القرآن قليل لأن المعنويات لا تطاوع على تحقيق الغرض من التشبيه ولذلك نجد القرآن لا يزال يحو هذا النوع بما يخرجه إلى ناحية الحس، ألا تراه فى هذه الآية مثلا — والقصد من التشبيه فيها التفريق بين حالى الضال يهدى والضال يبقى فى ضلاله — قد استعمل للضلال والهدى على سبيل التجوز الإماتة والإحياء وأثرهما فى الحس أوضح من أثر هذين وعطف عليهما وهما الطرف الأول من التشبيه ما قربهما من الحس وهو قوله « وجعلنا له نوراً يمشى به فى الناس » ثم لم يكتف بذلك بل جعل الطرف الثانى ظاهراً كله بمظهر الحس إذ حذفه ولم يبق دالا عليه سوى المحسوس المناظر فى الطرف الأول للمعطوف وهو قوله « كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها » وبهذا التصرف البديع الجبار خرجت الآية

على أحسن مخارج التشبيه إذ كادت تكون من تشبيه المعنوى بالمحسوس أو المحسوس بالمحسوس .

أما الصورة الباقية عقلا وهى تشبيه المحسوس بالمعنوى فلم يرد منها فى القرآن شىء لما يعترى التشبيه فيها دائماً من الحمل الضعيف أو المبالغة الممقوتة وهذا خروج على الأصل فى التشبيه ، لأن العقل مستفاد من الحس والمحسوس أصل للمعقول ، والتشبيه على هذه الصورة يستلزم جعل الأصل فرعا والفرع أصلا وهو قبيح . ولذلك حاد القرآن أيضاً عن أن يرد به شىء من التشبيه المعكوس إلا إذا كانت شركة الطرفين فى وجه الشبه لدى المخاطبين تبيح هذا التغيير كقوله تعالى « أفمن يخلق كمن لا يخلق » لأن المشركين سووا فى استحقاق العبادة بين آلهتهم والإلهَ الحق وعكفوا عليها من دون الله يعبدون ، فكانت عندهم أصلا يقع به الإلحاق ولذلك وقع التشبيه مقلوبا ولكنه جاء فى صفة تظهر خطأ التسوية باديا وعجز آلهتهم مكشوفا وهى صفة الخلق والإنشاء ، وكذلك قوله تعالى « إنما البيع مثل الربا وأحل الله البيع وحرم الربا » فإن العرب أولعت بالربا وأقبلت عليه أكثر مما تقبل على البيع فألحقه الله به ولكنه عقب على ذلك بما يفك هذا الإلحاق وهو تحليله البيع وتحريم الربا .

على هذه الصور الثلاث جاءت تشبيهات القرآن مع دعم الثالثة بنحو ما قدمنا عن الآية الممثل بها هناك ، فهو دائماً يخرج ما لا تقع عليه الحاسة إلى ما تقع عليه ويقدم الناقص ليلحقه بالكامل ، إلا أنه كان يجرى فى تشبيهاته كثيراً على الترفع بالكامل أن يتساوى بالناقص فيقدمه عليه حينئذ وذلك فى حالات النفى مثل قوله « يا نساء النبى لستن كأحد من النساء » أى فى التبذل والامتهان أو فيما يجرى مجرى النفى كما فى قوله « أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الأرض أم نجعل المتقين كالفجار » أى فى سوء الحال والنفى هنا آت عن طريق الإستفهام الإنكارى وعلى هذا يمكن أن تخرج الآية السابقة (أفمن يخلق كمن لا يخلق) فلا تكون

كآية البيع والربا نصا فى التشبيه المقلوب .

على أن القرآن كان إذا لم يجد فى بعض التشبيهات المشبه به الفائق على المشبه حقاً وواقعاً ، تخيره بما هو المثل الأعلى فى نظر المخاطبين وإن لم يكن من هذا العلو على القدر المطلوب ، ومن ذلك قوله تعالى « الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح فى زجاجة الزجاجة كأنها كوكب درى يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسسه نار ، نور على نور يهدى الله لنوره من يشاء ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شىء عليم » فإن المشبه به أمام المشبه ضئيل نحيل ، ولذلك ترى الآية قد أطالت فى وصفه بما عساه يفيض عليه السطوع والإشراق فجعلت المصباح فى زجاجة لامعة لمعان الكوكب الدرى وجعلت زيته مبالغة فى نقائه معتصرا من زيتونة مباركة يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسه نار ثم جعلت مشرقه كوة صغيرة غير نافذة وهى المشكاة ليملأها بضوئه ويشتد فى جوانبها شعاعه ، ولما كان الغرض من نور الله إنما هو الهدى يشع فى قلب المؤمن إشعاع ذلك المصباح فى المشكاة ذكر فى الآية أن تكون المشكاة فى بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه وهى المساجد لعظم مصابيحها وليكون فى ذلك ضمنا تشبيه قلب المؤمن يملؤه الإيمان بمشكاة المسجد يشع فيها مصباحه ، وتشبيه سائر جسده بسائر المسجد طهارة وقدسا . ولتماسك التشبيه على النحو الذى بينا وجب أن يوصل بين الآيتين قراءة ، فلا جواز للوقف على نهاية الأولى .

ولعل القرآن وقد عدل عن التشبيه المقلوب وتشبيه المعنوى بالمعنوى فراراً من الضعف والخفاء قد عدل لهذا أيضاً عن التشبيه المعتمد على الخيال ما لم تك الصورة الخيالية قد بلغت فى نفوس العرب مبلغ الصورة الحقيقية وأشد بما توالى عليها من صنع الخيال الذى يذهب بها فى التصوير إلى مدى بعيد . انظر قوله تعالى فى شجرة الزقوم « إنها شجرة تخرج فى أصل الجحيم طلعها كأنه رءوس الشياطين » كيف اعتمد فى المشبه به على

ما تتخيله العرب فى الشياطين من قبح المنظر الذى عمها وتناهى فى رءوسها حتى صار لها فى نفوسهم من الشناعة والبشاعة ما ذهب الخيال فى تصويره كل مذهب واسترسل فى تجسيم هوله أيما استرسال ، وكذا قوله تعالى فيما يقابل هذا التشبيه على لسان النسوة وقد أخرجت عليهن يوسف امرأة العزيز « فلما رأينه أكبرنه وقطعن أيديهن وقلن حاش الله ما هذا بشراً إن هذا إلا ملك كريم » فإن للملك فى النفوس صورة بلغ الخيال فى تحسينها المبلغ الفائق وأبدع فى تجميلها ما شاء له الإبداع .

ولم تقف قوة القرآن فى إخراج تشبيهاته عند الحدود التى رسمنا بل تعدتها إلى درجات أخر ذات روعة وجلال . من ذلك أنه كان إذا أتى بالمشبه أمراً غير معتاد انتزع المشبه به مما جرت به العادة فكان كثير الوقوع ، قال تعالى فى قصة عاد « كذبت عاد فكيف كان عذابى ونذر إنا أرسلنا عليهم ريحاً صرصراً فى يوم نحس مستمر تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر » والعارف أن بلاد العرب بلاد نخيل وأن من رياحها ما كان دبورا مدمرا وأنهم كانوا يعلمون أن منازل عاد كانت أكثر بلادهم نخيلا ، يدرك مبلغ هذا التشبيه من نفوسهم ، وقال فى السماء تشقق عن حمرة ولين « فاذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان » أى حمراء ذائبة كالدهن ، أو كالوردة تكون فى حمرتها وطراءتها كالجلد الأحمر المدبوغ ، فيكون هنا تشبيه داخل تشبيه وكلا الشيئين كان للعرب به عهد واختبار ، وقال (وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة) وليس أظهر فى بيان السهولة فى نتق الجبل من جعله كالظلة يرفعها الإنسان فوق رأسه دون كلفة ولا عناء .

ومنها أنه كان إذا أتى بالمشبه أمراً غائباً عن العيان وإن كان من شأنه أن يحس أو معنوياً يحتاج فى تصوره إلى تدبر وتفكير ، أعقبه بالمشبه به معروفاً بالبداهة دون إعمال روية ولا إجهاد ، مثال الأول قوله تعالى يصف سعة الجنة (وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين) فقد أخرجها على غيبها مخرج المعاين المالىء الآفاق ،

ومثال الثانى قوله تعالى فى قصة عاد أيضا (وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاويه) فإن خواء النخل يتأكل أجوافها يخرج إلى البديهة إدراك حال الأجساد وقد غادرتها الأرواح ، وكذا قوله فيمن اتخذوا من دون الله أولياء (مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون) وقوله فيمن حملوا التوراة ولم يقتفوها كأنهم لم يحملوها (مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله والله لا يهدى القوم الظالمين) وليست الآيتان فى حاجة إلى تعليق .

ولقد كان القرآن يتصرف فى الحال الواحدة بالتشبيه تصرفا واسع الأفق رحب الميدان فيكون فى كل حالة مصيباً للغرض أشد إصابة موفياً ما يريد أكمل إيفاء ، خذ لذلك مثلا تشبيهه المنافقين تشبيهين متتاليين حيث يقول (مثلهم كمثل الذى استوقد ناراً فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم فى ظلمات لا يبصرون . صم بكم عمى فهم لا يرجعون . أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق يجعلون أصابعهم فى آذانهم من الصواعق حذر الموت والله محيط بالكافرين . يكاد البرق يخطف أبصارهم كلما أضاء لهم مشوا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم إن الله على كل شىء قدير) وخذ لهذا أيضاً تشبيهه لأعمال الكافرين كذلك حيث يقول (والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب . أو كظلمات فى بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ، ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور) فقد سلبها التشبيه الأول المنفعة على ظنها بها ، وجردها الثانى من أن تكون محل هداية وإرشاد .

وانظر تشبيهه فى الشرك وما يفعل بالمشرك حيث يقول (فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور . حنفاء لله غير مشركين به، ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به ، الريح فى مكان سحيق) فهو لا محالة إلى هلاك ليس مثله هلاك . وكذا تشبيهه فى التفرقة بين الله جل شأنه وبين ما أشركوا به من أصنام إذ يقول (ضرب الله مثلا عبداً مملوكا لا يقدر على شىء ومن رزقناه منا رزقاً حسنا فهو ينفق منه سراً وجهراً هل يستوون الحمد لله ، بل أكثرهم لا يعلمون . وضرب الله مثلا رجلين أحدهما أبكم لا يقدر على شىء وهو كل على مولاه أينما يوجهه لا يأت بخير هل يستوى هو ومن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم) . ثم انظره فى هذه الناحية يشبه المشرك تتنازعه الآلهة ، والموحد يخلص إلى الواحد موازناً بينهما حيث يقول (ضرب الله مثلا رجلا فيه شركاء متشاكسون ورجلا سلما لرجل هل يستويان مثلا الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون) بل انظره يشبه كلمة التوحيد فى نتاجها وكلمة الشرك فى عقمها إذ يقول « ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون . ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء » . وعلى هذا النحو يقول فيمن ينفق ماله رئاء الناس وفيمن ينفقه ابتغاء مرضاة الله (يأيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كالذى ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر فمثله كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلدا لا يقدرون على شىء مما كسبوا والله لا يهدى القوم الكافرين . ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتا من أنفسكم كمثل جنة بربوة أصابها وابل فآتت أكلها ضعفين فان لم يصبها وابل فطل والله بما تعملون بصير) ثم يعود ثانية إلى تمثيل ما يصنع المن والرئاء

بالصدقات من سحق وتدمير فيقول عقب هذه الآيات (أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب تجرى من تحتها الأنهار له فيها من كل الثمرات وأصابه الكبر وله ذرية ضعفاء فأصابها إعصار فيه نار فاحترقت كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون) وانظر تشبيهه قبل ذلك فيمن ينفقون أموالهم فى سبيل الله وما قدر لهم من مضاعف الأجر حيث يقول (مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم) ولهذه المناسبة انظر كيف تدرج من هذه الآية إلى الآيات السابقة فى المن والأذى حيث قال بينهما وما أشده التحاما وأوثقه رباطا (الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا منا ولا أذى لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون . قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى والله غنى حليم » .

بل لقد كان القرآن يتصرف فى التشبيه فى المعنى الواحد لا فى الحال الواحدة تصرفا يجرى بين قبض وبسط وتساو ، فيبلغ فى كل ذلك الغرض الذى يريده والمرمى الذى يقصده فى قوة وسداد ، من ذلك ما جاء فى وصفه هذه الحياة وأن كل ما فيها من زخرف وغرور إن هو الإمتاع لابد مستسلم إلى فناء . قال فيها موجزا فى سورة الكهف « واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيما تذروه الرياح وكان الله على كل شىء مقتدرا » ، وقال فيها مساوياً فى سورة الحديد « اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر فى الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يكون حطاما وفى الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور » ، وقال فيها مطنبا فى سورة يونس « يأيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم متاع الحياة الدنيا ثم إلينا مرجعكم فننبئكم بما كنتم تعملون إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل

الناس والأنعام حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالأمس كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون » فهذه الآية الأخيرة قد أتت فى تشبيه المفرد بالمركب بما ليس له مثيل ولا مقارب فى كلام الناس ، وأنى للناس أن يذللوا هذا النوع وبه ما ترى من شدة الشكيمة وصعوبة الانقياد وهو فى القرآن أكثر من أخويه تشبيه المفرد بالمفرد والمركب بالمركب . أما تشبيه المركب بالمفرد فليس فى القرآن منه شىء لأنه يتنافى والطريق الصحيح للتشبيه إذ ليس فى قوة مفرد أن يزيدك بياناً على ما تفهمه من تركيب ، اللهم إلا إذا جاء على سبيل الإستعارة التمثيلية فى ضرب الأمثال حيث يعتمد المثل على قصة تجعل المشبه به على قصره أطول من المشبه مهما امتد به التركيب ، على أن هذا ليس من التشبيه بالمعنى المصطلح عليه فى شىء وإذن فهو خارج بذاته لا بما تلمسناه له من أسباب فلا حجة به علينا ولا ضير علينا منه .

والقول فى تشبيه القرآن حافل طويل يعجز الإنسان عن الإحاطة بأمثلته ويحار فى تعديد المزايا لكل مثال فلنقف منه عند هذا القدر خاتمين إياه بآية كريمة تلاحق فيها التشبيه بقوة وغزارة كالموج يدرك بعضه بعضا فى شدة دفع وحسن التئام وهى قوله تعالى : « قل من رب السموات والأرض قل الله قل أفاتخذتم من دونه أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضرا قل هل يستوى الأعمى والبصير أم هل تستوى الظلمات والنور أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم قل الله خالق كل شىء وهو الواحد القهار . أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبداً رابياً ومما يوقدون عليه فى النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله كذلك يضرب الله الحق والباطل فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض كذلك يضرب الله الأمثال » .

٢ — مجازات القرآن

قد وردت جميع المجازات المعروفة فى القرآن الكريم بكثرة وفوق وابتكار، وهذه كلمة موجزة عن كل نوع.

١ — المجاز الاستعارى

فالمجاز الاستعارى وهو المبنى على التشبيه جاء فيه بالكثرة التى عليها التشبيه نفسه، قال تعالى فى استعارة الموج للجلبة والتلاطم «وتركنا بعضهم يومئذ يموج فى بعض»، والمرأة التى لا تلد للريح غير اللاقحة «إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم»، والسلخ لخروج النهار من الليل «وآية لهم الليل نسلخ منه النهار»، واشتعال النار للشيب يلتهم السواد «فاشتعل الرأس شيبا»، إلى غير ذلك من الاستعارات المحسوسة الطرفين. وقال فى استعارة القذف والدفع للتسلط والقهر «بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق»، والمس للنيل والزلزلة للانزعاج «مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله»، والصدع للجهر بالدعوة «فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين»، والنبذ للاهمال «فنبذوه وراء ظهورهم»، والأودية لمقاصد الشعراء «ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون»، والظلمات للكفر والنور للايمان «كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور»، إلى غير ذلك مما استعير فيه محسوس لمعنوى. وقال فى استعارة الرقاد للموت «من بعثنا من مرقدنا»، والسكوت للزوال «ولما سكت عن موسى الغضب»، والقدوم للجزاء بعد الامهال «وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا»، إلى غير ذلك من استعارة المعنوى للمعنوى. أما استعارة المعنوى لمحسوس فلم يك يقدم عليها إلا إذا جاء وجه الشبه فى بعض المعنويات أقوى منه فى بعض المحسات على خلاف المتعود المعروف، ومن ذلك قوله فى استعارة الطغيان لزيادة الماء «إنا لما طغى الماء حملناكم فى الجارية»

والعتو لشدة الريح « فاهلكوا بريح صرصر عاتية » وليس من شك فى أن إحساس الناس بطغيان الطاغى وعتو العاتى أشد إيلاماً لنفوسهم وهم أكثر له خوفا من الزيادة فى الماء والشدة فى الريح .

ولقد كان القرآن يعنى بالترشيح فى الاستعارة لما فيه من تقوية الحمل وتعزيز المعنى قال تعالى « وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لا يبصرون » وقال « إذا ألقوا فيها سمعوا لها شهيقا وهى تفور » تكاد تميز من الغيظ » وقال « وفتحت السماء فكانت أبوابا وسيرت الجبال فكانت سرابا » وقال « واخفض لهما جناح الذل من الرحمة » وقال « أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين » ولم يقف عند حد التخيل فى الترشيح بل جاءت فيه استعارات مبينة كلها على التخيل لاستحالة التشبيه فيها على سبيل التحقيق كما فى قوله تعالى « بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء » وقوله « ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام » وقوله « الرحمن على العرش استوى » وقوله « وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون » إلى غير ذلك من آيات الصفات المناظرة لصفات الأحداث . وإنما لم يحسن تخريجها على التجوز الإرسالى لأن مبناه كما سيأتى على غير التشبيه ، فهذا موطن الفرق ومحل الخلاف بين أمثال هذه الآيات وبين المجاز المرسل من جهة ثم بينها وبين الاستعارات التحقيقية من أخرى . وكثيراً ما كان يساق فى باب التخيل حتى يكون الكلام فى مجموعه مثلا مضروبا وقصة متخيلة بقطع النظر عما فى داخله من استعارات جزئية فمن ذلك قوله تعالى « وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون » وقوله « أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون » إلى غير هذين من قصصه التخيلية الكثيرة التى كانت

تستغرق الواحدة منها أحياناً الكم الكبير من القول . وللقرآن افتنان فى الاستعارة الهكمية وهى التى تستعمل فيها الألفاظ الدالة على المدح والتكريم فى نقائضها من الذم والتهجين كما فى قوله « خذوه فاعتلوه إلى سواء الجحيم ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم ذق إنك أنت العزيز الكريم » وقوله « فبشرهم بعذاب أليم » وقوله « فاهدوهم إلى صراط الجحيم » إلى غير ذلك .

ب — المجاز الارسالى

وهو ما لم يبن على التشبيه ، ولم يقل دورانه فى القرآن الكريم عن المجاز الاستعارى فهو فيه كثير الأمثلة متعددة الأنواع إلى درجة بلغت علاقاته فيها نحو الأربعين .

فمنه إطلاق الكل على الجزء وعكسه نحو « وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم » و(فولوا وجوهكم شطره) ومثل هذين وصف الجزء بصفة الكل والعكس مثل (ناصية كاذبة خاطئة) و (ولملئت منهم رعبا) ومنه إطلاق الخاص على العام وعكسه مثل (أنا رسول رب العالمين) أى رسله و(ويستغفرون لمن فى الأرض أى للمؤمنين بدليل (ويستغفرون للذين آمنوا) وبدليل (ما كان للنبى والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم، وما كان استغفار ابراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه إن إبراهيم لأواه حليم) ومنه إطلاق المسبب على السبب وعكسه نحو (قد أنزلنا عليكم لباسا) و (ما كانوا يستطيعون السمع) وقد يتركب سبب على سبب نحو (فأخرجهما مما كانا فيه) لأن المخرج هو الله للأكل من الشجرة الناشىء عن وسوسة الشيطان ، ومنه تسمية الشىء باعتبار ما كان أو ما يكون مثل (فلا تعضلوهن أن ينكحن أزواجهن) و (فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجا غيره) ومنه تسمية الحال باسم المحل والعكس مثل « فليدع ناديه » و (إذ يريكهم الله فى منامك قليلا) على معنى الرؤية البصرية أى فى عينك ، وقد اجتمعا فى قوله

تعالى (خذوا زينتكم عند كل مسجد) أى ما تتزينون به عند كل صلاة ، وكذا منه تسمية الشيء باسم آلته نحو (وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه) واطلاق الفعل والمراد مقاربته نحو (فإذا بلغن أجلهن) أى قاربنه وبذلك يندفع ما يعترض به على قوله (فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون) من أنه لا معنى للتأخير والتقديم إذا جاء الأجل لأن المراد فإذا اقترب أجلهم ، وكذا اطلاقه والمراد ضده مثل (ما منعك ألا تسجد) أى ما دعاك على أن لا غير زائدة ، ومنه قلب الاسناد نحو (ويوم يعرض الذين كفروا على النار) أى تعرض النار عليهم لأن المعروض عليه هو العاقل ، كما أن منه أيضاً إقامة صيغة مقام أخرى كالمصدر مقام فاعل أو مفعول والعكس فيهما نحو (أن أصبح ماؤكم غورا) و (لا يحيطون بشيء من علمه) و (ليس لوقعتها كاذبة) و (بأيكم المفتون) على أن الباء غير زائدة ، وكفاعل مقام مفعول والعكس مثل (جعلناه حرما آمنا) و (إنه كان وعده مأتيا) وكواحد من المفرد والمثنى والجمع مقام آخر منها نحو (والله ورسوله أحق أن يرضوه) و (إن الإنسان لفى خسر إلا الذين آمنوا) و (يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان) و (ثم ارجع البصر كرتين) و (قال رب ارجعون) ، (قالتا آتينا طائعين) والماضى على المستقبل وعكسه نحو (ونفخ فى الصور فصعق من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله) و (ويقول الذين كفروا لست مرسلا) ، والخبر مقام الانشاء والعكس نحو (والمطلقات يتربصن) و (ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق) ، وبعض أنواع الخبر مكان بعض خلافا للظاهر نحو (ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا إنهم مغرقون) فقد نزل فيه الخالى منزلة السائل ، وبعض أنواع الانشاء مكان بعض نحو (فهل أنتم منتهون) أى انتهوا ، وجمع القلة مكان جمع الكثرة والعكس نحو (وهم فى الغرفات آمنون) و (ثلاثة قروء) ، والمذكر فى موضع المؤنث والعكس نحو (وأحيينا به بلدة ميتا) و (الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون) .

ومن هذا المجاز أيضاً بابان واسعان هما التضمين ويكون فى الحروف والأفعال والأسماء نحو (عينا يشرب بها عباد الله) أى يروى بها أو يشرب منها و (حقيق على ألا أقول على الله إلا الحق) أى حريص ، ثم التغليب ويكون لكل ما هو ذو مزية على سواه نحو (إلا امرأته كانت من الغابرين) للمذكر على المؤنث ونحو (بل أنتم قوم تجهلون) للخطاب على الغياب ، وغير ذلك مما لا داعى إلى الإطالة فيه بعد الذى قدمناه .

ح — المجاز العقلى

والتجوز فيه عقلى بالإسناد لا لغوى فى المفردات كما فى المجازين السابقين ، وهو صالح لأن يخرج عليه كثير من أمثلتهما ولا سيما المرسل منهما إذا أبقينا الألفاظ على حقائقها وتجوزنا فى الإسناد دونها ، ولهذا كان كثير الوقوع فى القرآن أيضا ، ومنه قوله تعالى (حتى إذا أخذت الأرض زخرفها) ، (وأخرجت الأرض أثقالها) و(فوجد فيها جدارا يريد أن ينقض فأقامه) لأن الأرض لا تأخذ ولا تخرج والجدار لا يريد ، ونحو هذا مما طرفا الإسناد فيه حقيقتان ، على أنه يوجد من المجاز العقلى فى القرآن ما الطرفان فيه أو أحدهما من المجاز اللغوى كما فى قوله (أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم) أى فما ربحوا فى تجارتهم ، وهذا هو التجوز العقلى ثم الربح والتجارة مع ذلك مجازان لغويان وكما فى قوله (تدعو من أدبر وتولى وجمع فأوعى) لأن الدعاء من النار بمعنى الجمع مجاز لغوى وإسناد الجمع إليها مجاز عقلى وكما فى قوله (فأمه هاوية) لأن إطلاق الأم على الملجأ والكافلة تجوز لغوى والأخبار عنها بالهاوية مجاز إسنادى ، والشواهد عليه من القرآن كثيرة ولسنا فى حاجة إلى تعدادها بعد أن بينا إمكان تطبيق الكثير من أمثلة المجازين السابقين عليه وبخاصة المرسل منها .

٣ — كنايات القرآن

لقد كثرت الكناية فى القرآن الكريم وتنوعت أغراضها ، وكان من أكثرها دوراناً فيه الكناية عن الألفاظ التى لا يحسن النطق بها وصنعبر نحن هنا عنها على سبيل الكناية أيضا . فمن ذلك أنه كنى عن قضاء الحاجة بأكل الطعام وعن التبول بالمجىء من الغائط وهو المطمئن من الأرض فى قوليه « كانا يأكلان الطعام » وقوله « أو جاء أحد منكم من الغائط » وكنى عن المأتى الخاص فى المرأة بالحرث فى قوله « نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم » . وكان إذا كثرت الكناية عن الشىء الواحد لا يجمد على لفظ معين يستعمله كلما أراده بل يستخدم عدة ألفاظ تكاد تفى بمواضع ذلك الاستعمال ، ومن هذا أنه كنى عن المخالطة الجنسية بالملامسة والمباشرة والافضاء والدخول والغشيان والرفث والمراودة وغيرها مما نطقت به الآيات على ما هو معروف . ولم يقف بالكناية عند حد الألفاظ القبيحة فكان كثيرا ما يغادر اللفظ مع عدم قبحه إلى ما هو أجمل منه مجاراة للعرف والعادة ، ومن ذلك أنه حاد عن ذكر أسماء النساء إلى الكناية عنها لأن العرب كانت لا تذكر من أسماء نسائها سوى أسماء الأماء فلم يرد فيه ذكر امرأة باسمها إلا مريم لنسبة عيسى إليها بل إن لفظ النساء نفسه لم يك يذكره صريحاً إذا كان المراد المتعة كما فى قوله « وفرش مرفوعة » فقد قيل إنه كناية عن النساء بدليل قوله تعالى بعده « إنا أنشأناهن إنشاء فجعلناهن أبكارا عربا أترابا » وكما فى قوله « وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضا لم تطئوها » فقد قيل إن المراد بالأرض الثانية النساء أيضا .

وللكناية فى القرآن أغراض غير ما تقدم . منها قصد المبالغة للتبشيع كما فى قوله « أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه » أو لبيان القوة نحو « وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم » أو الضعيف نحو « أو من ينشأ فى الحلية وهو فى الخصام غير مبين » . ومنها التنبيه على عظم

القدرة كما فى قوله « هو الذى خلقكم من نفس واحدة » أوعلى حقيقة المصير كما فى قوله (تبت يدا أبى لهب وتب ما أغنى عنه ماله وما كسب ، سيصلى ناراً ذات لهب ، وامرأته حمالة الحطب ، فى جيدها حبل من مسد) فقد اختار هذه الكنية لأبى لهب وكنى عن امرأته بحمالة الحطب إشارة إلى أن مصيرهما النار ذات اللهب ، فالألفاظ متعاشقة متناسبة وقد رشح الكناية فى قوله حمالة الحطب بقوله (فى جيدها حبل من مسد) والسورة على قصرها ذات قوة متينة وإعجاز شديد ثم هى ذات انطباق تام على مانزلت من أجله فقد كان سبب نزولها أن أبا لهب وهو عبد العزى بن عبد المطلب لما سمع قول رسول الله فى صدق دعوته وقد جمع الناس على الصفا قال له تبا لك إنما جمعتنا لهذا ، ثم كانت امرأته حمالة الحطب وهى أم جميل بنت حرب تمشى بين الناس بالوقيعة ، والعرب تكنى عن هذا بحمل الحطب لأنه وسيلة إلى إيقاد النار . ومنها التمكين من التعبير عن الدقيق كما فى قوله تعالى (وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر) فإنه ليس هناك أدق من أن يكنى عن أول بدو النور بالخيط الأبيض . وقد يكون الغرض من الكناية الإيجاز فى التعبير كما فى قوله (فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا) أى فإن لم تأتوا بسورة من مثله ولن تأتوا بسورة من مثله ، وهو كثير جداً فى القرآن مثل « ولبئس ماكانوا يفعلون » .

التعريض — هذا ومما يعد قسيما للكناية التعريض وهو كثير فى القرآن أيضا وله أغراض كما للكناية أغراض . وأهم أغراضه الذم والتنقيص إما بالاهانة والتوبيخ كما فى قوله تعالى (وإذا الموءودة سئلت بأى ذنب قتلت) فانه تعريض بسؤال قاتلها لاهانته وتوبيخه وكما فى قوله (أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون) فانه تعريض بالكفار فى إنكارهم الرجعة والمعاد ، وإما بالسخرية والاستهزاء كما فى قوله على لسان قوم نوح له (فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما نراك إلا بشرا مثلنا وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادى الرأى وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين) ،

وإما بالتوضيع والتحقير كما فى قوله (قالوا أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم قال بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون) فهو تعريض بآلهتهم على جهة التوضيع والتحقير للضعف البادى عليها فى عدم النطق والعجز عن الدفاع . ولقد أتى القرآن بهذا العجز بينا على سبيل التصريح فى آية جعل الآلهة فيها أدنأ مرتبة وأقل قدرة من الذباب هى قوله سبحانه (يأيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له ، إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب ما قدروا الله حق قدره إن الله لقوى عزيز) . على أن التعريض قد يأتى للذم خالصا كما فى قوله (إنما يتذكر أولو الألباب) ، (إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون) وهو كثير جدا فى القرآن . وهناك أغراض أخرى له أتت فى القرآن أيضا منها استدراج الخصم بمخاطبة غيره كقوله تعالى لرسوله (لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين) فانه تعريض بالكفار لاستحالة الاشراك عليه صلى الله عليه وسلم . ومنها التلطف فى المحاورة كما فى قوله على لسان رسوله (ومالى لا أعبد الذى فطرنى) أى وما لكم بدليل قوله بعد (وإليه ترجعون) وقد يصل التلطف إلى أن يكون مجرد لفت نظر كما فى قوله تعالى على لسان الملكين لداود وقد تسورا عليه المحراب وقال أحدهما عن الآخر (إن هذا أخى له تسع وتسعون نعجة ولى نعجة واحدة فقال أكفلنيها وعزنى فى الخطاب) إلى آخر القصة فانها تعريض به عليه السلام لما جال فى خاطره من ضم امرأة (أوريا) الواحدة إلى نسائه التسع والتسعين بتطليقه إياها أو بعد وفاته عنها ، وقد فطن لهذا التعريض بعد حكمه بظلم السائل (فاستغفر ربه وخر راكعا وأناب) وقبل الله استغفاره بقوله (فغفرنا له ذلك وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب) .

هذا ومما ينبغى ذكره هنا صلاحية كثير من آى القرآن لاستخدامها

على سبيل التعريض وإن لم تك واردة لذلك أصلا، وأمثلة هذا كثيرة ، منها ماروى من أن أبا العيناء سئل عن ابنَىْ وهب ، الحسن وسليمان ، أيهما أفضل فقال (وما يستوى البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج) سليمان أفضل ، فقيل له وكيف فقال (أفمن يمشى مكبا على وجهه أهدى أم من يمشى سويا على صراط مستقيم) .

بلاغـــة القرآن

كما ترسمنا خطا البيانيين فى الأصول التى بنينا عليها كلامنا فى فصاحة القرآن كذلك سنقفو أثر المعنويين فى الكلام على بلاغته ، وهم قد رجعوا ضروب القول على كثرتها إلى أصلين ترجع إليهما كل فروعه وتتشعب منهما جميع فنونه ، ذانك هما الأخبار والمنشآت . وقد ورد كلاهما فى القرآن مراعى فيه جميع مقتضيات الأحوال التى من أجلها وضع علم المعانى وبعبارة أخرى علم البلاغة فى أخص معانيه ، وكل ما سنذكر فى هذا إنما هو إظهار بعض من تلك المقتضيات ، أما محاولة الإلمام بها جميعا فليست فى مقدور إنسان . وقبل البدء فيما نحاول يحسن أن نذكر النقط التى سيتناولها الكلام ليكون القارىء على بينة منها وهى لا تعدو كلمتين موجزتين عن كل من الخبر والإنشاء لابد منهما فى التعريف بهما من حيث أصل الوضع وطرق الاستعمال ، وبعدهما نسوق ما تبيناه من المقتضيات فى هذه الأمور .

١ — الجمل فعلية واسمية ومتعلقاتها .
٢ — التنكير والتعريف .
٣ — الأفراد والتذكير وفروعهما .
٤ — الذكر وعدم الذكر .
٥ — التقديم والتأخير .
٦ — الاطلاق والقصر .
٧ — الفصل والوصل .
٨ — الإيجاز والأطناب والمساواة .
٩ — خروج الكلام عن مقتضى الظاهر .
١٠ — الدقة فى استعمال الألفاظ والتراكيب من حيث المناسبة للمعانى .
١١ — تنوع القسم فى القرآن وحكمته .

١٢ — الجدل فى القرآن .

١٣ — بدائع القرآن .

١٤ — مزايا القرآن بوجه عام .

هذا ما نريد أن نعرض له بنبذ يسيرة بعد كلمتى الخبر والإنشاء .

الخبر

جاءت أخبار القرآن فى كثير منه على المقصد الأول من الخبر وهو إفادة الحكم بأعلام المخاطب إياه أو لازم الفائدة بأعلامه أن المتكلم عارف به ، ثم هى قد جاءت خالية من كل تأكيد ما انعدمت دواعى هذا التأكيد من تردد أو إنكار نحو (وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى) ، (وناديناه أن يا ابراهيم) ، (هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا) ، (ولا تزر وازرة وزر أخرى) إلى غير ذلك من الآيات حتى المنبئة عن غيب لأن تحقق وقوعه يجعله فى غير حاجة إلى توكيد قال تعالى (غلبت الروم فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون) وقال (وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها) . فإن كانت محل تردد رأيت بها من المؤكدات بعضا نحو (إنا مرسلو الناقة فتنة لهم فارتقبهم واصطبر) و (إنا منزلون على أهل هذه القرية رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون) و (إنا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار) و (إنا أنزلناه فى ليلة القدر) أما إذا كانت موطن إنكار فإنك تجد فيها من المؤكدات ما يتلاءم ودرجات الانكار نحو (وإنهم عندنا لمن المصطفين الأخيار) و (إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد) و (وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب) وانظر هذه الضروب الثلاثة يعقب بعضها بعضا لتجدد المقتضيات فى قوله تعالى (واضرب لهم مثلا أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث فقالوا إنا إليكم مرسلون قالوا ما أنتم إلا بشر مثلنا وما أنزل الرحمن من شىء إن أنتم ألا تكذبون قالوا ربنا يعلم إنا إليكم

لمرسلون وما علينا إلا البلاغ المبين) .

وقد يخرج الخبر عن هذا المقصد الأصيل إلى مقاصد أخرى . منها ما يبقى فيه الخبر خبرا فيكون للوعيد نحو (سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق) و(وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون) أو الاسترحام كقول موسى (ربى إنى لما أنزلت إلى من خير فقير) أو اظهار الضعف كقول زكريا (رب إنى وهن العظم منى واشتعل الرأس شيبا) أو التحسر كقول مريم (رب إنى وضعتها انثى والله أعلم بما وضعت وليس الذكر كالأنثى) إلى غير ذلك مما لا تتأتى فيه فائدة أو لازمها . ومنها مايتحول فيه إلى إنشاء كالأمر فى قوله (والوالدات يرضعن) و(والمطلقات يتربصن) أى ليرضعن وليتربصن ، والنهى فى قوله (لا يمسه إلا المطهرون) أى لا يمسسه ، والدعاء نحو « وإياك نستعين » أى أعنا ، والتعجب نحو « فما أصبرهم على النار » .

وكما يكون الخبر مثبتا يكون منفيا نحو « ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين » ويخص باسم النفى إذا كان النافى صادقاً كهذه أما إذا كان كاذباً فإنه يسمى بالجحد كنفى فرعون وقومه على غير حقيقة آيات موسى فى قوله « فلما جاءتهم آياتنا مبصرة قالوا هذا سحر مبين » ولذلك قال سبحانه بعدها « وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعتوا » . وعلى ذكر النفى نقول إنه لما كان نفى العام يدل على نفى الخاص وإثباته لا يدل على إثباته ، وكان اثبات الخاص يدل على اثبات العام ونفيه لا يدل على نفيه ، جرى القرآن الكريم — إلا فيما خالف فيه الظاهر لداع كقوله تعالى (وما ربك بظلام للعبيد) وقوله (وما كان ربك نسيا) — على نفى العام لينفى الخاص وعلى اثبات الخاص ليثبت العام . فمن الأول قوله (فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم) ولم يقل بضوئهم وإن كان الظاهر أنه أنسب لقوله أضاءت لأن النور أعم من الضوء فنفيه ينفيه ولا عكس ، ولذلك قال (وتركهم فى ظلمات لا يبصرون) ومن هذه الناحية

أثبت الضوء للشمس ولم يثبت للقمر سوى النور فى قوله (هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا) ، ومن الثانى قوله (وجنة عرضها السموات والأرض) ولم يقل طولها لأن هذا يثبت له أكثر مما ثبت للعرض ولا عكس .

الإنشاء

ومنشآت القرآن شملت كل أنواع الإنشاء فى أصل استعمالها وفى خروجها عن هذا الأصل لدواع تقضى بهذا الخروج، وهذه الأنواع هى الأمر والنهى والتمنى والنداء والاستفهام .

فالأمر أصله لطلب الفعل على جهة الاستعلاء والأصل فى صيغته إفادة الوجوب نحو (فاذكرونى أذكركم واشكروا لى) و (ادعونى أستجب لكم) ، (اتقوا الله حق تقاته) و(أقيموا الصلاة وآتوا الزكاة) و (فليصلوا معك). وقد يرد لمعان أخر نحو (وإذا قرىء القرآن فاستمعوا له وأنصتوا) للندب و (وإذا حللتم فاصطادوا) للاباحة و (فاصبروا أو لا تصبروا) للتسوية ، (رب اغفر لى) للدعاء و (وأشهدوا إذا تبايعتم) للارشاد و (ادخلوها بسلام آمنين) للتكريم و (كلوا من ثمره) للامتنان و (كلوا مما رزقكم الله) للانعام و (انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه) للاعتبار و (قل تمتعوا فان مصيركم إلى النار) للانذار و (كن فيكون) للتكوين و (كونوا قردة خاسئين) للتسخير و (اعملوا ما شئتم) للتهديد و (ذق إنك أنت العزيز الكريم) للاهانة و (فأتوا بسورة من مثله) للتعجيز و (قل فأتوا بالتوراة فاتلوها) للتكذيب و (فانظر ماذا ترى) للمشورة و (أنظر كيف ضربوا لك الأمثال) للعجب .

والنهى أصله لطلب الكف على وجه الاستعلاء والأصل فى صيغته إفادة التحريم نحو (ولا تقتلوا أولادكم) ويرد لأشياء أخر مثل (ربنا لا تزغ قلوبنا) فى الدعاء و (اصبرا أو لا تصبروا) فى التسوية و (ولا تمش فى

الأرض مرحا) للكراهية و (اخسئوا فيها ولا تكلمون) للاهانة ، (ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم) للاحتقار و (لا تعتذروا اليوم) لليأس و (لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم) للارشاد ، (ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتاً بل أحياء) لبيان العاقبة .

والتمنى توقع أمر محبوب ومثله الترجى ولكن يغلب فى الأول عدم إمكان الوقوع وفى الثانى إمكانه ، وحرف التمنى ليت وحرف الترجى لعل وهما كثيرا الوقوع فى القرآن ، فمن التمنى قوله (يا ليتنا نرد) و(يا ليت قومى يعلمون) و (يا ليتنى كنت معهم) ومن الترجى قوله (لعل الساعة قريب) ، (لعلى أبلغ الأسباب) وقد يجيئان بغير هذين الحرفين مثل (فلو أن لنا كرة) و(عسى أن يكون قريبا) .

والنداء طلب إقبال المدعو إلى الداعى حساً أو معنى نحو (يأيها الناس اعبدوا ربكم) و (يأيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدى الله ورسوله) . ويغلب أن يعقب النداء فى القرآن الكريم أمر أونهى كما فى الآيتين السالفتين وقد يتقدمه نحو (وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون) كما قد يكون التالى جملة خبرية يليها الأمر فعلية كانت نحو (يأيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له) أو اسمية مثل (يا قوم هذه ناقة الله لكم آية فذروها). على أنه قد لا يليه شىء من هذا النحو مثل (يا عباد لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون) إذ التالى هنا خبر ليس بعده إنشاء ولكن اكتفى به لأنه فى معنى الطلب إذ المعنى لا تخافوا ولا تحزنوا . ثم قد يكون التالى جملة إنشائية استفهامية نحو (يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئا ، هذا . وقد يستعمل النداء فى غير طلب الاقبال مثل (رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت) للاختصاص و (يا حسرة على العباد ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون) للتعجب و (يا ليتنى كنت معهم) للتحسر .

أما الاستفهام فأصل معناه طلب الفهم والاستخبار عما يطلب بأدواته الكثيرة كالصفة والذات والحقيقة المطلوبة بما فى أقواله تعالى (قالوا ادع

لنا ربك يبين لنا ما لونها) و (قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هى) و (قال فرعون وما رب العالمين) إلى غير ذلك مما يطلب بسائر أدوانه وهو كثير فى القرآن، وأكثر منه خروج الاستفهام عن أصل وضعه إلى معان أخر تفهم من سياق الكلام ، كالانكار فى قوله (أفأصفاكم ربكم بالبنين واتخذ من الملائكة إناثا) وقوله (أنلزمكموها وأنتم لها كارهون) والتوبيخ نحو (أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير) والتقرير نحو (هل يسمعونكم إذ تدعون أو ينفعونكم أو يضرون) والتعجب مثل (كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون) والعتاب مثل (ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق) والتذكير فى (ألم أعهد إليكم يا بنى آدم ألا تعبدوا الشيطان) والافتخار نحو (أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتى أفلا تبصرون) والتفخيم مثل (ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها) والتهويل نحو (الحاقة ما الحاقة) والتسهيل نحو (وماذا عليهم لو آمنوا بالله واليوم الآخر) والوعيد نحو (ألم نهلك الأولين) والتكثير مثل (وكم من قرية أهلكناها) والأمر نحو (أأسلمتم) ونحو (فهل أنتم منتهون) والنهى نحو (أتخشونهم) والتنبيه مثل (ألم تر إلى ربك كيف مد الظل) والترغيب نحو (من ذا الذى يقرض الله قرضاً حسنا فيضاعفه له) والدعاء نحو (أتهلكنا بما فعل السفهاء منا) والاسترشاد نحو (أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء) والتمنى نحو (فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا) والاستبطاء نحو (مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب) والبعد نحو (أنى لهم الذكرى) والعرض نحو (ألا تقاتلون قوماً نكثوا أيمانهم) والتجاهل مثل (أأنزل عليه الذكر من بيننا) والاستهزاء نحو (قالوا يا شعيب أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا) والتحقير نحو (أهذا الذى يذكر آلهتكم) والتعظيم مثل (من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه) وغير ذلك .

وبعد فهذه كلمة موجزة عن كل أمر من الأمور السالفة المقصودة لذاتها بعد هذا التمهيد فى الخبر والإنشاء .

١ — الجمل فعلية واسمية ومتعلقاتها

وضعت الجملة الاسمية للثبوت والاستمرار، والفعلية للتجدد والحدوث، والمراد بالتجدد فى الماضى الحصول وفى المضارع التكرار ، فالجملة الاسمية آكد وأقوى . وقد روعى هذا فى القرآن الكريم أدق مراعاة ، قال تعالى « ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين » فأتى فى إسنادهم الإيمان إلى أنفسهم بالفعلية وفى سلبه عنهم بالاسمية لأنهم منافقون فى قولهم ، كما أتى بالاسمية حين يعبرون عن أنفسهم مكابرة ومجاراة إذ قرعوا بالسؤال فى قوله « وإذا قيل لهم لا تفسدوا فى الأرض قالوا إنما نحن مصلحون » ولذلك رد عليهم زعمهم بجملة اسمية مؤكداتها أقوى من مؤكدات جملتهم حيث يقول (ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون) وعن هؤلاء أيضاً يقول سبحانه (وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون الله يستهزىء بهم ويمدهم فى طغيانهم يعمهون) فجعل قولهم للمؤمنين بالفعلية لأنه عن غير عقيدة وجعله لشياطينهم بالاسمية المؤكدة لأنه يقينهم واعتقادهم ، وكذلك جعله فى استهزائهم بالمؤمنين لأنه كذلك ثم لم يترك الآية حتى استهزأ بهم بالاسمية كما استهزءوا ولكن أتى بها خلواً من التأكيد لأن كلامه سبحانه ليس محل تشكك وارتياب . وقال : (وإذا جاءوكم قالوا آمنا وقد دخلوا بالكفر وهم قد خرجوا به) فجعل إسنادهم الإيمان إلى أنفسهم بالفعلية وكذلك نسبة الكفر إليهم وهم داخلون ، لأن الأول عن غير حقيقة ، والثانى غير مشكوك فيه من المخاطبين ، أما خروجهم بالكفر فقد جاء بالاسمية إذ يجوز على المخاطبين أن يتوقعوا خروجهم مؤمنين ، وكذلك قوله (فعميت عليهم الأنباء يومئذ فهم لا يتساءلون) ، وقوله (ويقولون

على الله الكذب وهم يعلمون . وقال عن إخوة يوسف (قالوا يا أبانا مالك لا تأمنا على يوسف وإنا له لناصحون ، أرسله معنا غداً يرتع ويلعب وإنا له لحافظون) فأتى بالاسمية فيما هو محل اتهام لهم من أبيهم ، وبالفعلية فيما عداه .

على هذا جرى القرآن ولذلك كان إذ أراد الاختصاص حول الكلام إلى الاسمية كما فى قوله (وأنه هو أضحك وأبكى وأنه هو أمات وأحيا وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى من نطفة إذا تمنى) ولعله من المناسب لمناسبة هذه الآية أن نقول ، إن من بالغ أسرار القرآن إذا كان الفعل المسند إلى الله سبحانه مظنة اشتراك ولو على سبيل المجاز أن يزيد على الجملة ضمير الفصل كما فى جملتى الإضحاك والإبكاء والإماتة والإحياء ، وإذا لم يك مظنة اشتراك لا يأتى بهذا الضمير لعدم الحاجة إليه كما فى جملة خلق الزوجين الذكر والأنثى وكذلك فعل فى تمام الآيات بعد حيث يقول (وأن عليه النشأة الأخرى وأنه هو أغنى وأقنى وأنه هو رب الشعرى وأنه أهلك عاداً الأولى وثمود فما أبقى وقوم نوح من قبل إنهم كانوا هم أظلم وأطغى والمؤتفكة أهوى فغشاها ما غشى فبأى آلاء ربك تتمارى) . ومن هذه الناحية ناحية استخدام ضمير الفصل وعدم استخدامه وفيه فوق ذلك مراعاة استخدام الماضى لمجرد الحصول والمضارع للتكرار قوله تعالى على لسان إبراهيم : (الذى خلقنى فهو يهدين والذى هو يطعمنى ويسقين وإذا مرضت فهو يشفين) فقد أتى فى الخلق بالماضى لأنه مفروغ منه وجرده من ضمير الفصل لأنه ليس مظنة اشتراك ، ثم أتى فيما بعده من الهداية والإطعام والسقى والشفاء بالمضارع مثبتاً معه الضمير لأنه منكر ومحل شبهة فى الاشتراك ثم هو فوق ذلك لم يكرر الضمير مع يسقين اكتفاء بضمير يطعمنى لأن كلا الفعلين متمم للآخر كأنهما بدل يغذين ، كما أنه أخلى كل ما تقدم من القيود فى حين قيد الشفاء بحال المرض لأنها عادية تطلب فى كل آن وهو لا يطلب إلا فى تلك الحال . وإذا كانت الجملة الاسمية غير فعلية المسند مع اشتماله

على الحدث كانت أقوى مما إذا كان مسندها فعلا ، وهذا جانب معمول به فى القرآن ألا ترى قوله تعالى : (أفرأيتم ما تمنون أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون) كيف أتى بأسناد الخلق إليهم فعلا وإليه سبحانه اسماً فى معنى الفعل وكذلك قوله (أفرأيتم ما تحرثون أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون) وقوله (أفرأيتم الماء الذى تشربون أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون) وقوله (أفرأيتم النار التى تورون أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون) وهذه آيات فيها من المحاجة على سبيل الموازنات المعقبة كل موازنة منها بوجوه التفضيل ما يدحض الخصيم ويفحم اللدود ، ولذلك ختمها بقوله « فسبح باسم ربك العظيم » إشارة إلى أنه لا يستحق التسبيح سواه ، فليرجع إليها فى الكتاب الكريم .

هذا ومضمر الفعل فى إفادة ما تقدم كمظهره ولذلك قالوا فى قوله تعالى (هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين ، إذ دخلوا عليه فقالوا سلاما قال سلام قوم منكرون) إن سلام الخليل أوكد من سلام الملائكة لأنه رفع على الابتداء وسلامهم نصب على تقدير الفعل ، وليس معنى ذلك أنا لو رفعنا السلامين لكان أبلغ ، كلا فان لكل موطنه من البلاغة إذ أن ابراهيم لما كان حيث هبطوا عليه وجلا يقول قوم منكرون كان الأنسب أن يستشعر الحدث فى لحظة الخوف ويطرح الدوام جانباً ولذلك أتوا بالسلام منصوبا بالفعل لأنه أدل على الحدث من الاسم أما هم فلما لم يتصور إبراهيم وهو خائف منهم خوفاً عليهم أتى بسلامه مرفوعا دلالة على أن السلام ثابت لهم وليسوا فى حاجة منه إلى تجديد . ولما كان فى هذه الآية الكريمة تحية وردها وكانت التحية مندوبة والرد واجباً استنبط أن المصادر إذ أتت فى القرآن مرفوعة كانت للوجوب بخلاف ما إذا أتت منصوبة فإنها تكون للندب قال تعالى : (فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان) وقال (فإتباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان) وهذا للوجوب والمصادر فيه مرفوعة ثم قال (فضرب الرقاب) والمصدر منصوب وهو

للندب ولهذا اختلف فى الوصية أواجبة هى أم مندوبة للزوجات لأن قوله تعالى (وصية لأزواجهم) قرىء بالرفع وبالنصب .

هذا طرف يسير مما يقال عن القرآن الكريم فى مفاضلته بين الجمل فى الاستعمال من حيث الفعلية والاسمية ، والجملة تتحقق بركنيها المسند إليه والمسند ، أما متعلقاتها فهى ماعدا هذين الأصلين من المنصوبات والمجرورات والمرفوعات والكلام فى المتعلقات سيتضح فى كثير من المباحث الآتية التى ستشملها مع الطرفين من مسند إليه ومسند لأن ما يعتريهما يعتريها .

٢ — التنكير والتعريف

جاء التنكير فى القرآن الكريم لمقامات تتطلبه كأن يراد واحد من أفراد الجنس فيؤتى بلفظه مفرداً منكراً نحو (وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى) فالتنكير هنا للوحدة ، أما إذا أريد التكثير فإنه يؤتى بلفظ الجنس مجموعا كما فى قوله تعالى (وإن يكذبوك فقد كذبت رسل من قبلك) أى كثير ، وقد يكون فى مثل هذه الحالة للتعظيم كهذا المثال نفسه أى عظام كما يكون فى الحال الأولى لهذين من تعظيم وتكثير وهو كثير فيهما نحو (فأذنوا بحرب من الله ورسوله) أى عظيمة ونحو (أئن لنا لأجرا) أى وفيرا ، على أن التنكير يكون فى المفرد أيضاً للتقليل نحو « ورضوان من الله أكبر » أى قليل رضوانه أكبر من جناته وللتحقير مثل (من أى شىء خلقه) أى من شىء حقير مهين هو ما بينه بقوله (من نطفة خلقه) ونحو (إن نظن إلا ظنا) أى حقيرا ، وللنوعية كما فى قوله (هذا ذكر) أى خاص وقوله (وعلى أبصارهم غشاوة) أى معينة وقوله (ولتجدنهم أحرص الناس على حياة) أى طويلة وقوله (ولكم فى القصاص حياة) أى مستقبلة ، ومن النوعية أيضا قوله تعالى (والله خلق كل دابة من ماء) أى كل نوع ولا يبعد أن يكون للوحدة أى كل فرد ، وقد يكون القصد من التنكير التجاهل كما فى قوله (هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم) ولذلك

أبانها بقوله (تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم) . وإذا وقعت النكرة فى سياق النفى كانت لقصد العموم كما فى قوله تعالى (ذلك الكتاب لا ريب فيه) وقوله (فلا رفث ولا فسوق ولا جدال فى الحج) هذا ولما ذكرنا من أن التنكير يكون للتعظيم كثيرا قد جاء السلام الصادر عن الله سبحانه وتعالى فى القرآن منكراً دائماً نحو (سلام على نوح فى العالمين) و (سلام على آل ياسين) و (سلام قولا من رب رحيم) و (اهبط بسلام منا) أما الصادر عن غيره فانه جاء معرفا كسلام عيسى حين يحدث عن نفسه فى قوله تعالى : (والسلام على يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا) بخلاف سلام يحيى فقد جاء منكراً لأنه من الله عنه حيث يقول (وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيا) .

هذا والتعريف تتنوع فيه الدواعى بتنوع المعارف :

١ — فإن جاء بالعلمية يكون المراد إحضاره فى الذهن ابتداء كقوله تعالى « الله لا إله إلا هو الحى القيوم » وقوله « محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم » وهذا كثير جداً فى القرآن ، وقد يعدل عن العلمية بالاسم إليها باللقب ، إشعاراً بما يكون فيه من مدح أو ذم كاسرائيل ليعقوب ومعناه صفوة الله ولذا كان خطاب بنيه به فطالما ناداهم القرآن (يابنى إسرائيل) تذكيراً لهم بلقب أبيهم على سبيل العظة والاعتبار وكيأجوج ومأجوج لأولئك القوم من ولد يافث فى قوله تعالى « قالوا ياذا القرنين إن يأجوج ومأجوج مفسدون فى الأرض » وهما من أج الظليم إذا هرول فى مشيه وهذا يشعر بما كانوا عليه من همجية وفوضى وكذلك الحال فى الكنية نحو (يا أخت هرون ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغيا) ونحو (تبت يدا أبى لهب وتب) .

٢ — وإن جاء بالإشارة يكون الغرض تصويره حسا كما فى قوله (هذا خلق الله فأرونى ماذا خلق الذين من دونه) أو بيان حاله فى القرب

أو البعد مع ما قد يكون فيهما من تحقير أو تعظيم والأصل فى القرب التحقير كقوله تعالى (أهذا الذى يذكر آلهتكم) و (أهذا الذى بعث الله رسولا) وفى البعد التعظيم كقوله : (وتلك الجنة التى أورثتموها) و (فذلكن الذى لمتننى فيه) وقد يشعر السياق بالعكس نحو (فليعبدوا رب هذا البيت) ونحو « إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه » أما حال التوسط فتستعمل للأمرين سواء كما فى قوله « أولئك الذين خسروا أنفسهم فى جهنم خالدون » وقوله « أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون » .

٣ — وإن جاء بالموصول يكون ذلك لعدم الفائدة من ذكر العلم نحو (أو كالذى مر على قرية) أو للتستر عليه نحو (ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا ويشهد الله على ما فى قلبه) أو لتعظيمه بالصلة نحو (والذين آمنوا وعملوا الصالحات فى روضات الجنات) و (والذى جاء بالصدق وصدق به) أو تحقيره بها نحو (والذى قال لوالديه أف لكما) ونحو (والذين كفروا لهم نار جهنم لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها) أو لزيادة التقرير نحو (وراودته التى هو فى بيتها عن نفسه) أو للتفخيم مثل (فغشيهم من اليم ما غشيهم) أو للتعميم نحو (إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا) ونحو (إن الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين) أو الاختصار نحو (لا تكونوا كالذين آذوا موسى) . وقد يكون الأتيان بالموصول للتمكين من الاسترسال فى استيفاء الصفات حيث لا يغنى عنه فى هذا غيره كما فى قوله تعالى : (قد أفلح المؤمنون الذين هم فى صلاتهم خاشعون والذين هم الخ) وقوله (إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون والذين هم الخ) وقوله (سبح اسم ربك الأعلى الذى خلق فسوى والذى الخ) وقوله (الذى خلقنى فهو يهدين والذى الخ) .

٤ — فإن عرف بأل الجنسية أو العهدية ، تكون الجنسية إما لاستغراق أفراد الجنس نحو (وخلق الإنسان ضعيفا) ونحو (والسارق

والسارقة فاقطعوا أيديهما) ونحو (ولا يفلح الساحر حيث أتى) إلى غير ذلك مما هى فيه بمعنى كل حقيقة ولذلك يستثنى منها بألا نحو (إن الإنسان لفى خسر إلا الذين آمنوا) وتوصف بالجمع نحو (أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء) ، وإما لاستغراق خصائصه وهى التى بمعنى كل مجازا نحو (ذلك الكتاب) أى كل الكتاب فى استكمال خصائص جنسه فيه ، فإن لم تخلفها كل لا حقيقة ولا مجازا فهى لحقيقة الجنس نحو (وجعلنا من الماء كل شىء حى) أى من جنسه وحقيقته .

وتكون العهدية لمعهود حضورى نحو (اليوم أكملت لكم دينكم) و (اليوم أحل لكم الطيبات) أو ذكرى نحو (كما أرسلنا إلى فرعون رسولا فعصى فرعون الرسول) و (فيها مصباح المصباح) أو ذهنى نحو (إذ هما فى الغار) و (إذ يبايعونك تحت الشجرة) ، ومن الذكر الضمنى أو الذهنى قوله تعالى (إذ قالت امرأة عمران رب إنى نذرت لك ما فى بطنى محرراً فتقبل منى إنك أنت السميع العليم فلما وضعتها قالت رب إنى وضعتها أنثى والله أعلم بما وضعت وليس الذكر كالأنثى) أى المعهود ذهنا ، أو المذكور ضمنا فى قولها (إنى نذرت لك ما فى بطنى محرراً) لأنه ما كان ينذر إلا الذكور أما أل فى الأنثى فهى ذكرية صريحة .

٥ — وإن عرف بالإضافة يكون القصد تعظيم المضاف نحو (إن عبادى ليس لك عليهم سلطان) أو تحقيره نحو (أولئك حزب الشيطان ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون) وقد يقصد بالأضافة التعميم نحو (فليحذر الذين يخالفون عن أمره) أى كل أموره سبحانه .

٦ — أما إذا قصد التعريف بالضمير فإن ذلك يكون حيث المقام مقام تكلم أو خطاب أو غيبة نحو (إننى أنا الله) و (هل أنتم مطلعون) و (هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم) هذا إلى ما فى استعمال الضمائر من الاختصار الشديد والارتباط المتين اللذين يفقدهما الكلام إذا أحللنا الظواهر فيه محل المضمرات وهذه آية تصور لك كيف يكون حالها لو فعلنا فيها ذلك ، قال تعالى (وقل للمؤمنات

يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها وليضربن بخمرهن على جيوبهن ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن أو إخوانهن أو بنى إخوانهن أو بنى أخواتهن أو نسائهن أو ما ملكت أيمانهن أو التابعين غير أولى الأربة من الرجال أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن) .

وبعد فهذه أمور فى الضمير تذكر .

(ا) لما كان ضمير الغيبة فى حاجة دون أخويه إلى مرجع يبينه فقد عنى القرآن الكريم بهذا المرجع عناية جعلته معينا معروفا . فهو إما مذكور صريحاً مع تقدمه على الضمير ولو رتبة نحو (وعصى آدم ربه فغوى) و (إذا أخرج يده لم يكد يراها) و (فأوجس فى نفسه خيفة موسى) أو ضمنا نحو (وإذا حضر القسمة أولو القربى واليتامى والمساكين فارزقوهم منه) أى المقسوم أو التزاما نحو (فلولا إذا بلغت الحلقوم) و (كلا إذا بلغت التراقى) فإن الضمير للنفس أو الروح لزوما لكلمتى الحلقوم والتراقى وكذلك (كل من عليها فان) و (ما ترك على ظهرها من دابة) للدنيا والأرض .

(ب) والضمائر تعود فى القرآن على أقرب مذكور ولهذا أخر المفعول الأول فى قوله تعالى (وكذلك جعلنا لكل نبى عدوا شياطين الإنس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا) . والأصل فيها إذا تعددت أن تتوافق فى مرجع جامع ولو صلح مرجع معه لبعضها ، ولذلك عاب بعض رجال البلاغة كالزمخشرى إرجاع الضمير الثانى للتابوت مع أن الأول وضمائر أخرى بعد الثانى لموسى فى قوله تعالى (أن اقذفيه فى التابوت فاقذفيه فى اليم فليلقه اليم بالساحل يأخذه عدو لى وعدو له) وحتموا أن يرجع إلى موسى محافظة على تمام نظم القرآن وإعجازه كما أرجعوها كلها لله فى قوله (لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه وتوقروه وتسبحوه) إلا إذا اقتضى المعنى

تعدد الموضع نحو (ولا تستفت فيهم منهم أحدا) أى فى أهل الكهف من اليهود .

(ح) وكثيراً ما يعمد القرآن إلى المخالفة فى الضمائر إذا تعدد المرجع لسهولة التمييز كما فى قوله (إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا فى كتاب الله يوم خلق السموات والأرض منها أربعة حرم ذلك الدين القيم فلا تظلموا فيهن أنفسكم) فضمير منها وهو لاثنى عشر شهرا أتى به مفردا وضمير منهن وهو للأربعة أتى به جمعاً وكلا الأمرين جائز فى كليهما ولكن سنة القرآن إذا أعاد الضمير على جمع ما لا يعقل ، إعادته مفرداً إذا كان لأكثر من عشرة وجمعاً إذا كان لأقل منها . ولهذا سر لطيف هو مشاكلة التمييز فى الحالين .

(ى) وللقرآن غير ذلك من محاسن استعمال الضمير أنه إذا كان مرجعه مفرد اللفظ جمع المعنى راعى حين التعدد اللفظ أولا والمعنى ثانيا لأن المعنى قوى يمكن الرجوع إليه بعد اللفظ بخلاف العكس ، ومن أمثلة ذلك قوله (ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين) و (ومنهم من يستمع إليك وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفى آذانهم وقرا) و (ومنهم من يقول ائذن لى ولا تفتنى ألا فى الفتنة سقطوا) .

(ه) وللقرآن إكثار من استعمال ضميرين آخرين هما ضمير الفصل وضمير الشأن وسيأتى الكلام على أسرار استعمالهما فى القصر لأنه من أهم أغراضهما .

هذا ومما يتعلق بالتعريف والتنكير على وجه عام تكرر الاسم الواحد نكرة أو معرفة ، وقد جرى فيه القرآن إلا لقرائن على سياق واحد هو أنه إذا أراد بالثانى الأول أعاده معرفة كما فى قوله (وقهم السيئات ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته) و (كما أرسلنا إلى فرعون رسولا فعصى فرعون الرسول) ، وإذا أراد غير الأول أتى به نكرة كما فى قوله (يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتابا) و (الله الذى خلقكم من ضعف ثم جعل من

بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفاً وشيبة) وقد اجتمع الأمران فى قوله تعالى (فإن مع العسر يسرا إن مع العسر يسرا) فالعسران واحد واليسران اثنان ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم فى تأييد هذه الآية الكريمة (لن يغلب عسر يسرين) .

٣ — الأفراد والتذكير وضدهما

قد كان لنا ألا نقول شيئا عن هذين الأمرين فيما تصدينا له هنا من أبحاث أو نقصر الكلام إذا قلنا على أنهما يأتيان مراعاة للمطابقات اللازمة بين المسند إليه والمسند ونحوهما ، ولكن لما كان فى هذه المطابقات ما هو جائز وكان للقرآن أسرار فى اختيار أحد الجائزين دون الآخر رأينا أن نذكر هنا بعض هذه الأسرار ، أولا عن الأفراد والتثنية والجمع ، وثانياً عن التذكير والتأنيث .

الأفراد والتثنية والجمع — استعمل القرآن الريح مفردة ومجموعة ، وباستقصاء مواضع استعمالها فيه وجد أنه يخص حال الافراد بالشر وحال الجمع بالخير ، قال تعالى (إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم) وقال (وهو الذى يرسل الرياح بشراً بين يدى رحمته) والسبب فى هذا أن رياح الرحمة تأتى متعددة المناحى والصفات والمنافع والهيئات فناسب جمعها ولكن ريح العذاب لا تأتى إلا لوجه واحد لا معارض له ولا دافع ، فناسب إفرادها ولذلك قال صلى الله عليه وسلم فى دعائه بالخير (اللهم اجعلها رياحا ولا تجعلها ريحا) وأما قوله تعالى فى سورة يونس (هو الذى يسيركم فى البر والبحر حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين فلما أنجاهم إذا هم يبغون فى الأرض بغير الحق) فقد جاء بإفراد الريح فى الخير لتقابل نفسها فى مجيئها عقبه للشر والمقابلة يحسن فيها ما لا يحسن فى غيرها ألا تراه سبحانه وتعالى

يقول (ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين) على أنه يقال إنه حين أفردها في موطن الخير وصفها بقوله طيبة كما يقال أيضاً إن إفراد الريح مع السفن خاصة هو الرحمة بعينها لأنها إذا لم تهب عليها واحدة وجاءتها من كل مكان أغرقتها ولذلك جعل هذا تهديدا لأرباب السفن أكثر من تهديدهم بسكون الريح إذ فيه الإيباق وليس في السكون إلا الركود ، قال تعالى (ومن آياته الجوار في البحر كالأعلام إن يشأ يسكن الريح فيظللهن رواكد على ظهره إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور أو يوبقهن بما كسبوا) ، ولعله لهذا أو نحوه اختار الأفراد للنار وجهنم دائما لأنهما عذاب وأكثر من جمع الجنة لأنها رحمة ، والآيات الشاهدة على ذلك كثيرة قال تعالى (إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار ذلك الفوز الكبير) وقال في إفراد الجنة (وتلك الجنة التي أورثتموها بما كنتم تعملون)

واستعمل القرآن الأرض مفردة فحسب في حين استعمل السماء مجموعة ومفردة ، فأما الأول فلثقل جمع الأرض وهو أرضون ولذلك لما اقتضى السياق منه الجمع أتى به من ناحية ثانية فقال (سبع سموات ومن الأرض مثلهن) ولا يبعد أن تكون هناك حكمة ثانية لأفراد الأرض وجمع السماء هي أن الأرض عالم واحد والسموات عوالم عدة ولذلك كان يأتي بهما هكذا حيث يريد السعة للدلالة على العظمة والقدرة كما في قوله (تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن) وقوله (قل لا يعلم من في السموات والأرض الغيب إلا الله) أما إذا أراد مطلق الجهة فإنه كان يأتي بالسماء مفردة كالأرض كما في قوله ، وفي السماء رزقكم وما توعدون) وقوله (أأمنتم من في السماء أن يخسف بكم الأرض فإذا هي تمور) . هذا . وكما حاد عن جمع الأرض لثقل الجمع حاد كذلك عن بعض المفردات إلى الجمع لثقلها عنه كما في الألباب حيث لم يستعمل مفردها وهو اللب لنقله خصوصاً في الوقف ، ومثل الألباب في ذلك ، النهى جمع نهيه .

ومن دقائق القرآن فى هذا الباب اختياره إفراد السبيل مع الحق وجمعه مع الباطل لأن سبيل الحق واحدة وسبل الباطل متعددة قال تعالى (ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله) . ومن هذه الجهة بعينها مجىء النور مفرداً للهدى، والظلمات جمعاً للضلال ،وكلمة ولى بالإفراد مضافة إلى المؤمنين وبالجمع مضافة إلى الكفار، قال تعالى (الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات) .

ومنه أيضاً إفراد السمع وجمع البصر كما فى قوله (وجعل لكم السمع والأبصار) لأن متعلقات البصر أوسع من متعلقات السمع ، هذا على ما بالسمع من غلبة المصدرية عليه بخلاف البصر ، والمصدر يستعمل بلفظ واحد للمفرد وقسيميه .

وكذا منه مجىء المشرق والمغرب مفردين للجهة كما فى قوله (ولله المشرق والمغرب) وجمعين لتعدد المشارق والمغارب بتعدد الأيام إذا قصد ذلك كما فى قوله (فلا أقسم برب المشارق والمغارب) ومثنيين بقصد مشرقى الصيف والشتاء ومغربيهما كما فى قوله من سورة الرحمن (رب المشرقين ورب المغربين) هذا على أن تثنيتهما فى هذه السورة يقتضيها السياق تمام الاقتضاء فقد بدأت بنظام التثنية فى أشياء عدة كالشمس والقمر للسراجين والنجم والشجر لنوعى النبات، والسماء والأرض، والحب والريحان، والإنسان والجان ،ثم المشرقين والمغربين وبعدهما استمر السياق على نظام التثنية أيضا .

ثم كان القرآن يراعى تناول الكلمات من حيث الكثرة والقلة فيجمع فى الأولى ويفرد فى الثانية ومن ذلك قوله (فما لنا من شافعين ولا صديق حميم) جمع الشافع لأنه كثير وقد يوجد عن غير معرفة ، وأفرد الصديق لندرته . بل كان يراعى لطائف أدق فى اختيار صيغة جمع على أخرى كقوله البررة فى وصف الملائكة والأبرار فى وصف المؤمنين لأن مفرد الأول وهو بار أكثر دلالة على معناه من البر مفرد الثانى لزيادة مبناه ، ومن ثم كان

أشبه بالملائكة الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون .

التذكير والتأنيث — لا مجال للإبانة عن شيء فى هذين إلا حيث لا يجب أحدهما فمواطن الجواز هى المجال . ولما كان من مبيحات الجواز وجود فاصل بين الفعل والفاعل مثلا كان القرآن يتخير التأنيث على التذكير فى المؤنث الحقيقى نحو « فجاءته إحداهما » ما لم يكن الفاعل جمعا فإنه كان يفضل التذكير كما فى قوله « لا يحل لك النساء من بعد » كما كان يفضله مع المؤنث المجازى نحو « فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف » وكلما كثر الفصل ازداد التذكير حسنا كما فى قوله « وأخذ الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا فى ديارهم جاثمين » وأما قوله بعد هذه الآية من السورة نفسها وهى سورة هود « وأخذت الذين ظلموا الصيحة » فلأن تقدم ذكر الصيحة أشعر بأن الفعل كاد يسند إلى ضميرها والإسناد إلى الضمير يوجب التأنيث فأعاد الفعل مؤنثا وإن كان أظهر فاعله لأن الإظهار لم يقع إلا بعد هذا الأشعار ، وبعض العلماء يستدل من تتابع هاتين الآيتين بالتذكير فى الأولى والتأنيث فى الثانية على أن التذكير أولى لأنه بدأ به . أما قوله تعالى « ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة » وقوله (فريقا هدى وفريقا حق عليهم الضلالة) فالسبب فى هذا التخالف أن من واقعة فى الآية الأولى على أمة وهى مؤنثة فأنث لها الفعل كأنه قال ومنهم أمة ضلت ، والضمير فى الآية الثانية جار على فريق وهو مذكر كأنه قال ، فريقا ضل ، على أن حروف الفاصل فى الآية الأولى أقل من حروفه فى الثانية وذلك يرجح التأنيث هناك والتذكير هنا . هذا وقد كان القرآن أحياناً لا يجرى المبتدأ على خبره تذكيراً وتأنيثاً إذا كان له مرجع قريب يخالفه كما فى قوله بعد عمل السد « قال هذا رحمة من ربى » أما إذا بعد المرجع فإنه كان يراعى المطابقة كما فى قوله « فذانك برهانان من ربك » لأن المرجع وهو اليد والعصا بعيد .

٤ — الذكر وعدم الذكر

يتعلق هذان أول ما يتعلقان بطرفى الجملة من مسند إليه ومسند ، والمسند إليه المبتدأ أو الفاعل أو ما يقوم مقامهما ، والمسند خبر المبتدأ أو الفعل أو ما يقوم مقامهما ، والأصل فيهما الذكر ما لم يقم دليل عليهما فإذا قام وجب الحذف أو جاز ولا علاقة لنا بحال الوجوب ، إذ المزايا لا تتبين فى ترجيح أحد الأمرين على الآخر إلا فى حال الجواز وللقرآن الكريم فى ذلك مزايا كثيرة .

منها فى المسند إليه المذكور ، التعظيم كما فى قوله تعالى « هو الله الخالق البارى. المصور له الأسماء الحسنى » . وزيادة الإيضاح والتقرير كقوله (الله الذى خلقكم ثم رزقكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون) . وبسط الكلام تلذذاً كقوله تعالى على لسان موسى عليه السلام وقد سأله سبحانه (وما تلك بيمينك يا موسى قال هى عصاى) ولذلك أعقب هذا بقوله : (أتوكأ عليها وأهش بها على غنمى ولى فيها مآرب أخرى) زيادة فى البسط ورغبة فى تكرار السؤال مما لم تقتضه الإجابة عن السؤال الأول . والتنبيه على مكانة المسند إليه وفضله كقوله (محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم) . وزيادة التأكيد لغرابة الإسناد كقوله تعالى (وأخرجت الأرض أثقالها) بعد قوله (إذا زلزلت الأرض زلزالها) وأنه الأصل كقوله (والله خلق كل دابة من ماء) وقوله (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض » إلى غير ذلك .

ومنها فى المسند المذكور زيادة البيان كقوله (الله لا إله إلا هو الحى القيوم) . وإظهار التشفى والإنتقام كقوله (ولهم عذاب أليم بما كانوا يكفرون) بعد قوله (فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا) . وأنه الأصل كقوله تعالى (ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا وكفى الله المؤمنين القتال) وقوله (الله نور السموات والأرض) وغير هذا .

ومنها فى المسند إليه غير المذكور الرغبة فى الإيجاز اتكالا على القرينة المذكورة كقوله تعالى (هدى للمتقين) بعد قوله (ذلك الكتاب لا ريب فيه) على أن هدى خبر لمبتدأ محذوف أى هو هدى لا مبتدأ مؤخر لكلمة فيه ، والجملة تكون خبراً للا . ومن ذلك أيضاً قوله تعالى : (مالك يوم الدين) على قراءة الرفع فى مالك أى هو مالك يوم الدين ، أو اتكالا على القرينة المفهومة كقوله تعالى : (ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننه حتى حين) فإن فاعل بدا محذوف تقديره أمر أو رأى مثلا ، ونحو ذلك .

ومنها فى المسند غير المذكور وقوعه جوابا كقوله تعالى (ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله) أى خلقهن الله ومثله (ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض من بعد موتها ليقولن الله) أى نزله الله وهو كثير . وكثرة الاستعمال كقوله تعالى (بسم الله الرحمن الرحيم) دون ذكر المتعلق مع بقاء الحرف . ووقوعه شرطاً لأداة مذكورة كقوله تعالى : (قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربى إذن لأمسكتم خشية الإنفاق وكان الإنسان قتورا) وهذا كثير . ومما يحتمل حذف أحد الطرفين دون تعيين قوله تعالى (وجاءوا على قميصه بدم كذب قال بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون) إذ التقدير يحتمل فأمرى صبر جميل ويحتمل فصبر جميل أجمل ، وتقدير حذف المسند أولى لأنه أكثر جرياناً فى كلام العرب .

وكما تعرض هذه الأمور لطرفى الجملة تعرض كذلك لمتعلقاتها ، فهى تذكر لأغراض من أجلها يؤتى بها وتحذف لأغراض ثانية حيث يقوم الدليل على تقديرها . فمثلا المفعول به يذكر لتأكيد تعدى الحدث إليه كقوله تعالى (وراودته التى هو فى بيتها عن نفسه) ويحذف للقرينة اللفظية التى تجعله فى حكم المذكور كقوله تعالى (فلو شاء لهداكم أجمعين) أى فلو شاء هدايتكم أو غير اللفظية كما قوله (ذلك بما قدمت أيديكم) كما يحذف للتعميم

نحو (والله يدعو إلى دار السلام) أى كل أحد ، وللهيبة وقيل للايجاز كقوله (أرنى أنظر إليك) أى ذاتك ولتحقيق الفاصلة كقوله « ما ودعك ربك وما قلا » أى ما قلاك . وقد ينتفى الغرض الأساسى من المجىء به حيث لا يراد تعدى الحدث إليه فلا تكون هناك فائدة فى ذكره كقوله تعالى « قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون » إذ المعنى لا يستوى العلماء والجهلاء دون تعرض لما يعلم وما لا يعلم ، ومثل هذا قوله تعالى أيضا « فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى » لأنه يقصد من اتصف بالإعطاء والتصديق فحسب .

وكذلك الحال فى سائر المتعلقات بالقرآن الكريم ذكرا وحذفا .

٥ — التقديم والتأخير

إذا نظرنا إلى التقديم والتأخير فى القرآن الكريم فانا لا نقف عند المسند إليه والمسند بل نتجاوزهما إلى غيرهما من سائر ما يدخل فى بنية الكلام لأنه جاء فيه أوسع مدى وأعم أسبابا .

فمن هذه الأسباب السبق وهو إما زمنى حقيقى كتقديم الليل على النهار والظلمات على النور والسنة على النوم والملائكة على الناس وعاد على ثمود ، وآدم على نوح ونوح على ابراهيم وابراهيم على موسى وموسى على عيسى ، وداود على سليمان وغيرها فيما وردت فيه من آيات ، أو غير حقيقى ولكن باعتبار الانزال كقوله (وأنزل التوراة والانجيل من قبل هدى للناس وأنزل الفرقان) وقوله (صحف ابراهيم وموسى) أو باعتبار التكليف نحو (اركعوا واسجدوا) و (فاغسلوا وجوهكم وأيديكم الخ) و (إن الصفا والمروة من شعائر الله) ولذلك قال صلى الله عليه وسلم (نبدأ بما بدأ الله به) وإما ذاتى كقوله (مثنى وثلاث ورباع) وأما قوله (أن تقوموا لله مثنى وفرادى) فقد جاء على خلاف الظاهر لأن الآية مسوقة للحث على الجماعة والاجتماع على الخير .

ومنها السببية ولأجلها يرد الحكيم من الحكم بعد العزيز لأن السلطان نتيجة العزة ، ومن الحكمة بعد العليم لأن الاتقان نتيجة العلم وإنما قدم بهذا المعنى على العليم فى قوله تعالى (سيجزيهم وصفهم إنه حكيم عليم) فى سورة الأنعام على خلاف الظاهر لأن الآيات كانت لتشريع الأحكام ، وجاء فى آيات أخر من نفس السورة وإن لم يكن فيها تشريع للمشاكلة كقوله تعالى (نرفع درجات من نشاء إن ربك حكيم عليم) ومن أجل السببية أيضاً قدمت العبادة على الاستعانة فى الفاتحة ، والتوبة على الطهارة فى قوله (إن الله يحب التوابين منكم ويحب المتطهرين) وغض البصر على حفظ الفروج فى آية النور ، والأفك على الإثم فى قوله (لكل أفاك أثيم وعلى هذا القياس سيقت الآية (ولا تطع كل حلاف مهين هماز مشاء بنميم مناع للخير معتد أثيم عتل بعد ذلك زنيم) .

ومنها الكثرة ولهذا قدم السارق على السارقة لأن السرقة فى الذكور أكثر والزانية على الزانى لأن الزنا فى النساء أكثر ، والظالم على المقتصد والمقتصد على السابق فى الآية الماضية بمهدات الفصاحة ، والكافر على المؤمن فى قوله (فمنكم كافر ومنكم مؤمن) والأزواج على الأولاد فى قوله (إن من أزواجكم وأولادكم عدواً لكم فاحذروهم) لأن العداوة فى الأزواج أكثر منها فى الأولاد ، والأموال على الأولاد من حيث الفتنة فى قوله (إنما أموالكم وأولادكم فتنة) إذ الفتنة لا تكاد تفارق الغنى كما قال (إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى) وكذلك قدمها فى الزينة عليهم فى قوله (المال والبنون زينة الحياة الدنيا) ولكنه فى الشهوة قدم النساء والبنين عليها فى قوله (زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث) وعلى هذا جرت آيات كثيرة نحو (وأنزلنا من السماء ماء طهورا لنحيي به بلدة ميتا ونسقيه مما خلقنا أنعاماً وأناسى كثيرا) ، (عالم الغيب والشهادة) ، (عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض) أما قوله (ومايعزب

عن ربك من مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء) فعلى خلاف الظاهر لأن الحديث مسوق قبلها لأهل الأرض حيث يقول (وما تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهودا إذ تفيضون فيه) وإن لنا لهذا السبب أن نطمئن إلى رحمة الله من غير غرور لأنه سبحانه يقدمها دائماً على العذاب فى قرآنه تأييداً لقوله القدسى (إن رحمتى غلبت غضبى) .

ومنها شرف المقدم لعلو رتبته عما بعده ولذلك قدم الذكر على الأنثى والحر على العبد والحى على الميت والسمع على البصر والمهاجرون على الأنصار فيما وردت فيه ، والأنعام وهى الإبل على الخيل والخيل على البغال والبغال على الحمير فى قوله (والأنعام خلقها الخ) ورسول الله صلى الله عليه وسلم على نوح ومن معه فى قوله « وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح » الخ واسماعيل على اسحاق لأن رسول الله من نسله ، وموسى على هرون إلا فى سورة طه للفاصلة وجبريل على ميكائيل والإنس على الجن . غير أنه أحيانا يقدم الجن لسبب كما فى قوله « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون » إذ المقام طلب الثقلين للعبادة والمعصية فى الجن أكثر وكما فى قوله « يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا » لأن المطلوب إظهار عجزهما والقدرة فى الجن أكثر ، وكذلك الحال فى تقديم المؤمنين على الكافرين إذا لم يرد الكثرة كما تقدم وأصحاب اليمين على أصحاب الشمال ، والسماء على الأرض ، والغيب على الشهادة ، والعقلاء على غيرهم ، وأما تقديم الأنعام على الناس فى قوله (تأكل منه أنعامهم وأنفسهم) فلأن الكلام كان فى النبات ، وقد جاء به على الأصل فى قوله (متاعاً لكم ولأنعامكم) لأن الكلام قبله فى الإنسان حيث يقول (فلينظر الإنسان إلى طعامه الخ) . ولهذا الشرف والعلو فى الرتبة قدم اسم الله سبحانه فى كثير من الآيات نحو (شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم) و (اعلموا أنما غنمتم من شىء فإن لله خمسه وللرسول الخ) و (إن الله وملائكته يصلون على النبى) و (والله ورسوله أحق أن يرضوه)

و (يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم) وهذا فضلا عما يكون من التبرك به فى أمثال هذه الأمور ذات الشأن .

ومنها المناسبة وهى إما فى اللفظ ذاته حيث يشعر بالسبق كقوله (هو الأول والآخر) و (لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر) و (لله الأمر من قبل ومن بعد) وإذا خالف فلسبب لا يكون أقل من مراعاة الفاصلة كقوله (جمعناكم والأولين) . وإما فى شىء سابق يناسبه المقدم كقوله تعالى عن الأنعام (ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون) لأن الجمال فى الرواح أظهر منه فى السراح إذ تكون آخر النهار بطانا وأوله خماصا وقوله (والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا) لأن السرف فى الإنفاق وقوله (يريكم البرق خوفاً وطمعاً) لأن علامة الخوف وهى الصواعق تظهر قبل علامة الطمع وهو الغيث وقوله (وكلا آتينا حكما وعلما) لسبقه بقوله (وداود وسليمان إذ يحكمان فى الحرث) ولولا ذلك لقدم العلم لأنه سابق للحكم وقوله (وجعلناها وابنها آية للعالمين) لأن الكلام السابق عنها حيث يقول (والتى أحصنت فرجها) ولذلك عكس فى قوله (وجعلنا ابن مريم وأمه آية) حيث كان الكلام لموسى لا لها .

ومنها أشياء أخر كثيرة كالحث على المقدم والحض عليه حذراً من التهاون فيه إذ ليس له رتبة المؤخر كقوله تعالى (من بعد وصية يوصى بها أو دين) وككونه أدل على القدرة كقوله (والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشى على بطنه ومنهم من يمشى على رجلين ومنهم من يمشى على أربع) وقوله (وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير) وكالترقى من الأدنى إلى الأعلى نحو (ألهم أرجل يمشون بها أم لهم أيد يبطشون بها أم لهم أعين يبصرون بها أم لهم آذان يسمعون بها) لأن الغرض من الغاية هنا أن تكون تصاعدية وهذا هو الطبيعى وبهذه الآية فضل السمع على البصر ، وكعكسه فى موضعه أيضاً نحو (لا تأخذه سنة ولا نوم) لأنه أراد هنا الترتيب الوجودى وإن كانت المبالغة تقتضى العكس ، إلى غير ذلك مما

لا يدع مقدماً فى القرآن ليس له سبب اقتضى هـــذا التقديم ولو كان على خلاف الظاهر . ولا يفوتنا التنبيه هنا على أن من أهم أسباب التقديم الاختصاص كما سيأتى فى البحث التالى .

٦ — الاطلاق والقصر

جرى القرآن الكريم على الإطلاق وهو الأصل فى الكلام غير عادل عنه إلى القصر إلا لحال تقتضى الاختصاص والحصر، وهو على سعته لم يقع فيه قصر موصوف على صفة على سبيل الحقيقة حقاً لأن محاولة ذلك ضرب من العبث إذ يستحيل أن يكون لشىء ما صفة واحدة يحبس عليها ولكنه جاء حقيقياً على سبيل الادعاء اعتداداً بصفة يغضى عما سواها كما فى قوله « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل » وإنما حسن الادعاء هنا لأن المخاطبين كانوا يستبعدون موته صلى الله عليه وسلم فناسب لذلك أن يقصره على الرسالة على معنى أنه لا يتعداها إلى صفة الخلود التى هى من شأن الله وحده إيذاناً لهم بأن من استبعد موت محمد استبعد رسالته لأن نفى الموت ينفى البشرية ونفى البشرية لا يبقى من الرسالة شيئاً ولذلك أتى سبحانه عقب هذا الحصر بما يشعر بالغرض منه إذ قال « أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم » وقد اختار لهذا القصر أقوى أدواته وهى النفى والاستثناء .

أما قصر الصفة على الموصوف الحقيقى حقاً فكثير فى القرآن نحو « وما من إله إلا الله » تقال للموحد أما إذا قيلت لغيره من الشاك والوثنى والمشرك فإن القصر فيها يكون إضافياً تعييناً للشاك وقلبياً للوثنى وإفرادياً للمشرك وهذا هو المراد لأن غالبية العرب كانت تشرك الأصنام مع الله ، وقد أوقع القصر هنا بالنفى والاستثناء أيضاً لأن الكلام فى الوحدانية التى كانت إذا وقعت فى كلام على غير طريق القصر الاصطلاحى عوض عنه بصيغ أخرى كقوله « واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً » وقوله « فاعبد

الله مخلصاً له الدين ألا لله الدين الخالص » . وكذلك كثر فيه هذا القصر على سبيل الادعاء ومنه قوله « قل لا أجد فيما أوحى إلى محرماً على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة أو دماً مسفوحاً أو لحم خنزير فإنه رجس، أو فسقاً أهل لغير الله به فمن اضطر غير باغ ولا عاد فإن ربك غفور رحيم » ، وإنما جاءت هذه الآية على هذا السياق وإن لم يك القصر فيها حقاً لأنهم كانوا يحلون هذه الأشياء من المحرمات فناسب أن يقصر التحريم فيها على ما يحلون مضادة وعناداً ومبالغة فى الدحض والإزهاق كأنه قال لا حرام إلا ما أحللتموه ثم هو لتقويته أوقعه عن طريق النفى والاستثناء أيضاً ، ومن هذا النوع قوله سبحانه على لسان عيسى « ما قلت لهم إلا ما أمرتنى به » ، ولذلك قال بعده « ان اعبدوا الله ربى وربكم » ، وهو بالنفى والاستثناء كذلك .

وكان القرآن يجرى القصر أيضاً بإنما مكسورة الهمزة ومفتوحتها وقد اجتمعتا فى قوله « قل إنما يوحى إلى أنما إلهكم إله واحد » ، أى لا يوحى إلى إلا ما هو مقصور على استئثار الله بالوحدانية ، ولكن مجىء المكسورة هو الكثير ويغلب عليها فى القرآن أن تكون بمثابة الجواب عن سؤال يقتضيه السياق قبلها صريحا أو ضمناً وهذا منحى له عجيب . فمن الصريح ويكثر سبقها حينئذ بمادة القول الآية (قل إنما علمها عند ربى) و (قال إنما العلم عند الله) و (قال إنما يأتيكم به الله) ومن الضمنى قوله (إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون فى الأرض بغير الحق) بعد قوله (ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل) ومثله (إنما الصدقات للفقراء الخ) بعد قوله (ومنهم من يلمزك فى الصدقات الخ) و (إنما السبيل على الذين يستأذنونك وهم أغنياء) بعد الآيات السابقة وفيها (ما على المحسنين من سبيل) وكذا قوله (وإذا لم تأتهم بآية قالوا لولا اجتبيتها قل إنما أتبع ما يوحى إلى من ربى وإن تولوا فإنما عليك البلاغ) . وكثيراً ما كان يستعمل القرآن إنما فى الحصر التعريضى كقوله (إنما يتذكر أولو الألباب) .

هذا ولم يقف القرآن فى طرق حصره عند ما تقدم وإنما جاوزه إلى ناحيتين من الاختصاص تصرف فيهما تصرفاً بديعاً ، هاتان هما التقديم وضمير الفصل .

فأما التقديم فقد جاء به فى أشياء كثيرة ، منها المفعول نحو « إياك نعبد وإياك نستعين » و « بل الله فاعبد وكن من الشاكرين » والخبر نحو « أراغب أنت عن آلهتى يا إبراهيم » و « وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله » و « واقترب الوعد الحق فإذا هى شاخصة أبصار الذين كفروا » ثم الجار والمجرور وهو كثير فيه جداً نحو « لالى الله تحشرون » و (ألا إلى الله تصير الأمور) و (إن إلينا إيابهم ثم إن علينا حسابهم) و (له الملك وله الحمد) . وقد يضم إلى الاختصاص فى التقديم تحقيق الفاصلة نحو (وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة ووجوه يومئذ باسرة تظن أن يفعل بها فاقرة) و (والتفت الساق بالساق إلى ربك يومئذ المساق) و (إلى ربك يومئذ المستقر ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر) و (وإلينا يرجعون) و (عليه توكلت وإليه أنيب) و (لا فيها غول ولا هم عنها ينزفون) وهذا المثال الأخير فى النفى ، ولهذه المناسبة نقول إذا لم يحصل تقديم فى النفى لا يكون عدم الاختصاص مسكوتاً عنه كما فى الإثبات بل يكون مقصوداً لذاته نحو (لا ريب فيه) أى ولا فى غيره وإلا كان الكلام طعناً فى الكتب قبله . وقد يكون التقديم للاختصاص مجاراة لا على سبيل الحقيقة كما فى قوله (وبالآخرة هم يوقنون) أى وبغيرها ولكن خصت هذه لأنهم ينكرونها فهو تعريض ، كما يكون على سبيل المشاكلة لاختصاص موجود معه كما فى قوله (أغير الله تدعون إن كنتم صادقين بل إياه تدعون) فالاختصاص فى الثانية دون الأولى .

وليست قوة الحصر فى التقديم كقوته فى النفى والاستثناء ولا فى إنما ، ولذلك خص باسم الاختصاص دون القصر لأنه قد يرد لغير الحصر كمراعاة الفاصلة فى قوله (فأوجس فى نفسه خيفة موسى) وقوله (خذوه فغلوه

ثم الجحيم صلوه) أو مراعاة التجانس فى بدء الجمل كقوله (والقمر قدرناه منازل) بعد قوله (وآية لهم الليل) وبعد قوله (والشمس تجرى) ومن الآيات التى جمعت بين الاختصاص وعدمه غير ما تقدم قوله (وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً) .

وأما ضمير الفصل فهو ضمير حرفى لا محل له من الإعراب يأتى بصيغة المرفوع مطابقاً لما قبله بعد المبتدأ إشعاراً بالخبر للتأكيد ، وقد تجاوز التأكيد إلى الاختصاص وإن شئت فقل إلى الحصر بدليل قوله تعالى (فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم) لأنه لو لم يك هنا للحصر لكان الله غير رقيب عليهم قبل توفيه عيسى ، وبدليل (لا يستوى أصحاب النار وأصحاب الجنة أصحاب الجنة هم الفائزون) لأن عدم الاستواء لا يتأتى إلا بالحصر . وقد تقدم أنه يتصدر الأشياء التى تدعى الشركة فيها مع الله سبحانه ولا يؤتى به حيث لا تدعى هذه الشركة كقوله (وأنه هو أضحك وأبكى) مع قوله (وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى) ، ومن أمثلته غير تلك — وهى كثيرة جداً فى القرآن — قوله (فالله هو الولى) و(وأولئك هم المفلحون) و (وإنا لنحن الصادقون) و (إن ترن أنا أقل منك مالا وولدا فعسى الخ) و (وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيراً وأعظم أجراً) .

وعلى ذكر ضمير الفصل وإيفاء بوعد سابق فى الضمائر نقول ، إنه قد استعمل القرآن ضميراً آخر هو ضمير الشأن أو القصة ويسمى ضمير المجهول لأنه لا مرجع له وهو اسم وفائدته الدلالة على تعظيم المخبر به عنه وتفخيمه عن طريق الإبهام ثم الإيضاح ، وأمثلته كثيرة كقوله (قل هو الله أحد) و (فإذا هى شاخصة أبصار الذين كفروا) و (فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور) و (وأنه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبداً) .

وقد جعلته نهاية شواهد الفصل كما جعلت نظيره المعاكس نهاية شواهد الوصل فيما تقدم .

أما الأمر العام فذو فروع كثيرة منها استعمال باقى الحروف العاطفة ولا سيما الفاء وثم ومعها الواو فى المفردات والجمل استعمالا متناهياً فى الدقة بين معانى الكلمات ومعانى هذه الحروف قال تعالى « قتل الإنسان ما أكفره من أى شىء خلقه من نطفة خلقه فقدره ثم السبيل يسره ثم أماته فأقبره ثم إذا شاء أنشره » ، وقال (الذى خلقنى فهو يهدين) إلى قوله ثم يحيين وقد تقدمت وقال (ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين) إلى قوله (فتبارك الله أحسن الخالقين) وقد تقدمت أيضاً فتأمل مطابقة المعانى بين الحروف والكلمات . ومنها أن صفاته سبحانه وتعالى إذا تتابعت غير متضادة المعانى جاءت بغير عطف كقوله تعالى فى آخر الحشر (هو الله الذى لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم الخ) ، وإذا كانت متضادة أتت بالعطف كقوله فى أوائل الحديد (هو الأول والآخر والظاهر والباطن) وكذلك الحال فى صفات غيره نحو (التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله) و (مسلمات مؤمنات قانتات تائبات عابدات سائحات ثيبات وأبكارا) فقد اجتمع فى كلتا الآيتين الأمران . ومنها أن لفظ قال إذا ورد مجرداً من العاطف كان المراد اعتباره جواباً لسؤال يعرض عقب استماع ما قبله نحو (فأوجس فى نفسه خيفة موسى قلنا لا تخف) و (فقربه إليهم قال ألا تأكلون) و (فوسوس إليه الشيطان قال يا آدم) ولكنه إذا ورد متصلا بعاطف كان الغرض ضم ما بعده إلى ما قبله بعيداً عن تقدير سؤال نحو (هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين إذ دخلوا عليه فقالوا سلاما قال سلام) فى هذه الآية شاهد للحالين ، ومثلها فى الجمع بينهما ولكنه أكثر وأطول ، الآيات السابقة فى المحاورة بين موسى وفرعون . ومنها عدم وقوع التعاطف

الضعيف فى القرآن إلا على بعض القراءات مع ثبوت القراءة القوية أو التخريج المانع له ، هذا على أنه قليل نادر وذلك كالعطف على الضمير المجرور من غير إعادة الجار وشاهده (واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام) و (وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام) بعطف الأرحام على الضمير فى به وكذا المسجد على ضمير به ولكن الفصيح عطف الأول بالنصب على لفظ الجلالة وعطف الثانى على سبيل . وكالعطف على معمولى عاملين مثل (إن فى السموات والأرض لآيات للمؤمنين وفى خلقكم وما يبث من دابة آيات) على قراءة آيات بالنصب ولكن الفصيح قراءتها بالرفع على الابتداء وكذلك كلمة آيات فى الآية بعدها أيضاً . وكالعطف مع الاختلاف فى الاسمية والفعلية نحو (مما لم يذكر اسم الله عليه وإنه لفسق) ولكن الصحيح هنا عدم العطف وجعل الثانية حالية حتى تكون قيداً لتحريم ما لم يذكر اسم الله عليه طبقاً لقوله فى آية أخرى (أو فسقاً أهل لغير الله به) . وكالعطف مع الاختلاف فى الخبرية والإنشائية ومنه فى الظاهر (أعدت للكافرين وبشر الذين آمنوا) ولكن هذا ليس من عطف الجمل الجزئية بل هو خروج من جملة كلام فى الكافرين إلى جملة أخرى فى المؤمنين .

هذا وقد ورد فى القرآن بعض آيات يفيد ظاهرها أن المعطوف ليس له فيها معطوف عليه يأخذ حكمه ولكن التأويل يحقق المعطوف عليه المطلوب مثل (إنه من يتق ويصبر) برفع الأول وجزم الثانى وتخريجه أن من الموصولة فى معنى الشرطية ولذلك تأتى الفاء فى خبرها فالثانى معطوف على الأول كأنه معطوف على شرط مجزوم ومثل (لولا أخرتنى إلى أجل قريب فأصدق وأكن) بجزم أكن إذ المعنى أخرنى أصدق وأكن .

٨ — الايجاز والاطناب والمساواة

إن التعبير عن المراد لا يخلو أن يكون بلفظ مساو لأصل هذا المراد ،

أو ناقص عنه واف بالمعنى ، أو زائد عليه لفائدة ، فالأول المساواة والثانى الإيجاز والثالث الإطناب . والبلاغة كل البلاغة فى الإيجاز والإطناب إذ فى الأول التعرض للإخلال وفى الثانى التعرض للحشو والتطويل ولذلك قيل إن البلاغة هى الإيجاز والإطناب وسنتكلم عنهما وبعدهما نقول كلمة موجزة عن المساواة .

١ — الإيجاز

تقدم تعريفه وهو نوعان لأنه إن كان بعضاً من كلام أطول منه فهو إيجاز حذف وإن لم يك بعضاً بل جاء كلاماً يعطى معنى أطول منه فهو إيجاز قصر ، وكلاهما فى القرآن الكريم دون سائر الكلام مختلف الألوان زخار الأمثلة .

فإيجاز الحذف جاء فى الأسماء والأفعال والحروف كلمة وأكثر من كلمة .

فمنه فى الأسماء حذف المضاف نحو (ولكن البر من اتقى) أى ذا البر أو بر من اتقى و (الحج أشهر معلومات) أى أشهر الحج أو حج أشهر . وله أكثر من ألف مثل فى القرآن وقد أفرد فيه بتآليف خاصة لكثرته ولأنه إذا قدر كان حقيقة وإذا لم يقدر كان مجازا ولا حذف . وحذف المضاف إليه ويكثر فى ياء المتكلم نحو (رب اغفر لى) وفى الغايات نحو نحو (لله الأمر من قبل ومن بعد) ومع كل وبعض مثل (وكلا آتينا حكما وعلما) و(فضلنا بعضهم على بعض) . وحذف المبتدأ فى جواب الاستفهام نحو (وما أدراك ماهية نار حامية) وبعد فاء الجواب نحو (من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها) وبعد القول نحو (وقالوا أساطير الأولين) وغير ذلك نحو (لم يلبثوا إلا ساعة من نهار بلاغ) . وحذف الخبر نحو (أكلها دائم وظلها) . وحذف الموصوف مثل (وعندهم قاصرات الطرف عين) والصفة نحو (يأخذ كل سفينة غصبا) أى صحيحة بدليل (أعيبها) والمعطوف عليه مثل (أن اضرب بعصاك البحر فانفلق) أى فضرب فانفلق ، والمعطوف

مع العاطف مثل (لا يستوى منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل) أى ومن أنفق بعده ،والبدل مثل (ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب) أى تصفه والحال القولية مثل (يدخلون عليهم من كل باب سلام) أى قائلين صلام والمنادى نحو (يا ليت قومى يعلمون) . والعائد نحو (أهذا الذى بعث الله رسولا) و (واتقوا يوماً لا تجزى نفس عن نفس شيئا) . ومخصوص نعم مثل (إنا وجدناه صابرا نعم العبد) . والموصول نحو (بالذى أنزل الينا وأنزل إليكم) أى والذى أنزل إليكم لأنه غيره ، ولذلك أعيد فى قوله (قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم) ثم المفعول به وهو كثير جداً إذ يكون للبيان بعد الإبهام فى فعل المشيئة الشرطى نحو (فلو شاء لهداكم) وللتعميم نحو (والله يدعو إلى دار السلام) ولعدم تعلق الفعل به نحو (كلوا واشربوا) وللهيئة نحو (أرنى أنظر إليك) أى ذاتك ولغير ذلك نحو (كلا سوف تعلمون ثم كلا سوف تعلمون) أى عاقبة أمركم .

ومنه فى الأفعال ما جاء فى الفعل المفسر بنفسه نحو (وإن أحد من المشركين استجارك) والواقع فى جواب الاستفهام نحو (وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم قالوا خيرا) وحين التحذير أو الإغراء نحو (ناقة الله وسقياها) أى احذروها والزموا سقياها وإذا كان قولا نحو (وإذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل ربنا تقبل منا) أى يقولان وغير ذلك مثل (انتهوا خيراً لكم) أى واتقوا خيراً لكم .

ومنه فى الحروف ما يكون بحذف الجار ويطرد مع أنْ وأنّ نحو (يمنون عليك أن أسلموا) و (أيعدكم أنكم) ويقل مع غيرهما نحو (ولا تعزموا عقدة النكاح) أى عليها كما يقل فى الموصول الحرفى نحو (ومن آياته يريكم البرق) أى أن يريكم وفى العاطف نحو (وجوه يومئذ ناعمة) أى ووجوه بالعطف على (وجوه يومئذ خاشعة) قبلها وفى فاء الجواب نحو (إن ترك خيرا الوصية) أى فالوصية وهو كثير فى ياء النداء نحو (يوسف أعرض عن هذا) وفى لا النافية مع المضارع الواقع جوابا لقسم نحو (تالله تفتؤ

تذكر يوسف) وفى قد مع الماضى الواقع حالا نحو (أنؤمن لك واتبعك الأرذلون) .

ومنه فى أكثر من كلمة مما ليس جملة حذف المتضايقين نحو (فقبضت قبضة من أثر الرسول) أى من أثر حافر فرس الرسول ، ومفعولى باب ظن نحو (أين شركائى الذين كنتم تزعمون) وأداة الشرط وفعلها نحو (فاتبعونى يحببكم الله) أى إن تتبعونى ، ومما هو جملة حذف الجواب نحو (وإذا قيل لهم اتقوا) إلى آخر الآية أى أعرضوا ، ويكثر هذا حين قصد الإبهام لتذهب النفس فى تصور الجواب كل مذهب كقوله تعالى فى أهل الجنة (حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها) وفى أهل النار (ولو ترى إذ وقفوا على النار) ، وقد يكون فى جمل لا جملة كقوله تعالى (فارسلون ، يوسف أيها الصديق) إذ التقدير فارسلون إلى يوسف لأستعبره الرؤيا فأرسلوه فأتاه فقال له يا يوسف .

وكل هذه الأنواع من الحذف تسمى اختزالا . ثم يسمى الحذف اقتطاعا إذا وقع فى بعض حروف الكلمة تخفيفا اعتمادا على الشهرة وكثرة الدوران كحذف نون تكن فى قوله (ولم تك شيئا) وهمزة أنا فى قوله (لكنا هو الله ربى) . وهناك نوعان آخران من الحذف البديع جاءا فى القرآن الكريم هما الاكتفاء والاحتباك ، فالأول أن يكتفى بذكر أحد المتلازمين عن الآخر مثل (سرابيل تقيكم الحر) أى والبرد وآثر الحر بالذكر لأنه أنسب لبلاد العرب فضلا على تقدم ما يتعلق بالبرد دونه فى قوله (والأنعام خلقها لكم فيها دفء) ومنه (بيدك الخير) أى والشر ، (والذين يؤمنون بالغيب) أى والشهادة و (رب المشارق) أى والمغارب و (إن امرؤ هلك ليس له ولد) أى ولا والد بدليل أن للأخت النصف ولا يكون لها إلا مع فقد الأب ، وكل مذكور له فضل على المتروك . والثانى وهو الاحتباك أن يكون فى أصل الكلام متقابلان فيحذف من كليهما مقابل اعتماداً على نظيره كقوله تعالى (وأدخل يدك فى جيبك تخرج بيضاء

من غير سوء) إذ المعنى وأدخل يدك فى جيبك غير بيضاء وأخرجها تخرج بيضاء من غير سوء ومثله (قل إن افتريته فعلىّ إجرامى وأنا برىء مما تجرمون) فالمحذوف وأنتم برماء وعليكم إجرامكم وكذا (ويعذب المنافقين إن شاء أو يتوب عليهم) أى إن شاء فلا يتوب عليهم أو يتوب عليهم فلا يعذبهم و (فلا تقربوهن حتى يطهرن فإذا تطهرن فأتوهن) أى حتى يطهرن من الدم فإذا تطهرن بالماء فأتوهن و(خلطوا عملا صالحاً وآخر سيئا) أى عملا صالحا بسيء وآخر سيئا بصالح و (فئة تقاتل فى سبيل الله وأخرى كافرة) أى فئة مؤمنة تقاتل فى سبيل الله وأخرى كافرة تقاتل فى سبيل الطاغوت ، وهو على دقته كثير جداً فى القرآن .

أما إيجاز القصر وهو أصعب محاولة من إيجاز الحذف فقد أفاض فيه القرآن الكريم حتى جاء السلك الناظم لجوامع الكلم والحكم والأمثال كقوله تعالى (إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم ألا تعلوا على وأتونى مسلمين) و(فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف) و (إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى) و (خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين) و (فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين) و (أخرج منها ماءها ومرعاها) و (لا يصدعون عنها ولا ينزفون) و (يا بنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا) و (يأيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون) و (وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه فى اليم ولا تخافى ولا تحزنى إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين) و (وفيها ما تشتهى الأنفس وتلذ الأعين وأنتم فيها خالدون) و (ومن يعمل سوءا يجزبه ولا يجد له من دون الله وليا ولا نصيرا) و (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يرة) . وقد أفردت بعض آياب الكتاب الموجزة بالتأليف كسورة الإخلاص التى نزهت الله سبحانه وتعالى أتم تزيه وكالآية (وقيل يا أرض ابلعى ماءك ويا سماء أقلعى

وغيض الماء وقضى الأمر واستوت على الجودى وقيل بعداً للقوم الظالمين) لما تضمنت من قصص طويل وكذا قوله (ولكم فى القصاص حياة) فى بيان معنى أن القصص حياة وموازنته بأبلغ وأوجز ما قالت العرب فى هذا المعنى وهو (القتل أنفى للقتل) موازنة خرجت بها الآية متميزة بأنها أقل حروفا وأنص على المطلوب وأكثر اطرادا وخالية من التكرار ومن الحذف ومن لفظ القتل ومما ظاهره التناقض ثم هى مبنية عل الإثبات وحروفها أكثر خفة وأظهر ملاءمة إلى غير ذلك من ميزات جاوزت العشرين .

وعلى ذكر إيجاز القرآن نرى أن ندلى هنا بكلمة من أمثاله وقد أكثر الله من ضربها فيه لأن لها كما قال الأصبهانى شأناً ليس بالخفى فى إبراز خفيات الدقائق ورفع الأستار عن الحقائق تريك المتخيل فى صورة المتحقق والمتوهم فى معرض المتيقن والغائب كأنه مشاهد وفيها تبكيت للخصم الشديد الخصومة وقمع لضرره الجامح الأبى فهى تؤثر فى القلوب ما لا يؤثر وصف الشىء فى نفسه . وهى فيه نوعان نوع مصرح به هو التمثيل وقد تقدم منه شطر صالح فى التشبيه وليس له مدخل عام فى الإيجاز، ونوع كامن هو محل الشاهد فى هذا الباب وإليك منه شطراً .

لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون . ليس لها من دون الله كاشفة . الآن حصحص الحق . وضرب لنا مثلا ونسى خلقه . ذلك بما قدمت يداك . قضى الأمر الذى فيه تستفتيان . أليس الصبح بقريب . وحيل بينهم وبين ما يشتهون . لكل نبأ مستقر . ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله . قل كل يعمل على شاكلته . وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم . كل نفس بما كسبت رهينة . ما على الرسول إلا البلاغ . ما على المحسنين من سبيل . هل جزاء الإحسان إلا الإحسان . كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة . الآن وقد عصيت قبل . تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى . ولا ينبئك مثل خبير . كل حزب بما لديهم فرحون . ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم . وقليل من عبادى الشكور . لا يكلف الله نفساً إلا وسعها . لا يستوى الخبيث والطيب .

ظهر الفساد فى البر والبحر . ضعف الطالب والمطلوب . لمثل هذا فليعمل العاملون . وقليل ما هم . فاعتبروا يا أولى الأبصار .

وقلما يوجد مثل عربى فى معنى نبيل إلا وفى القرآن له نظير يفضله ويعلو عليه .

حدث مضارب بن إبراهيم قال سألت الحسن بن الفضل فقلت إنك تخرج أمثال العرب والعجم من القرآن فهل تجد فيه . خير الأمور أوساطها . قال نعم فى أربعة مواضع قوله تعالى (لا فارض ولا بكر عوان بين ذلك) وقوله (والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما) وقوله (ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط) وقوله (ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلا) قلت فهل تجد . من جهل شيئاً عاداه . قال نعم فى موضعين قوله (بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه) وقوله (وإذا لم يهتدوا به فسيقولون هذا إفك قديم) قلت فهل تجد . احذر شر من أحسنت إليه . قال نعم (وما نقموا إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله) . قلت فهل تجد . ليس الخبر كالعيان . قال فى قوله (أو لم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبى) قلت فهل تجد . فى الحركات البركات . قال فى قوله (ومن يهاجر فى سبيل الله يجد فى الأرض مراغما كثيراً وسعه) قلت فهل تجد . كما تدين تدان . قال فى قوله (من يعمل سوءاً يجز به) قلت فهل تجد ، لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين قال (هل آمنكم عليه إلا كما أمنتم على أخيه من قبل) قلت فهل تجد . من أعان ظالماً سلط عليه قال (كتب عليه أنه من تولاه فإنه يضله ويهديه إلى عذاب السعير) قلت فهل تجد . لا تلد الحية إلا حية . قال (ولا يلدوا إلا فاجراً كفارا) قلت فهل تجد . للحيطان آذان قال (وفيكم سماعون لهم) قلت فهل تجد . الجاهل مرزوق والعالم محروم . قال (من كان فى الضلالة فليمدد له الرحمن مداً) قلت فهل تجد . الحلال لا يأتيك إلا قوتاً والحرام يأتيك جزافاً قال (إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعا ويوم لا يسبتون لا تأتيهم) .

فهذه الإجابات وهى فى أمثال دقيقة ، تدل على ما بالقرآن الكريم من فيض فى باب الإيجاز عميم .

(ب) الإطناب

قلنا إن الإطناب هو التعبير عن المراد بلفظ زائد عليه لفائدة ، وقد افتن القرآن الكريم فى هذه الزيادة افتناناً كبيراً وسع من دائرتها وكثر من أنواعها .

فمن الزيادة ما تكون أداة من أدوات التأكيد المعروفة فى مقام التردد أو الإنكار وقد تقدمت ومعها أمثلتها حيث الكلام على الخبر ، ويلحق بهذه الأدوات المصطلح على أنها ألفاظ التوكيد كل ما يفيده من الحروف الزائدة كالباء فى خبر ليس من قوله تعالى (أليس الله بكاف عبده) ونحوها من سائر حروف الزيادة ، على أن الزيادة قد تتعدى الحرف إلى الفعل مثل كان فى قوله (كيف نكلم من كان فى المهد صبيا) وإلى الاسم كمثل فى قوله (فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا) وكلها للتقوية والتوكيد .

ومنها ما يكون تابعاً إما على سبيل التأكيد بألفاظه الخاصة لرفع توهم المجاز أو عدم الشمول نحو (فسجد الملائكة كلهم أجمعون) والحكمة فى تتابع لفظين منها فى هذه الآية أن كلا أفادت الشمول ، وأجمعين أفادت أنهم سجدوا مجتمعين لا متفرقين ، أو بإعادة اللفظ للتقوية ويكون بالمرادف نحو (يجعل صدره ضيقاً حرجا) ونحو (غرابيب سود) وبنفس اللفظ فى الاسم نحو (قوارير قوارير) و (دكا دكا) وفى الفعل نحو (فمهل الكافرين أمهلهم رويدا) ومثله اسمه نحو (هيهات هيهات لما توعدون) وفى الحرف نحو (ففى رحمة الله هم فيها خالدون) و (أيعدكم أنكم إذا متم وكنتم تراباً وعظاماً أنكم مخرجون) ، وفى الجملة نحو (إن مع العسر يسرا إن مع العسر يسرا) و (وما أدراك ما يوم الدين ثم ما أدراك ما يوم الدين) و (كلا

سوف تعلمون ثم كلا سوف تعلمون) .

وفى الضمير المتصل بالمنفصل نحو (اذهب أنت وربك فقاتلا) والمنفصل بمثله نحو (وهم بالآخرة هم كافرون) وفى الفعل بمصدره لرفع توهم التجوز نحو (وكلم الله موسى تكليما) و (ويسلموا تسليما) و (ويوم تمور السماء موراً وتسير الجبال سيراً) أو بمرادف مصدره نحو (وتبتل إليه تبتيلا) و (أنبتكم من الأرض نباتاً) أو بالحال منه نحو « أبعث حيا » و « ولا تعثوا فى الأرض مفسدين » و « وأرسلناك للناس رسولا » و « ثم توليتم إلا قليلا منكم وأنتم معرضون » و (وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد) . وإما على سبيل البدل للبيان والتأكيد كقوله تعالى فى المطابق (اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم) وفى بدل البعض من الكل (ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا) وفى الاشتمال (وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره) و (ويسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه) و (قتل أصحاب الأخدود النار ذات الوقود) . وإما على سبيل عطف البيان لزيادة الإيضاح كقوله (فيه آيات بينات مقام إبراهيم) وقوله (من شجرة مباركة زيتونة) أو لمجرد المدح نحو (جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً للناس) . وإما على سبيل عطف النسق بشرط أن يكون فى المترادفين للتأكيد نحو « إنما أشكو بثى وحزنى إلى الله » و « فما وهنوا لما أصابهم فى سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا » و « فلا يخاف ظلماً ولا هضما » و (لا تخاف دركا ولا تخشى) و « لا ترى فيها عوجاً ولا أمتا » وغيره كثير ، أو فى الخاص بعد العام للتنبيه على فضل الخاص نحو (حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى) و (قل من كان عدواً لله وملائكته وجبريل وميكال) و (ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر) و (ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو قال أوحى إلى ولم يوح إليه شىء) ونحوه . أو فى العام بعد الخاص للتعميم بعد إفراد الخاص بالذكر لأهميته نحو « إن صلاتى ونسكى » و « ولقد آتيناك سبعاً من المثانى

والقرآن العظيم » و « رب اغفرلى ولوالدى ولمن دخل بيتى مؤمناً وللمؤمنين وللمؤمنات » و « فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير » . وإما على سبيل النعت للتخصيص فى النكرة نحو (فتحرير رقبة مؤمنة) وللتوضيح فى المعرفة نحو « النبى الأمى » وللمدح نحو « بسم الله الرحمن الرحيم » وللذم نحو (فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم) وللتأكيد الرافع للإبهام نحو (لا تتخذوا إلهين اثنين) ونحو (ولا طائر يطير بجناحيه) .

ومنها ما يكون ظاهراً يحل محل مضمر لزيادة التقرير والتمكين نحو (قل هو الله أحد الله الصمد) و « وبالحق أنزلناه وبالحق نزل » و (إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون) و (لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب) و (ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله) أو للتعظيم نحو (واتقوا الله ويعلمكم الله والله بكل شىء عليم) و (أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون) و (وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهودا) أو للتحقير نحو (أولئك حزب الشيطان ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون) أو لإزالة اللبس الذى يوهمه مجىء الضمير نحو (قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء) و (يظنون بالله ظن السوء عليهم دائرة السوء) و (فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه ثم استخرجها من وعاء أخيه) أو لقصد العموم نحو (وما أبرىء نفسى إن النفس لأمارة بالسوء) و (أولئك هم الكافرون حقاً وأعتدنا للكافرين عذاباً أليما) أو للخصوص نحو (وامرأة مؤمنة أن وهبت نفسها للنبى) فى خطاب النبى ولم يقل لك مخافة أن يظن فيه التشريع العام أو لإخراج الجملة الثانية من حكم الأولى نحو (فإن يشأ الله يختم على قلبك ، ويمحو الله الباطل) أو لمراعاة الجناس نحو (قل أعوذ برب الناس ملك الناس إله الناس) أو غير ذلك مما يتعلق بهذه الناحية .

ومنها أن تأتى الزيادة مفسرة لما قبلها نحو « إن الإنسان خلق هلوعا

إذا مسه الشر جزوعا وإذا مسه الخير منوعا » و « الحى القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم » و « يسومونكم سوء العذاب يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم » و « إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب » و « لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة » و « الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد » . وشبيه بهذا أو هو منه الإيضاح بعد الإبهام والتفصيل بعد الإجمال وكلاهما لتمكين المعنى فى النفس إذ يأتى بعد تشويق إليه فالأول نحو (وقضينا إليه ذلك الأمر أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين) والثانى نحو (إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً فى كتاب الله يوم خلق السموات والأرض منها أربعة حرم ذلك الدين القيم فلا تظلموا فيهن أنفسكم وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة واعلموا أن الله مع المتقين) .

ومنها الاعتراض والتتميم والتكميل . وذلك أن يؤتى بجملة أو أكثر معترضة فى أثناء كلام أو بين كلامين متصلين لفائدة غير رفع الإبهام نحو « لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين » و « ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون » و « وقيل يا أرض ابلعى ماءك » إلى الظالمين وفيها ثلاث جمل وهذا هو الاعتراض ، وقد يأتى فى خلاله اعتراض آخر نحو (فلا أقسم بمواقع النجوم وإنه لقسم لو تعلمون عظيم . الخ) فإن كان المأتى به مفرداً لا جملة ولفائدة غير الإبهام أيضاً فهو التتميم نحو (ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيما وأسيرا) وكذا (وآتى المال على حبه ذوى القربى) . أما إذا كان الغرض رفع الإبهام فإنه يسمى التكميل كما يسمى الاحتراس أيضاً جملة كان أم مفرداً فى ثنايا الكلام أم فى غير ثناياه نحو « أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين » و « أشداء على الكفار رحماء بينهم » و « تخرج بيضاء من غير سوء » و « لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون » و « فتصيبكم منهم معرة بغير علم » و « قالوا نشهد إنك لرسول الله والله يعلم إنك لرسوله والله يشهد إن المنافقون لكاذبون » .

ومنها الايغال والتذييل . فالإيغال أن يختم الكلام بزيادة يتم المعنى بدونها ولا تشتمل على معناه ولكنها لا تخلو من فائدة تزيده تأكيداً نحو (اتبعوا من لا يسألكم أجراً وهم مهتدون) و (ولا يسمع الصم الدعاء إذا ولو مدبرين) و (ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون) و (إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون) ، فإن ختم الكلام بجملة تشتمل على معناه وتكون بمثابة حكم عام يؤيده فهو التذييل نحو (ذلك جزيناهم بما كفروا وهل يجازى إلا الكفور) ، (وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا) و (وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد أفائن مت فهم الخالدون كل نفس ذائقة الموت) و (ويوم القيامة يكفرون بشركم ولا ينبئك مثل خبير) .

ومنها الطرد والعكس وهو أن يؤتى بالمعنى فى تعبيرين يقرر منطوق أحدهما مفهوم الآخر والعكس نحو (لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون) ونحو (يأيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم) إلى قوله (ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن طوافون عليكم) .

ومنها التكرير وهو من محاسن الأطناب ويكون فى جملته للتأكيد لأن الكلام كما يقولون إذا تكرر تقرر ثم هو فى مفرداته للتنبيه نحو (يا قوم اتبعونى أهدكم سبيل الرشاد يا قوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع) وللتهويل نحو (الحاقة ما الحاقة وما أدراك ما الحاقة) وللتجديد إذا طال الكلام تذكيراً به مثل (ثم إن ربك للذين هاجروا من بعد ما فتنوا ثم جاهدوا وصبروا إن ربك من بعدها لغفور رحيم) ولتغير النسبة نحو (الله نور السموات والأرض مثل نوره) ويسمى الترديد ومنه ترديد قوله (فبأى آلاء ربكما تكذبان) فى سورة الرحمن عقب كل نعمة ذكرها فيها ليخص كل نعمة بتذكير فمعناها يعتبر متنوعاً بتنوع كل نعمة ولذلك خص باسم الترديد لا التكرير ونحوها كثير ، ومن التكرير أيضاً تكرار الأمثال نحو (وما يستوى الأعمى والبصير ولا الظلمات ولا النور ولا الظل ولا الحرور وما يستوى الأحياء ولا الأموات) وكذا تكرار القصص بأساليب مختلفة

فى مواطن متعددة على اختلاف بينها فى عدد المرات لما عليه كل قصة من درجة فى العظة والاعتبار .

هذا وقد يظن من المكرر ما ليس منه كقوله تعالى (وإن منهم لفريقا يلوون ألسنتهم بالكتاب ، لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب) فإن الكتاب الأول لما كتبوه بأيديهم مما هو مراد فى قوله (فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هو من عند الله) والثانى للتوراة والثالث لجنس الكتاب ، ومنه سورة الكافرين فإن قوله (لا أعبد ما تعبدون) معناه لا أعبد فى المستقبل ما تعبدون فى الحال وقوله (ولا أنتم عابدون ما أعبد) مثله وقوله (ولا أنا عابد ما عبدتم) أى عابد فى الحال ما عبدتم فى الماضى وقوله (ولا أنتم عابدون ما أعبد) تأكيد للثانية لأنه لم يك يعبد الأصنام حتى يأتى بالماضى فالغرض نفى العبادة فى الأزمان الثلاثة .

هذا بعض ما ورد من الأطناب فى القرآن عن طريق الزيادة فهو المقابل لإيجاز الحذف ويسمى إطناب الزيادة . وهناك إطناب يقابل إيجاز القصر يسمى إطناب البسط ويكون بتكثير الجمل واستقصاء عوارض المعنى ولوازمه بعد جواهره وعناصره كقوله تعالى (أيود أحدكم أن تكون له جنة — إلى قوله — فاحترقت) وقد مضت فى التشبيه وكقوله (إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون) وأمثلته فى القرآن تجل عن الحصر .

(ح) المساواة

لسنا فى حاجة بعد الذى قدمنا عن ألوان المجاز والأطناب بنوعيهما فى القرآن الكريم أن نكشف عما فيه من مساواة لأن كل ما عدا ما ذكرنا وأمثال ما ذكرنا هو المساواة ، ومن أمثلته قوله تعالى (وإذا رأيت الذين

يخوضون فى آياتنا فاعرض عنهم حتى يخوضوا فى حديث غيره وإما ينسينك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين) وأكثر ما تكون فيه المساواة آيات التشريع والأحكام لأنها لا تتلاءم مع الإيجاز ولا يحسن فيها الأطناب .

٩ — خروج الكلام عن مقتضى الظاهر

كان لنا أن نغفل إفراد هذا المبحث بعنوان لأنه داخل فى كل ما مضى من قول ، فما من مبحث تقدم إلا جاء فيه خروج عن مقتضى الظاهر لما تقرر فيه ، ولكن انفراده بأنواع لم تضمها تلك المباحث ، وحاجة ما مضى إلى بعض استكمال جعلنا نضعه تحت هذا العنوان تحقيقاً لهذين الأمرين .

كان أول كلام لنا فى بلاغة القرآن على الخبر من حيث تركه بدون تأكيد للخالى وتأكيده بمؤكد للمتردد وبأكثر من مؤكد للمنكر ، ولكن من الأخبار ما يؤكد والمخاطب غير منكر إذا لم يعمل بمقتضى إقراره ، ومنها ما يترك توكيده مع المنكر لأن معه من الأدلة الظاهرة ما لو تمله لرجع عن انكاره . فمن الأول قوله تعالى (ثم إنكم بعد ذلك لميتون) بالتأكيد مع أنه لا إنكار للموت من أحد ولكن تمادى المخاطبين فى الغفلة جعلهم بمثابة المنكرين ومن الثانى قوله (ذلك الكتاب لا ريب فيه) من غير تأكيد لنفى الريب مع أن هناك منكرين لأن أمامهم من الأدلة ما ليس الخبر معها فى حاجة إلى تأكيد . وقد مثلنا هناك لأشياء خرج فيها الخبر عن أصل وضعه من الفائدة أو لازمها مع بقائه خبرا ومع تحوله إنشاء وأبنا الأغراض التى من أجلها كان هذا الخروج ، وكذلك فعلنا بعده فى الإنشاء وأنواعه مما يعد تجوزاً إرسالياً فى التركيب ، كما تقدمت فى المجاز الإرسالى المفرد أمثلة أخرى كإقامة صيغة مقام غيرها وكالقلب والتغليب والتضمين ، وكذا فى الاستعارى المركب مما جاء على سبيل ضرب المثل والتمثيل مما يعد كله خروجاً عن مقتضى الظاهر ، ثم تتابعت فى الفصول الثمانية التى أعقبت

كلمتى الخبر والإنشاء أمثلة لهذا الخروج أيضاً مع ذكر الأسباب التى اقتضته ومن ثم ليس من داع لإعادة هذا المذكور وليكن كلامنا الآن مقصوراً على ما جاء غير مندرج فى تلك الفصول وأهمه أسلوب الحكيم والالتفات .

فأسلوب الحكيم هو العدول فى الجواب عما يقتضيه السؤال زيادة أو نقصاً ، أو لا هذا ولا ذاك ، فمن الزيادة قوله تعالى على لسان موسى عليه السلام (هى عصاى أتوكأ عليها وأهش بها على غنمى ولى فيها مآرب أخرى) إجابة للسؤال (وما تلك بيمينك يا موسى) والداعى إلى هذا العدول الرغبة فى إطالة المخاطبة مع الله سبحانه والتلذذ بها ، وقوله (الله ينجيكم منها ومن كل كرب) فى جواب (قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر) وداعيه تعميم التنجية من كل الشدائد إزاء قدرة الله ، وقوله على لسان قوم ابراهيم (نعبد أصناماً فنظل لها عاكفين) فى جواب (ماتعبدون) اظهاراً لابتهاجهم بعبارتها وعكوفهم عليها . ومن النقص قوله تعالى (قل ما يكون لى أن أبدله) فى جواب (إيت بقرآن غير هذا أوبدله) بترك الإجابة عن الإتيان إشارة إلى أنه محال وإلى أن من بدا عجزه عن التبديل كان عجزه عن الاختراع أبدى . وقد يعدل فى الإجابة عن السؤال الملقى إلى سؤال آخر كان أولى منه بالإلقاء كقوله تعالى (قل هى مواقيت للناس والحج) فى جواب (يسألونك عن الأهلة) لأن السؤال لم يك عن فائدتها بل عن حقيقتها واختلاف صورها فعدل فى الجواب عنه إلى حكمتها لأنها أنفع لهم وأولى بهم ولذلك قال على سبيل التمثيل فى خروجهم عما ينبغى إلى ما لا ينبغى عقب الإجابة (وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها ولكن البر من اتقى وأتوا البيوت من أبوابها) على أحد وجهى التفسير ، وقد تقدم معه وجه آخر هو أن ذلك كان حقاً لا تمثيلا إذ كانوا لا يدخلون البيوت إلا من خلف حين يحرمون ، وعليه لا يكون فى الآية خروج عن مقتضى الظاهر فلنمثل له بأجمع الآيات فيه وهى الخاصة بمحاورة موسى وفرعون من سورة الشعراء وقد سلفت فليرجع إليها . بل قد يعدل عن الإجابة أصلا إذا كان قصد السائل مجرد

التعنت لا الرغبة فى الاستفهام كقوله تعالى (قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلا) إلى جواب (ويسألونك عن الروح) لأن السائلين كانوا اليهود وكان سؤالهم على سبيل التعجيز إذ ليس فى مقدور العقل الإنسانى أن يحيط بكنه الروح ، هذا على أن لفظ الروح نفسه مشترك بين روح الإنسان وجبريل وعيسى والقرآن وغير هذه مما لو وقعت الإجابة على أحدها قالوا ليس لنا بمراد فاجمال الإجابة هكذا جاء مبكتا لهم رادا لكيدهم فى نحورهم ، كما جاء اختتام الآية بهذه الفاصلة مفيداً أن عدم الإجابة إنما هو لنقص استعدادهم عن فهمها .

وعلى ذكر السؤال والجواب نذكر أمرين لا بأس من ذكرهما ، أحدهما أن القرآن كان من دأبه أن يعيد فى الجواب نفس السؤال كقوله تعالى (قالوا أئنك لأنت يوسف قال أنا يوسف) وقوله (أقررتم وأخذتم على ذلكم اصرى قالو أقررنا) ، والثانى أنه كان يأتى بالجواب مطابقاً للسؤال فى الفعلية والاسمية كما فى قوله (وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم قالوا خيرا) إذ التقدير أنزل خيراً ولولا ذلك لما نصب خيرا .

غير أنه قد يوجد ما يدعو إلى الخروج على هذين الأمرين ، فمن الأول قوله (قل هل من شركائكم من يبدأ الخلق ثم يعيده قل الله يبدأ الخلق ثم يعيده) لأن الجواب فى الحقيقة ليس جارياً على هذا السؤال بل على سؤال متوقع منهم حين استماعهم للسؤال فى الآية هو قولهم مثلا فمن يبدأ الخلق ثم يعيده فالخروج ظاهرى ، ومثله فى الأمر الثانى قوله تعالى (قال من يحيي العظام وهى رميم) قل يحييها لذى أنشأها أول مرة) لأن الغرابة فى المسند وهو الإحياء فناسب أن يصدر به الجواب ومثله (ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم) .

وقد يكون الخروج واجباً لا مستحسنا فحسب كقوله (ماذا أنزل ربكم قالوا أساطير الأولين) برفع أساطير خروجاً على المطابقة لأنه لو طابق بنصبها لكانوا مقرين بالانزال وليس كذلك .

والالتفات بمعناه الخاص نقل الكلام من التكلم أو الخطاب أو الغيبة إلى غيره منها ، فمن التكلم إلى الخطاب قوله (وما لى لا أعبد الذى فطرنى وإليه ترجعون) بدلا من أرجع وإنما التفت لتحقيق التعريض كما تقدم فى الكناية ، ومنه إلى الغيبة قوله (إنا أعطيناك الكوثر فصل لربك وانحر) بدلا من فصل لنا إشارة إلى فضل آخر غير الإعطاء هو فضل الربوبية ، ومن الخطاب إلى الغيبة قوله (حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم) بدلا من بكم إخراجاً للقصة من أن تكون خطاباً خاصا بهم إلى أن تكون حديثا عنهم عظة لغيرهم ومن الغيبة إلى التكلم قوله (الله الذى أرسل الرياح فتثير سحابا فسقناه) بدلا من فساقه إظهاراً لنسبة الفعل إليه على سبيل التكلم ليكون أدل على القدرة والعظمة ، ومنها إلى الخطاب قوله (إياك نعبد وإياك نستعين) بدلا من إياه خروجاً على الصفات المذكورة قبله إشارة إلى أن تلك الصفات من شأنها إذا وعاها القارىء أن تشعره بالوقوف بين يدى الله موقفاً يستدعى الخطاب له لا التحدث عنه ، أما من الخطاب إلى التكلم فلم نظفر له بمثال فى القرآن كما لم نجد له فى موسوعات البلاغة أى مثل فى باب الالتفات مع حرصها على جعل أمثلته من القرآن ولذلك نقول إنه لم يرد به لما فيه من التكلف بتجريد الشخص من نفسه شخصاً يخاطبه ثم عودته إلى التحدث عنه بالتكلم .

ومما تقدم يتضح أن الاسم الظاهر من الغيبة لأنه مرجعها وعلى ذلك يكون من الالتفات وضعه موضع الضمير وقد تقدم مبسوط الأمثلة واضح الأغراض فى أنواع الأطناب لأنه منه ، كما أن عكسه من الالتفات أيضا وقد تقدم كذلك فى التعريف بالضمير حيث الكلام عن مراجع ضمير الغيبة وفى القصر حيث الكلام على ضمير القصة والشأن مع ضمير الفصل .

أما الالتفات بمعناه العام فيشمل أسلوب الحكيم بل يشمل كل خروج عن مقتضى الظاهر لأن ترك الظاهر إلى غيره التفات ولهذا يدخل فيه ما ذكرناه وما أشرنا إليه وغيرهما مما لم نذكره ولم نشر إليه كتجاهل العارف

مثلا فى قوله تعالى على لسان نبيه لمن يستميلهم إلى جدله (وإنا أو إياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين) إذ لا شك عنده فى هداه وضلالهم ولكنه خرج على هذه الحقيقة للاستدراج .

١٠ — الدقة فى استعمال الألفاظ والتراكيب من حيث المناسبة للمعانى

لقد وضحت هذه الدقة بالقرآن الكريم فى المفردات من حروف وأفعال وأسماء كما وضحت فى التراكيب من أخبار ومنشآت إذ جاءت لكل قسم بأنواعه فى آيه شديدة المناسبة كثيرة الأمثال .

(ا) فى المفردات

من دقة القرآن فى استعمال الحروف مخالفته بين (فى) و (على) ، من ذلك قوله تعالى (وإنا أو إياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين) إذ اختار على للهدى لأن صاحب الحق مستعل لمزيد قوته ، واختار « فى » للضلال لأن الضال لفشله وضعفه كأنه منغمس فى حيرته متردد فى هوته ولذلك قال فى آية أخرى (تالله إنك لفى ضلالك القديم) ومن أدق ما يلاحظ فى استعمال (على) أن العلو فيها قد يكون فى حال الضلال كما يكون فى حال الهداية ولكن على شرط أن يكون مضعفاً لا مقوياً كما فى قوله (أفمن يمشى مكباً على وجهه أهدى أم من يمشى سوياً على صراط مستقيم) لأن من يركب وجهه يزداد ضلالا كمن يركب رأسه فهو لا يبصر وإذن لا يعقل ولذلك أتى فى الآية بكلمة مكب لتزيد الإضعاف بياناً . ولم تعدم « فى » أن يكون لها استعمال مناظر لهذا الاستعمال فى « على » من حيث المعاكسة للأصل الذى قررناه لها كما فى قوله (ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر) فالظاهر كان أن يقال على البر والبحر ولكن لما كانت الآية للمنة وكان الحمل أظهر لها فى مظان الهلاك كانت « فى » أدل على ذلك من « على » فأتى

بها وهـذا على أن الحمل الحق ليس على البر والبحر بل على حاملات فيهما كالإبل فى البر والسفن فى البحر . وانظر مخالفته بين « فى » و « اللام » فى الدخول على مستحق الزكاة من الآية (إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل) كيف أدخل على الأربعة الأوائل اللام وخالف بخص الأربعة الأخيرين بنى ليشعر بتلك المخالفة أن الاستحقاق فى هؤلاء أقوى وهم بالزكاة أولى لأنها معهم لنفع عام فى حين لا تعدو مع الأولين النفع الخاص ، وهنا دقيقة أخرى هى أنه كرر فى ثانية تكريراً قرن بين الرقاب والغارمين كما قرن بين سبيل الله وابن السبيل زيادة فى التوصية وجمعاً بين النظائر ثم اللام على ضعفها عن فى لم تكرر .

ومنها قوله تعالى (الذين هم عن صلاتهم ساهون) بعن بدلا من فى وهى رحمة كبيرة بنا لأنه لا يخلو مصل فينا من سهو فى صلاته فلو قال « فى » لما بقى لمصل صلاة ولحق عليه العقاب المذكور فى هذه الآية فالحيدة عن فى إلى عن قصرت هذا العقاب على تاركى الصلاة دون الساهين فيها ، ومن هنا نفهم الحكمة فى قول ابن عباس رضى الله عنهما « الحمد لله الذى قال عن صلاتهم ساهون ولم يقل فى صلاتهم » .

ومنها قوله (فابعثوا أحدكم بورقكم هذه إلى المدينة فلينظر أيها أزكى طعاماً فليأتكم برزق منه وليتلطف ولا يشعرن بكم أحدا) إذ حول العطف من الفاء إلى الواو فى قوله وليتلطف لانقطاع الترتيب .

ومن دقته فى الأسماء العدول عن صيغة إلى غيرها لحاجة المعنى إلى هذا العدول كقوله تعالى (الحى القيوم) و (علام الغيوب) و (إن الله يحب التوابين منكم ويحب المتطهرين) و (عزيز حكيم) إلى غير ذلك وهو كثير جداً وليس فى حاجة إلى مزيد استشهاد .

ومنها السبيل للخير والطريق للشر كقوله (قل هذه سبيلى أدعو إلى الله على بصيرة) وقوله (إلا طريق جهنم خالدين فيها أبدا) فإذا استعمل الطريق

فى الخير قرنه بما يفهم ذلك كقوله (يهدى إلى الحق وإلى طريق مستقيم) وإذا استعمل السبيل للشر لا يكون إلا على سبيل التناظر كقوله (ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله) وهنا دقيقة خارجة هى إفراد سبيل الحق وجمع سبل الباطل لأن الحق واحد والباطل متعدد .

ومنها السنة للشدة والجدب ، والعام للرخاء والخصب كقوله سبحانه (قال تزرعون سبع سنين دأباً فما حصدتم فذروه فى سنبله إلا قليلا مما تأكلون ثم يأتى من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون) .

ومن دقته فى الأفعال التفرقة بين الماضى والمضارع فى بناء الجمل وبين كليهما نفسه مجرداً من الأدوات التى تدخل عليه أو متلبساً بها وقد تقدمت لهذا أمثلة فى الكلام على فعلية الجمل واسميتها . على أن هناك أفعالا ناقصة أو جامدة ذات استعمال دقيق لاختلافها باختلاف التراكيب .

ومنها فى الفعل وحدثه ، التفرقة بين المترادفين وتخصيص كل واحد منهما بموضوع دون نظيره كالخشية والخوف فقد خصت الخشية بالخوف الشديد الذى ينشأ من عظمة المخوف وجعل الخوف للناشىء من ضعف الخائف ولذلك يعبر عن الخوف من الله بالخشية كما قال سبحانه (يخشون ربهم ويخافون سوء الحساب) وهو شاهد للاثنين ، وإذا استعمل الخوف مع الله مكانها تجد فى التركيب ما يكمل فيه هذا النقص كقوله (يخافون ربهم من فوقهم) . ومن هذه المترادفات فيه البخل والشح والثانى أشد قال تعالى (الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله) وقال (ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون) ومنها جاء وأتى فالأول فى الذوات والثانى فى الأحداث والأزمان قال تعالى (ولمن جاء به حمل بعير) و (وجاءوا على قميصه بدم كذب) و (وجىء يومئذ بجهنم يومئذ) وقال (أتى أمر الله) و (أتاها أمرنا) ومنها مد فى الشر وأمد فى الخير قال (ونمد له من العذاب مدا) وقال (وأمددناهم بفاكهة) ومنها سقى لما لا كلفة فيه وأسقى لما فيه كلفة ولذا خصت الأولى بشراب الجنة والثانية بشراب الدنيا قال (وسقاهم

ربهم شراباً طهورا) وقال (وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقياهم ماء غدقا) ومنها عمل لما فيه امتداد ، وفعل لما فيه سرعة نحو (يعملوله ما يشاء) ونحو (كيف فعل ربك بعاد) ومنها القعود والجلوس ، الأول لما فيه لبث والثانى بخلافه قال (مقعد صدق) وقال (تفسحوا فى المجالس) ومنها التمام لإزالة نقص فى الأصل والكمال لإزالة نقص فى العوارض وقد اجتمعا فى قوله (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى) ومنها الإعطاء والإيتاء والثانى أقوى من الأول إذ فعله ليس له مطاوع بخلاف الأول فإنه ضعيف ولفعله مطاوع قال تعالى (تؤتى الملك من تشاء) وقال (ولسوف يعطيك ربك فترضى) ولذلك خص الإيتاء بالزكاة والاعطاء بالصدقة لوجوب الأولى دون الثانية قال تعالى (وآتوا الزكاة) وقال (فأما من أعطى واتقى) .

هذا وإحصاء الدقة فى الحروف والأفعال والأسماء فوق المجهود لأن لكل حرف ولكل اسم ولكل فعل مواضع يختلف باختلافها تداوله ، ويتعدد بمناسباتها استعماله وهى مفصلة المعانى موضحة الاستعمال فى كتب العربية ثم هى موفورة الشواهد بينة الدقة فى القرآن .

(ب) فى التراكيب

لا يمتنع كل ما تقدم من آيات أن يكون فوق التمثيل به فى مواضعه الخاصة أمثلة هنا من ناحية الدقة فى تكوين التراكيب ، ولكن الذى نريد أن ننبه عليه الآن إنما هو مجىء التركيب جزلا حيث يكون المعنى جزلا ، وعذباً حيث يكون المعنى عذبا . فمن مواطن الأول مقامات القرع بالأوامر والنواهى والتذكير بالمعاد والقيامة وضرب المثلات للعظة بمن خالف وعصى . ومن مواطن الثانى مقامات الملاطفة والاستعطاف والترغيب والتبشير إلى غير ذلك .

وهذى بعض آيات من النوعين :

قال تعالى فى موطن الجزالة (ونفخ فى الصور فصعق من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون وأشرقت الأرض بنور ربها ووضع الكتاب وجىء بالنبيين والشهداء وقضى بينهم بالحق وهم لا يظلمون ووفيت كل نفس ما كسبت وهو أعلم بما يفعلون) وقال (ويوم نسير الجبال وترى الأرض بارزة وحشرناهم فلم نغادر منهم أحدا وعرضوا على ربك صفاً لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة بل زعمتم أن لن نجعل لكم موعدا ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضرا ولا يظلم ربك أحدا) وقال ففتحنا عليهم أبواب كل شىء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون) وقال (فاذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد) ونحو هذا كثير . ومن السور الجزلة الشديدة الوقع سورة اللهب .

وقال مما هو عذب (وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون) وقال (إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون) وقال (إن المتقين فى جنات وعيون ادخلوها بسلام آمنين ونزعنا فى صدورهم من غل إخوانا على سرر متقابلين لا يمسهم فيها نصب وما هم منها بمخرجين) وقال (ذكر رحمة ربك عبده زكريا إذ نادى ربه نداء خفيا قال رب إنى وهن العظم منى واشتعل الرأس شيبا ولم أكن بدعائك رب شقيا وإنى خفت الموالى من ورائى وكانت امرأتى عاقرا فهب لى من لدنك ولياً يرثنى ويرث من آل يعقوب واجعله رب رضيا) . ومن السور التى تذوب رقة وسلالة سورتا الضحى والشرح وهما متعاقبتان وفى موضوع واحد .

١١ — تنوع القسم فى القرآن وحكمته

الغرض من القسم تحقيق الخبر وتوكيده ، وقد كان الظاهر ألا تكون بالقرآن أقسام لأنه لا حاجة لهذا التوكيد من قبل الله ولكن لما نزل بلغة العرب وكان من عادتها التوكيد بالقسم لما تقدم جرى على عرفها لتأكيد الحجة وكمالها ، ثم لما كان الحكم يفصل عندها بالشهادة أو القسم خاطبها بالنوعين حتى لا تكون لها بعد حجة ، فقال عن طريق الإثبات بالشهادة « شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم » ، وقال عن طريق القسم (وفى السماء رزقكم وما توعدون فورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون) وقد روى أن بعض الأعراب حين سمع هذا القسم صرخ وقال من ذا الذى أغضب الجليل حتى ألجأه إلى اليمين وهذا يدل على مبلغ تأثير القسم فى نفوس السامعين . والقسم فى الآية مما أقسم الله سبحانه وتعالى فيه بنفسه وهو لم يقسم بها فى القرآن إلا فى سبع آيات هذه إحداها والست الباقيات هن (ويستنبئونك أحق هو قل إى وربى إنه لحق) و(قل إى وربى لتبعثن) و (فوربك لنحشرنهم والشياطين) و (فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون) و (فلا وربك لا يؤمنون) و (فلا أقسم برب المشارق والمغارب) وكلها بلفظ الرب .

والأصل فى القسم ألا يكون إلا بما يعظمه المقسم ويجله مما هو فوقه ولكن لما لم يك فوق الله جل وعلا شىء لم يجد أمامه إلا أن يقسم بنفسه كما تقدم أو بكل ما هو عظيم فى ذاته بقصد الأبانة عن فضله أو لفت النظر إلى بارئه ، ومن ثم أقسم برسوله صلى الله عليه وسلم ليعرف الناس قيمته عنده ومكانته لديه ولم يقسم بأحد غيره قال ابن عباس : (ما خلق الله ولا ذرأ ولا برأ نفسا أكرم عليه من محمد صلى الله عليه وسلم وما سمعت الله أقسم بحياة أحد غيره قال (لعمرك إنهم لفى سكرتهم يعمهون) ثم أقسم بمصنوعاته لأنها تدل على عظمته وقدرته كالشمس والقمر والنهار والليل

والسماء والأرض وغيرها كالنفس التى سواها ، وهو حين يقسم بهذه الأشياء وأمثالها يلفت النظر غالبا إلى وجه العظمة فيها قال (والشمس وضحاها والقمر إذا تلاها والنهار إذا جلاها والليل إذا يغشاها والسماء وما بناها والأرض وما طحاها ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها) . على أنه سبحانه قد يتجاوز فيما يقسم به هذه الأشياء العظيمة إلى غيرها مما هو ذو منفعة أو فضيلة وقد اجتمعا فى قوله (والتين والزيتون وطور سينين وهذا البلد الأمين ، لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم) أو مما هو زمن يتضمن أفعالا معظمة كالآية (والفجر وليال عشر والشفع والوتر والليل إذا يسر هل فى ذلك قسم لذى حجر) فانها تشير إلى كثير من المناسك والشعائر التى هى تعبدية محضة يتجسم فيها ذل العبد وخشوعه أمام ربه ، ومن هنا ندرك أن الله لم يقسم بهذه الأشياء من مصنوعات وغيرها لذاتها بل لما تستلزمه من تعظيمه والإقرار بقدرته لأن ذكر المخلوق يستلزم ذكر الخالق ولهذا قال كثير إن القسم بهذه الأشياء على تقدير مضاف هو كلمة رب فاذا قال (والليل إذا يغشى والنهار إذا تجلى) كان معناه ورب الليل فى غشيته والنهار فى جلوته ، وبذلك يسقط قول من قال كيف أقسم الله بالخلق وقد ورد النهى عن القسم بغيره ، وهذا فضلا على ما فى النهى من تقييده بالنسبة إلينا لا إليه سبحانه إذ له أن يقسم بما شاء من مخلوقاته لأنها الدلائل البينة على عظيم آياته .

ذاك بعض ما يقال عن المقسم به فى القرآن الكريم أما المقسم عليه فغالبه راجع إلى أصول الإيمان التى يجب على الخلق معرفتها كالتوحيد والقرآن والرسول واليوم الآخر نحو (والصافات صفا فالزاجرات زجرا فالتاليات ذكرا إن إلهكم لواحد رب السموات والأرض وما بينهما ورب المشارق) و (فلا أقسم بمواقع النجوم وإنه لقسم لو تعلمون عظيم إنه لقرآن كريم فى كتاب مكنون لا يمسه إلا المطهرون تنزيل من رب العالمين)

و (والنجم إذا هوى ما ضل صاحبكم وما غوى وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى) و (والذاريات ذروا فالحاملات وقرا فالجاريات يسرا فالمقسمات أمرا إن ما توعدون لصادق وإن الدين لواقع) والدين هنا الجزاء الذى يقع فى ذلك اليوم الصادق وهو يوم القيامة . وكثيراً ما أقسم القرآن على أحوال الإنسان قال (والليل إذا يغشى والنهار إذا تجلى وما خلق الذكر والأنثى إن سعيكم لشتى) ، وقال (لا أقسم بهذا البلد وأنت حل بهذا البلد ووالد وما ولد لقد خلقنا الإنسان فى كبد) ، وقال (والعاديات ضبحا فالموريات قدحا فالمغيرات صبحا فأثرن به نقعا فوسطن به جمعا إن الإنسان لربه لكنود وإنه على ذلك لشهيد وإنه لحب الخير لشديد) .

وقد يتكرر الشىء الواحد مقسما عليه وبه فى آن واحد ومن أجمع الآيات لذلك قوله تعالى (يس ، والقرآن الحكيم إنك لمن المرسلين على على صراط مستقيم تنزيل العزيز الرحيم) ففيها الرسول والقرآن مقسما بهما وعليهما ، كما قد يكون الشىء مقسما به ومقسما عليه فيكتفى بذكره مقسما به إذا كان فيه دلالة على المقسم عليه كقوله تعالى (ص ، والقرآن ذى الذكر) فالمقسم عليه محذوف تقديره إنه لحق مثلا اعتماداً على قوله فى المقسم به ذى الذكر لأن ما كان ذا ذكر فهو حق ، وكقوله (لا أقسم بيوم القيامة) بحذف المقسم عليه وهو مثل ما ذكرنا مع القرآن اتكالا على لفظ القيامة فى المقسم به لأنه يشعر بقيامه .

ومما هو من دقائق القسم فى القرآن أن يأتى المقسم به شديد المطابقة للمقسم عليه ومن ذلك قوله (والضحى والليل إذا سجى ما ودعك ربك وما قلا) فإن هذه الآية نزلت إذ احتبس الوحى عنه صلى الله عليه وسلم وقال أعداؤه لقد ودع محمداً ربه وقد اختارت الضحى التى توافى بعد ظلام الليل كى تناظر الوحى الذى يأتى بعد احتباس .

هذا وقد يأتى القسم بصيغ غير الاصطلاحية التى هى الباء مع الفعل

أو الواو النائبة عنها بدونه كما تقدم أو التاء مع لفظ الجلالة خاصة نحو « وتالله لأكيدن أصنامكم » فيكون على نوعين نوع مضمر تدل عليه اللام فى الجواب كقوله تعالى (لتبلون فى أموالكم وأنفسكم) ونوع يجرى مجرى الأخبار بدون جواب كقوله (وقد أخذ الله ميثاقكم إن كنتم مؤمنين) أومع جواب كقوله (وقد أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس).

١٢ — الجدل فى القرآن

لقد جاء القرآن الكريم مليئاً بالجدل المشتمل على أنواع الأدلة والبراهين ذات النتائج الصحيحة المبنية على المعلومات العقلية والسمعية مع بعده عن طرائق المتكلمين ذات الغموض الذى لا يفهمه إلا الأقلون ، فوقعت حججه فى صورة واضحة يفهم العوام من جليها ما يقنعهم ويدرك الخواص من دقائقها ما يفحمهم ، وما كان له فى جدله سوى هذه السبيل جرياً على عادة العرب فى تبسطها وتحقيقا لميثاق الله سبحانه فى قوله (وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم) . ومع تبسط القرآن فى جدله لما تقدم تحققت فى آيه معظم أنواع القسم .

١ — جاء فيه القول بالموجب ، وهو رد كلام الخصم من فحوى كلامه بأن تقع فى كلامه صفة الشىء كناية عن إثبات حكم له فتأخذ أنت تلك الصفة مسلماً بها ولكن على أن تثبت ذلك الحكم لغير هذا الشىء ، أو بأن ترد فيه لفظة يريد ناحية معينة من نواحيها فتريد أنت ناحية أخرى لما فهو نوعان ، مثال أولهما قوله تعالى عن المنافقين (يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون) فهم أثبتوا أن الإخراج للعزيز يرفعه على الذليل وأنهم لذلك سيخرجون المؤمنين والآية سلمت لهم بصحة هذه القضية فى ذاتها ولكنها أثبتت العـــزة لله ولرسوله وللمؤمنين ليفهموا أنهم لذلك سيكونون المخرجين ، ومثال الثانى قوله تعالى عنهم أيضا (ومنهم الذين يؤذون النبى

ويقولون هو أذن ، قل أذن خير لكم) يريدون أنه صلى الله عليه وسلم سماع لكل شيء مصدق لكل قول ولكن الآية لم تترك الأذن مطلقة كما ذكروها بل نسبتها إلى الخير ليلتقى ما يريدون ولهذا كان تمام الآية (يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين ورحمة للذين آمنوا منكم) أى أنه يصدق بالله ويسلم للمؤمنين لا لكم لعدم تصديقه إياكم ثم هو مع ذلك رحمة للذين أظهروا الإيمان منكم حيث قبلهم ولم يكشف حقيقتهم ، والحوار فى تمام الآية والآيات قبلها وبعدها متناه فى الدقة مفرط فى الطول فليرجع إليه من سورة التوبة .

٢ — وجاءت فيه مجاراة الخصم ، وهو أن تسلم له ببعض مقدماته إشارة إلى أنها لا تنتج ما يريد وأنها تساعد على ما تريد أنت كقوله تعالى (قالوا إن أنتم إلا بشر مثلنا تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا فأتونا بسلطان مبين ، قالت لهم رسلهم إن نحن إلا بشر مثلكم) فقد سلم لهم الرسل بالبشرية لأنها لا تنتج عدم الرسالة بل هى على العكس شرط فيها لأن من أنكرها على نبى أنكر رسالته لأن الله لم يرسل رسله إلا من البشر ولذلك قال (ولو أنزلنا ملكا لقضى الأمر ثم لا ينظرون ، ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا وللبسنا عليهم ما يلبسون) إجابة لهم حيث قالوا (لولا أنزل عليه ملك) لأنه لا مفر من أن يكون الرسول بشرا .

٣ — وجاء فيه الإسجال ، وهو أن تثبت على لسان خصمك ألفاظا فى سياق آخر تسجل عليه ما كان عنده محل شبهة وإنكار كقوله تعالى (ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار أن قد وجدنا ما وعد ربنا حقا فهل وجدتم ما وعد ربكم حقا قالوا نعم فأذن مؤذن بينهم أن لعنة الله على الظالمين الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجا وهم بالآخرة هم كافرون) وانظر التفاته إلى المضارع فى قوله (يصدون) وما فيه من توجيه أنظارهم إلى أن يقلعوا عما هم فيه من باطل إلى ما هو حق .

٤ — وجاء فيه التسليم ، وهو أن تفرض لخصمك ما يقوله من المحال

حقا ثم تريه أن ذلك على فرضه لا ينتج إلا محالا يسقط هذا الفرض وهو إما مشروط بحرف امتناع ليكون ممتنع الوقوع لامتناع وقوع شرطه كقوله تعالى (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا) وإما منفى نفياً صريحاً كقوله (ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذن لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض) .

٥ — وجاءت فيه المناقضة ، وهى تعليق ما تريد نفيه على مستحيل حتى يكون مستحيلا مثله كقوله تعالى (إن الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل فى سم الخياط) .

٦ — وجاء فيه الانتقال ، وهو أن تنتقل بالخصم إلى استدلال غير الذى كنت معه فيه لعدم فهمه وجه الدلالة منه كقوله تعالى (ألم تر إلى الذى حاج ابراهيم فى ربه أن آتاه الله الملك إذ قال إبراهيم ربى الذى يحيي ويميت قال أنا أحيي وأميت قال فإن الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذى كفر والله لا يهدى القوم الظالمين) فإنه حين سمع قول ابراهيم ربى الذى يحيي ويميت قال أنا أحيي وأميت ودعا بشخص مقضى عليه بالقتل فعفا عنه وبآخر برىء فقتله فعلم إبراهيم أنه لا يفهم حقيقة الإحياء والإماتة أو علمها وغالط بهذا الذى عمل فانتقل منها إلى استدلال آخر لا سبيل له فيه إلى إنكار ولا مغالطة هو أن الله يأتى بالشمس من المشرق فليأت هو بها من المغرب فبهت ولم يجد من السكوت محيصا .

٧ — وجاء فيه نوع غير ما تقدم دقيق هو التقسيم والسبر ، وذلك أن تقسم ما هو محل جدل إلى منتهى أقسامه وتسبر كل قسم بما ينفى عنه ما يريد الخصم كقوله تعالى يرد على المشركين تحريمهم ذكور الأنعام تارة وإناثها أخرها لأسباب معروفة عنهم يزعمونها (ثمانية أزواج من الضأن اثنين ومن المعزاثنين قل آلذكرين حرم أم الأنثيين أم ما اشتملت عليه أرحام الأنثيين نبئونى بعلم إن كنتم صادقين ، ومن الإبل اثنين ومن البقر اثنين قل آلذكرين حرم أم الأنثيين أم ما اشتملت عليه أرحام الأنثيين أم كنتم

شهداء إذ وصاكم الله بهذا) فهذه الآية تنفى إرجاع التحريم إلى أى سبب ، فلا هو راجع إلى الذكورة ولا إلى الأنوثة ولا إليهما معاً لأنهم أدالوا التحريم بينهما ، ولا هو راجع إلى أخذ عن الله تعالى لأنه إما بواسطة عن وحى وإرسال رسول وإما بغيرها عن مشاهدة واستماع كلام ، والأول باطل لأنهم لم يأتهم رسول قبل النبى صلى الله عليه وسلم وإلا فليثبتوا بعلم عنه إن كانوا صادقين . والثانى كذلك لأنهم لم يدعوا أنهم كانوا شهداء إذ وصاهم الله بهذا ، فالآية اشتملت على الأقسام الممكنة ونفت إرجاع الأسباب إليها .

هذا ومما عنى القرآن الكريم بالجدل فيه نوعان : التوحيد وما يتعلق به ، والبعث وما يتعلق به ، فأما الأول فقد تقدم عنه وعن الشرك ونحوه مما هو ذو صلة بهما كثير من أمثلة الجدل فى مواطن كثيرة أخصها التشبيه ، وقد تقدم له هنا مثال آخر من نوع التسليم . وأما البعث فلم تقل عناية القرآن به عن عنايته بالتوحيد وذلك لأنه الركن الذى تبنى عليه الحياة الثانية . ومن أجمع الآيات فى الجدل عنه قوله تعالى (يأيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ، ونقر فى الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئا ، وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ، ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيي الموتى وأنه على كل شىء قدير وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور) . فقد استدل الله بها على البعث من طريقين ، أولهما خلق الناس ابتداء لأن من قدر على الابتداء كان على الإعادة أقدر ولذلك قال (وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه) وقال (أفعيينا بالخلق الأول بل هم فى لبس من خلق جديد) وقال (كما بدأنا أول خلق نعيده) وقال (كما بدأكم تعودون) . وروى ان أبى بن خلف جاء بعظم ففته ثم قال أيحيي الله هذا

بعد ما بلى ورم فنزلت الآية (أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحي العظام وهى رميم ، قال يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم ، الذى جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم منه توقدون ، أوليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم ، إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون ، فسبحان الذى بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون) ، وثانيهما إحياء الأرض بعد موتها لأن من يوجد الأرض بعد العدم ثم لا يزال يحييها بالخصب ويميتها بالمحل كما هو مشاهد محسوس — فأن ذلك فيه أظهر منه فى خلق الناس — قدير على أن يعيد هذا الخلق بالبعث ، ولذلك جعل هذا فى كثير من آيه مقدمة لبيان ذاك قال تعالى (والله الذى أرسل الرياح فتثير سحابا فسقناه إلى بلد ميت فأحيينا به الأرض بعد موتها كذلك النشور) وقال (وهو الذى يرسل الرياح بشراً بين يدى رحمته حتى إذا أقلت سحابا ثقالا سقناه إلى بلد ميت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون) .

هذا ومن الآيات السابقة فى إلخام أبى بن خلف ترى أن الله قد ذكر فى الاستدلال على البعث طريقين آخرين ، أحدهما إخراج النار من الشجر الأخضر وهو غاية فى البيان من حيث رد الشيء إلى نظيره والجمع بينهما لما فيهما من تبدل الأعراض عليهما كما قال فى آية أخرى (أفرأيتم النار التى تورون أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون . نحن جعلناها تذكرة ومتاعاً للمقوين) ، والآخر قياس الإعادة على خلق السموات والأرض بطريق الأولى فإن خلقهما أعظم وأجل كما قال فى آية أخرى (لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون) . وهناك طريق خامس للاستدلال على البعث يسوقه الله سبحانه وتعالى فى أمثال قوله (وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت بلى وعدا عليه حقا ولكن أكثر الناس لا يعلمون ، ليبين لهم الذى يختلفون فيه وليعلم

الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين ، إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون) وذلك هو ضرورة أن يركب سبحانه وتعالى الناس تركيباً آخر يتحقق معه هذا البيان المعلل به البحث فى الآية لأن اختلافهم فى أمره مركز فى فطرهم تركيزا لا يمكن ارتفاعه عنهم جميعاً إلا بإزالة هذه الجبلة وإعادة الخلق على صورة أخرى تكون فى حياة ثانية يرتفع فيها هذا الخلاف وتلك الحياة الثانية لا تكون إلا عن بعث ، فالخلاف القائم على البعث دليل على ضرورته حتى يتبين للناس الذى يختلفون فيه ويعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين .

١٣ — بدائع القرآن

لسنا نقصد من كلمة بدائع معناها على إطلاقه إنما نقصد وقد ذكرنا ما ذكرنا عن فصاحة القرآن وبلاغته مما هو ذو علاقة بعلمى البيان والمعانى معناها الخاص فى علم البديع وهو المحسنات اللفظية والمعنوية حتى نودع تحت كلتيهما طرفاً فنكون قد وفينا القرآن بعض حقه من علوم البلاغة الثلاثة ، على أنا سنكف عن إعادة ما قد مر آنفاً لمناسبات من محسنات معنوية مع البلاغة وهو الاكتفاء والاحتباك فى الإيجاز ، والترقى والتدلى فى التقديم والتأخير ، ثم التفسير والإيضاح بعد الإبهام ، والتفصيل بعد الإجمال ، والاعتراض والتميم والتكميل والاحتراس والإيغال والتذييل والطرد مع العكس والتكرير والترديد وكلها فى الأطناب ، وأسلوب الحكيم والالتفات وتجاهل العارف فى الخروج عن مقتضى الظاهر ، وائتلاف اللفظ مع المعنى ومع اللفظ حيث الكلام على الدقة ، والقول بالموجب ومجاراة الخصم والأسجال والتسليم والمناقضة والانتقال والسير مع التقسيم فى الجدل . وكذلك سنترك ما مر من محسنات لفظية بالفصاحة ومهداتها وهو حسن الابتداء وحسن التخلص وحسن الانتهاء . وأيضا ما جاءت أمثلته فى الفاصلة كرد العجز على الصدر والموازنة والمماثلة والتفويف والتطريف والتوازى والترصيع

ولزوم ما لا يلزم ، إلى أشياء أخر تتصل بذلك هناك ، وعلى هذا لم يبق من المحسنات اللفظية الهامة سوى السجع والجناس وهما ما سنقصر القول عليهما .

١ – المحسنات اللفظية

منها السجع وقد ورد فى القرآن الكريم قصير الفواصل ومتوسطها وطويلها . فمن القصير (يوم ترجف الراجفة تتبعها الرادفة قلوب يومئذ واجفة) وأقصر منه (يا أيها المدثر قم فأنذر وربك فكبر وثيابك فطهر والرجز فاهجر ولا تمنن تستكثر ولربك فاصبر) ومن الطويل (ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة ثم نزعناها منه إنه ليئوس كفور ، ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته ليقولن ذهب السيئات عنى إنه لفرح فخور) وأطول منه (إذ يريكهم الله فى منامك قليلا ولو أراكهم كثيراً لفشلتم ولتنازعتم فى الأمر ولكن الله سلم إنه عليم بذات الصدور ، وإذ يريكموهم إذ التقيتم فى أعينكم قليلا ويقللكم فى أعينهم ليقضى الله أمراً كان مفعولا وإلى الله ترجع الأمور) ومن المتوسط (اقتربت الساعة وانشق القمر وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر) و (وقالوا اتخذ الرحمن ولدا ، لقد جئتم شيئا إدا) وأحسن السجع ما تساوت فيه الفاصلتان فى عدد الكلمات ثم ما تفاوتتا فيه تفاوتا قليلا ثم ما كان التفاوت فيه متوسطا على أن يكون الطول فى الثانية ، أما التفاوت المتوسط مع كون الطول فى الأولى والتفاوت الكثير مطلقا فليس بمحمود ، ولذلك لم يرد من هذه الأنواع الثلاثة الأخيرة شىء فى القرآن .

ومنه الجناس وهو التشابه فى اللفظ وقد يصل إلى درجة الإتحاد فتكون الكلمتان من المشترك كقوله (يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار ، يقلب الله الليل والنهار إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار) وهذا هو الجناس التام وهو قليل . وغير التام هو الكثير وله صور متعددة تختلف

باختلافها الأسماء . فمنه المحرف الذى لا يختلف إلا فى الحركات نحو (ولقد أرسلنا فيهم منذرين فانظر كيف كان عاقبة المنذرين » . ومنه الناقص أو المذيل وهو ما جاء الاختلاف فيه مع اتفاق الحركات أو اختلافها بنقص أو زيادة فى بعض الحروف نحو « والتفت الساق بالساق إلى ربك يومئذ المساق » و « ولكنا كنا مرسلين » و « إن ربهم بهم » و « وانظر إلى إلهك » وهذا الذى جاءت زيادته فى الآخر يسمى المتوج . ومنه المصحف وهو المختلف فى النقط نحو (والذى هو يطعمنى ويسقين وإذا مرضت فهو يشفين) والمضارع وهو ما كان اختلافه فى حرفين متقاربى المخرج نحو (وهم ينهون عنه وينأون عنه) فان لم يكونا متقاربى المخرج وكانا مع ذلك غير متشابهى الخط فهذا هو اللاحق نحو (ويل لكل همزة لمزة) و (وإنه على ذلك لشهيد وإنه لحب الخير لشديد) و (ذلكم بما كنتم تفرحون فى الأرض بغير الحق وبما كنتم تمرحون) فإذا لم يتقاربا مخرجا ولكنهما تشابها كتابة فإنه يسمى اللفظى كقوله (وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة) لما بين الضاد والظاء من التشابه الكتابى . وهناك أنواع أخرى للجناس منها التجنيس القلبى وهو المختلف فى ترتيب الحروف نحو (فرقت بين بنى إسرائيل) والاشتقاقى وهو المتحد فى أصل المأخذ نحو (فروح وريحان) و (فأقم وجهك للدين القيم) و (إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا) والإطلاقى وهو ما جاء لمطلق التشابه نحو (وجنى الجنتين دان) و (ليريه كيف يوارى سوأة أخيه) و (وإن يردك بخير فلا راد لفضله) و(قال إنى لعملكم من القالين) . وقد يتكون الجناس من كلمة وجزء أخرى كقوله تعالى (على شفا جرف هار فانهار به فى نار جهنم) فالكلمة هار والجزء الفاء من جرف .

هذا ومع ما للجناس من حلية لفظية كان القرآن يتركه إذا كان فى عدمه قوة للمعنى وذلك كقوله (وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين) وقوله (أتدعون بعلا وتذرون أحسن الخالقين) فإنه لم يقل بمصدق ، ولا وتدعون

مع ما فيهما من تحقيق الجناس لأن فى مؤمن وتذر من قوة المعنى ما ليس فى مصدق وتدع .

٢ — المحسنات المعنوية

١ — منها التورية وتسمى الأيهام وهى أن يذكر لفظ له معنيان قريب وبعيد على أن يورى عن الثانى بالأول الذى يتوهمه السامع لأول وهلة مثل « قالوا إنك لفى ضلالك القديم » إذ الضلال يحتمل الحب وهو بعيد وعدم الهداية وهو قريب وقد ورى به عن الحب ، ونحو (والنجم والشجر يسجدان) فإن النجم يطلق على الكوكب وهو قريب وعلى ما لا ساق له من النبات وهو البعيد المراد . والتورية ذات عون على تأويل المتشابهات ولذلك قال الزمخشرى « لا ترى باباً فى البيان أدق ولا ألطف من التورية ، ولا أنفع ولا أعون على تعاطى تأويل المتشابهات فى كلام الله ورسوله — ثم قال — ومن أمثلتها (الرحمن على العرش استوى) فان الاستواء على معنيين ، الاستقرار فى المكان وهو القريب المورى به الذى هو غير مقصود لتنزيهه تعالى عنه ، والثانى الاستيلاء والملك وهو البعيد المقصود الذى ورى عنه بالقريب المذكور ، هذا وللتورية ترشيح بذكر ما يلائم البعيد وتجريد بذكر ما يلائم القريب وإطلاق بدونهما أو بهما على التساوى كما هى الحال فى الاستعارة .

٢ — ومنها الاستخدام وهو أن يؤتى بلفظ له معنيان يراد به أحدهما ثم يؤتى بضميره مراداً به الثانى كقوله تعالى (ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين) إذ المراد بالإنسان آدم وبالضمير فى جعلناه نسله وكقوله (أتى أمر الله فلا تستعجلوه) فإن المراد بالأمر بعثة النبى صلى الله عليه وسلم وبالضمير فى تستعجلوه قيام الساعة . أو هو الإتيان بلفظ مشترك بين معنيين ثم بلفظين معه يراد من أحدهما أحد المعنيين ومن الثانى المعنى الآخر كقوله تعالى (لكل أجل

كتاب يمحو الله ما يشاء ويثبت) فان الكتاب يحتمل الأمد المحتوم والكتاب المكتوب ، ثم إن لفظ الأجل للأول ولفظ يمحو للثانى . وللاستخدام مكانة فى البيان لا تقل عن مكانة التورية إن لم تفضلها .

٣ — ومنها المشاكلة وهى ذكر الشىء بلفظ غيره لوقوعه فى صحبته لفظاً أو تقديراً . فالأول كقوله تعالى (تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك) وقوله (ومكروا ومكر الله) و (وجزاء سيئة سيئة مثلها) و (فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم) و (فاليوم ننساكم كما نسيتم لقاء يومكم هذا) و (ويسخرون منهم سخر الله منهم) و (إنما نحن مستهزئون الله يستهزىء بهم) وهذا كثير جداً . والثانى كقوله (صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة) يريدون تطهير الله بالإيمان مشاكلة لمعمودية النصارى التى يغمسون فيها الأولاد . وهى وإن لم تذكر هنا لفظاً ملحوظة تقديرا . وللمشاكلة دخل فى التأويل كالتورية والاستخدام .

٤ ، ٥ ، ٦ — ومنها الطباق والمقابلة ومراعاة النظير . فالطباق هو الجمع بين متضادين فى الجملة ، لفظاً أو معنى ، حقيقة أو مجازا ، إيجابا أو سلباً ، كقوله (وأنه هو أضحك وأبكى وأنه هو أمات وأحيا) و (لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم) و (وتحسبهم أيقاظاً وهم رقود) وهذه للحقيقى والإيجابى واللفظى ، ومن المجازى قوله (أو من كان ميتاً فأحييناه) أى ضالا فهديناه ، ومن السلبى (تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك) و(فلا تخشوا الناس واخشونى) ، ومن المعنوى (إن أنتم ألا تكذبون قالوا ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون) أى إنا لصادقون و (الذى جعل لكم الأرض فراشاً والسماء بناء) لأن فى البناء رفعة و (ولكم فى القصاص حياة) وقد يكون الطباق خفياً كقوله (مما خطيئاتهم أغرقوا فأدخلوا نارا) لأن الغرق من مستلزماته الماء الذى يقابل النار .

والمقابلة هى أن يؤتى بمعنيين أو أكثر ثم بما يقابل ذلك على الترتيب وإذا شرط فى الأول أمر شرط فى الثانى ضده ، ففى الاثنين نحو (فليضحكوا

قليلا وليبكوا كثيرا)، وفى الثلاثة نحو (يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر) و (ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث) و (واشكروا لى ولا تكفرون)، وفى الأربعة نحو (فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى) وقد تكون فى أكثر من ذلك. والفرق بينها وبين الطباق أنها لا تكون فى أقل من أربعة كل اثنين فى طرف كالمثال الأول والطباق لا يكون إلا فى اثنين، وأنها تكون بالأضداد وبغيرها على رأى والطباق لا يكون إلا بالأضداد. أما مراعاة النظير فهو جمع أمر وما يناسبه بغير التضاد نحو (الشمس والقمر بحسبان والنجم والشجر يسجدان) ومن دقيقه قوله تعالى (إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى) فقد أخذ العرى مع الجوع وأخذ الضحاء مع الظمأ وإن كان الظاهر ضم الظمأ إلى الجوع والضحاء إلى العرى لأن فى كل من الجوع والعرى خلوا وفى كل من الظمأ والضحاء التهابا.

٧، ٨، ٩ — ومنها التقسيم والتفريق ثم الجمع وحده ومع أحدهما ومعهما. فالتقسيم استيفاء جميع أقسام الشىء الموجودة فعلا لا الممكنة عقلا نحو (يهب لمن يشاء إناثا ويهب لمن يشاء الذكور أو يزوجهم ذكرانا وأناثا ويجعل من يشاء عقيما) و (هو الذى يريكم البرق خوفاً وطمعاً) و (له مابين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك) و (الذين يذكرون الله قياماً وقعودا وعلى جنوبهم) والتفريق إيقاع تباين بين مرين أو أكثر من جنس كقوله (والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشى على بطنه ومنهم من يمشى على رجلين ومنهم يمشى على أربع). والجمع وحده أن يجمع بين شيئين أو أكثر فى حكم كقوله (الشمس والقمر بحسبان والنجم والشجر يسجدان) والجمع مع التفريق أن تدخل شيئين فى معنى وتفرق بين جهتى الادخال نحو (الله يتوفى الأنفس الانفس حين موتها والتى لم تمت فى منامها فيمسك التى قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى) والجمع مع التقسيم أن تجمع بين متعدد

فى حكمه ثم تقسمه نحو (ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات) . والجمع معهما كقوله (يوم يأتى لا تكلم نفس إلا بإذنه فمنهم شقى وسعيد ، فأما الذين شقوا ففى النار لهم فيها زفير وشهيق خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك إن ربك فعال لما يريد ، وأما الذين سعدوا ففى الجنة خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك عطاء غير مجذوذ) وليس بين الجمع مع التفريق والجمع مع التقسيم كبير فرق .

١٠ — ومنها اللف والنشر ، وهو أن تذكر شيئا أو أكثر إجمالا أو تفصيلا ثم تذكر أشياء تقابلها كذلك ، فالإجمال كقوله تعالى عن اليهود والنصارى (وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى) أى قالت اليهود لن يدخل الجنة إلا من كان هودا وقالت النصارى لن يدخل الجنة إلا من كان نصارى ، والذى سوغ هذا الإجمال العناد القائم بينهما ، والإجمال هنا فى اللف وقد يكون فى النشر كقوله تعالى (فكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر) على أن المراد بالخيط الأسود الفجر الكاذب لا الليل . والتفصيل قسمان مرتب كقوله (ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا) ومعكوس كقوله (يوم تبيض وجوه وتسود وجوه فأما الذين اسودت وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون وأما الذين ابيضت وجوههم ففى رحمة الله هم فيها خالدون) .

١١ ، ١٢ — ومنها الاستدراك والاستثناء ، وشرط كونهما من البديع أن يتضمنا ضرباً من المحاسن زائداً على معناهما اللغوى ، فالاستدراك نحو « قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان فى قلوبكم » فإنه لو اقتصر على قوله لم تؤمنوا لكان منفراً لهم وهم يظنون مجرد الإقرار بالشهادتين إيمانا ، فالاستدراك هنا مع كونه لم ينفرهم فرق لهم بين الإيمان والإسلام ولذلك جاء بعده « ولما يدخل الإيمان فى قلوبكم » .

والاستثناء نحو (فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما) . فان ذكر الألف ثم الاستثناء منه ذو روعة لا يدانيها ذكر العدد المراد مباشرة وفيه من التهويل بهذه الصفة ما يمهد العذر لنوح فى الدعاء على قومه بما أهلكهم . هذا ومن ملاحظة ما تقدم من استخدام القرآن السنة فى الشدة والعام فى الرخاء نفهم وجه التفرقة هنا كما نفهم أنه عانى مدة الدعوة من قومه شدائد جعلتها سنين لا أعواما .

١٣ — ومنها تأكيد المدح بما يشبه الذم ومعناه ظاهر من اسمه — وهو نادر فى القرآن ، وعكسه معدوم منه — ومثاله قوله تعالى : « قل يا أهل الكتاب هل تنقمون منا إلا أن آمنا بالله الخ » و (الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله) و « لا يسمعون فيها لغواً ولا تأثيما إلا قيلا سلاما سلاما) وكذا « وما نقموا منهم إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله » .

١٤ — ومنها الأرداف وهو أن يعبر المتكلم عن المعنى الذى يريده لا بلفظه الموضوع له ولا بإشارته بل بلفظ يرادفه كقوله « وقضى الأمر » أى هلك من قضى الله هلاكه ونجا من قضى الله نجاته ، وكذلك « واستوت على الجودى » بدلا من جلست لأن فى الاستواء تمكنا لا يفهم من مطلق الجلوس و « فيهن قاصرات الطرف عين » بدلا من عفيفات إذ فى قاصرات فوق العفة غض بصر و « ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى » فقوله بما عملوا أى بالسوء ولكنه ترك التصريح به مع ما فيه من المطابقة كيلا يضاف إلى الله سبحانه . والإرداف شبيه بالكناية ولكن الانتقال فيه من مذكور إلى متروك وفى الكناية من لازم إلى ملزوم .

١٥ — ومنها التجريد وهو أن تنزع من أمر ذى صفة أمراً آخر مثله مبالغة فى كمال اتصافه بها نحو (لهم فيها دار الخلد) فدار الخلد ليست مكانا دون غيره فى الجنة ، بل هى الجنة بعينها ، لأنها كلها دار خلد ، وكذلك « يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى » ، على أن المراد بالميت النطفة .

والتجريد ليس باستعارة لوجود الطرفين ولا بتشبيه لأنه لا يمكن فيه حمل المشبه به على المشبه كما هى الحال فى التشبيه .

١٦ — ومنها المبالغة وهى أن تذكر وصفاً فتزيد فيه حتى يكون أبلغ فى المعنى الذى تريده ، وهى إما بالوصف كقوله « يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسسه نار » وإما بالصيغة مثل « الرحمن الرحيم » ونحوها . وإذا قيل كيف أتى الله سبحانه وتعالى لنفسه بصيغ المبالغة مع أنها مبنية على الزيادة وصفاته لا تقبل زيادة ولا نقصا قلنا إنما بالغ بحسب تعدد المتعلقات لا بحسب الصيغة فى ذاتها ، فالتواب مثلا جاءتها المبالغة من كثرة من يتوب الله عليهم وهكذا .

١٧ — ومنها العكس وهو أن يؤتى بكلام يقدم فيه جزء ويؤخر جزء ثم يعكس بعد فيقدم المؤخر ويؤخر المقدم وذلك كقوله « ما عليك من حسابهم من شىء وما من حسابك عليهم من شىء) و (يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل) و (يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى) و (هن لباس لكم وأنتم لباس لهن) . ومن دقيقه قوله (ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيرا . ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله وهو محسن) فان الآية الثانية معاكسة للأولى حيث أخر العمل فيها عن الايمان فى حين أنه مقدم عليه فى الأولى . وقد يكون العكس فى حروف الكلمات لا الكلمات نفسها ويسمى القلب كما يسمى المقلوب المستوى ، أو ما لا يستحيل بالانعكاس نحو « كل فى فلك » و « ربك فكبر » .

هذا ومحسنات القرآن بين لفظية ومعنوية تزيد على المائة وفى هذا القدر الذى أوردنا ما يرينا شيئا من درجة هذه المحسنات فيه .

١٤ — مزايا القرآن بوجه عام

لعلى حين وضعت هذا العنوان أول ما بدأت الكلام فى البلاغة كنت

مسرفا فى اعتقادى إمكان الإلمام به طامعا فيما لا مطمع فيه مهما عظم المجهود لأنى حين انتهيت إليه وهو الأخير لم أكد أنظر فيه حتى وجدته كثير الشعاب مليئاً على المحاول بالصعاب فعشى بصرى وضاق ذرعى ووددت لو أنى فطنت إلى هذا من قبل حتى كنت أغفله فى العناوين ، ولكن الأمر غير مرجوع فيه فقولى الآن قول من يبدو عليه التقصير ولا يلم إلا بالقليل من الكثير .

ولعل من أهم هذه المزايا بعد الذى تقدم فى فصاحة القرآن وبلاغته الانسجام البالغ فيه حتى لترى الحروف فى الكلمات ، والكلمات فى الجمل ، والجمل فى الآيات ، آيات بينات على قوة هذا الانسجام ، فهى حين النطق بها يتحدر بعضها وراء بعض تحدر الماء المنهمر من الحزون إلى السهول ، وها هى ذى أنواع من الانسجام مشفوعة بآيات كريمة تنطق بها وتشهد لها .

من ذلك مجىء كثير من آياته على موازين الشعر مع أن الشعر غير مقصود فيه إنما جاء ذلك من قوة انسجامه وشدة تعاشقه كألحان الموسيقى يوازن بعضها بعضا حتى تكون كلا منسجم الوقع حسن الرنين ، وبهذا تسنى لكثير من العروضين أى يودعوا ضوابط البحور أبياتاً من الشعر فى كل بيت شطر من آى القرآن الكريم على تفاعيل البحر الذى من أجله سيق ، على اختلافهم فى اختيار الآيات لكثرتها فى القرآن . فمن الطويل (فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر) ومن المديد (تلك آيات الكتاب الحكيم) ومن البسيط (فأصبحوا لا ترى إلا مساكنهم) ومن الوافر (إذا مروا بهم يتغامزون) ومن الكامل (إن الذين يبايعونك إنما) ومن الهزج (وقالوا حسبنا الله) ومن الرجز (اذهب إلى فرعون إنه طغى) ومن الرمل (ولقد راودته عن نفسه) ومن السريع (يأيها الناس اتقوا ربكم) ومن المنسرح (هو الذى أنزل السكينة فى) ومن الخفيف (ربنا اصرف عنا عذاب جهنم) ومن المضارع (ألم يأتكم نذير) ومن المقتضب (كلما أضاء لهم) ومن المجتث (وهو العلى العظيم) ومن المتقارب (وإن

يستغيثوا يغاثوا بماء) ومن المتدارك (إنا أعطيناك الكوثر) ومن مخلع البسيط (وقودها الناس والحجارة) . وليس اقتصار هؤلاء على الأشطار لعدم وجود وزن البيت كاملا فى القرآن بل لأن حاجتهم فى الضبط تقضى بمجىء العجز وحده لأن الصدر تفاعيل البيت ففيه من الأبيات الكاملة كثير كقوله تعالى من الوافر (ويخزهم وينصركم عليهم ، ويشف صدور قوم مؤمنين) ومن الرمل (وجفان كالجواب وقدور راسيات) إلى غير ذلك .

ومن آيات الانسجام أيضاً ائتلاف اللفظ مع اللفظ وقد تقدم ما يشعر به حيث الكلام على الدقة فى مناسبة الألفاظ والتراكيب للمعانى أى فى ائتلاف اللفظ مع المعنى ، فان الائتلاف لم يقف عند حدود المعانى بل تعداها إلى الألفاظ فكان يقرن الغريب بالغريب والمتداول بالمتداول رعاية لحسن الجوار والمناسبة ، انظر قوله تعالى (قالوا تالله تفتأ تذكر يوسف حتى تكون حرضا أو تكون من الهالكين) فإنه حين أتى بالتاء الغريبة فى القسم بالنظر إلى الباء والواو ، أتى بالفعل تفتأ وهو أغرب إخوته وأتى بكلمة الحرض كذلك ليتم الائتلاف اللفظى ، وكان إذا خرج على هذا التآلف يكون خروجه للاتيان بلفظة بارزة تنزل من كلمات التركيب منزلة الواسطة الفريدة من حبات العقد دلالة على عظم فصاحته وقوة عارضته وشدة جزالته وأصالة عربيته ، مثال ذلك كلمة حصحص فى قوله (الآن حصحص الحق) والرفث فى قوله (أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم) وفزع بالتشديد والبناء للمجهول فى قوله (حتى إذا فزع عن قلوبهم) وكبكبوا فى قوله (فكبكبوا فيها هم والغاوون وجنود إبليس أجمعون) وخائنة فى قوله (يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور) واستيأسوا ونجيا فى قوله (فلما استيأسوا منه خلصوا نجيا) وساء فى قوله (فإذا نزل بساحتهم فساء صباح المنذرين) إلى غير ذلك . أما ائتلاف السهل مع السهل فهو الأصل فى القرآن وكله أمثلة بينة فيه .

ومن محاسنه فى هذه الناحية أيضاً أنه إذا أراد أن يذم فيوجع لم يحتج

إلى ما كانت تحتاج إليه العرب من فاحش اللفظ وبذىء الكلم الذى يتطلبه هذا الذم وإنما يصل إلى ما يريد دون تلوثه بشىء من ذلك الذى طالما حط من شأن الكلام ، قال تعالى (وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم إذا فريق منهم معرضون أفى قلوبهم مرض أم ارتابوا أم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله بل أولئك هم الظالمون) فإن هذه الكلمات على نزاهتها من الدنس قد ذمت من نزلت فيهم أبلغ الذم ، وقد تقدمت لها مثيلات كآيات المدثر فى الوليد بن المغيرة وكسورة اللهب فى أبى لهب وامرأته حمالة الحطب .

ومن المزايا القرآنية أيضاً إبرازه المعنى الواحد فى عدة صور اقتدارا منه على التنويع فى نظم الكلام وعلى صياغة القوالب المتعددة للمعانى والأغراض ، ومن الأمثلة البارزة فى ذلك قصصه ذوالفنون والألوان ، فكم قصة تكررت فيه مرارا وما من مرة إلا فيها خلاف لأخواتها يناسب موقعها فى مكانها والغرض الذى تطلبها وساقها ، ولم يقف الاختلاف فيها عند طريقة الأداء من حقيقة وكناية ومجاز ، بل تعداها إلى الكم من إطناب ومساواة وإيجاز ، ثم لم يك هذا فى القصص وحده بل جاوزه إلى غيره ، وقد تقدم منه مثل الحياة فى التشبيه . ومما ينبغى أن يسلك مع هذه المزية مزية تقابلها وهى جمعه بين المعنيين المختلفين فى القليل من الألفاظ كقوله تعالى (كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام) فإنه فى هذه الآية القصيرة قد عزى هذا الوجود عن فنائه جميعه بمدح نفسه بالتفرد بالبقاء بعده مدحاً اشتمل فوق ذلك على وصف ذاته سبحانه بالجلال والإكرام ، ومثل هذه الآية فى الجمع ذى التقابل قوله (ثم ننجى الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيا) ومثلهما فى القرآن كثير . ومما يمتاز إلى هذه الناحية أيضاً المراجعة القولية وهى التعبير عن المحاورة فى أوجز عبارة وأوفى أداء كقوله تعالى لإبراهيم (قال إنى جاعلك للناس إماما قال ومن ذريتى قال لا ينال عهدى الظالمين) فقد اشتمل على ثلاث مراجعات مختلفة المعانى والأغراض . وشبيه بهذا

فى الإحاطة بفنون من المعانى أن يأتى بجمل متلاحقة تكون متساوية فى الزنة ومشتملة كل منها على معنى ذى صلة بمعانى نظرائه مع قبولها الانفصال والاستقلال وذلك كقوله تعالى (يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل ويخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى) وهذا فى جمل طويلة ، ومثاله فى الجمل القصيرة قوله (الذى خلقنى فهو يهدين والذى هو يطعمنى ويسقين وإذا مرضت فهو يشفين والذى يميتنى ثم يحيين والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين) . وللقرآن فى هذا الوصف المتزن باع طويل يظهر فى الجمل كما ذكر ويظهر فى المفردات يعددها على سياق واحد كقوله (التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله) وقوله (مسلمات مؤمنات قانتات تائبات عابدات سائحات ثيبات وأبكارا) وقد تقدمت هى وسابقاتها فى الاستشهاد بها على أشياء أخر من البلاغة التى تتزاحم على الآية الواحدة من عدة وجوه .

ومن المزايا الهامة أيضاً ارتباط القرآن جميعه ارتباطاً تتزه عن المخالفة كما قال جل شأنه (أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا) وعلى هذا الأساس بنى بعضه على بعض وكمل بعضه من بعض فصار يرى فيه كلام فى موضع مقتصا من كلام فى آخر قال تعالى (وآتيناه أجره فى الدنيا وإنه فى الآخرة لمن الصالحين) قاصدا بقوله لمن الصالحين أنه من ذوى الدرجات العلا لأن الآخرة دار إثابة لا دار عمل حتى يؤخذ الصلاح فيها على أصل معناه وهذا المعنى الذى أردناه مقتص من قوله فى موضع آخر (ومن يأته مؤمناً قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلا) . وقوله (ولولا نعمة ربى لكنت من المحضرين) أخذ من قوله (فأولئك فى العذاب محضرون) وقوله (الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن) على رأى بعض المفسرين فى تفسير الظلم بالشرك أخذ من قوله تعالى (إن الشرك لظلم عظيم) وقوله (ويوم التناد)

بتخفيف الدال على معنى التنادى أخذ من قوله (ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار) وبتشديدها على معنى الفرار أخذ من قوله (يوم يفر المرء من أخيه) . وقد يكون الأخذ من أكثر من موضع كقوله تعالى (ويوم يقوم الأشهاد) فإن الأشهاد أربعة الملائكة من قوله (وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد) ، والأنبياء من قوله (فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا) ، وأمة محمد صلى الله عليه وسلم التى كرمت بالشهادة على الأمم كما كرم بالشهادة على الأنبياء وبالشهادة على أمته من قوله (وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا) ، والجوارح والأعضاء من قوله (يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون) فهذه آيات يشير بعضها إلى بعض .

وهناك آيات لا تكون الإشارة فيها على آيات بل على أنواع من المعارف تعتبر مفاتيح للعلوم ولفتاً إلى دراستها كقوله تعالى يخاطب أهل النار (انطلقوا إلى ظل ذى ثلاث شعب لا ظليل ولا يغنى من اللهب) فإنها ترمى إلى نظرية هندسية هى عدم صلاحية الشكل الهندسى الأول وهو المثلث لأن يمد ظلا فأمر الله أهل جهنم بالانطلاق إليه تهكم بهم وسخرية منهم . وكقوله (ألم تر إلى ربك كيف مد الظل ولو شاء لجعله ساكنا ثم جعلنا الشمس عليه دليلا) يشير إلى نظرية التصوير الشمسى فما هو إلا ثبوت الظل ، والشمس هى الدليل عليه ولولاها لم يكن . وقوله (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجا كأنما يصعد فى السماء) يشير إلى نظرية طبيعية عظمية هى نقص صلاحية طبقات الأجواء للتنفس كلما صعد الإنسان فيها . وقوله (فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض) يشير إلى نظرية كيمائية كذلك ولا سيما إذ جاء قبله (ومما يوقدون عليه فى النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله) إلى ما قبل هذا من بدء الآية عن زبد الأودية . وقوله (وكذلك

نرى ابراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين) إلى آخر الآيات التى تعتبر عنواناً لعلم الكلام والجدل والهيئة فى آن .

وليست هذه الإشارات ومثيلاتها وهى كثيرة جداً مقصورة على العلوم بل منها ما يشير إلى قصص تاريخى ملىء بالعظة والاعتبار كقوله (واتل عليهم ابنى آدم بالحق) . وغيره فى القرآن كثير جداً .

وقد تكون الإشارة مأخوذة من كلمة واحدة كقوله (وأنه هو رب الشعرى) إذ تخصيص الشعرى بالذكر دون سائر النجوم مع أنه تعالى رب كل شىء إشارة إلى ما كان لبعض العرب من عبادتها كأنه يقول رب الكواكب حتى الشعرى التى زعمتم ألوهيتها وعبدتموها . كما قد يكون الكلام كله من باب التورية والكناية فيقصد منه غير ما فى ألفاظه كقوله تعالى (ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود) فإن بعض المفسرين يترك هذا الظاهر على جوازه واحتماله ودلالته على تنويع مخلوقات الله حتى فى الجماد ، إلى بيان أنواع الطرق التى يسلكها الناس فالجادة هى البيضاء وهى أوضح الطرق والمضلة هى السوداء وهى أخفاها والمتشابهة هى الحمراء المختلطة حمرتها بالسواد وهى لا إلى هذه ولا إلى تلك .

هذه لمعة من مزايا القرآن عامة لم تسبق ، وعسير على المستقصى إتمام باقيها فلنجعل خاتمها قولنا بالإجمال إنه قد اجتمع لأى القرآن الكريم من المزايا فى المعانى والألفاظ ما علت به سائر الكلام ، هذا على تعدده فيها إلى درجة لا تكاد تخطر على بال ، وإليك طائفة من الآيات يكفينا مجرد إثباتها مع ذكر موضوعاتها وهى بعد ذلك الكفيلة بالإعراب عن نفسها .

قال تعالى مجملا انتهاء الطوفان (وقيل يا أرض ابلعى ماءك ويا سماء أقلعى وغيض الماء وقضى الأمر واستوت على الجودى وقيل بعداً للقوم الظالمين) . وقال جامعاً أصول التشريع (إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى) . وقال موعداً من افترى عليه الكذب (ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو قال أوحى إلى

ولم يوح إليه شيء ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله ، ولو ترى إذ الظالمون فى غمرات الموت والملائكة باسطو أيديهم أخرجوا أنفسكم ، اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق وبما كنتم تستكبرون ، ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء لقد تقطع بينكم وضل عنكم ما كنتم تزعمون) . وقال مهدداً (قل أرأيتم إن أخذ الله سمعكم وأبصاركم وختم على قلوبكم ، من إله غير الله يأتيكم به) . وقال فى تحسير الظالمين (ولن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم أنكم فى العذاب مشتركون) . وقال فى تسامحه لعباده (قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا) . ومثلها فى مد الرجاء لأهل التوحيد وقطع الأمل عن أهل الشرك (إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) . وقال فى الحض على التصدق والعفو (ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولى القربى والمساكين والمهاجرين فى سبيل الله وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم) وقال فى أثر التوبة (قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف) وقال فى أثر الاستغفار (والذين إذا فعلوا فاحشة أوظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله) ومثلها فى ذلك (وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون) وقال فى عدل الجزاء (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره) وقال فيه أيضاً وهى أشد (من يعمل سوءا يجز به ولا يجد له من دون الله وليا ولا نصيرا) روى أن عمر قال لبثنا حين نزلت ماينفعنا طعام ولا شراب حتى أنزل الله بعد ذلك (ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيما) . ومن الآيات المخيفة (وتخفى فى نفسك ما الله مبديه) ومنها (أفغير دين الله يبغون وله أسلم من فى السموات والأرض طوعا وكرها وإليه ترجعون) ومنها أيضاً (أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لاترجعون) ومن أضرعها

قول يونس فى بطن الحوت (فنادى فى الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين . وقال مشدداً التنبيه (أفنضرب عنكم الذكر صفحا أن كنتم قوماً مسرفين) وقال موازناً بين المطيع والعاصى ومهددا (أفمن يلقى فى النار خير أم من يأتى آمناً يوم القيامة ، اعملوا ما شئتم إنه بما تعملون بصير) وقال فى ذلك أيضاً (وأسروا قولكم أو اجهروا به إنه عليم بذات الصدور ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير) وقال فى المبادرة بالاستجابة (استجيبوا لربكم من قبل أن يأتى يوم لا مرد له من الله مالكم من ملجأ يومئذ ومالكم من نكير) وقال على لسان الكافرين فى تمنيهم العودة (قالوا ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين فاعترفنا بذنوبنا فهل إلى خروج من سبيل) وقال فى انطباعهم على الشر (ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه) وقال فى تضرعهم لأهل الجنة (ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله قالوا إن الله حرمهما على الكافرين الذين اتخذوا دينهم لهواً ولعبا وغرتهم الحياة الدنيا فاليوم ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا وما كانوا بآياتنا يجحدون) وقال فى وصف المتقين ونعيمهم بدار النعيم وهو ما جعلناه آخر هذه الآيات واجين منه وما أكرمه أن يجعلنا فى زمرتهم (الإخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين يا عباد لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم تحبرون يطاف عليهم بصحاف من ذهب وأكواب وفيها ماتشتهيه الأنفس وتلذ الأعين وأنتم فيها خالدون وتلك الجنة التى أورثتموها بما كنتم تعملون لكم فيها فاكهة كثيرة منها تأكلون) .

النثر فى صدر الاسلام

عرفت أن نثر الجاهلية كان يظهر فى صورة الخطبة والوصية أو المفاخرة والمنافرة أو المثل والحكمة ، وعرفت الأسباب التى أنتجت فى ذاك العهد كل نوع من هذه الأنواع ، والأغراض التى كان يقال فيها ، كما عرفت الميزات التى كانت له بصفة عامة من حيث الألفاظ والأساليب ثم المعانى والأخيلة ، وكما عرفت أيضا أن الكلام عنه لم يتناول الكتابة لانعدامها ، لا لأن العرب كانوا أميين لايقرءون ولا يكتبون بل لأنهم كانوا يعيشون عيشة بداوة لا أثر للحضارة فيها ، والكتابة خطية كانت أو إنشائية أثر من آثار الحضارة لايمكن أن توجد بدونها كما أن الحضارة ليست بحال فى غنى عنها . ولكن الاسلام وقد عرفت فيما سبق من أدب هذا العام مدى تأثيره فى العرب حسا ومعنى غير من أوضاع هذا النثر تغييرا كبيرا فأوجد الكتابة لحاجة الملك والسلطان إليها ، وأبقى على الخطابة ورقى منها لهذه الحاجة عينها ولحاجة الدين نفسه إليها ، ثم أعدم المنافرة والمفاخرة لقضائه على عصبية الجاهلية ونعرتها ، أما المثل فقد انعدم تقريباً لأنه كان قائما قبل الاسلام على ضعف الرابطة الاجتماعية ونمو الشخصية الفردية وفراغ الانسان لنفسه يرقب أطوارها ويعنى بشئونها ولم يك هذا متوفرا فى صدر الاسلام إذ انساقت الأمة بمجموعها إلى الغزو والجهاد ونشر معالم الشريعة والدين ، غير شاعرة أفرادها إلا أنها لبنات فى بناء تفنى شخصياتها فى مجموعه وتبقى متماسكة به لاقامة أركانه فهذا هو وجه انعدام المثل مع ماراعهم من أمثال القرآن وأمثال الرسول ، أما قلة الحكمة على ألسنة السواد فمنشؤها أيضاً البهر الذى نالهم من حكم القرآن ومواعظه وحديث الرسول وجوامع كلمه ، فقد ملك ذلك عليهم نفوسهم وشغل منهم حواسهم وأفكارهم فلم يدعهم ينصرفون إلى قول سواهما ، وإذا هموا لم يلبثوا أن يرتدوا فرارا من نقص

يخشونه أو عيب لا يرضونه . وعلى هذا كانت صور النثر فى صدر الاسلام متجلية بكثرة فى الخطابة والكتابة وهما ما سنعقد لهما وبعدئذ نذكر ميزاته بوجه عام من حيث الألفاظ والمعانى .

أولا — الخطابة

١ — نماذجها

أول موقف للخطابة وقفه رسول الله صلى الله عليه وسلم موقفه يوم نزلت الآية (فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين) فانه دعا قومه وهو على الصفا ثم قال :

« أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادى تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقى قالوا نعم ماجربنا عليك كذبا قال فانى نذير لكم بين يدى عزاب شديد » .

فلما نزلت الآية (وأنذر عشيرتك الاقربين) جمعهم عليه السلام فحمد الله وأثنى عليه ثم قال « ان الرائد لايكذب أهله والله لو كذبت الناس جميعا ما كذبتكم ولو غررت الناس ما غررتكم ، والله الذى لا إله إلا هو إنى لرسول الله اليكم حقا وإلى الناس كافة والله لتموتن كما تنامون ولتبعثن كما تستيقظون ولتحاسبن بما تعملون ولتجزون بالاحسان احسانا وبالسوء سوءا وإنها للجنة أبدا أو النار أبدا وإنكم لأول من أنذر بين يدى عذاب شديد » .

ولما تم له صلى الله عليه وسلم فتح مكة دخلها فطاف بالبيت سبعا على راحلته وأخذ مفتاح الكعبة من حاجبها عثمان بن طلحة فوقف على بابها فقال :

لا إله إلا الله وحده لاشريك له صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده ، ألا كل مأثرة أو دم أو مال يدعى به فهو تحت قدمى هاتين إلا سدانة البيت وسقاية الحج — ثم قال — يامعشر قريش إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء ، الناس من آدم وآدم من

تراب ، يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، — ثم قال — يا أهل مكة ماتظنون أنى فاعل بكم قالوا خيرا أخ كريم وابن أخ كريم ، قال اذهبوا فأنتم الطلقاء ، ثم رد مفتاح الكعبة إلى سادنها فهى فى عقبه إلى اليوم .

فالخطبة الأولى فى نشر الدعوة والثانية فى أساس العقيدة وتعميم المساواة . ومن خطبه عليه السلام خطبته فى التدارك قبل الفوت . حمد الله وأثنى عليه ثم قال : يأيها الناس إن لكم معالم فانتهوا إلى معالمكم وان لكم نهاية فانتهو إلى نهايتكم إن المؤمن بين مخافتين بين عاجل قد مضى لايدرى ما الله صانع فيه وبين آجل قد بقى لايدرى ما الله قاض فيه فليأخذ العبد من نفسه لنفسه ومن دنياه لآخرته ومن الشبيبة قبل الكبر ومن الحياة قبل الموت ، فوالذى نفس محمد بيده ما بعد الموت من مستعتب ولا بعد الدنيا من دار إلا الجنة او النار .

وهذه خطبته الجامعة فى حجة الوداع قال : الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب اليه ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهد الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادى له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ، أوصيكم عباد الله بتقوى الله وأحثكم على طاعته وأستفتحكم بالذى هو خير أما بعد اسمعوا منى أبين لكم فانى لا أدرى لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا فى موقفى هذا . أيها الناس إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم إلى ان تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا فى شهركم هذا فى بلدكم هذا ، ألا هل بلغت اللهم فاشهد ، فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها ، وإن ربا الجاهلية موضوع وإن أول ربا أبدأ به ربا عمى العباس بن عبد المطلب ، وإن دماء الجاهلية موضوعة وان أول دم أبدأ به دم عامر بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب ، وإن مآثر الجاهلية موضوعه غير السدانة والسقاية . والعمد قود وشبه العمد ماقتل بالعصا والحجر وفيه مائة بعير فمن زاد فهو من أهل الجاهلية . أيها الناس

إن الشيطان قد يئس أن يعبد فى أرضكم هذه ولكنه رضى أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحقرون من أعمالكم . أيها الناس إنما النسىء زيادة فى الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاما ويحرمونه عاما ليواطئوا عدة ماحرم الله ، وإن الزمان قد استدار كهيئه يوم خلق الله السموات والأرض وان عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا فى كتاب الله يوم خلق السموات والأرض منها أربعة حرم ثلاثة متواليات وواحد فرد ، ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب الذى بين جمادى وشعبان ألا هل بلغت اللهم اشهد . أيها الناس إن لنسائكم عليكم حقا ولكم عليهن حق ، لكم عليهن ألا يوطئن فرشكم غيركم ولا يدخلن أحدا تكرهونه بيوتكم إلا باذنكم ولا ياتين بفاحشة فان فعلن فان الله قد أذن لكم أن تعضلوهن وتهجروهن فى المضاجع وتضربوهن ضربا غير مبرح فان انتهين وأطعنكم فعليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف وإنما النساء عندكم عوان لايملكن لأنفسهن شيئاً أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله فاتقوا الله فى النساء واستوصوا بهن خيرا ألا هل بلغت اللهم اشهد ، أيها الناس إنما المؤمنون إخوة ولايحل لامرىء مال أخيه إلا عن طيب نفس منه ، ألا هل بلغت اللهم اشهد ، فلا ترجعن بعدى كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض فانى قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لم تضلوا بعدى كتاب الله ألا هل بلغت اللهم اشهد . أيها الناس ان ربكم واحد وإن أباكم واحد كلكم لآدم وآدم من تراب ان أكرمكم عند الله اتقاكم وليس لعربى على عجمى فضل إلا بالتقوى ألا هل بلغت اللهم اشهد قالوا نعم قال فليبلغ الشاهد منكم الغائب . أيها الناس ان الله قد قسم لكل وارث نصيبه من الميراث ولا يجوز لوارث وصية ولاتجوز وصية فى أكثر من الثلث والولد للفراش وللعاهر الحجر ، من ادعى إلى غير أبيه أو تولى غير مواليه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين لا يقبل منه صرف ولا عدل ، والسلام عليكم ورحمة الله .

وخطب أبو بكر رحمه الله يوم السقيفة فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

أيها الناس نحن المهاجرون وأول الناس إسلاما وأكرمهم أحسابا وأوسطهم دارا وأحسنهم وجوها وأكثر الناس ولادة فى العرب وأمسهم رحما برسول الله صلى الله عليه وسلم ، أسلمنا قبلكم وقدمنا فى القرآن عليكم قال تبارك وتعالى (والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان) فنحن المهاجرون وأنتم الأنصار إخواننا فى الدين وشركاؤنا فى الفىء وأنصارنا على العدو آويتم وواسيتم فجزاكم الله خيراً ، فنحن الأمراء وأنتم الوزراء لا تدين العرب إلا لهذا الحى من قريش فلا تنفسوا على إخوانكم ما منحهم الله من فضله .

وخطب يوم بويع فحمد الله وأثنى عليه ثم قال . أما بعد فإنى وليت عليكم ولست بخيركم ولكن نزل القرآن وسن النبى صلى الله عليه وسلم وعلمنا فعلمنا ، واعلموا أن أكيس الكيس التقى وأن أحمق الحمق الفجور وأن أقواكم عندى الضعيف حتى آخذ له الحق وأن أضعفكم عندى القوى حتى آخذ منه الحق . أيها الناس إنما أنا متبع ولست بمبتدع فإذا رأيتمونى على حق فأعينونى وإن رأيتمونى على باطل فردونى ، أطيعونى ما أطعت الله فيكم فإذا عصيته فلا طاعة لى عليكم ، أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم .

وآخر خطبة له رحمه الله تلك التى كانت فى ترشيحه عمر رضى الله عنه للخلافة فقد جمع الناس وهو مريض وأمر بمن يحمله على المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال أيها الناس احذروا الدنيا ولا تثقوا بها فإنها غدارة ، وآثروا الآخرة على الدنيا وأحبوها فبحب كل واحدة منهما تبغض الأخرى وإن هذا الأمر الذى هو أملك بنا لا يصلح آخره إلا بما صلح به أوله ولا يتحمله إلا أفضلكم مقدرة وأملككم لنفسه وأشدكم فى حال الشدة وأسلسكم فى حال اللين وأعلمكم برأى ذوى الرأى لا يتشاغل بما لا يعنيه ولا يحزن لما ينزل به ولا يستحى من التعلم ولا يتحير عند البديهة ، قوى على الأمور لا يجوز بشىء منها حده بعدوان ولا تقصير ، يرصد لما هو آت عتاده من الحذر والطاعة وهو عمر بن الخطاب .

ومن كلامه فى ذلك حين عهد بالخلافة إلى عمر ما حدث به عبد الرحمن ابن عوف قال دخلت يوما على أبى بكر الصديق رضى الله تعالى عنه فى علته التى مات فيها فقلت له أراك بارئا يا خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أما إنى على ذلك لشديد الوجع ولما لقيت منكم يا معشر المهاجرين أشد على من وجعى ، إنى وليت أموركم خيركم فى نفسى فكلكم ورم أنفه أن يكون له الأمر من دونه ، والله لتتخذن نضائد الديباج وستور الحرير ، ولتألمن النوم على الصوف الأذربى كما يألم أحدكم النوم على حسك السعدان والذى نفسى بيده لأن يقدم أحدكم فتضرب عنقه فى غير حد خير له من أن يخوض غمرات الدنيا يا هادى الطريق جرت إنما هو والله الفجر أو البجر . فقلت خفض عليك يا خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم فإن هذا يهيضك إلى ما بك فو الله مازلت صالحا مصلحا لا تأسى على شىء فاتك من أمر الدنيا ولقد تخليت بالأمر وحدك فما رأيت إلا خيرا .

ومن خطبه رحمه الله ما ذكره عمر بن الخطاب رضى الله عنه وهو خليفة فى خطبة له وقد بلغه أن قوما يفضلونه على أبى بكر فوثب مغضبا حتى صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه وصلى على نبيه صلى الله عليه وسلم ثم قال :

أيها الناس إنى سأخبركم عنى وعن أبى بكر ، إنه لما توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم ارتدت العرب ومنعت شاتها وبعيرها فأجمع رأينا كلنا أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم أن قلنا له يا خليفة رسول الله إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقاتل العرب بالوحى والملائكة يمده الله بهم وقد انقطع ذلك اليوم فالزم بيتك ومسجدك فإنه لاطاقة لك بقتال العرب فقال أبو بكر أو كلكم رأيه على هذا قلنا نعم فقال والله لأن أخر من السماء فتخطفنى الطير أحب إلى من أن يكون رأيى هذا ثم صعد المنبر فحمد الله وكبره وصلى على نبيه صلى الله عليه وسلم ثم أقبل على الناس فقال (أيها الناس من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ومن كان يعبد الله فإن الله حى

لا يموت أيها الناس أأن كثر أعداؤكم وقل عددكم ركب الشيطان منكم هذا المركب والله ليظهرن الله هذا الدين على الأديان كلها ولو كره المشركون قوله الحق ووعده الصدق بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فاذا هو زاهق وكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين ، والله أيها الناس لو أفردت من جميعكم لجاهدتم فى الله حق جهاده حتى أبلى بنفسى عذرا أو أقتل قتلا . والله أيها الناس لو منعونى عقالا لجاهدتم عليه واستعنت عليهم الله وهو خير معين) ثم نزل فجاهد فى الله حق جهاده حتى أذعنت العرب بالحق .

وخطب عمر إذ ولى الخلافة فحمد الله وأثنى عليه ثم قال يأيها الناس إنى داع فأمنوا . اللهم إنى غليظ فلينى لأهل طاعتك بموافقة الحق ابتغاء وجهك والدار الآخرة ، وارزقنى الغلظة والشدة على أعدائك وأهل الدعارة والنفاق من غير ظلم منى لهم ولا اعتداء عليهم ، اللهم إنى شحيح فسخنى فى نوائب المعروف قصداً من غير سرف ولا تبذير ولا رياء ولا سمعة واجعلنى أبتغى بذلك وجهك والدار الآخرة ، اللهم ارزقنى خفض الجناح ولين الجانب المؤمنين . اللهم إنى كثير الغفلة والنسيان فألهمنى ذكرك على كل حال وذكر الموت فى كل حين . اللهم إنى ضعيف عن العمل بطاعتك فارزقنى النشاط فيها والقوة عليها بالنية الحسنة التى لا تكون إلا بعزتك وتوفيقك . اللهم ثبتنى باليقين والبر والتقوى وذكر المقام بين يديك والحياء منك وارزقنى الخشوع فيما يرضيك عنى والمحاسبة لنفسى وإصلاح الساعات والحذر من الشبهات . اللهم ارزقنى التفكير والتدبر لما يتلوه لسانى من كتابك والفهم له والمعرفة بمعانيه والنظر فى عجائبه والعمل بذلك ، ما بقيت إنك على كل شىء قدير .

ومن خطبه رحمه الله قوله : أيها الناس اتقوا الله فى سريرتكم وعلانيتكم وأمروا بالمعروف وانهوا عن المنكر ولا تكونوا مثل قوم كانوا فى سفينة فأقبل أحدهم على موضعه يخرقه فنظر إليه أصحابه فمنعوه فقال هو

موضعى ولى أن أحكم فيه ، فإن أخذوا على يده سلم وسلموا وإن تركوه وإن تركوه هلك وهلكوا معه ، وهذا مثل ضربته لكم رحمنا الله وإياكم .

وخطب عثمان بن عفان عقب أن بويع فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أما بعد فإنى قد حملت وقد قبلت . ألا وإنى متبع ولست بمبتدع ، ألا وإن لكم على بعد كتاب الله عز وجل وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ثلاثا : اتباع من كان قبلى فيما اجتمعتم عليه وسننتم . وسن سنة أهل الخير فيما لم تسنوا عن ملأ . والكف إلا فيما استوجبتم . ألا وإن الدنيا خضرة قد شهيت إلى الناس ومال إليها كثير منهم فلا تركنوا إليها ولا تثقوا بها فإنها ليست بثقة واعلموا أنها غير تاركة إلا من تركها .

ومن خطبه فى الوعظ قوله : أما بعد فان الله عز وجل إنما أعطاكم الدنيا لتطلبوا بها الآخرة ولم يعطكموها لتركنوا إليها ، إن الدنيا تفنى والآخرة تبقى فلا تبطرنكم الفانية ولا تشغلنكم عن الباقية ، فآثروا ما يبقى على ما يفنى ، إن الدنيا منقطعة وإن المصير إلى الله ، اتقوا الله عز وجل فإن تقواه جنة من بأسه ووسيلة عنده واحذروا من الله الغير والزموا جماعتكم ألا تصير أحزابا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا .

وخطب وقد نقم الناس عليه فقال : إن لكل شىء آفة وإن لكل نعمة عاهة وإن آفة هذه الأمة وعاهة هذه النعمة عيابون ظنانون ، يظهرون لكم ما تحبون ويسرون ما تكرهون يقولون لكم وتقولون ، طعام مثل النعام يتبعون أول ناعق ، أحب مواردهم إليهم النازح ، لقد أقررتم لابن الخطاب بأكثر مما نقمتم على ولكن وقمكم وقمعكم وزجركم زجر النعام المخرمة ، والله إنى لأقرب ناصراً وأعز نفرا وأقمن إذا قلت هلم أن تجاب دعوتى من عمر ، هل تفقدون من حقوقكم شيئا ؟ فمالى لا أفعل فى الحق ما أشاء ؟ إذن فلم كنت إماما ؟

وخطب على بن أبى طالب لما أريد على البيعة بعد قتل عثمان رحمه الله فقال :

دعونى والتمسوا غيرى فإنا مستقبلون أمراً له وجوه وألوان لا تقوم له القلوب ولا تثبت عليه العقول ، وإن الآفاق قد أغامت والمحجة قد تنكرت واعلموا إن أجبتكم ركبت بكم ما أعلم ولم أصغ إلى قول القائل وعتب العاتب وإن تركتمونى فأنا كأحدكم ولعلى أسمعكم وأطوعكم لمن وليتموه أمركم وأنا لكم وزيراً خير لكم منى أميرا .

ومن خطبة له أول خلافته : إن الله تعالى أنزل كتابا هاديا بين فيه الخير والشر فخذوا نهج الخير تهتدوا واصدفوا عن سمت الشر تقصدوا . الفرائض الفرائض أدوها إلى الله تؤدكم إلى الجنة ، إن الله حرم حراما غير مجهول وأحل حلالا غير مدخول ، وفضل حرمة المسلم على الحرم كلها وشد بالإخلاص والتوحيد حقوق المسلمين فى معاقدها ، فالمسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده إلا بالحق ولا يحل أذى المسلم إلا بما يجب . بادروا أمر العامة وخاصة أحدكم وهو الموت فإن الناس أمامكم وإن الساعة تحدوكم من خلفكم ، تخففوا تلحقوا فإنما ينتظر بأولكم آخركم ، اتقوا الله فى عباده وبلاده فإنكم مسئولون عن البقاع والبهائم ، وأطيعوا الله ولا تعصوه ، وإذا رأيتم الخير فخذوا به وإذا رأيتم الشر فأعرضوا عنه .

ومن خطبه فى الزهيد فى الدنيا والتحذير منها . أما بعد فإنى أحذركم الدنيا فانها حلوة خضرة حفت بالشهوات وتحببت بالعاجلة وراقت بالقليل وتحلت بالآمال وتزينت بالغرور ، لا تدوم حبرتها ولا تؤمن فجعتها ، غرارة ضرارة حائلة زائلة نافذة بائدة أكالة غوالة لا تعدو إذا تناهت إلى أمنية أهل الرغبة فيها والرضا بها أن تكون كما قال تعالى سبحانه (كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيما تذروه الرياح وكان الله على كل شىء مقتدرا) لم يكن امرؤ منها فى حبرة إلا أعقبتها عبرة ولم يلق من سرائها بطنا إلا منحته من ضرائها ظهرا ولم تطله فيها ديمة رخاء

إلا هتكت عليه مزنة بلاء ، وحرى إذا أصبحت له منتصرة أن تمسى له متنكرة وإن جانب منها أعذ وذب واحلولى أمر منها جانب وأوبا ، لا ينال امرؤ من غضارتها رغبا إلا أرهقته من نوائبها تعبا ، ولا يمسى منها فى جناح أمن إلا أصبح على قوادم خوف ، غرارة غرور ما فيها فانيه فان ما عليها ، لا خير فى شىء من أزوادها إلا التقوى من أقل منها استكثر مما يؤمنه ومن استكثر منها استكثر مما يوبقه .

وخطب عليه السلام بعد التحكيم فقال . الحمد لله وإن أتى الدهر بالخطب الفادح والحدث الجليل وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ليس معه إله غيره وأن محمدا عبده ورسوله صلى الله عليه ، وآله أما بعد فان معصيه الناصح الشفيق العالم المجرب تورث الحيرة وتعقب الندامة وقد كنت أمرتكم فى هذه الحكومة أمرى ونخلت لكم مخزون رأيى لو كان يطاع لقصير أمر فأبيتم على إباء المخالفين الجفاة والمنابذين العصاة حتى ارتاب الناصح بنصحه وضن الزند بقدحه فكنت وإياكم كما قال أخو هوزان :

أمرتكم أمرى بمنعرج اللوى فلم تستبينوا النصح الا ضحى الغد

هذا ومن خطب الحث على الجهاد خطبته عليه السلام وقد انتهى اليه أن خيلا لمعاوية وردت الأنبار فقتلوا عامله حسان بن حسان فخرج مغضبا يجر ثوبه حتى أتى النخيلة واتبعه الناس فرقى رباوة من الأرض فحمد الله وأثنى عليه وصلى على نبيه صلى الله عليه وسلم ثم قال :

أما بعد فان الجهاد باب من أبواب الجنه فمن تركه رغبة عنه ألبسه الله الذل وسيمى الخسف وديث بالصغار ، وقد دعوتكم إلى حرب هؤلاء القوم ليلا ونهارا وسرا واعلانا ، وقلت لكم اغزوهم من قبل أن يغزوكم ، فوالذى نفسى بيده ما غزى قوم قط فى عقر دارهم إلا ذلوا ، فتخاذلتم وتواكلتم وثقل عليكم قولى واتخذتموه وراءكم ظهريا حتى شنت عليكم الغارات ، هذا أخو غامد قد وردت خيله الأنبار وقتلوا حسان بن حسان ورجالا منهم كثيرا ونساء ، والذى نفسى بيده لقد بلغنى أنه كان يدخل على المرأة المسلمة

والمعاهدة فتنزع أحجالها ورعتها ، ثم انصرفوا موفورين لم يكلم منهم أحد كلما ، فلو أن امرأ مسلما مات من دون هذا أسفا ما كان عندى فيه ملوما بل كان به عندى جديرا ، يا عجبا كل العجب ، عجب يميت القلب ويشغل الفهم ويكثر الأحزان من تضافر هؤلاء القوم على باطلهم وفشلكم عن حقكم ، حتى أصبحتم غرضا ترمون ولا ترمون ويغار عليكم ولا تغيرون ويعصى الله عز وجل فيكم وترضون ، إذا قلت لكم اغزوهم فى الشتاء قلتم هذا أوان قر وصر ، وإن قلت لكم اغزوهم فى الصيف قلتم هذه حمارة القيظ أنظرنا ينصرم الحر عنا ، فاذا كنتم من الحر والبرد تفرون فأنتم والله من السيف أفر ، يا أشباه الرجال ولا رجال ويا طغام الأحلام ويا عقول ربات الحجال ، والله لقد أفسدتم على رأيى بالعصيان ولقد ملأتم جوفى غيظا حتى قالت قريش ، ابن أبى طالب رجل شجاع ولكن لا رأى له فى الحرب ، لله درهم ومن ذا يكون أعلم بها منى أو أشد لها مراسا فوالله لقد نهضت فيها وما بلغت العشرين ولقد نيفت اليوم على الستين ولكن لا رأى لمن لا يطاع ، يقولها ثلاثا ، فقام اليه رجل يعرف بابن عفيف من الأنصار ومعه أخوه فقال يا أمير المؤمنين أنا وأخى هذا كما قال تعالى (رب إنى لا أملك إلا نفسى وأخى) فمرنا بأمرك فوالله لننتهين اليه ولو حال بيننا وبينه جمر الغضى وشوك القتاد ، فدعا لهما بخير ثم قال لهما وأين تقعان مما أريد ، ثم نزل .

٢ — حالها

إذا علمت أن العرب فى جاهليتها كانوا خطباء لدواع اقتضت منهم ذلك وجعلت الخطابة ، تطغى إذ ذاك على سائر أنواع النثر حتى لقد قيل كان الكلام الجاهلى خطابة وشعرا فقوبل الشعر على تعدد فنونه بالخطابة وحدها دون سائر المنثور ، فاعلم أن الإسلام إذ جاء زاد من دواعى الخطابة فجعلها أضعافاً مضاعفة وجعل رجال الصدر الأول خطباء لسنا ومتكلمين مفوهين ،

ذلك لأنه دين لم يقف عند المطالب الأخروية كما كان الدين المسيحى بل جاوزها إلى أمور الدنيا السياسية فعنى بها أشد عناية ، ورفع أمور الاجتماع درجات باسقة حتى فى عباداته من صلاة وحج وزكاة وصوم ، فلم يدع مجتمعاً إلا حض عليه أو أوجبه ، وطلب فيه من القول ما هو ضرورى له كخطبة الجمعة والعيدين والموقف من عرفات وغيرها ، ثم لم يدع الصلة بين الحاكم والمحكوم فوضى بجعل لكل حقوقا وعلى كل واجبات ، ووطد دعائم الشورى بين الطرفين ، فلم يك هناك غنى عن أن يخطب الحاكم المحكوم ويستمع المحكوم للحاكم فى حدود الشريعة والدين ، غير خائف أن يرد عليه قولا خارجا ، أو ينقض له حكما جائرا ، لما ضمن له من حرية واسعة النطاق وارفة الظلال ، فهذا إلى ما كان للقوم فى ذلك الصدر من فصاحة منطق وبلاغة قول تحملهم إذا تكلموا أن يطيلوا وإذا سمعوا أن يستزيدوا ، وإلى ما كان للاسلام من حاجة إلى القول فى نشر تعاليمه ، والرد على خصومه الذين كانوا لا زالوا ينقدونه ويحاجون رجاله فى قوة منطق وشدة لدد ، كل أولئك جعل هذا العهد عهد خطابة صرفة لا مزاج لها من شعر إلا ما كان على عهد النبي فى الرد على شعراء المشركين .

ثم زاد عظمة الخطابة أن جاء القرآن نثرا لا شعرا ، وأن بلغ بنثره من التأثير فى النفوس والوصول إلى مواطن الحجة والإقناع ما لم يبلغه الشعر من قبل ، وأن جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم غير شاعر ، وأن تصرف بخطابته تصرفا تناول شتى الأمور ، من دعوة إلى الدين تثبت كلمة التوحيد ، إلى بيان لأحكامه يضع أسس التشريع ، إلى ما يحتاج إليه ذلك من وعظ وتذكير ووعيد وتهديد ، فإلى غير هذا من جلائل الأمور التى كان يقصد قصدها وينحو نحوها ، فى فصاحة لسان ليست لغيره ، وذراية منطق اختص بها دون سواه ، وتصرف بالقول بعيد المدى فى خطاب العرب على تنائى الديار واختلاف اللهجات . ثم اقتدى به خلفاؤه من بعده فحادوا عن الشعر الذى فتر ما كان منه فى حياته كما حاد ، وتصدوا بخطبهم إلى مثل ما كان

يتصدى ، ثم اقتحموا أبواباً جديدة لم تك مفتوحة على أيامه عليه صلوات الله ، من خلاف بين المهاجرين والأنصار على الخلافة حين قبض ، ومن ردة العرب أول خلافة أبي بكر ، ومن اتساع الفتوح وامتداد رواق الإسلام مدة خلافة عمر وصدراً من خلافة عثمان ، ومن تطلع الأمويين — وعثمان منهم — إلى التملك وسعة النفوذ وإعادة مجد كان لهم فى الجاهلية فأضاعه تأخرهم عن الإسلام ، فقد جر هذا التطلع إلى تسييرهم أمور الدولة على ما لا تحب الأمة وما لا ترضى الجماعة ، فبدأ بغض الناس لعثمان الذى مكنهم من هذا ، يدب فى النفوس ، حتى إذا ما فاض فائضها تحركوا إلى سبيل الخلاص منه ، فكان أن هجموا عليه فى بيته وقتلوه ، ولكن هيهات أن يكون فى ذلك للأمة خلاص ، إنما هو باب فتنة أى فتنة انفتح على مصراعيه فدخلت الأمة منه إلى فرقة لا جمع لها ، وإلى خلاف لم يأت بعده اتفاق ، والتاريخ خير محدث عما كان بين العلويين والأمويين ، وبينهما والزبيريين ، وبين هؤلاء جميعاً والخوارج الناقمين مما أدى إلى حرب الجمل وحروب صفين وأنهى عهد الخلفاء بقتل على رحمه الله سنة أربعين ، ولكنه لم يلته هو كما سيأتى فى إتمام القول على الخطابة مدة الأمويين .

فالخطابة فى صدر الإسلام كان عليها أن تتناول هذا ، فوق أنها شعيرة من شعائر الدين ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم تولاها فيما تتطلبه هذه الشعائر وفيما تدعو إليه نظم الاجتماع ، ولكن خلفاءه من بعده تولوها فى هذه الشعائر وفيما جد من أوجه خلاف بدأت يوم السقيفة كما تقدم ، ثم توارت وشغل الناس الغزو والجهاد وإقرار الدين فيما كان يفتح من بلاد ، حتى كان ما كان من خلاف ذكرناه فاتسع أفقها وتعدد غرضها وعظم شأنها وتولاها كل ذى مكانة موالياً أو معادياً حتى صعب على المحصين حصر أغراضها وعد رجالها وإذا ذكروا أغراضاً أو عدوا رجالا كان ذلك منهم على سبيل التمثيل لا بقصد التعيين .

ولقد أمد القرآن الكريم والحديث الشريف الخطابة فى هذا العصر

بالماعون القوى والمدد الفياض، فقلدهما الخطباء أيما تقليد، واقتبسوا منهما الألفاظ والأساليب، ووافقوهما فى المعانى والأغراض، وتأثروهما فى سوق الأدلة والبراهين وأكثروا الاستشهاد بهما كما كان رسول الله يستشهد بالقرآن، وهذه الظواهر التى تراها فيما أسلفنا من نماذج له صلى الله عليه وسلم ولخلفائه الأخيار، قد ميزت خطابة هذا العهد عن خطابة الجاهليين، هذا إلى مابينهما غير ذلك من تباين فى الأغراض تراه فى إعدام قديم كخطب المفاخرات والمنافرات، وفى إيجاد جديد كخطب الدعوة إلى العقيدة الحقة، وسن شرائع الدين وتنظيم الملك الشاسع وتثبيت قواعده على الأساس المتين، وفى تحوير نوع كان كخطب الغزو والجهاد التى حلت محل خطب التحريض على الغارة والقتال، إلى غير ذلك مما لم يبق معه من الخطب على حاله إلا خطب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وخطب العظة والعبرة والذكرى والأناية، على أن هذه أيضا أخذت فى صدر الاسلام طريقا دينيا وكثرت كثرة شاملة وأوجبت فى بعض الفرائض كالصلاة.

وللخطابة الاسلامية فوق هذا ميزات أخر. منها تداولها بين طرفى الإيجاز والاطناب، ففيها الإيجاز المومى والأطناب المطيل على عكس العهد الجاهلى الذى لايكاد يجاوز المساواة وإذا أطنب أو أوجز كان غير بالغ الطرفين. ومنها اتخاذها فى المبدأ طريقا واحدا هو حمد الله وتوحيده والثناء عليه وتعظيمه وقد تضم اليه الصلاة على خاتم أنبيائه وصفوته من خلقه. والبدء بالحمد والثناء شىء عام حرص عليه جميع الخطباء، ولذلك لما خلت منه خطبة زياد بعد سميت بالبتراء. أما ختامها بشىء من غيرها فلم يك متبعا عند جميع الناس كما لم يك واحدا عند من سلكوا مسلك هذا الختام، إنما كان كذلك بالنظر إلى كل خطيب فقد كان آخر كلام أبى بكر الذى ينهى به خطبته (اللهم اجعل خير زمانى آخره وخير عملى خواتمه وخير أيامى يوم لقائك) وكان آخر كلام عمر (اللهم لاتدعنى فى غمرة ولاتأخذنى على غرة ولا تجعلنى من الغافلين). ومنها الاستشهاد فيها بالشعر وان كان ذلك على

قلة وندرة لا على كثرة وشيوع كما تقدم فى الاستشهاد بالقرآن والحديث ، وقد سبق استشهاد على فى إحدى خطبه ببيت منه ، على أن هذا الاستشهاد كان قد يزيد عن البيت حتى يكاد يساوى الخطبة كلها كما حدث من أبى بكر وقد عتب عليه الأنصار فى أمر ، فرقى المنبر وحمد الله وأثنى عليه وصلى على نبيه ثم قال : يا معشر الأنصار لو شئتم أن تقولوا إنا آويناكم فى ظلالنا وشاطرناكم فى أموالنا ونصرناكم بأنفسنا لقلتم . وإن لكم من الفضل ما لا يحصيه العدد وإن طال به الأمد فنحن وأنتم كما قال طفيل الغنوى :

جزى الله عنا جعفراً حين أزلقت ... بنا نعلنا فى الواطئين فزلت
أبو أن يملونا ولو أن أمنا ... تلاقى الذى يلقون منا لملت
هم أسكنونا فى ظلال بيوتهم ... ظلال بيوت أدفأت وأظلت

وإنما عددنا هذه ميزة على قلتها لخلو خطب الجاهلية منها .

هذا ولقد بقى للخطابة فى هذا العهد كثير من عاداتها الجاهلية القديمة ، فقد كان الخطباء لا يخطبون إلا قائمين ، وعلى نشز من الأرض يشرفون منه على السامعين ، ومن ثم سنت المنابر فى بيوت الله . وكانوا إذا قاموا اعتمدوا على شىء فى أيديهم وقد يجمع الخطيب بين سيف أو قوس فى يساره وعصا فى يمينه ، هذا إلى ما يعنون به أيضاً من اعتجار العمامة والاشتمال بالرداء وحسن الزى وإصابة الأشارة وجهارة الصوت وإجادة الأيقاع مع جمال الموقف وتمام الوقار ، إلى غير ذلك مما إذا صحب فصاحة الخطيب وبلاغته وصل ببيانه الغاية المنشودة من نفوس السامعين وحقق الغرض المطلوب فى قلوب الشاهدين .

هذا وخطباء صدر الإسلام بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يحصون كثرة ، وأعظمهم الخلفاء الراشدون والقواد المحنكون وكثير من الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين ، غير أنه من المجمع عليه أن أخطب خطبائه غير مدافع ولا منازع بعد رسول الله ، هو ابن عمه وزوج ابنته على بن أبى طالب رحمه الله .

ثانيـــا : الـكتابة

١ — نماذجها

كتب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ملك الفرس :

بسم الله الرحمن الرحيم .

من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس . سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله وأدعوك بدعاية الله عز وجل فإنى أنا رسول الله إلى الناس كافة ، لأنذر من كان حيا ويحق القول على الـكافرين أسلم تسلم فان توليت فان إثم المجوس عليك .

وكتب إلى ملك الروم : بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم . سلام على من اتبع الهدى أما بعد فإنى أدعوك بدعاية الإسلام أسلم تسلم . أسلم يؤتك الله أجرك مرتين فان توليت فإنما عليك إثم الأريسيين « يأهل الـكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا أرباباً من دون الله فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون » .

وكتب إلى المقوقس عظيم القبط . بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله إلى المقوقس عظيم القبط . سلام على من اتبع الهدى . أما بعد فإنى أدعوك بدعاية الإسلام فأسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين فان توليت فعليك إثم القبط . يأهل الـكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون .

وكتب إلى النجاشى ملك الحبشة . بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله إلى النجاشى ملك الحبشة . إنى أحمد الله إليك الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن ، وأشهد أن عيسى ابن مريم البتول الطيبة الحصينة ،

حملته من روحه ونفخه ، كما خلق آدم بيده ، وإنى أدعوك إلى الله وحده لا شريك له وأن تتبعنى وتؤمن بالذى جاءنى ، فإنى رسول الله ، وإنى أدعوك وجنودك إلى الله عز وجل ، وقد بلغت ونصحت فاقبلوا نصيحتى وقد بعثت إليكم ابن عمى جعفراً ومعه نفر من المسلمين والسلام على من اتبع الهدى .

وكتب إلى أكثم بن صيفى التميمى . بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله إلى أكثم بن صيفى ، أحمد الله إليك ، إن الله أمرنى أن أقول لا إله إلا الله ، أقولها وآمر الناس بها ، والخلق خلق الله والأمر أمر الله ، خلقهم وأماتهم وهو ينشرهم ولتعلمن نبأه بعد حين .

ولما ادعى مسيلمة النبوة وكتب إلى رسول الله عليه الصلاة والسلام (من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله ، سلام عليك . أما بعد فانى قد أشركت فى الأمر معك وإن لنا نصف الأرض ولقريش نصفها ، ولكن قريشا قوم يعتدون) .

كتب إليه صلى الله عليه وسلم : بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب ، السلام على من اتبع الهدى أما بعد فان الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين .

وعهد أبو بكر الصديق إلى عمر بالخلافة عند موته فقال :

بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما عهد به أبو بكر خليفة محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، عند آخر عهده بالدنيا وأول عهده بالآخرة ، فى الحال التى يؤمن فيها الكافر ويتقى فيها الفاجر ، إنى استعملت عليكم عمر بن الخطاب فان بر وعدل فذلك علمى به ورأيى فيه وإن جار وبدل فلا علم لى بالغيب ، والخير أردت ولكل امرىء ما اكتسب وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون .

وهذه وصاته له بعد العهد :

انى مستخلفك من بعدى وموصيك بتقوى الله . إن لله عملا بالليل

لا يقبله بالنهار وعملا بالنهار لا يقبله بالليل ، وإنه لا تقبل نافلة حتى تؤدى الفريضة فانما ثقلت موازين من ثقلت موازينه يوم القيامة باتباعهم الحق فى الدنيا وثقله عليهم وحق لميزان لا يوضع فيه إلا الحق أن يكون ثقيلا ، وإنما خفت موازين من خفت موازينه يوم القيامة باتباعهم الباطل وخفته عليهم ، وحق لميزان لا يوضع فيه إلا الباطل أن يكون خفيفا . إن الله ذكر أهل الجنة فذكرهم بأحسن أعمالهم وتجاوز عن سيئاتهم فاذا ذكرتهم قلت إنى أخاف ألا أكون من هؤلاء ، وذكر أهل النار فذكرهم بأسوأ أعمالهم ولم يذكر حسناتهم فاذا ذكرتهم قلت إنى لأرجو ألا أكون من هؤلاء ، وذكر آية الرحمة مع آية العذاب ليكون العبد راغبا راهبا ، ولا يتمنى على الله غير الحق ، ولا يلقى بيده إلى التهلكة . فاذا حفظت وصيتى هذه فلا يكن غائب أحب إليك من الموت وهو آتيك ، وإن ضيعت وصيتى فلا يكن غائب أبغض إليك من الموت ولست بمعجز الله .

ولما استخلف عمر رضى الله عنه كان أول كتاب كتبه موجها إلى أبى عبيدة رحمه الله وهو : أوصيك بتقوى الله الذى يبقى ويفنى ماسواه ، الذى هدانا من الضلالة وأخرجنا من الظلمات إلى النور ، وقد استعملتك على جند خالد بن الوليد فقم بأمرهم الذى يحق عليك ، لا تقدم المسلمين إلى هلكة رجاء غنيمة ، ولا تنزلهم منزلا قبل أن تستريده لهم وتعلم كيف مأتاه ، ولا تبعث سرية إلا فى كثف من الناس ، وإياك وإلقاء المسلمين فى الهلكة ، وقد أبلاك الله بى وأبلانى بك فغمض بصرك عن الدنيا وأله قلبك عنها وإياك أن تهلكك كما أهلكت من كان قبلك فقد رأيت مصارعهم .

ولما صالح أهل إيلياء « بيت المقدس » كتب لهم هذا العهد .

بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما أعطى عبد الله عمر بن الخطاب أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان ، أعطاهم أمانا لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصلبانهم ، وسقيمها وبريئها وسائر ملتها ، أنه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم

ولا ينقص منها ولا من خيرها ولا من صليبهم ولا من شيء من أموالهم ، ولا يكرهون على دينهم ، ولا يضار أحد منهم ، ولا يسكن إيلياء معهم أحد من اليهود . وعلى أهل إيلياء أن يعطوا الجزية كما يعطى أهل المدائن ، وعليهم أن يخرجوا منها الروم فمن خرج فأنه آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم ، ومن أقام منهم فهو آمن وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية ، ومن أحب من أهل إيلياء أن يسير بنفسه وماله مع الروم ويخلى ببيعهم وصلبانهم فأنهم آمنون على أنفسهم وعلى بيعهم وصلبانهم حتى يبلغوا مأمنهم .

وهذه رسالته إلى أبى موسى الأشعرى فى القضاء قد جمع فيها ، كما قال المبرد ، جمل الأحكام ، واختصرها بأجود الكلام ، وجعل الناس بعده يتخذونها إماما ، ولا يجد محق عنها معدلا ولا ظالم عن حدودها محيصا وهى :

بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله عمر بن الخطاب أمير المؤمنين إلى عبد الله بن قيس ، سلام عليك ، أما بعد فإن القضاء فريضة محكمة وسنة متبعة ، فافهم إذا أدلى إليك ، فإنه لا ينفع تكلم بحق لا نفاذ له ، آس بين الناس فى وجهك وعدلك ومجلسك ، حتى لا يطمع شريف فى حيفك ، ولا ييأس ضعيف من عدلك . البينة على من ادعى واليمين على من أنكر والصلح جائز بين المسلمين إلا صلحاً أحل حراما أو حرم حلالا . لا يمنعنك قضاء قضيته اليوم ، فراجعت فيه عقلك وهديت فيه لرشدك ، أن ترجع إلى الحق ، فإن الحق قديم ، ومراجعة الحق خير من التمادى فى الباطل . الفهم الفهم فيما تلجلج فى صدرك مما ليس فى كتاب ولا سنة ، ثم اعرف الأشباه والأمثال فقس الأمور عند ذلك واعمد إلى أقربها إلى الله وأشبهها بالحق . واجعل لمن ادعى حقاً غائبا أو بينة أمدا ينتهى إليه ، فإن أحضر بينته أخذت له بحقه وإلا استحللت عليه القضية ، فإنه أنقى للشك وأجلى للعمى . المسلمون عدول بعضهم على بعض ، إلا مجلوداً فى حد ، أو مجرباً عليه شهادة زور ، أو ظنينا فى ولاء أو نسب ، فإن الله تولى منكم السرائر ودرأ بالبينات

والإيمان . وإياك والغلق والضجر والتأذى بالخصوم والتنكر عند الخصومات فإن الحق فى مواطن الحق يعظم الله به الأجر ويحسن به الذخر ، فمن صحت نيته ، وأقبل على نفسه كفاه الله ما بينه وبين الناس ومن تخلق للناس بما يعلم الله أنه ليس من نفسه شانه الله ، فما ظنك بثواب عند الله عز وجل فى عاجل رزقه وخزائن رحمته والسلام .

ولما سن للناس أمر الشورى فى انتخاب الخليفة دفع إلى ابنه كتاباً وقال ، إذا اجتمع الناس بعدى على رجل فادفع إليه هذا الكتاب وأقرئه منى السلام وهو : — أوصى الخليفة من بعدى بتقوى الله ، وأوصيه بالمهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم ، يبتغون فضلا من الله ورضوانا ، وينصرون الله ورسوله ، أن يعرف حقهم ويحفظ لهم كرامتهم ، وأوصيه بالأنصار خيرا ، الذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم ، يحبون من هاجر إليهم ، ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ، ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، أن يقبل من محسنهم ويتجاوز عن مسيئهم وأن يشركوا فى الأمر . وأوصيه بذمة الله وذمة محمد صلى الله عليه وسلم أن يوفى بعهدهم ، ولا يكلفوا فوق طاقتهم ، وأن يقاتل من ورائهم .

ولما ولى عثمان الخلافة كتب إلى أمراء الأمصار .

أما بعد فإن الله أمر الأئمة أن يكونوا رعاة ولم يتقدم إليهم أن يكونوا جباة ، وأن صدر هذه الأمة خلقوا رعاة ولم يخلقوا جباة ، وليوشكن أئمتكم أن يصيروا جباة ولا يصيروا رعاة ، فإذا عادوا كذلك انقطع الحياء والأمانة والوفاء . ألا وإن أعدل السيرة أن تنظروا فى أمور المسلمين وفيما عليهم فتعطوهم مالهم وتأخذوهم بما عليهم ، ثم تعتنوا بالذمة فتعطوهم الذى لهم وتأخذوهم بالذى عليهم ، ثم العدو الذى تنتابون ، فاستفتحوا عليهم بالوفاء .

وكتب إلى أمراء الأجناد .

أما بعد فإنكم حماة المسلمين وذادتهم ، وقد وضع لكم عمر ما لم يغب عنا ،

بل كان عن ملأ منا ، ولا يبلغنى عن أحد منكم تغيير ولا تبديل فيغير الله ما لكم ويستبدل بكم غيركم ، فانظروا كيف تكونون فإنى أنظر فيما ألزمنى الله النظر فيه والقيام عليه .

وكان كتابه إلى العامة ، أما بعد فإنكم إنما بلغتم ما بلغتم بالاقتداء والاتباع ، فلا تلفتنكم الدنيا عن أمركم فإن أمر هذه الأمة صائر إلى الابتداع بعد اجتماع ثلاث فيكم . تكامل النعم وبلوغ أولادكم من السبايا وقراءة الأعراب والأعاجم القرآن ، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « الكفر فى العجمة » فإذا استعجم عليهم أمر تكلفوا وابتدعوا .

وكتب رحمه الله حين أحيط به إلى على بن أبى طالب يقول :

أما بعد فإنه قد جاوز الماء الزبى ، وبلغ الحزام الطبيين ، وتجاوز الأمر بى قدره وطمع فىَّ من لا يدفع عن نفسه .

فإن كنت مأكولا فكن أنت آكلى وإلا فأدركنى ولما أمزق

وكتب على رحمه الله إلى معاوية بعد وقعة الجمل .

سلام عليك ، أما بعد فإن بيعتى بالمدينة لزمتك وأنت بالشام ، لأنه بايعنى الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان على ما بويعوا عليه ، فلم يكن للشاهد أن يختار ولا للغائب أن يرد ، وإنما الشورى للمهاجرين والأنصار ، فإذا اجتمعوا على رجل وسموه إماما كان ذلك لله رضا ، وإن خرج عن أمرهم خارج ردوه إلى ما خرج عنه ، فإن أبى قاتلوه على اتباعه غير سبيل المؤمنين ، وولاه الله ما تولى وأصلاه جهنم وساءت مصيرا . وإن طلحة والزبير بايعانى ثم نقضا بيعتهما وكان نقضهما كردهما ، فجاهدتهما بعد ما أعذرت إليهما حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون ، فادخل فيما دخل فيه المسلمون ، فان أحب الأمور إلى ، قبولك العافية ، وقد أكثرت فى قتلة عثمان فان أنت رجعت عن رأيك وخلافك ودخلت فيما دخل فيه المسلمون ، ثم حاكمت القوم إلى ، حملتك وإياهم على كتاب الله ، وأما تلك التى تريدها فهى خدعة الصبى عن اللبن . ولعمرى لئن نظرت بعقلك دون

هواك لتجدنى أبرأ قريش من دم عثمان . واعلم أنك من الطلقاء الذين لا تحل لهم الخلافة ولا يدخلون فى الشورى ، وقد بعثت إليك وإلى من قبلك جرير بن عبد الله ، وهو من أهل الإيمان والهجرة فبايعه ولا قوة إلا بالله .

فلم يبايع معاوية وكتب اليه : من معاوية بن صخر إلى على أبى بن طالب . أما بعد فلعمرى لو بايعك القوم الذين بايعوك وأنت برىء من دم عثمان كنت كأبى بكر وعمر وعثمان رضى الله عنهم أجمعين ، ولكن أغريت بعثمان المهاجرين وخذلت عنه الأنصار فاطاعك الجاهل وقوى به الضعيف ، وقد أبى أهل الشام الاقتالك ، حتى تدفع اليهم قتلة عثمان فان فعلت كانت شورى بين المسلمين ، ولعموى ما حجتك على ، كحجتك على طلحة والزبير ، لأنهما بايعاك ولم أبايعك ، وما حجتك على أهل الشام كحجتك على أهل العراق لأن ، أهل العراق أطاعوك ولم يطعك أهل الشام ، وأما شرفك فى الأسلام وقرابتك من رسول الله صلى الله عليه وسلم وموضعك من قريش فلست أدفعه .

فكان جواب على ، هذه الرسالة

بسم الله الرحمن الرحيم من على بن أبى طالب الى معاوية بن صخر ، أما بعد فانه أتانى منك كتاب امرىء ليس له بصر يهديه ولا قائد يرشده ، دعاه الهوى فاجابه وقاده فاتبعه . زعمت أنك انما أفسد عليك بيعتى خطيئتى فى عثمان ، ولعمرى ما كنت إلا رجلا من المهاجرين أوردت كما أوردوا وأصدرت كما أصدروا ، وما كان الله ليجمعهم على ضلال ولا ليضربهم بالعمى ، وبعد فما أنت وعثمان ، إنما أنت رجل من بنى أمية ، وبنو عثمان أولى بمطالبة دمه ، فان زعمت أنك أقوى على ذلك فادخل فيما دخل فيه المسلمون ثم حاكم القوم إلى . وأما تمييزك بينك وبين طلحة والزبير ، وأهل الشام وأهل العراق ، فلعمرى ما الأمر فيما هناك إلا سواء ، لأنها بيعة شاملة لا يستثنى فيها الخيار ولا يستأنف فيها النظر . وأما شرفى فى الأسلام وقرابتى

من رسول الله صلى الله عليه وسلم وموضعى من قريش فلعمرى لو استطعت دفعه لدفعته .

هذا — على أن المكاتبات قد دامت بينهما طويلا حتى قامت الحرب فلنقف عند هذا القدر منها ولنجعله آخر ما تخيرناه من نماذج الكتابة فى عهد الراشدين ، الحافل بها وبالخطب لهم ولغيرهم ، وان كنا اقتصرنا فى النماذج على كلامهم رحمهم الله لضيق المقام :

٢ — عالمها

قلنا إن العهد الجاهلى لم يكن عهد كتابة لأن العيش فيه كان عيش بداوة ، والكتابة بنوعيها أثر من آثار الحضارة ، وكلتاهما لا توجد بدون الأخرى ، فكان من الطبيعى وقد جاء الأسلام بنظام غير بدوى وأوجد ملكا وسلطانا خلف عليه دولتى العالم العظيمتين إذ ذاك ، أن توجد الكتابة بوجود هذا السلطان الجديد ، وهذا ما كان ، فان رسول الله صلى الله عليه وسلم راسل الملوك وذوى النفوذ يعلمهم برسالته ويدعوهم إلى دينه برسائل شتى ذكرنا منها طرفا ، واستخدم فى قيدها ذلك النفر الذى يعرف القراءة والكتابة والذى كان يتولى له كتابة وحيه ، ثم كان منه أول بعثته أن جعل فداء القارئ الكاتب من الأسرى تعليم القراءة والكتابة عشرة من أولاد الصحابه . وبهذه السنة التى جرى عليها عرف فضل الكتابة إنشائية وخطية ، وأنه لا غنى للمسلمين فى ملكهم الجديد وسلطانهم العتيد عن استخدامها ، فسار على ذلك خلفاؤه من بعده سيرة ابتدءوها كما ابتدأ ، ولكنها لم تزل تنمو بنمو الفتوحات وتتسع باتساع النفوذ حتى انتشرت الكتابة انتشارا عظيما فتحقق لرسول الله صلى الله عليه وسلم ما كان يرغب فيه ، وتولد فى كتابة الترسل ضرب من الأنشاء تملك زمام الفصاحة والبلاغة فى سداد قصد ونبل غرض وقوة أداء وتمام إيجاز ، مع احتذائه القرآن فى الجزالة من دون غرابة ، وامتدفد الجمل فى غير تعقيد ، حتى نعت عن جدارة واستحقاق

بأنه السهل الممتنع حقاً . وهـــذا واضح فيما أسلفنا من نماذج فى العهود والعقود والوصايا والعظات والمخابرات السياسية والأوامر الرسمية إلى آخر ما ذكرناه .

استمرت الكتابة طوال صدر الاسلام شركة بين رجاله يختص بها فريق دون فريق ، فالنبي وأصحابه من بعده كانوا كلهم كتاباً ينشئون بملكتهم ويكتبون بأيديهم أو يملون غيرهم إن لم يكونوا كاتبين ، وقل أن يكلف أحدهم غيره الكتابة عنه وإذا كان لم يك إلا كما يفعل الأخ للأخ والصديق للصديق ، وبهذا لم توجد طائفة خاصة تدعى طائفة الكتاب كما صارت إليه الحال بعد . غير أنه لما اتسعت الفتوح على عهد عمر رحمه الله فكثرت موارد الدولة ووفرت الغنائم ، احتاجت الدولة إلى إنشاء ديوان يضبط هذا الوارد ويحصى الصادر وبخاصة أعطيات الجنود فأنشأه رضى الله عنه لذلك ، ولكنه لم يزل على أيامه وأيام الخليفتين بعده مقصوراً على الضرورى من هذه الناحية فقط أما سائر فروع الكتابة الديوانية من خراج وغيره وما أكثر تشعبها وامتداد أغصانها فكانت تؤدى بلغات الأمم المفتوحة وهى الفارسية فى فارس والعراق، واليونانية والرومانية بالشام ، واليونانية والقبطية بمصر ، إلى أن كان تعريب الدواوين على عهد عبد الملك بن مروان وابنه الوليد ، ولم يك بد لدولة العرب الناشئة من هذه الاستعانة لقرب عهدهم بالبداوة لاستحالة التعريب عليهم فى هـــذه الدواوين ذات الأمور الاصطلاحية المختلفة الألوان ، قبل أن ينشأ جيل عربى يعرف لغات الأمم المفتوحة ، وآخر من أبناء هذه الأمم يجيد لغة العرب ، وأنى لذلك أن يتم إلا بعد فترة من الزمن لم تنقض كما تقدم إلا فى أيام عبد الملك وابنه الوليد .

وللكتابة فى هذا العهد مميزات لم تجتمع كلها معا فى غيره من العهود منها ما يتعلق ببدء الرسالة وختمها ، فقد كان صلى الله عليه وسلم يفتتح كتبه بالبسملة ويكتب بعدها « من محمد رسول الله إلى فلان » وبعدها السلام عليكم للمسلم والسلام على من اتبع الهدى لغيره ، ثم يعقب السلام

بالتحميد فيقول إنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو أو نحو ذلك ، ومن التحميد ينتقل إلى الغرض المقصود بعد قوله أما بعد أو بدونها . وكان يختمها غالبا بأحدى صيغتى السلام السابقتين ، وليس معنى ذلك أن كل كتاب له صلى الله عليه وسلم كان يشتمل على كل هذه الأشياء فإن بعضها جاء خلوا من بعضها كما هو واضح فيما تقدم ، ومن أجمعها لها كتابه عليه الصلاة والسلام إلى خالد بن الوليد ، وكان قد بعثه إلى بنى الحارث فأجابوه إلى الإسلام وهو « بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى خالد بن الوليد ، سلام عليك فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو ، أما بعد فإن كتابك جاءنى مع رسولك يخبرنى أن بنى الحارث قد أسلموا قبل أن تقاتلهم ، وأجابو إلى ما دعوتهم إليه من الأسلام ، وشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله ، وأن قد هداهم الله بهديه فبشرهم وأنذرهم وأقبل وليقبل معك وفدهم والسلام عليك ورحمة الله وبركاته » . وقد اقتدى به فى ذلك خلفاؤه من بعده وكان أبو بكر يكتب ، من أبى بكر خليفة رسول الله ، ثم كان عمر يكتب من عمر خليفة خليفة رسول الله ، ولما كان فى تكرار كلمة الخليفة ثقل ، وكانت الإقامه على استمرار تكرارها بتكرار الخلفاء مما لا سبيل إليه ، اقترح عليه أن يلقب نفسه بأمير المؤمنين ففعل وصار يكتب ، من عبد الله عمر أمير المؤمنين وصارت هذه سنة الخلفاء من بعده .

ومنها خلوها من ألفاظ التعظيم والتفخيم . وكما يتضح هذا فى مبادئها التى قدمنا من ذكر اسمى الكاتب والمكتوب إليه مجردين إلا من ألزم الصفات التى لا بد منها كالرسالة مع النبى والخلافة أو الأمرة مع الخلفاء والأمراء ، يتضح كذلك فى استخدامهم الضمائر على حقائقها المفرد للمفرد والمثنى للمثنى والجمع ليس إلا للجمع ، فيقول الكاتب عن نفسه أناوبى وجاءنى ، وعمن يخاطبه أنت وبك وجاءك ، وقد استمر هذا التبسط طابعها حتى انسلخ هذا العهد وشطر من العهد الأموى .

ومنها ما تقدم ذكره من احتذائها حذو القرآن فى الجزالة من دون

غرابة ، وامتداد الجمل فى غير تعقيد ، وذلك لمكانة الكاتب والمكتوب إليه فى العربية ورسوخ قدمهما فى الفصاحة . هكذا كان طابعها لا يخرجون بها عنه إلا لسبب يدعو إلى تسهيل أو تصعيب مراعاة لحال المكتوب إليه . ولذلك تجد السهولة بادية فى كتبه صلى الله عليه وسلم إلى ملوك الأعاجم وحكامها ، وتجد الغرابة أبدى منها إذا كان معدن المقصود يستدعيها كما فعل عليه الصلاة والسلام فى كتابه إلى وائل بن حجر الكندى وأهل حضرموت إذ يقول (إلى الأقيال العباهلة والأرواع المشايب . وفى التيّعة شاة لا مقورة الألياط ولا ضناك ، وأنطوا الثبجة . وفى السيوب الخمس . ومن زنى من بكر فاصفعوه مائة واستوفضوة عاما ومن زنى من ثيب فضرجوه بالأضاميم ولا توصيم فى الدين ولا غمة فى فرائض الله تعالى . وكل مسكر حرام . ووائل بن حجر يترفل على الأقيال) وعلى هذا النحو قال فى كتابه لهمدان وكتابه لبنى نهد ، وهذه كانت سنته فى خطاب كل قوم بما هو من صميم لغتهم فى الترسل والوفادات ، هذا وقبل أن ننتقل من هذه الميزة نفسر كلمات هذا الخطاب . فالأقيال جمع قيل كالمقول وهو الملك أو من هو دونه ، والعباهلة جمع عَبهل وهو الذى يقر على ملكه لا يزال عنه ، والأرواع جمع رائع وهو المعجب بمنظره أو شجاعته ، والمشايب جمع مشبوب وهو الذكى الفؤاد ، والتيعة الأربعون ، والمقورة المسترخية ، والألياط جمع لِيط وهو الجلد والضناك الكثيرة اللحم ، وأنطوا الثيجة أعطوا الوسط والسيوب الركاز ، واستوفضوه غربوه ، وضرجوه بالأضاميم أموه بالحجارة واحدها إضمامة ، والتوصيم التوانى ، والغمة الستر ويترفل يتأس .

ومنها ما تقدمت الإشارة إليه من الرمى إلى الغرض دون إطالة ولا تكلف ، فالمعانى يقتصر فيها على الحقائق دون مبالغة ولا تهويل ، والأغراض يقصد إلى الضروى منها بلا زيادة ولا تطويل ولذلك كانت رسائلهم على طول جملها وامتداد عباراتها تضرب فى كمها إلى الإيجاز فلا تكاد تجد طولا إلا حيث يستدعيه المقام فيكون لهذا الاستدعاء

من الإيجاز ، وفيما تقدم من النماذج ولا سيما كتب رسول الله أكبر مؤيد لما نقول . وكذلك كان صحبه يوجزون كما ترى فى بعض ما تقدم ، وكما فعل عمر إذ كتب إلى عمرو بن العاص بمصر يستنجده فى مجاعة فقال (من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى العاصى ابن العاص سلام . أما بعد فلعمرى يا عمرو ما تبالى إذا شبعت أنت ومن معك أن أهلك أنا ومن معى فياغوثاه ثم يا غوثاه) وانظر رد عمرو عليه حيث يقول (إلى أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب من عمرو بن العاص أما بعد فيالبيك ثم يالبيك قد بعثت إليك بعير أولها عندى وآخرها عندك والسلام) بل لقد بلغ الإيجاز ببعضهم أن يجعل رسالته جملة واحدة كما فعل خالد بن الوليد مع عياض بن غُنم وقد استنجده وهو محاصر بدُومة الجندل فكتب إليه (من خالد إلى عياض إياك أريد) ولعل هذا أوجز كتاب عرف فى الأدب العربى .

ومنها كثرة الاستشهاد فيها بالقرآن وهو واضح فيما ذكرناه لرسول الله وخلفائه الأبرار .

أما الاستشهاد فيها بالشعر فكان كما كان فى الخطب قليلا ، وقد سبق بيت منه فى كتاب عثمان إلى على ، وربما ذيل بعضهم كتابه بأبيات قصيرة أو طويلة فى معناه كما حدث فى رسالة معاوية لعلى وإجابة على له وقد تقدمتا ولكن بدون هذا التذييل فلنذكره هنا وهو قول كعب بن جُعيل شاعر الشام فى آخر كتاب معاوية .

أرى الشام تكره مَلك العراق ... وأهل العراق لهم كارهينا
وكلا لصاحبه مبغضا ... يرى كل ما كان من ذاك دينا
إذا ما رمونا رميناهمُ ... ودنّاهم مثل ما يقرضونا
فقالوا علىٌّ إمام لنا ... فقلنا رضينا ابن هند رضينا
وقالوا نرى أن تدينوا لنا ... فقلنا ألا لا نرى أن ندينا
ومن دون ذلك خرط القتاد ... وضرب وطعن يفض الشئونا

وقول النجاشى أحد بنى الحارث بن كعب شاعر أهل العراق فى آخر كتاب على .

دعنْ يا معاوىَ ما لن يكونا فقد حقق الله ما تحذرونا
أتاكم على بأهل العراق وأهل الحجاز فما تصنعونا

روى الشعرين المبرد فى كامله وقال عقب كل « وبعد هذا من الذم ما نمسك عنه » يريد فى على وفى معاوية على التوالى .

هذا ما يتعلق بالكتابة على عهد الخلفاء الراشدين بوجه الأجمال ومنه يعلم أن الكتابة كانت فيه كتابه رسائل فحسب ، ومع ذلك لم تصطبغ بصبغه فنية ذات صناعة ، لأن العهد كان قريباً من البداوة ، والتدوين فى كل بلد كان بلغة أهله ، وما فعله عمر رحمه الله خاصاً بالأعطيات لا يعد تدوينا بالمعنى المعروف . نريد بهذا أن نقول إن الكتابة الديوانية بالمعنى الاصلاحى كانت معدومة لما تقدم ، وإن الكتابة العلمية التى عرفت بعد فى التأليف والتصنيف كانت معدومة أيضاً لأن العهد كله انقضى دون أن يدون كتاب إلا ما كان من أمر القرآن فى إثباته على الرقاع ونحوها مدة أبى بكر وفى المصاحف على عهد عثمان . وكان اعتماد القوم فى دينهم ودنياهم على كتاب الله وسنة رسوله ، وحين الاشتباه يكون مرجعهم إلى الخلفاء والفقهاء والاجتهاد حتى أقوال النبى صلى الله عليه وسلم وفتاوى صحابته لم يدونوها مخافة أن ينتهى بهم التدوين إلى إهمال الحفظ والاعتماد على الكتاب المعرض للضياع والتصحيف والتحريف وفى كل ذلك من الأضرار ما كانوا يحذرون ، ولولا اشتداد الخلف بين القراء فى الأمصار ما أقدم عثمان على نسخ القرآن ولذلك لا نستغرب ما روى لنا من أنه حين هم بعمله هذا ، اصطدم قبل التنفيذ بكثير من المخالفة والنقاش .

بقى أن نذكر كلمة عن المدى الذى وصلت إليه الكتابة الخطية فى هذا العهد وقد عرفت فى الأدب الجاهلى أن الخط الذى عرف بالحجاز قبيل الإسلام كان الحيرى الأنبارى ، وأن الذى نقله إلى مكة حرب بن أمية فتعلمه

عدد من أهلها كان منهم كتاب الوحى على عهد رسول الله ، وقد عرفت هنا أنه عمل على نشر الكتابة بما كان منه فى أمر الفـــداء فأخذت تنتشر حتى جاوز كتابه الأربعين كلهم من كبار الصحابة المقربين الذين عملوا بغير ملل على تحقيق أمنيته فعلموا غيرهم حتى كثر عدد الكاتبين ، وعرف خط هؤلاء لما دخله مما لم يكن بأصله بالخط الحجازى وقد استمر واحداً حتى فتحت الممالك ومصرت الأمصار ونزلت جمهرة الكاتبين الكوفة فعنوا بتجويد الخط وتحسين أشكاله حتى تميز خطهم عن الحجازى شكلا وكبراً وعرف بالخط الكوفى وبذلك صار لدى العرب على عهد الخلفاء نوعان من الخطوط الحجازى ويكاد يكون أصلا للنسخ ويستعمل فى المكاتبات العـــادية ثم الكوفى ويكاد يكون أصلا للثلث وكان مقصوراً على المصاحف وسك النقود وحلى المساجد والقصور .

هذا ولا يفوتنا أن نذكر هنا خلو الكتابة طول عهد الراشدين من الشكل الواقى من التحريف ومن الأعجام العاصم من التصحيف ثقة من القوم بانفسهم واعتماداً على مقدرتهم واكتفاء منهم فى صحة القراءة بالرمز القليل .

مميزات النثر فى صدر الاسلام
وأثر الكتاب والسنة فيه

قبل أن نتكلم عن تلك المميزات وهـذا الأثر ينبغى أن نسوق بعض نماذج لما لم نمثل له سابقاً من أنواع النثر وهو المثل الذى قلنا إنه انعـدم تقريباً ، والحكمة التى ذكرنا أنها قلت ، وليكن التمثيل بكثرة من كلام رسول الله الذى تناول كل أنواع المنثور بسعة وشمول وكان الثانى بعد الكتاب فى هذا التأثير .

فمن أمثاله صلى الله عليه وسلم (إن من البيان لسحرا) ويضرب فى استحسان المنطق وقوة الحجة (إن المنبت لا أرضا قطع ولا ظهراً أبقى)

ويضرب لمن يفرط فى طلب الشىء ويبالغ فيفوته على نفسه وقد يفوت معه غيره ، والمنبت هو المنقطع عن أصحابه فى السير وهذه التسمية واقعة عليه باعتبار ما سيكون وإن كان فى المبدأ سابقاً ، والظهر للدابة (ان مما ينبت الربيع ما يقتل حبطاً أو يلم) ويضرب فى النهى عن الافراط ، والحبط انتفاخ يعترى الإبل من كثرة الأكل فيميتها أو يلم أى يقارب (إياكم وخضراء الدمن) وهى المرأة الحسناء فى منبت السوء ويضرب فى التحذير من الحسن الظاهر الخبيث الباطن .

ومن نصائحه صلى الله عليه وسلم فى ثوب الحكمة والكلمة الجامعة قوله (رب مبلغ أوعى من سامع ، التمسوا الرزق فى خبايا الأرض ، المسلمون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم وهم يد على من سواهم والمرء كثير باخوانه ، المرء مع من أحب ولا خير فى صحبة من لا يرى لك ما ترى له ، اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن ، إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء ما نوى ، المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده ، الرغبة فى الدنيا تكثر الهم والحزن والبطالة تقسى القلب ، اليد العليا خير من اليد السفلى ، الصبر عند الصدمة الأولى ، ترك الشر صدقة حبك الشىء يعمى ويصم ، ألا أخبركم بأحبكم إلى وأقربكم منى مجالس يوم القيامة أحاسنكم أخلاقا الموطئون أكنافا الذين يألفون ويؤلفون ألا أخبركم بأبغضكم إلى وأبعدكم منى مجالس يوم القيامة الثرثارون المتفيهقون ألا أخبركم بشراركم من أكل وحده ومنع رفده وضرب عبده ألا أخبركم بشر من ذلكم من لا يقيل عثرة ولا يقبل معذرة ولا يغفر ذنباً ألا أخبركم بشر من ذلكم من يبغض الناس ويبغضونه . أمرنى ربى بتسع الأخلاص فى السر والعلانية ، والعدل فى الغضب والرضا ، والقصد فى الفقر والغنى وأن أعفو عمن ظلمنى ، وأصل من قطعنى ، وأعطى من حرمنى ، وأن يكون نطق ذكراً ، وصمتى فكراً ، ونظرى عبرة ، المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً ، يد الله مع الجماعة ، الناس نيام فاذا ماتوا انتبهوا ، كفى بالسلامة

داء ، دع ما يريبك إلى ما لا يريبك ، احترس من الناس بسوء الظن ، الدال على الخير كفاعله ، جبلت القلوب على حب من أحسن اليها وبغض من أساء اليها ، إن ذى الوجهين لا يكون عند الله وجيها ، زر غبا تزداد حبا ، ما عال من اقتصد ، الحياء شعبة من الايمان ، خير الأمور أوسطها ، إياك وما يعتذر منه ، الوحدة خير من جليس السوء ، البركة فى البكور ، المرء على دين خليله ، كاد الفقر أن يكون كفراً ، من أصبح معافى فى بدنه آمناً فى سربه عنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها ، رحم الله عبداً قال خيراً فغنم أو سكت فسلم ، ليس لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت أو لبست فأبليت أو تصدقت فأبقيت ، الخلق كلهم عيال الله فأحبهم اليه أنفعهم لعياله ، ما أملق تاجر صدوق ، التاجر الجبان محروم ، العالم والمتعلم شريكان فى الخير ، لا تزال أمتى صالحاً أمرها ما لم تر الفىء مغنما والصدقة مغرما ، لا يراح القتات رائحة الجنة (والقتات النمام) وفى الحديث أنه قال (لعن الله المثلث) فقيل ومن المثلث يارسول الله قال الذى يسعى بصاحبه إلى سلطانه فيهلك نفسه وصاحبه وسلطانه ، وقال لو تكاشفتم ما تدافنتم ، يريد لو علم بعضكم سريرة بعض لامتنع عن تشييعه ودفنه ، وقال للأنصار فى حديث جرى إنكم لتكثرون عند الفزع وتقلون عند الطمع .

ومن أمثال غيره صلى الله عليه وسلم قول أبى بكر : إن البلاء موكل بالمنطق ، يضرب فى الاحتراس من عثرات اللسان ، وقول على إنما أكلت يوم أكل الثور الأبيض ، يضرب للرجل يرزأ برزء أخيه ، وقول معاوية وقد علم موت الأشتر النخعى من سم فى عسل ، إن لله جنوداً منها العسل ، يضرب عند الشماتة بما يصيب العدو ؛ وقول عمرو بن العاص حرك لها حوارها تحن ، يضرب فى تذكير المرء بما يشجيه وقول خالد بن الوليد ، عند الصباح يحمد القوم السرى ، يضرب فى احتمال المشقة رجاء الراحة وقول الحباب بن المنذر الأنصارى يوم السقيفة أنا جذيلها المحكك وعذيقها المرجب يضرب للرجل يشتفى برأيه وعقله ، والجذيل تصغير جذل وهو

أصل الشجرة تتحكك فيه الإبل الجربى ليخف ألمها ، والعذيق تصغير العذق وهو النخلة ، وترجيبه جعل رجبة حوله من الحجارة تكون دعامة له كيلا يقع ، ولا ترجب النخلة إلا إذا كانت كريمة .

ومن حكم غيره صلى الله عليه وسلم وجوامع كلمه ، قول أبى بكر الصديق ليست مع العزاء مصيبة فالموت أهون مما بعده وأشد مما قبله ، أصلح نفسك يصلح لك الناس ، إن فاتك خير فأدركه وإن أدركك شر فاسبقه . وقول عمر من كتم سره كان الخيار فى يده ، أعقل الناس أعذرهم للناس ، لا تؤخر عمل يومك لغدك ؛ لا ينفع تكلم بحق لا نفاذ له ، كفى المرء غياً أن تكون فيه خلة من ثلاث أن يعيب شيئاً ثم يأتى مثله أو يبدو له من أخيه ما يخفى عليه من نفسه أو يؤذى جليسه فيما لا يعنيه ، ثلاث يثبتن لك الود فى صدر أخيك أن تبدأه بالسلام وتوسع له فى المجلس وتدعوه بأحب الأسماء إليه . وقول عثمان إن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن ، إن الله أمر الأئمة أن يكونوا رعاة ولم يتقدم إليهم أن يكونوا جباة ، إن لكل شىء آفة وإن لكل نعمة عاهة ، إن الله عز وجل إنما أعطاكم الدنيا لتطلبوا بها الآخرة ، بادروا آجالكم بخير ما تقدرون عليه ، آثروا ما يبقى على ما يفنى ، طغام مثل النعام يتبعون أول ناعق أحب مواردهم إليهم النازح . وقول على لا غنى كالعقل ولا فقر كالجهل ولا ميراث كالأدب ولا ظهير كالمشاورة ، من لانت كلمته وجبت محبته ، قيمة كل امرىء ما يحسن ، من أبطأ به نسبه لم يسرع به حسبه ، ثلاثة لا يعرفون إلا فى ثلاث لا يعرف الشجاع إلا فى الحرب ولا الحليم إلا عند الغضب ولا الصديق إلا عند الحاجة ، يأتى على الناس زمان لا يقرب فيه إلا المحاحل ولا يظرف فيه إلا الفاجر ولا يضعف فيه إلا المنصف يتخذون الفىء مغنما والصدقة مغرما وصلة الرحم منا والعبادة استطالة على الناس فعند ذلك يكون سلطان النساء ومشاورة الإماء وإمارة الصبيان ، القلب إذا أكره عمى . وقول ابن عباس العلم أكثر من أن يؤتى على آخره فخذوا من كل شىء أحسنه ، الحرمان خير

من الامتنان ، صاحب المعروف لا يقع فإن وقع وجد متكأ ، لجليسى على ثلاث أن أرميه بطرفى إذا أقبل وأوسع له إذا جلس وأصغى إليه إذا حدث . وقول ابن مسعود القلوب تمل كما تمل الأبدان فابتغوا لها طرائف الحكمة . وقول معاوية وقد قيل له ما المروءة فقال احتمال الجريرة وإصلاح أمر العشيرة فقيل له وما النبل فقال الحلم عند الغضب والعفو عند القدرة وكذا قوله إنى لا أحمل السيف على من لا سيف له وإن لم تكن إلا كلمة يشتفى بها مشتف جعلتها تحت قدمى ودبر أذنى .

هذه نبذة من الأمثال والحكم أطلتنا فيها وبخاصة من كلام رسول الله ليكون مع ما قدمنا من آى القرآن فى نواحى إعجازه وفصاحته وبلاغته تكأة لما نريد الآن من بيان تأثيرهما فى نثر صدر الإسلام ومميزات هذا النثر وهو :

١ — فى القرآن الكريم

لقد تأثر النثر بالقرآن الكريم تأثراً عميقاً ظهر واضحاً فى المقاصد والأغراض وفى المعانى والأخيلة وفى الألفاظ والأساليب .

فأما من حيث الأغراض والمقاصد فالأثر واضح فيما تقدم من ظهور نوع جديد لم يك فى الحياة الجاهلية وهو الكتابة التى اقتضاها الانتقال من عيش البداوة إلى عيش الحضارة ومن حكم القبيلة إلى حكم الدولة وقد استعملت فى أغراض شتى تراها واضحة فيما أسلفنا من نماذج لها كالدعوة إلى الإسلام وتبيين عقائد الدين ووصايا الخلفاء والقادة والأمراء وإثبات العهود والمصالحات ونشر الأوامر العامة وتداول الحوار السياسى إلى غير ذلك مما لم يوجد قبل الإسلام . وهو واضح أيضاً فيما أجرينا فى الخطابة من الموازنة بين أغراضها جاهلية وإسلاما بحال أرت ماجد وما مات وما حدث فيه شىء من التبديل والتحرير وإن فيما تقدم من أمثال وحكم لمسحة ترى أن نزعة الأمثال فى صدر الإسلام أصبحت اجتماعية تشاكل الحياة

الجديدة وأن مرمى الحكم الإسلامية أصبح موجهاً إلى ما يحض عليه الدين ويقتضيه نظام التشريع .

وأما من حيث المعانى والأخيلة فقد اتسعت آفاقها حساً ومعنى باتساع مادة المشاهدات والمعقولات وتم اتساقها وتنظيمها بما كان من ارتقاء الفكر بقواعد الدين ونظم الاجتماع . فبعد أن كانت فى الجاهلية لا تجاوز ذكر معيشتهم البدوية ومرافقها من حل وترحال واستدرار غيث وانتجاع كلأ واستنبات نبت ونتج حيوان ، وأمورهم الاجتماعيـــة من إثارة المنازعات والمشاحنات وما تجر إليه من حض على إدراك ثأر وتفاخر بمال وولد إلى ما يتبع هذين الأمرين من وصف ما بجزيرتهم وتناول شىء من عاداتهم وعقائدهم ، أصبحت تتناول فى ميدان الحس وفى ميدان المعنى ما فصلناه وشرحناه فى أول موضوع ذكرناه وهو (أثر الإسلام فى العرب وفى لغة العرب) فقد بينا ما أحدثه تأثيره فيهم حساً ومعنى معددين فى ذلك من النواحى ومكثرين له من الأمثال ثم أتبعنا هذا البيان بالأثر الواضح للقرآن الكريم فى هذا الانقلاب والفضل البين له على اللغة فى كل ما نالها من تقدم وارتقاء ، فليرجع إليه هناك.

أما من حيث الألفاظ والأساليب فلم يك الأثر فيها بأقل منه فى الأغراض والمعانى ذلك لما رسخ فى نفوس القوم من الولع بتقليد القرآن الذى أعجزهم وكان من أهم نواحى إعجازه ، ألفاظه وأساليبه فإن هذا التقليد قد أنتج فى ألفاظ اللغة وأساليبها أموراً ذات بال .

١ — منها تهذيب الألفاظ بالعـــدول عن الحوشى الغريب وغير المستحسن من اللهجات مما أتم على اللغة توحيدها وأوصلها النهاية فى تنقيتها وتهذيبها لأن القرآن استمد ألفاظه من السهل النطق على اللسان ، الحسن الوقع فى الآذان ، القريب المعنى من الأفهام ، والقوم حيث قلدوه كانوا يغترفون مما اغترف ويأخذون مما أخذ ، فنشأ باللغة ما ذكرناه من هذا التهذيب وهجر كثير كان مستعملا من حوشى وثقيل نتيجة لهذا التقليد

لا عملا بنهى من الدين ، ومما يلحق بهذه الناحية موت كثير من المترادفات المعروفة فى غير قريش وإن لم تك بها حوشية ولا ثقل لأن القرآن الذى قلد نزل بالقرشية فى غالبه إذ كانت أعرف اللغات لدى عامة العرب ، والقرآن إنما يريد أن يكون مفهوماً لدى جميع القبائل لا عند قبيل دون قبيل .

٢ — ومنها موت كثير من الألفاظ لا لهذا التقليد بل لمجىء الإسلام ببديل منها أو للنهى عن استعمال مدلولاتها من طريق الدين كقولهم فى التحية عم صباحاً وعم ظلاماً فقد حل محله السلام ، وكالألفاظ الواردة فى قول الجاهلى مادحاً :

لك المرباع فينا والصـــفايا وحكمك والنشيطة والفضول

فقد كان من عادتهم إذا غنموا أن يعطوا ربع الغنيمة وهو المرباع لقائد الغارة وفارسها كما كانوا يعطونه الصفايا وهى كل ما يستصفيه لنفسه ويختاره ، والنشيطة وهى ما كانوا يغنمونه عفواً فى طريقهم إلى غارة مقصودة . والفضول وهى ما فضل مما لا تمكن قسمته على الغزاة كفرس مثلا ثم حكمه وهو ما كان يحكم به لنفسه فوق ذلك كله ، فهذه المعانى أماتها الإسلام بما شرع من نظام الفىء وتقسيمه فماتت ألفاظها . ومثلها كثير كان مستعملا وبطل فيما حرمه الشرع من عقائد الجاهلية وأوابدها وهى مبينة تفصيلا فى باب عقد لها من الأدب الجاهلى فليرجع إليها هناك .

٣ — ومنها التوسع فى مدلولات الألفاظ بإخراجها عن معانيها اللغوية إلى معان شرعية وهذا باب حافل تناول ألفاظ العقائد كالمسلم والمؤمن ، وأسماء الله وصفاته ، والرسل وصفاتها واليوم الآخر وسمعياته وأضداد كل هذه الصفات ، وتناول ألفاظ العبادات من صلاة وزكاة وصوم وحج وما لها من تفاصيل وما تستلزمه الصلاة من الطهارة وتوابعها ، كما تناول ألفاظ التشريع الشخصى من زواج وطلاق وتوريث والتشريع المدنى من بيع وشراء وسلم وإجارة وشفعة ونحوها ، وغير هذين من ألفاظ أخر

فى الأيمان والنذور والعتق والرق إلى آخر ما هو مفصل بكتب الفقه والتشريع .

٤ — ومنها إلى ما تقدم فى الخطابة والكتابة من ميزات ترجع إلى اللفظ والأسلوب ، حسن التصرف فى صوغ العبارات والجرى على أساليب القرآن والحديث مع الاقتباس منهما والاستشهاد بهما مما جعل رجال هذا الصدر لا يقفون عند الجمل القصيرة ولا يلتزمون السجع بل يطيلون الجمل كثيراً عامدين إلى الترسل المطلق أحياناً وإلى الازدواج أو السجع حيناً ، ولذلك تنوع أسلوبهم وانبعث فيه روح القرآن والحديث انبعاثاً ، وفيما فصلناه من وجوه إعجاز القرآن ما يبين مدى هذا التأثير فى كل نواحى الفصاحة والبلاغة على تعدد فصولها وتفرع أبحاثها فلا حاجة فيما يتعلق بالقرآن إلى إعادة شىء منه .

٢ — فى حديث رسول الله

أما حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد كان له بعد القرآن التأثير البين فى اللغة من جميع الوجوه التى بينا مقصداً وغرضاً معنى وخيالا لفظاً وأسلوباً ، ذلك أنه عليه الصلاة والسلام كان أفصح العرب منطقاً وأبلغهم قولا ، نشأ فى بنى سعد بن بكر وهم على ما هم عليه من الفصاحة رضيعاً فارتضع منهم أفاويق الفصاحة البدوية ، ثم ربى فى قريش يافعاً فطبع على رقة الحضر وسلاسته ، ثم علمه الله لغات العرب جميعاً دون أن يتنقل فى قبائلهم أو يخالط فى العشرة بطونهم وأفخاذهم ، فكان لذلك كله محل العجب والدهش عند مخالطيه ومعاشريه حتى لقد قال له أبو بكر رضى الله عنه لقد طفت العرب وسمعت فصحاءهم فما سمعت أفصح منك يا رسول الله فمن أدبك « يريد علمك » ، فقال له عليه الصلاة والسلام (أدبنى ربى فأحسن تأديبى) وقال له على رحمه الله وقد سمعه يخاطب وفد بنى نهد بمثل ما كتب به إلى وائل بن حجو فيما تقدم ، يا رسول الله نحن بنو أب واحد ونراك تكلم

الشعر فى صدر الاسلام

١ — نماذج

قال حسان بن ثابت يتوعد قريشاً بنصرة قومه لرسول الله صلى الله عليه وسلم على مشركيهم

عدمنا خيلنا إن لم تروها ... تثير النقع موعدها كداء[1]
يبارين الأسنة مصغيات ... على أكتافها الأسل الظماء
تظل جيادنا متمطرات ... تلطمهن بالخمر النساء
فاما تعرضوا عنا اعتمرنا ... وكان الفتح وانكشف الغطاء
وإلا فاصبروا لجلاد يوم ... يعين الله فيه من يشاء
وقال الله قد يسرت جنداً ... هم الأنصار عرضتها اللقاء
لنا فى كل يوم من معد ... قتال أو سباب أو هجاء
فنحكم بالقوافى من هجانا ... ونضرب حين تختلط الدماء
وقال الله قد أرسلت عبداً ... يقول الحق ليس به خفاء
شهدت به وقومى صدقوه ... فقلتم ما نجيب وما نشاء
وجبريلٌ أمين الله فينا ... وروح القدس ليس له كفاء
ألا أبلغ أبا سفيان عنى ... فأنت مجوف نخب هواء
بأن سيوفنا تركتك عبداً ... وعبد الدار سادتها الإماء
هجوت محمداً فاجبت عنه ... وعند الله فى ذاك الجزاء
أتهجوه ولست له بكفء ... فشركما لخيركما الفداء
فمن يهجو رسول الله منكم ... ويمدحه وينصره سواء
فان أبى ووالدتى وعرضى ... لعرض محمد منكم وقاء

---

(١) كداء كسحاب جبل بأعلى مكة ومنه دخلها النبى يوم الفتح

لسانى صارم لا عيب فيه ... وبحرى ما تكدره الدلاء

وأبو سفيان الذى ذكر ، هو أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب وكان كثير الهجاء للنبى . ومن هجاء حسان له هذه القطعة التى استله فيها من الشجرة الكريمة وصب عليه الهجاء وحده قال :

لقد علم الأقوام أن ابن هاشم
هو الغصن ذو الأفنان لا الواحد الوغد

ومالك فيهم محتد يعرفونه ... فدونك فالصق مثل مالصق القرد
وإن سنام المجد من آل هاشم ... بنو بنت مخزوم ووالدك العبد (١)
وما ولدت أبناء زهرة منهم ... كرام ولم يقرب عجائزك المجد (٢)
ولست كعباس ولا كابن أمه ... ولكن هجين ليس يورى له زند (٣)
وإن امرأ كانت سمية أمه ... وسمراء مغمور إذا بلغ الجهد (٤)
وأنت زنيم نيط فى آل هاشم ... كما نيط خلف الراكب القدح الفرد

ومن شعره يفاخر وفد تميم بقوم رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله :

إن الذوائب من فهر وإخوتهم ... قد بينوا سنة للناس تتبع
يرضى بها كل من كانت سريرته ... تقوى الاله وبالأمر الذى شرعوا
قوم إذا حاربوا ضروا عدوهم ... أو حاولوا النفع فى أشياعهم نفعوا
سجية تلك فيهم غير محدثة ... إن الخلائق فاعلم شرها البدع
لا يرقع الناس ما أوهت أكفهم ... عند الدفاع ولا يوهون ماوقعوا
إن كان فى الناس سباقون بعدهم ... فكل سبق لأدنى سبقهم تبع
أعفة ذكرت فى الوحى عفتهم ... لا يطمعون ولا يزرى بهم طبع
لا يفخرون إذا نالوا عدوهم ... وإن أصيبوا فلا خور ولا جزع

---

(١) هى فاطمة بنت عمرو بن عائذ بن عمرو بن مخزوم ، وأولادها من عبد المطلب هم عبد الله وابوطالب والزبير وبرة والبيضاء

(٢) زهرة هى هالة بنت أهيب بن عبد مناف زوجة عبد المطلب أيضا ولها منه صفية واميمه

(٣) أم العباس بن عبد المطلب هى نثيلة وأخوه الذى يعنيه منها هو ضرار بن عبد المطلب

(٤) سمية هى أم أبى سفيان المهجو ، وسمراء أم أبيه الحارث بن عبد المطلب وهما أمتان .

وقال أبو دُهبل الجمحى يمدح النبى صلى الله عليه وسلم

إن البيوت معادن فنجاره ... ذهب وكل بيوته ضخم
عقم النساء فما يلدن شبيهه ... إن النساء بمثله عقم
متهلل بنعم بلا متباعد ... سيان منه الوفر والعدم
نزر الكلام من الحياء تخاله ... ضمنا وليس بجسمه سقم

وقال كعب بن زهير :

بانت سعاد فقلبى اليوم متبول ... متيم إثرها لم يفد مكبول
وما سعاد غداة البين إذ رحلوا ... إلا أغن غضيض الطرف مكحول
هيفاء مقبلة عجزاء مدبرة ... لا يشتكى قصر منها ولا طول
تجلو عوارض ذى ظلم إذا ابتسمت ... كأنه منهل بالراح معلول

إلى أن قال :

أمست سعاد بأرض لا يبلغها ... إلا العتاق النجيبات المراسيل

ثم أطال فى وصف الناقة إلى أن خرج منه يقول :

تسعى الوشاة جنابيها وقولهم ... إنك يابن أبى سلمى لمقتول
وقال كل خليل كنت آمله ... لا ألهينك إنى عنك مشغول
فقلت خلوا سبيلى لا أبالكم ... فكل ما قدر الرحمن مفعول
كل ابن أنثى وان طالت سلامته ... يوما على آلة حدباء محمول
أنبئت أن رسول الله أوعدنى ... والعفو عند رسول الله مأمول
مهلا هداك الذى أعطاك نافلة الـ ... ـقرآن فيها مواعيظ وتفصيل
لا تأخذنى بأقوال الوشاة ولم ... أذنب وإن كثرت فى الأقاويل

إلى أن قال :

إن الرسول لنور يستضاء به ... مهند من سيوف الله مسلول
فى فتية من قريش قال قائلهم ... ببطن مكة لما أسلموا زولوا
زالوا فما زال أنكاس ولا كشف ... عند اللقاء ولا ميل معازيل
شم العرانين أبطال لبوسهم ... من نسج داود فى الهيجا سرابيل

بيض سوابغ قد شكت لها حلق ... كأنها حلق القفعاء مجدول
لا يفرحون إذا نالت رماحهم ... قوما وليسوا مجازيعا إذا نيلوا
يمشون مشى الجمال الزهر يعصمهم ... ضرب إذا عرد السود التنابيل
لا يقع الطعن إلا فى نحورهم ... وما لهم عن حياض الموت تهليل

وقال النابغة الجعدى من قصيدة يمدح رسول الله .

أتيت رسول الله إذ جاء بالهدى ... ويتلو كتابا كالمجرة نيرا
أقيم على التقوى وأرضى بفعلها ... وكنت من النار المخوفة أحذرا

إلى أن قال يفتخر .

بلغنا السماء مجدنا وسناؤنا ... وإنا لنرجو فوق ذلك مظهرا

فقال له النبي فابن المظهر يا أبا ليلى فقال الجنة فقال له إن شا شاء الله .

وقال معن بن أوس :

لعمرك ما أهويت كفى لريبة ... ولا حملتنى نحو فاحشة رجلى
ولا قادنى سمعى ولا بصرى لها ... ولا دلنى رأيى عليها ولا عقلى
وأعلم أنى لم تصبنى مصيبة ... من الدهر إلا قد أصابت فتى قبلى
ولست بماش ما حييت لمنكر ... من الأمر لا يمشى إلى مثله مثلى
ولا مؤثراً نفسى على ذى قرابة ... وأوثر ضيفى ما أقام على أهلى

وهو صاحب الميمية التى مطلعها .

وذى رحم قلمت أظفار ضغنة ... بحلمى عنه وهو ليس له حلم .

وهى طويلة مشهورة أجاد فيها وصف الحلم والتجمل مقابلا به السفاهة والتطاول . وقال ابن مقروم يفتخر .

ولقد شهدت الخيل يوم طرادها ... بسليم أوظفة القوائم هيكل
فدعوا نزال فكنت أول نازل ... وعلام أركبه إذا لم أنزل
وألد ذى حنق على كأنما ... تغلى عداوة صدره فى مرجل
أوجبته عنى فأبصر قصده ... وكويته فوق النواظر من عل[1]

---

(١) أوجبته عنى : رددته .

وقال عبدة بن الطبيب يرثى قيس بن عاصم المنقرى :

عليك سلام الله قيس بن عاصم ورحمته ما شاء أن يترحما
تحية من غادرته غرض الردى إذا زار عن شحط بلادك سلما
فما كان قيس هلكه هلكَ واحد ولكنه بنيان قوم تهدما

وقال عمرو بن معد يكرب الزبيدى .

ولما رأيت الخيل زورا كأنها جداول زرع أرسلت فاسبطرت
فجاشت إلى النفس أول مرة فردت على مكروهها فاستقرت
علام تقول الرمح يثقل عاتقى إذا أنا لم أطعن إذا الخيل كرت[1]

ومن مراثى متمم بن نويرة فى أخيه مالك وهى كثيرة وطويلة قوله .

جميل المحيا ضاحك عنه ضيفه أغر جميع الرأى مشترك الرحل
وقور إذا القوم الكرام تقاولوا فحلت حباهم واستطيروا من الجهل
وكنت إلى نفسى أشد حلاوة من الماء بالماذى بالعسل النحل
وكل فتى فى الناس بعد ابن أمه كساقطة إحدى يديه من الخبل
وبعض الرجال نخلة لا جنى لها ولا ظل إلا أن تعد من النخل

وقال العباس بن مرداس .

ترى الرجل النحيف فتزدريه وفى أثوابه أسد مزير
ويعجبك الطرير فتبتليه فيخلف ظنك الرجل الطرير
فما عظم الرجال لهم بفخر ولكن فخرهم كرم وخير
بغاث الطير أكثرها فراخا وأم الصقر مقلات نزور
ضعاف الطير أطولها جسوما ولم تطل البزاة ولا الصقور
لقد عظم البعير بغير لب فلم يستغن بالعظم البعير
يصرفه الصبى بكل وجه ويحبسه على الخسف الجرير
وتضربه الوليدة بالهراوى فلا غير لديه ولا نكير
فان أك فى شراركم قليلا فإنى فى خياركم كثير

---

(١) فى البيت التفات من خطاب نفسه فى تقول إلى التكلم فى أنا .

وقال الحطيئة يمدح بغيض بن عامر من آل لأى ويذم ابن عمه الزبرقان ابن بدر من آل بَهدَلة وكلاهما يرجع إلى عوف بن كعب بن سعد تميم .

والله ما معشر لاموا امرأ جنبا ... فى آل لأى بن شماس بأكياس
لقد مريتكم لو أن درتكم ... يوما يجىء بها مسحى وإبساسى
وقد مدحتكم عمداً لأرشدكم ... كيما يكون لكم متحى وإمراسى
وقد نظرتكم إيناء صادرة ... للخمس طال بها حوذى وتلساسى
لما بدا لى منكم غيب أنفسكم ... ولم يكن لجراحى منكم آسى
أجمعت يأسا مبينا من نوالكم ... ولا يرى طارداً للحر كالياس
ما كان ذنب بغيض أن رأى رجلا ... ذا فاقة حل فى مستوعر شاس
جارا لقوم أطالوا هون منزله ... وغادروه مقيما بين أرماس
ملوا قراه وهرته كلابهم ... وجرحوه بأنياب وأضراس
لا ذنب لى اليوم أن كانت نفوسهم ... كفازك كرهت ثوبى وإلباسى
من يفعل الخير لا يعدم جوازيه ... لا يذهب العرف بين والناس
دع المكارم لا ترحل لبغيتها ... واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسى
قد ناضلوك فأبدوا من كنانتهم ... مجدا تليدا ونبلا غير أنكاس
ما كان ذنبىَ أن فلت معاولكم ... من آل لأى صفاة أصلها راسى

وقال فى ذلك أيضاً .

وإن التى نكبتها عن معاشر ... على غضاب أن صددت كما صدرا
أتت آل شماس بن لأى وإنما ... أتاهم بها الأحلام والحسب العدّ
فان الشقى من تعادى صدورهم ... وذو الجد من لانوا إليه ومن ودوا
يسوسون أحلاما بعيدا أناتها ... وإن غضبوا جاء الحفيظة والجد
أقلوا عليهم لا أبا لأبيكم ... من اللوم أوسدوا المكان الذى سدوا
أولئك قوم إن بنوا أحسنوا البنى ... وإن عاهدوا أوفوا وإن عقدوا شدوا
وإن كانت النعماء فيهم جزوا بها ... وإن أنعموا لا كدروها ولا كدوا
وإن قال مولاهم على جل حادث ... من الدهر ردوا فضل أحلامكم ردوا

وإن غاب عن لأى بغيض كفتهم نواشىء لم تطرر شواربهم بعد
مطاعين فى الهيجا مكاشيف للدجى بنى لهم آباؤهم وبنى الجد
فمن مبلغ أبناء سعد فقد سعى إلى السورة العليا لهم حازم جلد
رأى مجد أقوام أضيع فخشهم على مجدهم لما رأى أنه الجهد
وتعذلنى أبناء سعد عليهم وهل قلت إلا بالذى علمت سعد

٢ — حائر

انقضى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين من بعده ، دون أن تقوم للشعر الدولة التى كانت له فى الجاهلية ، لأن الحياة فى هذا العهد جاءت بعيدة عن الدواعى التى تحفز إلى قوله ، حائلة دون كثير من الأغراض التى كان يقال فيها .

فقد كان أهم دواعيه فى الجاهلية راجعاً إلى العصبية وما تستلزمه من فخر بقبائلهم وعشائرهم إذ كل قبيلة تطلب العزة لنفسها والرفعة على سواها ، والاسلام قد أذهب هذه العصبية وجعل الناس كلهم لآدم وآدم من تراب لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى وبذلك نضب هذا المعين الذى طالما أمد الشعر الجاهلى بالتيار الجارف ذى القرار المكين .

ثم جاء القرآن الكريم نثراً بمعانيه السامية وأساليبه الرائعة وبلغ ما بلغ من إعجاز فى كل غرض قصد إليه فأدهشهم فوقه وانصرفت قرائحهم إلى الخطابة دون الشعر يستنهضون بها القلوب إلى نصرة الدين ويحركون الهمم إلى الغزو والجهاد .

فهذان الأمران إلى أمر ثالث هو اشتغال ذوى المواهب والقرائح ومن ورائهم الناس — بالدين من حيث تلقى أوامره ونواهيه والوقوف على تعاليمه وإرشاداته طول حياة النبى صلى الله عليه وسلم ، ومن حيث تشرب روحه والتغذى بلبانه والعمل على ترسيخ قدمه وامتداد نفوذه فى عهد الخلفاء من بعده ، قد أسدلت على الشعر حجاباً كثيفاً ستره عن الأبصار وجعلت

كثيراً من الشعراء الذين جاء الاسلام وهم شعراء يتنكبون طريقه ويعدلون عن قوله كلبيد بن ربيعة العامرى فليس له فى إسلامه على مكانته الجاهلية فى الشعر سوى بضعة أبيات أشهرها :

الحمد لله إذ لم يأتنى أجلى حتى اكتسيت من الاسلام سربالا

ولذلك حين أرسل إليه المغيرة بن شعبة والى الكوفة لعمر ، يستنشده ما قال من الشعر فى الإسلام كتب سورة البقرة فى صحيفة ثم أتى بها إليه قائلا ، أبدلنى الله هذه فى الإسلام مكان الشعر ، ولقد بلغ من انصرافه عنه أنه لما أرسل اليه وهو فقير يملق الوليد بن عقبة والى عثمان على الكوفة مائة ناقة لينحر إذ هبت الصبا ايفاء لنذر كان منه فى الجاهلية ومعها هذه الأبيات :

أرى الجزار يشحذ مديتاه إذا هبت رياح أبى عقيل
طويل الباع أبيض جعفرى كريم المجد كالسيف الصقيل
وفى ابن الجعفرى بما لديه على العِلات والمال القليل

كلف ابنته أن ترد على الشعر ولم يجب هو فقالت :

إذا هبت رياح أبى عَقيلٍ دعونا عند هبتها الوليدا
طويل الباع أبيض عبشمياً أعان على مروءته لبيدا
بأمثال الهِضاب كأن ركبا عليها من بنى حام قعودا
أبا وهب جزاك الله خيرا نحرناها وأطعمنا الثريدا
فعد إن الكريم له معاد وظنى بابن أروى أن يعودا

فقال لها أبوها أحسنت يا بنيتى لولا أنك سألت فقال يا أبت إن الملوك لا يستحى من مسألتهم فقال لها وأنت فى هذا يا بنيتى أشعر .

ولقد زاد من انصراف الناس عن الشعر أن الله سبحانه وتعالى صرف نبيه عن قوله فلم يؤثر عنه شىء منه إلا ما جاء عفواً من غير قصد كما جاءت بعض آى القرآن الكريم فيما سبق وذلك كقوله :

أنا النبى لا كذب أنا ابن عبد المطلب

وقوله :

هل أنت إلا أصبع دميت وفى سبيل الله ما لقيت

وهذا فى الحقيقة لا يسمى شعراً ، كما أنه صلى الله عليه لم يكن يقيم وزن بيت يرويه إذا تمثل به فقد روى بيت طرفة .

ستبدى لك الأيام ما كنت جاهلا ويأتيك بالأخبار من لم تزود

هكذا « ويأتيك من لم تزود بالأخبار » وروى بيت العباس بن مرداس

أتجعل نهبى ونهب العبيد بين عُيينة والأقرع

هكذا « بين الأقرع وعيينة » ، ولقد كان يقتصر أحياناً على أنصاف الأبيات لكيلا تتم شعرا كقوله « أصدق كلمة قالها شاعر كلمة لبيد ، ألا كل شىء ما خلا الله باطل » هذا إلى ما جاء فى القرآن من تهجين الشعر وذم الشعراء بقوله (والشعراء يتبعهم الغاوون ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون وأنهم يقولون ما لا يفعلون إلا الذين آمنو وعملوا الصالحات »

غير أن ما تقدم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من انصرافه عن قول الشعر وعدم إقامته لوزنه واقتصاره أحياناً على أنصاف الأبيات ، لم يمنعه أن يعرف للشعر قيمته وتأثيره فحين نهضت شعراء قريش تهجوه وتحط من دعوته أمثال أبى سفيان بن الحارث بن عبد المطلب وعبد الله ابن الزبعرى وكعب بن الأشرف وغيرهم قال للأنصار ما يمنع القوم الذين نصروا رسول الله بسلاحهم أن ينصروه بألسنتهم فقال حسان بن ثابت أنا لها وأخذ بطرف لسانه فضرب به أرنبة أنفه وقال والله ما يسرنى به مقول بين بصرى وصنعاء فقال له وكيف تهجوهم وأنا منهم قال إنى أسلك منهم كما تسل الشعرة من العجين قال اذهب إلى أبى بكر فليحدثك حديث القوم وأيامهم وأحسابهم ثم اهجهم وجبريل معك ، فأخذ حسان يهجوهم مدافعاً عنه وعن دينه وانضم إليه فى ذلك نفر أخصهم عبد الله بن رواحة وكعب ابن مالك ولكن حسان كان أشدهم وأوجعهم ، وكثيراً ما كان يقول له صلى الله عليه وسلم شن الغارة على بنى عبد مناف فوالله لشعرك أشد عليهم

من وقع الحسام فى غلس الظلام . ولقد كان يكثر من استنشاد الخنساء رثاء أخيها صخر ويقول لها هيه يا خناس . وهذا كعب بن زهير قد استمع له لاميته (بانت سعاد) فعفا عنه وأثابه عليها بردة اشتراها منه معاوية بعد بثلاثين ألف درهم وتداولها من بعده الخلفاء يلبسونها فى الجمع والأعياد ، بل هذه قتيلة أخت النضرين الحارث أنشدته وقد قتل أخاها بعد وقعة بدر أبياتاً منها .

أمحمد ولدتك خيرُ نجيبة ... فى قومها والفحل فحل معرق
ما كان ضرك لو منننت وربما ... مَنَّ الفتى وهو المغيظ المحنق
فالنضر أقرب من قتلت قرابة ... وأحقهم إن كان عتقاً يعتق
لو كنتَ قابل فدية لفديتُه ... بأعز ما يغلى به من ينفق

فقال صلى الله عليه وسلم لو سمعت هـــذا قبل قتله لمننت عليه . فهو عليه الصلاة والسلام كان يعجبه من الشعر ما وافق الحق لما فيه من العظة والعبرة والتنبيه والتذكير والحض على الفضائل والدعوة إلى المكارم ، روى أنه قال للعلاء بن الحضرمى هل تروى شيئاً من الشعر فأنشده :

وحى ذوى الأضغان تسبِ عقولهم ... تحيتـــك الحسنى وقد يرقع النعل
فان دحسوا بالكره فاعف تكرما ... وإن خنسوا عنك الحديث فلا تسل
فان الذى يؤذيك منك سماعه ... وإن الذى قالوا وراءك لم يقل

فقال إن من الشعر لحكمة فاذا ألبس عليكم شىء من القرآن فالتمسوه فى الشعر فانه عربى . ومن ذلك يفهم أن صرف الله له عن قول الشعر لم يك لتحريم الشعر وإنما كان لأنه لا ينبغى لنبى أن يقوله كما قال سبحانه « وما علمناه الشعر وما ينبغى له إن هو إلا ذكر وقرآن مبين » وأنى لنبى أن يجمع بين مقاصد النبوة من الإيمان والحق والمكرمة والفضيلة وبين ما يهيم فيه الشعراء من فخر وهجاء وتشبيب وهيام وكذب وضلال مما من أجله لا سواه ذم الله الشعراء قاصداً تلك الطائفة التى لا تخشى فى قولها ديناً ولا حقاً ولا فضيلة ولا معروفا .

ولقد سار خلفاؤه صلى الله عليه وسلم من بعده إزاء الشعر كما سار، فكانوا يميزون بين شعر وشعر فيحضون على ما هو حسن ومفيد ويعاقبون على ما هو شائن وضار وما منهم إلا من تمثل بالشعر أو قاله وحض على روايته وحرض على حفظه. قال سعيد بن المسيب كان ابو بكر شاعرا وعمر شاعرا وعلى أشعر الثلاثة. وقال المفضل لم يبق أحد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا وقد قال الشعر أو تمثل به. وكانت السيدة عائشة رضى الله عنها كثيرة الرواية للشعر حتى قيل إنها كانت تحفظ جميع شعر لبيد وكانت تقول رووا أولادكم الشعر تعذب ألسنتهم. وكذلك وأكثر كان أبوها أبو بكر رحمه الله. وكان عمر رضى الله عنه لا يكاد يعرض له أمر إلا أنشد فيه شعراً ومما هو مأثور عنه قوله أفضل صناعات الرجل الأبيات من الشعر يقدمها فى حاجته يستعطف بها قلب الكريم ويستميل بها قلب اللئيم، وقوله لابنه عبد الرحمن، يا بنى انسب نفسك تصل رحمك واحفظ محاسن الشعر يحسن أدبك فإن من لم يعرف نسبه لم يصل رحمه ومن لم يحفظ محاسن الشعر لم يؤد حقاً ولم يقترف أدباً، وقد بلغ من اعتباره للشعر أن صار يحض عليه حضاً كقوله تعلموا الشعر فإن فيه محاسن تبتغى ومساوى تتقى ولقد روى أنه كتب إلى أبى موسى الأشعرى يقول له مر من قبلك بتعلم الشعر فإنه يدل على معالى الأخلاق وصواب الرأى ومعرفة الأنساب. هذا إلى ما كانوا جميعاً يرون فى الشعر من نفع آخر يعرفون قدره ويرجون خيره هو حاجتهم إليه فى تفسير القرآن. قال ابن عباس إذا قرأتم شيئاً فى كتاب الله فلم تعرفوه فاطلبوه فى أشعار العرب.

على أن هذا كله لم يمنع الخلفاء أن يفضلوا حفظ القرآن على حفظ الشعر فقد ذكر أن عمر رحمه الله لما بعث إلى المغيرة بن شعبة واليه على الكوفة أن استنشد من قبلك من الشعراء ما قالوا فى الإسلام وكتب إليه لبيد سورة البقرة وقال أبدلنى الله هذه فى الإسلام مكان الشعر كما تقدم فكتب هو بذلك إلى عمر، زاد عمر فى عطاء لبيد خمسمائة. كما ذكروا أن

غالبا أبا الفرزدق حين جاء بابنه هـذا وهو غلام إلى على كرم الله وجهه بالبصرة بعد وقعة الجمل وقال له إن ابنى هذا من شعراء مضر فاستمع له قال له على « علمه القرآن » ولعل هذه الوصاة هى التى جعلت الفرزدق فى كبره يحتبس نفسه ويقيد رجله كيما يحفظ القرآن . كما لم يمنعهم أن يضربوا على أيدى الشعراء الخارجين عن سياج العفة والدين بالهجو المقذع والتشبيب الفاحش ونحوهما مما هو محرم ، كمنعت الخمر والدعوة بدعاء الجاهليين ، فهذا عمر قد حبس الحطيئة بعد حادثته مع الزبرقان بن بدر لإسرافه فى الهجو والذم ولم يطلقه على كثرة ما استعطفه به من شعر حتى أنشده عن صبيته قوله :

ماذا تقول لأفراخ بذى سلم ... زغب الحواصل لاماء ولا شجر
ألقيت كاسبهم فى قعر مظلمة ... فاغفر عليك سلام الله يا عمر
أنت الإمام الذى من بعد صاحبه ... ألقى إليك مقاليد الورى البشر
لم يؤثروك بها إذ قدموك لها ... لكن لأنفسهم كانت بك الأثر
فامنن على صبية بالرمل مسكنهم ... بين الأباطح تغشاهم بها القرر
أهلى فداؤك كم بينى وبينهم ... من عرض داوية يعمى بها الخبر

فرق للصبية ومع ذلك لم يطلقه إلا بعد أن أخذ عليه عهداً ألا يهجو المسلمين ، وقيل بل اشترى منه أعراضهم بثلاثة آلاف درهم ، وكذلك كان يمنع الشعراء أن يشببوا بالنساء ويتوعد من يخالف بالعقوبة ولهذا قالوا إن حميد بن ثور حين ذكر السرحة فى أبياته المشهورة كان يريد امرأة ولكنه لم يجرؤ على التصريح بها خوفاً من عمر . ومن هذه الأبيات قوله :

سقى السرحة المحلال والأبطح الذى ... به الشرى غيث مدجن وبروق
فقد ذهبت طولا فما فوق طولها ... من النخل الاعشة وسحوق
فياطيبَ رَياها ويا بَرد مائها ... إذا حان من حامى النهار وُدوق
حمى ظلها شكس الخليقة خائف ... عليها عرام الطائفين شفيق

فلا الظلُّ من برد الضحى تستطيعه ولا الفيءَ من برد العشى تذوق

وعلى نحو من هذا جرى عثمان رحمه الله فى خلافته فقد حبس ضابئ بن الحارث البرجمى لأقذاعه فى الهجاء حتى مات فى السجن

عن هذه الدائرة كان لا يخرج الشعراء الذين جاء الأسلام وهم شعراء، غير أنهم كانوا بعد الفئة التى عدلت عن قول الشعر جملة ثلاث فئات، اثنتان تتقاتلان هما فئة الأنصار المناصرة لرسول الله المدافعة عن دينه، وفئة المشركين الهاجية لرسول الله المهجنة لدعوته وقد تقدمت أسماء أشهر الفئتين، وكان من آثارهما كثرة الشعر فى مكة والمدينة حياة النبى صلى الله عليه وسلم دون عهد الخلفاء الراشدين فقد عاد فيهما فيه كما كان، أما الفئة الثالثة فهى التى بقيت تقول الشعر فى إسلامها كما كانت تقوله تقريبا فى جاهليتها ولكن فيما لا يخالف الدين إلا على لسان القليل، ومن هؤلاء وهم كثير أبو دهبل الجمحى وكعب بن زهير والنابغة الجعدى ومعن بن أوس وابن مقروم الضبى وعبدة بن الطبيب وعمرو بن معد يكرب ومتمم بن نويرة والعباس بن مرداس والحطيئة وغيرهم من سائر المخضرمين الذين أخذوا هذا الاسم من قولهم ماء خِضرِم إذا تناهى فى السعة إلى الكثرة لتناولهم العصرين وهذا تعليل أبى الحسن الأخفش أو من قولهم، خضرم فلان عطيته إذا قطعها كما ذكر فى المزهر لأنهم قطعوا عن الجاهلية بالاسلام، على أن بعضهم ذكر الكلمة بالحاء المهملة من الحضرمة وهى الخلط لأنهم خلطوا بين عصرين فهذه الفئة هى التى لم تبتعد كثيراً فى شعرها الإسلامى عن المنحى الذى كانت تنحوه فى شعرها الجاهلى بخلاف الفئتين السابقتين فان البون بين شعريهما جاهلية وإسلاما جاء شاسعا لتباين الغرض فى العهدين ولاختلاف المعانى التى كان يقتضيها هذا التباين، وإنما قلنا كثيراً لأن شعرها الإسلامى لم يخل بالنظر إلى شعرها الجاهلى من تغيرات فى أغراضه ومراميه وفى أخيلته ومعانيه وفى ألفاظه ومبانيه تأثرا بالقرآن الكريم والحديث الشريف على نحو ما تأثر بهما النثر فيما قدمنا هناك وفى هذا بعض الابتعاد، وهذى بعض أمثلة

توضح مدى هذا التأثير غرضاً ومعنى إذ لسنا فى حاجة إلى إعادة القضايا عنهما من جديد . قال كعب بن زهير فى القضاء والقدر :

لو كنت أعجب من شىء لأعجبنى سعى الفتى وهو مخبوء له القدر
يسعى الفتى لأمور ليس يدركها فالنفس واحدة والهم منتشر
والمرء ما عاش ممدود له أمل لا ينتهى العمر حتى ينتهى الأثر

فأين من هذا التصوير لحقيقة القضاء والقدر والتسليم لهما وحدّ الآجال من غير تقديم ولا تأخير قول زهير بن أبى سلمى وهو أحكم الشعراء الجاهليين .

رأيت المنايا خبط عشواء من تصب تمته ومن تخطىء يعمر فيهرم

ومن هذه الناحية — ناحية التباين فى الغرض والمعنى — قول بجير ابن زهير فى عقيدة التوحيد لأخيه كعب يدعوه للاسلام .

إلى الله لا العزى ولا اللات وحده فتنجو إذا كان النجاءُ وتسلمُ
لدى يوم لا ينجو وليس بمفلت من النار إلا طاهر القلب مسلم
فدين زهير وهو لا شىء باطل ودين أبى سُلمى على محرم

ومثل ذلك ما يتعلق باليوم الآخر وسمعياته وفيه يقول أبو ذؤيب .

يا عبيد رفع الكتاب واقترب الموعد والحساب

وكذا ذكر الورع والتقوى والزهد فى الدنيا والرغب فى الآخرة .

ولقد جاءت الحكمة فى هذا العصر دينية لكثرة ما جاء منها فى السنة والكتاب حتى طبعت بطابع باعد بينها وبين حكم البداوة ، قال حسان .

وإن أمرا يمسى ويصبح سالما من الناس إلا ما جنى لسعيد

وقال أيضاً :

رب حلم أضاعه عدم المال وجهل غطى عليه النعيم

وقال كعب بن زهير :

مقالة السوء إلى أهلها أسرع من منحدر سائل
ومن دعا الناس إلى ذمه ذموه بالحق وبالباطل

وقال النابغة الجعدى :

ولا خير فى حلم إذا لم تكن له بوادر تحمى صفوه أن يكدرا
ولا خير فى جهل إذا لم يكن له حليم إذا ما أورد الأمر أصدرا

وحتى الشعراء البعيدة نفوسهم عن تهذيب الدين ظهر التأثر به فى أغراضهم ألا ترى إلى قول الحطيئة :

ولست أرى السعادة جمع مال ولكن التقى هو السعيد
وتقوى الله خير الزاد ذخرا وعند الله للأتقى مزيد
وما لا بد أن يأتى قريب ولكن الذى يمضى بعيد

وإلى قوله وهو أحكم بيت بالأجماع .

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه لا يذهب العرف بين الله والناس

وهناك أغراض عُدل عنها لأبطال الإسلام إياها كنعت الخمر والإقذاع فى الهجو والفحش فى الغزل ، فالأول لم يقل فيه شىء وكذا الثانى إلا ممن اجترأ على بعض منه ونال جزاؤه ، كالحطيئة من عمر ، وابن ضابىء من عثمان ، والثالث ، كان يكنى فيه الشعراء غير مجترئين على التصريح كما تقدم فى غزل حميد بن ثور أيام عمر ، ولذا كان غزل هذا العصر عفا كما رأيت فى مطلع لامية كعب بن زهير .

أما التأثر فى الألفاظ والأساليب فقد جاء واضحاً كل الوضوح ، انظر قوله تعالى (وإنا أو إياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين) وقوله (عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم) كيف أخذ الأول حسان فقال :

أتهجوه ولست له بكفء فشركما لخيركما الفداء

وكيف أخذ الثانى فى رثاء رسول الله فقال :

عزيز عليه أن يحيدوا عن الهدى حريص على أن يستقيموا ويهتدوا

وكذلك أخذ قوله :

وهل يستوى ضلال قوم تسفهوا عمى وهداة يهتدون بمهتد

من قوله تعالى (قل هل يستوى الأعمى والبصير أم هل تستوى الظلمات والنور) وانظر قول معن بن أوس :

فما زلتُ فى لينى له وتعطفى عليه كما تحنو على الولد الأم
وخفضى له منى الجناح تألفاً لتدنيه منى القرابة والرحم

مع قوله تعالى (واخفض لهما جناح الذل من الرحمة) وكذلك قول النابغة الجعدى :

الحمد لله لا شريك له من لم يقلها فنفسه ظلما
الموجِ الليل فى النهار وفى الليـــل نهارا يفرج الظلما

مع قوله تعالى « يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل » وهذا كثير جدا ولا سيما فى أشعار حسان وعبد الله بن رواحة وأمية بن أبى الصلت ونحوهم ممن كانت لهم نزعة الى الدين فى أقوالهم . قال حسان :

فاما تعرضوا عنا اعتمرنا وكان الفتح وانكشف الغطاء

وقال عبد الله بن رواحة .

شهدت بأن وعد الله حق وأن النار مثوى الكافرينا
وأن العرش فوق الماء طاف وفوق العرش رب العالمينا

وقال أمية بن أبى الصلت .

لك الحمد والنعماء والملك ربنا فلا شىء أعلى منك مجدا وأمجد

وقال آخر .

فانك لا تدرى بأية بلدة تموت ولا مايحدث الله فى غد

العصر الاموى

يبتدئ هذا العصر من سنة إحدى وأربعين المعروفة بعام الجماعة عام تنازل الحسن بن على عن الخلافة لمعاوية وينتهى بقيام الدولة العباسية سنة اثنتين وثلاثين بعد المائة فمدته اثنتان وتسعون سنة . واذا كان الشعر والخطابة قد تداولا المكانة فى العصرين السابقين له فكانت للشعر فى العصر الجاهلى وللخطابة فى صدر الاسلام فانهما كانا فى هذا العصر فرسى رهان ، فهو عصر خطابة وشعر فى آن وهما فيه بينا الفضل معاً على ما قبله من العصور ، كما أن الكتابة خطت فيه خطوة أوجدت الكتابة العلمية والديوانية غير الأنشائية وتمشت بالأنشائية نحو الفنية فصارت فى أواخره صناعة ذات تعاليم كانت الأساس لازدهارها فى العصر العباسى بعد ، كما أوجدت فى الكتابة الخطية شيئاً ذا بال .

ولما كان كلامنا على الخطابة والكتابة الإنشائية فى صدر الإسلام متمشياً عليهما إلى قدر فى هذا العصر وليس فى حاجة إلا إلى نماذج وبعض زيادات ، فقد رأينا تقدمة الكلام عليهما فيه وبعدهما نفرغ لما هو باق .

١ — الخطابة

ا — نماذجها

قدم معاوية المدينة عام الجماعة فصعد المنبر وحمد الله وأثنى عليه ثم قال أما بعد فانى والله ما وليتها بمحبة منكم ولا مسرة بولايتى ، ولكنى جالدتكم بسيفى هذا مجالدة ، ولقد رضت لكم نفسى على عمل ابن أبى قحافة وأردتها على عمل عمر فنفرت منى إذ ذاك نفاراً شديداً ، وأردتها على سنيات عثمان فأبت على ، فسلكت بها طريقاً لى ولكم فيه منفعة ، مؤاكلة حسنة

ومشاربة جميلة ، فإن لم تجدونى خيركم فإنى خير لكم ولاية ، والله لا أحمل السيف على من لا سيف له ، وإن لم يكن منكم إلا ما يشتفى به القائل بلسانه فقد جعلت ذلك دبر أذنى وتحت قدمى ، وإن لم تجدونى أقوم بحقكم كله فاقبلوا منى بعضه فان أتاكم منى خير فاقبلوه فان السيل إذا جاد أثرى وإن قل أغنى وإياكم والفتنة فانها تفسد المعيشة وتكدر النعمة .

وخطب وهى آخر خطبة له ، فبعد أن صعد المنبر ، حمد الله وأثنى عليه ثم قبض على لحيته وقال : أيها الناس إنى من زرع قد استحصد وقد طالت عليكم إمرتى حتى مللتكم ومللتموتى وتمنيت فراقكم وتمنيتم فراقى وإنه لن يأتيكم بعدى إلا من هو شر منى كما لم يأتكم قبلى إلا من كان خيراً منى ، وإنه من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ، اللهم إنى اجببت لقاءك فأحبب لقائى .

وخطب الناس بالموسم عتبـــة بن أبى سفيان فى سنة إحدى وأربعين وعهد الناس حديث بالفتنة فاستفتح ثم قال أيها الناس إنا قد ولينا هـذا الموضع الذى يضاعف الله فيه للمحسن الأجر وعلى المسىء الوزر فلا تمدوا الأعناق إلى غيرنا فانها تنقطع دوننا ورب متمن حتفه فى أمنيته . اقبلوا العافية ما قبلناها منكم وفيكم ، وإياكم ولو فقد أتعبت من كان قبلكم ولن تربح من بعدكم فاسألوا الله أن يعين كلا على كل . فنعق به أعرابى من مؤخر المسجد ، أيها الخليفة فقال لست به ولم تبعد قال فيا أخاه قال قد أسمعت فقل قال والله لأن تحسنوا وقد أسأنا خير لكم من أن تسيئوا وقد أحسنا فان كان الإحسان لكم فما أحقكم باستتمامه وان كان لنا فما أحقكم بمكافأتنا رجل من بنى عامر يمت اليكم بالعمومة ويختص اليكم بالخئولة وقد وطئه زمان وكثرة عيال وفيه أجر وعنده شكر ، فقال عتبة أستعيذ بالله منك وأستعينه عليك قد أمرت لك بغناك فليت إسراعنا اليك يقوم بأبطائنا عنك .

وخطب الناس بمصر عن موجدة فقال يا حاملى ألام أنوف ركبت بين أعين إنى إنما قلمت أظفارى عنكم ليلين مسى لكم وسألتكم صلاحكم

إذ كان فسادكم باقياً عليكم فأما إذ أبيتم إلا الطعن على السلطان والتنقص للسلف فوالله لأقطعن بطون السياط على ظهوركم فان حسمت أدواءكم وإلا فان السيف من ورائكم ، فكم من حكمة منا لم تعها قلوبكم ومن موعظة منا صمت عنها آذانكم ولست أبخل بالعقوبة إذا جدتم بالمعصية ولا أويسكم من مراجعة الحسنى إن صرتم إلى التى هى أبر وأتقى .

ولما عقد معاوية البيعة لابنه يزيد قام الناس يخطبون فقال معاوية لعمرو بن سعيد قم يا أبا أمية فقام فحمد الله وأثنى عليه ثم قال أما بعد فان يزيد بن معاوية أمل تأملونه وأجل تأمنونه إن استضفتم إلى حلمه وسعكم وإن احتجتم إلى رأيه أرشدكم وان افتقرتم إلى ذات يده أغناكم ، جذع قارح سوبق فسبق وموجد فجد وقورع ففاز سهمه فهو خلف أمير المؤمنين ولا خلف منه ، فقال معاوية أوسعت أبا أمية فاجلس .

وخطب يزيد بن معاوية عقب موت أبيه فقال : الحمد لله الذى ما شاء صنع ، من شاء أعطى ومن شاء منع ، ومن شاء خفض ومن شاء رفع ، إن أمير المؤمنين كان حبلا من حبال الله مده ما شاء أن يمده ثم قطعه حين أراد أن يقطعه ،وكان دون من قبله وخيرا ممن يأتى بعده ولا أزكيه عند ربه وقد صار اليه فان يعف عنه فبرحمته وان يعاقبه فبذنبه ، وقد وليت بعده الأمر ولست أعتذر من جهل ولا آسى على طلب علم ، وعلى رسلكم إذا كره الله شيئاً غيره وإذا أحب شيئاً يسره .

وخطب زياد حين قدم البصرة واليا من قبل معاوية خطبة لم يحمد الله فيها قال : أما بعد فان الجهالة الجهلاء والضلالة العمياء والغى الموفى بأهله على النار ، ما فيه سفهاؤكم ويشتمل عليه حلماؤكم ، من الأمور العظام ينبت فيها الصغير ولا يتحاشى عنها الكبير ، كأنكم لم تقرءوا كتاب الله ولم تسمعوا بما أعد الله من الثواب الكريم لأهل طاعته والعذاب الأليم لأهل معصيته فى الزمن السرمدى الذى لا يزول ، أتكونون كمن طرفت عينه الدنيا وسدت مسامعه الشهوات واختار الفانية على الباقية ، ولا تذكرون

أنكم أحدثتم فى الأسلام الحدث الذى لم تسبقوا اليه ، من تركيكم هذه المواخير المنصوبة والصفقة المسلوبة فى النهار المبصر والعدد غير قليل . ألم يكن منكم نهاة تمنع الغواة عن دلج الليل وغارة النهار ، قربتم القرابة وباعدتم الدين تعتذرون بغير العذر وتغضون على النكر ، كل أمرىء منكم يذب عن سفيهه صنيع من لايخاف عاقبة ولا يرجو معاداً . ما أنتم بالحلماء ولقد اتبعتم السفهاء فلم يزل بكم ما ترون من قيامكم دونهم حتى انتهكوا حرم الاسلام ثم أطرقو وراءكم كنوساً فى مكانس الريب . حرام على الطعام والشراب حتى أسويها بالأرض هدما وإحراقاً . إن هذا الأمر لايصلح إلا بما صلح به أوله ، لين فى غير ضعف وشدة فى غير عنف وإنى أقسم بالله لآخذن الولى بالمولى والمقيم بالظاعن والمقبل بالمدبر والصحيح بالسقيم حتى يلقى الرجل منكم أخاه فيقول « انج سعد فقد هلك سعيد » أو تستقيم لى قناتكم . إن كذبة الأمير بلقاء مشهورة فاذا تعلقتم على بكذبة فقد حلت لكم معصيتى . من نقب منكم عليه فأنا ضامن لما ذهب له فاياى ودلج الليل فانى لا أوتى بمدلج إلا سفكت دمه . وقد أجلتكم فى ذلك بقدر ما يأتى الخبر الكوفة ويرجع اليكم . وإياى ودعوى الجاهلية فانى لا أجد أحداً دعا بها إلا قطعت لسانه . وقد أحدثتم أحداثاً لم تكن وقد أحدثت لكل ذنب عقوبة ، فمن أغرق قوما أغرقناه ومن أحرق قوما أحرقناه ومن نقب بيتاً نقبنا على قلبه ومن نبش قبراً دفناه فيه حياً ، فكفوا عنى ألسنتكم وأيديكم أكف عنكم يدى ولسانى ، ولا يظهرن من أحد منكم ريبة بخلاف ما عليه عامتكم إلا ضربت عنقه ، وقد كانت بينى وبين قوم إحن فجعلت ذلك دبر أذنى وتحت قدمى فمن كان محسناً فليزدد فى إحسانه ومن كان مسيئاً فلينزع عن إساءته ، وإنى لو علمت أن أحدكم قد قتله السل من بغضى لم أكشف له قناعا ولم أهتك له سترا حتى يبدى لى صفحته فان فعل ذلك لم أناظره ، فاستأنفوا أموركم وأعينوا على أنفسكم فرب مبتئس بقدومنا سيسر ومسرور بقدومنا سيبتئس . أيها الناس إنا أصبحنا لكم ساسة وعنكم ذادة

نسوسكم بسلطان الله الذى أعطانا ، ونذود عنكم بفىء الله الذى خولنا فلنا عليكم السمع والطاعة فيما أحببنا ، ولكم علينا العدل فيما ولينا فاستوجبوا عدلنا وفيئنا بمناصحتكم لنا ، واعلموا أنى مهما أقصر فيه فلن أقصر عن ثلاث لست محتجبا عن طالب حاجة ولو أتانى طارقا بليل ، ولا حابسا عطاء ولا رزقا عن إبانه ولا مجمرا لكم بعثا ، فادعوا الله بالصلاح لأئمتكم فانهم ساستكم المؤدبون لكم ، وكهفكم الذى اليه تأوون ، ومتى يصلحوا تصلحوا ، ولا تشربوا قلوبكم بغضهم فيشتدَ لذلك أسفكم ويطولَ له حزنكم ولا تدركوا حاجتكم ، مع أنه لو استجيب لكم فيهم لكان شراً لكم ، أسأل الله أن يعين كلا على كل ، وإذا رأيتمونى أنفذ فيكم أمرا فأنفذوه على أذلاله ، وايم الله إن لى فيكم لصرعى كثيرة فليحذر كل امرىء منكم أن من صرعاى ، ثم نزل .

وقدم الحجاج أميرا على العراق سنة خمس وسبعين بعد قتله ابن الزبير بالحجاز فدخل الكوفة بعد البصرة فصعد المنبر فمكث ساعة لا يتكلم حتى إذا رأى عيون الناس إليه ، حسر اللثام عن فيه ونهض فقال :

أنا ابن جلا وطلاعُ الثنايا متى أضع العمامة تعرفونى

يأهل الكوفة إنى لأرى رءوساً قد أينعت وحان قطافها وإنى لصاحبها وكأنى أنظر إلى الدماء بين العمائم واللحى .

هذا أوان الشد فاشتدى زِيم قد لفها الليل بسواق حُطم

ليس براعى إبل ولا غنم ولا بجزار على ظَهرِ وضم

ثم قال :

قد لفها الليل بعصلبى أروع خراج من الدوى مهاجر ليس بأعرابى

وقال :

قد شمرت عن ساقها فشدوا وجدت الحرب بكم فجدوا

والقوس فيه وتر عُرُدْ مثلُ ذراع البكر أو أشد

إنى والله يأهل العراق ما يُقعقَع لى بالشنان ولا يغمز جانبى كتغماز

التين ، ولقد فررت عن ذكاء وفتشت عن تجربة ، وإن أمير المؤمنين أطال بقاءه نثر كنانته بين يديه فعجم عيدانها فوجدنى أمرها عودا وأصلبها مكسرا فرماكم بى لأنكم طالما أوضعتم فى الفتنة واضطجعتم فى مراقد الضلال ، والله لأحزمنكم حزم السلمة ولأضربنكم ضرب غرائب الإبل ، فإنكم لكأهل قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله فاذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون . وانى والله ما أقول إلا وفيت ولا أهم إلا أمضيت ولا أقدر إلا قطعت ولا أخلق إلا فريت ، وإن أمير المؤمنين أمرنى بإعطائكم أعطياتكم وأن أوجهكم لمحاربة عدوكم مع المهلب بن أبى صفرة وإنى أقسم بالله لا أجد رجلا تخلف بعد أخذ عطائه بثلاثة أيام إلا ضربت عنقه .

ولما قدم مصعب بن الزبير العراق والياً عليها من قبل أخيه عبد الله ابن الزبير الخليفة بالحجاز ، وعبد الملك يومئذ خليفة بالشام صعد المنبر ثم قال : طسم تلك آيات الكتاب المبين نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون إن فرعون علا فى الأرض وجعل أهلها شيعا يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم إنه كان من المفسدين — وأشار بيده نحو الشام — ثم قال : ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين — وأشار بيده نحو الحجاز — ثم قال : ونمكن لهم فى الأرض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون — وأشار بيده نحو العراق ثم نزل .

ولما بلغ عبد الله بن الزبير قتل أخيه مصعب صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم سكت متأثراً ثم تكلم فقال : الحمد لله له الخلق والأمر والدنيا والآخرة يؤتى الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء ويعز من يشاء ويذل من يشاء . أما بعد فإنه لم يعز الله من كان الباطل معه وإن كان معه الأنام ، ولم يذل من كان الحق معه وإن كان فرداً . ألا وإن خبراً من العراق أتانا فأحزننا وأفرحنا . فأما الذى أحزننا فإن لفراق الحميم لوعة يحزن بها حميمه ، وأما الذى أفرحنا

فإن قتل المصعب له شهادة ولنا ذخيرة ، أسلمه النعام المصالم . ألا وإن أهل العراق باعوه بأقل من الثمن الذى كانوا يأخذون منه ، فإن يقتل فقد قتل أخوه وأبوه وابن عمه وكانوا الخيار الصالحين[1] ، إنا والله لن نموت حتفاً ولكن قصفاً بالرماح وموتاً تحت ظلال السيوف ، وليس كما يموت بنو مروان . ألا إنما الدنيا عارية من الملك الأعلى الذى لا يبيد ذكره ولا يذل سلطانه فإن تقبل علىّ لم آخذها أخذ الأشر البطر ، وإن تدبر عنى لم أبك عليها بكاء الخرق المهين . ثم نزل .

ودخل عبد الملك بن مروان الكوفة بعد أن قتل المصعب فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه وصلى على نبيه ثم قال . أيها الناس إن الحرب صعبة مرة وإن السلم أمن ومسرة ، وقد زيلتنا الحرب وزيناها فعرفناها وألفناها فنحن بنوها وهى أمنا . أيها الناس فاستقيموا على سبيل الهدى ودعوا الأهواء المردية وتجنبوا فراق جماعات المسلمين ولا تكلفونا أعمال المهاجرين الأولين وأنتم لا تعملون أعمالهم ولا أظنكم تزدادون بعد الموعظة إلا شراً ولن نزداد بعد الأعذار إليكم والحجة عليكم إلا عقوبة ، فمن شاء منكم أن يعود لمثلها فليعد فأنا مثلى ومثلكم كما قال قيس بن رفاعة .

من يَصِلْ نارى بلا ذنب ولا ترة ... يصل بنار كريم غير غدار
أنا النذير لكم منى مجاهرة ... كيلا ألامَ على نهىٍ وإنذار
فإن عصيتم مقالى اليوم فاعترفوا ... أن سوف تلقون خزياً ظاهر العار
لترجعن أحاديثاً ملعنة ... لهو المقيم ولهو المدلج السارى
من كان فى نفسه حوجاء يطلبها ... عندى فأنى له رهن بأصحار
أقيم عوجته إن كان ذا عوج ... كما يقوّم قِدح النبعة البارى
وصاحب الوتر ليس الدهرَ مدركه ... عندى وإنى لدراك لأوتارى

ولما خرج يزيد بن الوليد بن عبد الملك على ابن عمه الوليد بن يزيد ابن عبد الملك وقتله قام خطيباً فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أما بعد أيها

---

(١) يعنى أخاه المنذر وأباه الزبير وابن عمه عبد الرحمن .

الناس إنى ما خرجت أشراً ولا بطراً ولا حرصاً على الدنيا ولا رغبة فى الملك وما بى إطراء نفسى ولا تزكية عملى وإنى لظلوم لنفسى إن لم يرحمنى ربى ، ولكنى خرجت غاضباً لله ودينه وداعياً إلى كتابه وسنة نبيه ، حين درست معالم الهدى وطفىء نور أهل التقوى وظهر الجبار العنيد المستحل الحرمة والراكب البدعة والمغير السنة ، فلما رأيت ذلك أشفقت إذ غشيتكم ظلمة لا تقلع على كثير من ذنوبكم وقسوة من قلوبكم ، وأشفقت أن يدعو كثيراً من الناس إلى ما هو عليه فيجيبه من أجابه منكم ، فاستخرت الله فى أمرى وسألته أن يكلنى إلى نفسى ، وهو ابن عمى فى نسبى وكفئى فى حسبى فأراح الله منه العباد وطهر منه البلاد ، ولاية من الله وعزماً بلا حول منا ولا قوة ، ولكن بحول الله وقوته وولايته وعزته . أيها الناس إن لكم علىّ إن وليت أموركم ألا أضع لبنة على لبنة ولا حجراً على حجر ولا أنقل مالا من بلد إلى بلد حتى أسد ثغره وأقيم مصالحه ، مما تحتاجون إليه وتقوون به ، فإن فضل شىء رددته إلى البلد الذى يليه وهو من أحوج البلدان إليه حتى تستقيم المعيشة بين المسلمين وتكونوا فيه سواء ، ولا أحد يغويكم فتفتتنوا وتفتتن أهاليكم ، فإن أردتم بيعتى على الذى بينت لكم فأنا لكم به ، وإن ملت فلا بيعة لى عليكم ، وإن رأيتم أحداً أقوى عليها منى فأردتم بيعته فأنا أول من يبايعه ويدخل فى طاعته . أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم .

وخطب عمر بن عبد العزيز وهى آخر خطبة له ، قال بعد أن حمد الله وأثنى عليه : أيها الناس إنكم لم تخلقوا عبثاً ولم تتركوا سدى وإن لكم معاداً يحكم الله بينكم فيه . فخاب وخسر من خرج من رحمة الله التى وسعت كل شىء وحرم جنة عرضها السموات والأرض . واعلموا أن الأمان غدا لمن خاف اليوم وباع قليلا بكثير وفانياً بباق . ألا ترون أنكم فى أعقاب الهالكين وسيخلفكم من بعدكم الباقون حتى تردوا إلى خير الوارثين . ثم إنكم فى كل يوم تشيعون غادياً ورائحاً إلى الله ، قد قضى نحبه وبلغ أجله ،

ثم تغيبونه فى صدع من الأرض ثم تدعونه غير موسد ولا ممهد قد خلع الأثواب وفارق الأحباب وواجه الحساب ،غنياً عما ترك فقيراً إلى ما قدم ، وايم الله إنى لأقول لكم هذه المقالة وما أعلم عند أحد منكم أكثر مما عندى فأستغفر الله لى ولكم، وما تبلغنا حاجة يتسع لها ما عندنا إلا سددناها ولا أحد منكم إلا وددت أن يده مع يدى ولحمتى الذين يلوننى حتى يستوى عيشنا وعيشكم ، وايم الله إنى لو أردت غير هذا من عيش أو غضارة لكان اللسان به ناطقاً ذلولا عالماً بأسبابه ، ولكنه مضى من الله كتاب ناطق وسنة عادلة دل فيها على طاعته ونهى عن معصيته . ثم بكى وتلقى دموع عينيه بردائه ونزل فلم يخطب بعدها .

وخطب أبو حمزة الشارى بمكة فكان مما قال فى صفة أصحابه . يأهل مكة تعيروننى بأصحابى تزعمون أنهم شباب وهل كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا شبابا ، نعم الشباب مكتهلون عمية عن الشر أعينهم بطيئة عن الباطل أرجلهم ، قد نظر الله إليهم فى آناء الليل متثنية أصلابهم بمثانى القرآن ، إذا مر أحدهم بآية فيها ذكر الجنة بكى شوقا إليها وإذا مر بآية فيها ذكر النار شهق شهقة كأن زفير جهنم فى أذنيه ، قد وصلو كلال ليلهم بكلال نهارهم ، أنضاء عبادة قد أكلت الأرض جباههم وأيديهم وركبهم ، مصفرة ألوانهم ناحلة أجسامهم من كثرة الصيام وطول القيام مستقلون لذلك فى جنب الله موفون بعهد الله منجزون لوعد الله ، إذا رأوا سهام العدو قد فوقت ورماحهم قد أشرعت وسيوفهم قد أنضيت وبرقت الكتيبة ورعدت بصواعق الموت استهانوا بوعيد الكتيبة لوعيد الله ، فمضى الشاب منهم قُدما حتى تختلف رجلاه على عنق فرسه ،قد زملت محاسن وجهه بالدماء وعفر جبينه بالثرى وأسرعت إليه سباع الأرض وانحطت عليه طير السماء فكم من مقلة فى منقار طير طالما بكى صاحبها من خشية الله ، وكم من كف بانت عن معصمها طالما اعتمد عليها صاحبها فى سجوده ، وكم من خد عتيق وجبين رقيق قد فلق بعمد الحديد ،رحم الله تلك الأبدان وأدخل أرواحها فى الجنان .

(ب) حيـــاتها

إذا كنا قد رجعنا رقى الخطابة فى صدر الإسلام إلى ما ولع به القوم إذ ذاك من تقليدهم للقرآن الكريم والحديث الشريف ، وإلى ما مكنتهم منه قرائحهم من الإجادة فى هذا التقليد ثم إلى ما كان من دواع إلى القول دينية واجتماعية حينذاك ، فإن لنا أن نتنبأ لهذا الرقى زيادة وتقدما مدة العصر الأموى ، لأن كل ناحية من هذه النواحى الثلاث قد نالها ما رفع من شأنها وعظم من أمرها فجعل ثمارها أشد نضوجا وأكلها أكثر مقدارا .

ففى ناحية القرآن والحديث لم يكن القوم فى صدر الإسلام قد أتموا استيعاب معناهما وتشرب روحهما وتجويد حفظهما ، لما كان عليه العهد من قصر ولما شغلوا به خلاله من الجهاد والغزو والتوسع فى الفتح ، ولكن العهد الأموى قد نشر فيه القرآن نشرا وذاع ذيوعا ، فبعد أن كتب عثمان المصاحف ووزعها على الأمصار ، عمل خلفاء بنى أمية على الإكثار من استنساخها ، فعكف الناس على حفظه ودراسته ، وكذلك كان الشأن فى الحديث وساعدهم على هذا ما صاروا إليه من عدم الانهماك فى القتال ووقوف حدة الغزو والجهاد ، هذا إلى ما سنه معاوية واتبعه فيه الخلفاء من عدم قصر الوعظ والإرشاد على الأئمة والولاة ، إذ رتب أناسا يعظون فى المساجد وما كان معتمد هؤلاء الوعاظ إلا على القرآن والحديث يتخذونهما إماما وينتزعون منهما انتزاعا ، وإلى ما جر إليه العمل على نشر الدين فى البلاد المفتوحة من تحليق حلقات العلم فى المساجد تتلقى فيها تعاليم الدين وما تحتاج إليه هذه التعاليم من لغة الدين .

وفى ناحية القرائح والملكات كان الجبل الناشىء فى الإسلام ، والمربى منذ وجوده فى أحضانه ، والدارس منذ درس فى الكتاب والسنة ، أقدر على استخراج معانيهما واستخدام أساليبهما وفى ذلك من تنمية القرائح وتوسعة الملكات ما فيه ، على أن لهذا النمو وتلك السعة ناحية ثانية لا يجوز إغفالها أو التغاضى عن ذكر أثرها ، هى مخالطة أبناء العرب لأبناء الأمم المفتوحة

من الفرس والروم والقبط، وما منها إلا ذات علم وفلسفة وحضارة وتقدم، شهد لها أبناء العرب الناز حون الآثار الشاهدة والأدلة الناطقة.

أما الدواعى الدينية والاجتماعية فقد بقى منها فى هذا العهد ما كان، ثم صحبتها دواع سياسية ذات امتداد وشمول، لم تدع جانبا الا هزته ولا قلبا الا دخلته. فالأمويون أصحاب الملك والسلطان ذوو حاجة ماسة فى تثبيته والدفاع عنه الى أن يقول خلفاؤهم وء لاتهم وأتباعهم وأشياعهم، والعلويون ومن ورائهم العباسيون أحوج الى القول دفاعا عن حق مغصوب وتطلعا الى مستقبل مأمول، والزبيريون وقد سنح لهم أول هذا العهد ملك وسلطان كانوا فئة لا الى هؤلاء ولا الى هؤلاء يعنون بأنفسهم ويطلبون النفوذ لخاصتهم، والخوارج خوارج على هؤلاء جميعيا يرون فيهم جورا وفى الحكومات القائمة انحرافا وظلما، وقد وصلوا فى خروجهم هذا الى أن كانت لهم شوكة وحدة، ودولة وصولة، ذات خلفاء وجيوش، طالما قاتلوا أئمة البغى — على اعتقادهم — وناصبوا الدول القائمة العداء وهزوا بصولجانهم عروش ملوكها الأقوياء.

لهذا كان للنثر عامة وللخطابة خاصة دولة فى هذا العهد أى دولة ومنزلة أسم بها من منزلة، ووجد فى هذه الفئات الأربع خطباء مصاقع وألداء مقاول، ولكنهم كانوا يختلفون كثرة وقلة باختلاف الظروف المواتية والفرص المساعدة، فمن الأمويين وأتباعهم، معاوية وعتبة وزياد أخواه وعبد الملك وأبناؤه والحجاج وعمر بن عبد العزيز وروح بن زنباع وغيرهم كثير، والعلويون وشيعهم وأبناء عمهم العباسيون لا يحصون كثرة رجالا ونساء، كالحسن والحسين ابنى على، وزيد بن على، وعبد الله بن حسن وعبد الله بن معاوية بن عبد الله، والكميت بن زيد، وكعبد الله بن عباس وحفيده داود بن على وسائر إخوته، ومن آل الزبير عبد الله بن الزبير وأخوه المصعب، ومن الخوارج — وكلهم خطيب — قطرى بن الفجاءة وعمران بن حطان وأبو حمزة الشارى وغيرهم. على أنه كانت هناك فئة

تعتبر خطباء مذهب وعقيدة لا سياسة وسلطان ، منهم الحسن البصرى وواصل بن عطاء وكلاهما كان علماً من أعلام البيان ، فواصل وهو ألثغ بالراء كان يتجنبها على كثرة دورانها فى الكلام فيأتى مع ذلك بالعجب العجاب ، والحسن يقول الجاحظ فيه « فاما الخطب فانا لا نعلم أحداً يتقدم الحسن البصرى فيها » ويقول الحجاج يريده وقد سئل : من أخطب الناس ؟ فقال « صاحب العمامة السوداء بين أخصاص البصرة » .

ولقد ظهر فى خطب هؤلاء جميعا من الأجادة ما خلع على خطابة هذا العصر ثوباً قشيباً ، وأظهر ماكان من مزاياها فى صدر الاسلام بارزا مجسما ، وحسبك أن تذكر هنا مضاعفا كل مامضى هناك حتى تكون وافقت الحقيقة وأصبت السداد ، من فصاحة فى الألفاظ ، وبلاغة فى المعانى ، وتنويع فى الأساليب ، وتأثير فى النفوس ، وحسن استخدام للقرآن إلى درجة أن كان بعض الخطباء ينتزع منه خطبته كلها فيصيب بها ما يريد وفوق ما يريد كما فى خطبة مصعب بن الزبير التى خطبها أول ولايته العراق من قبل أخيه ، وكذلك كان الاستشهاد بالشعر وقد سبق واضحاً فى خطبة لعبد الملك بن مروان ، غير أن الاستشهاد بهما لم يكن فى جميع المواطن سواء ، فحيث يراد الدين كان القرآن أغلب على الشعر كما كان فى صدر الأسلام ، أما حيث تراد السياسة فقد كان الشعر أطوع لرجالها ، لأنها كانت نزاعة فى هـذا العصر إلى الشدة غير متحرجة من الطغيان ، ولذا نجد الألفاظ فى هذا النوع من الخطب أصلب عودا وأشد مكسرا ، والتراكيب أوضح جزالة وأكثر ضخامة ، نزولا على ماتقتضيه المعانى فى الوعد والوعيد والتحذير والتهديد والسب والشتم والتوبيخ والذم . وهذه ظاهرة ترى فى خطب هذا العصر ، وإن فيما قدمنا من خطب لنماذج لها وبخاصة خطب زياد والحجاج ، ولعلها كانت - فوق حوادث العصر - نتيجة للسنة التى استنها معاوية من لعن علىّ على المنابر ، واتبعه فيها من بعده الخلفاء ، إلا ماكان من عمر ابن عبد العزيز الذى أبطلها ونهى عن المضى فيها .

وكما كانت الخطابة شائعة على ألسنة من ذكرنا ، كانت كذلك شائعة فى القبائل على اختلاف أصقاعها ، فلا تزال وفودها تخرج من البادية إلى دمشق ، مقر الخلافة والسلطان وإلى سائر العواصم مقر الولاة والحكام ، لتهنئة أو تعزية أو استنجاد أو استجداء أو عظة أو غير ذلك مما تقدم من أجله الوفود ، فيتسابق شباب الحضر إلى أولئكم البدو لاستماع خطبهم واقتباس أساليبهم .

ولقد بقى للخطابة والخطباء فى هذا العصر ماعددنا لها ولهم من عادات فى صدر الإسلام ، الذى ورثها عن خطباء الجاهليين ، إلا ماكان من عادة القيام فقد استمرت مرعية حتى ولى الخلافة الوليد بن عبد الملك فخطب جالسا واتبعه فى ذلك من جاء بعده ، ولعل الدافع له على تلك المخالفة ، رغبته جملة عن مواقف الخطابة ، وعدم اعتداده بالاحتفال بها لما كان يعتريه من اللحن الذى يشوه قوله ويلفت الأنظار نحوه .

هذا وقبل أن نغادر الخطابة إلى الكتابة ندلى بكلمة موجزة عن نوع جديد من أدب هذا العصر جاء ألصق بالخطابة من غيرها كما يتضح ذلك من نماذجه ومن الكلام عليه بعد ، وهو الأجوبة والمحاورات .

الأجوبة والمحاورات

هى ضرب جديد إلى حد ما من الأدب ظهر فى العصر الأموى ظهورا ملأ الأسماع وامتلك القلوب ، أحيته الخلافات السياسية والمذهبية التى كانت أهم دواعى الخطابة فيه ، فأدى بلغة هى أقرب ماتكون إلى لغة الخطابة نفسها ، وإن شئت فقل إنه خطب المفاخرات والمنافرات الجاهلية بعينها ولكنها أخذت اسما آخر هو الأجوبة والمحاورات لما فى التسمية الأولى من عدم الاتفاق مع الدين ، الذى نهى عن تفاخر الجاهلية وتنافرها لقيامه على عصبيتها ونعرتها والدعاء عن جهل وسفه بدعوتها ، فهى شىء

قديم ظهر فى ثوب جديد ولذا قلنا فى وصفه بالجدة آنفا « جديد إلى حد ما » وهل من فرق بين خطبة التفاخر والجواب يساق تباعا ، أو بين خطبة التنافر والمحاورة تأتى على حسب السؤال شيئا فشيئا اللهم لا فليست الأجوبة والمحاورات سوى المفاخرات والمنافرات توارت إلا بصيصا فى صدر الاسلام ، لقوة الوازع الدينى فى النفوس وصرامة القائمين على أمره من الحكام مع قلة الخلاف السياسى وانهماك الأمة جميعا فى الغزو والجهاد ، حتى إذا مازالت هذه الأشياء فى العهد الأموى أوكادت ، ظهرت الظهور الذى وصفناه فكانت من فروع الأدب ذى الخطر والمنزلة لأنها أصعب الكلام مركبا وأعزه مطلبا ، فيها يناجى القائل الفكرة مستعملا البديهة دون الروية فيأتى بما ينقض قولا ويفحم خصما . ولقد بقى هذا النوع ذا مكانة وشرف طوال القرنين الأولين من الهجرة تقريبا ، غير أنه كان فى أولها أصوب معنى وأوجز لفظا وأكثر كما وأشرف فوما ، وكانت قريش فيه أحضر العرب بديهة وأسرعها عند السؤال جوابا .

وفيما ذكرنا من أوجه الخلاف فى العهد الأموى ، ترى الأودية التى سال فيها هذا النوع من الكلام منذ عهد معاوية الذى فتح لها الباب على مصراعيه ، إذ كانت سياسته قائمة على التغاضى عن القول والتحلم إزاء التزيد ، وله فى هذا الحكم البليغة المأثورة التى تقدم شىء منها ، والقصص الكثيرة المعروفة . وهذا شطر منها بينه وبين الهاشميين ومن شايعهم وبخاصة شيعة العلويين ثم بينه وبين الزبيريين أيضا ، وبعده نسوق بعض مثل عما كان منه لغير هؤلاء فى سائر العصر .

لما اعتزل عقيل بن أبى طالب أخاه عليا كرم الله وجهه لاشتداد فقره وحرص على ، إلى معاوية ذى المال الوافر والعطاء الجزل فأكرمه وقضى حوائجه ، قال له أنا خير لك من أخيك على فقال له صدقت إن أخى آثر دينه على دنياه وأنت قد آثرت دنياك على دينك فأنت خير لى من أخى وأخى خير لنفسه منك ، وقال له يوما إن عليا غير حافظ لك ، قطع قرابتك

وما وصلك ولا اصطنعك ، فقال له عقيل والله لقد أجزل العطية وأعظمها ووصل القرابة وحفظها ولكنه حفظ أمانته إذ خنتم ، وأصلح رعيته إذ أفسدتم ، وحسن ظنه بالله إذ ساء به ظنك ، فاكفف لا أبالك فانه عما تقول بمعزل .

واجتمعت قريش الشام والحجاز عنده يوما وفيهم عبد الله بن عباس وكان جريئا عليه حقارا له ، فبلغه عنه بعض ماغمه فقال له : رحم الله أبا سفيان والعباس كانا صفيين دون الناس ، فحفظت الميت فى الحى والحى فى الميت ، استعملك على يابن عباس على البصرة واستعمل عبيد الله أخاك على اليمن واستعمل أخاك قثم على مكة وأخاك ثماما على المدينة ، فلما كان من الأمر ما كان هنأتكم مافى أيديكم ولم أكشفكم عما وعت غرائركم وقلت آخذ اليوم وأعطى غدا مثله ؟ وعلمت أن بدء اللؤم يضر بعاقبة الكرم ، ولو شئت لأخذت بحلاقيمكم وقيأتكم ما أكلتم ، لايزال يبلغنى عنكم ماتبرك له الأبل ، وذنوبكم الينا أكثر من ذنوبنا اليكم ، خذلتم عثمان بالمدينة وقتلتم أنصاره يوم الجمل وحاربتمونى بصفين ولعمرى لبنو تيم وعدى أعظم ذنوبا منا اليكم إذ صرفوا عنكم هذا الأمر وسنوا فيكم هذه السنة ، فحتى متى أغضى الجفون على القذى وأسحب الذيول على الأذى وأقول لعل الله وعسى ؟ ماتقول يابن عباس ، فتكلم ابن عباس فقال : رحم الله أبانا وأباك كانا صفيين متفاوضين لم يكن لأبى من مال إلا ما فضل لأبيك وكان أبوك كذلك لأبى ، ولكن من هنأ أباك بأخاء أبى أكثرهم هنأ أبى بأخاء أبيك ، نصر أبى أباك فى الجاهلية وحقن دمه فى الاسلام . وأما استعمال على إيانا فلنفسه دون هواه وقد استعملت أنت رجالا لهواك لا لنفسك ، منهم ابن الحضرمى على البصرة فقتل ، وبشر بن أرطاة على اليمن فخان ، وحبيب بن مرة على الحجاز فرد ، والضحاك بن قيس على الكوفه فخصب ، ولو طلبت ماعندنا وقينا أعراضنا ؛ وليس الذى يبلغك عنا بأعظم من الذى يبلغنا عنك ، ولو وضع أصغر ذنوبكم الينا على مائة حسنة لمحقها ، ولو وضع أدنى

عذرنا اليكم على مائة سيئة لحسنها . وأما خذلنا عثمان فلو لزمنا نصره لنصرناه وأما قتلنا أنصاره يوم الجمل فعلى خروجهم مما دخلوا فيه ، وأما حربنا إياك بصفين فعلى تركك الحق وادعائك الباطل ، وأما إغراؤك إيانا بتيم وعدى فلو أردناها ماغلبونا عليها ـ وسكت ـ فقال فى ذلك ابن أبى لهب :

كان ابن حرب عظيم القدر فى الناس ... حتى رماه بما فيه ابن عباس
ما زال يهبطه طورا ويصعده ... حتى استقاد وما بالحق من باس
لم يتركن خطة مما يذلله ... إلا كواه بها فى فروة الراس

ودخل الحسين بن على عليه يوما وعنده جماعة من قريش فيهم عبد الله ابن الزبير، فرحب به وأجلسه على سريره وقال له ترى هذا القاعد (يعنى ابن الزبير) فانه ليدركه الحسد لبنى عبد مناف ، فقال ابن الزبير لمعاوية قد عرفنا فضل الحسين وقرابته من رسول الله صلى الله عليه وسلم لكن إن شئت أعلمتك فضل الزبير على أبيك أبى سفيان ، فقال معاوية قاتلك الله يابن الزبير ما أعياك وأبغاك ، أنفخر بين يدى أمير المؤمنين وأبى عبد الله ، إنك أنت المتعدى لطورك الذى لاتعرف قدرك فقس شبرك بفترك ثم تعرف كيف تقع بين عرانين بنى عبد مناف ، أما والله لئن دفعت فى بحور بنى هاشم وبنى عبد شمس لتقطعنك بأمواجها ثم لتوهين بك فى أجاجها فما بقاؤك فى البحور إذا غمرتك وفى الأمواج إذا بهرتك ، هنالك تعرف نفسك وتدم على ما كان فى جراتك وتمنى ما أصبحت فيه من أمان وقد حيل بين العير والنزوان . فاطرق ابن الزبير مليا ثم رفع رأسه فالتفت إلى من حوله فقال : أسالكم بالله أتعلمون أن أبى حوارى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأن أبا سفيان حارب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأن أمى أسماء بنت أبى بكر الصديق وامه هند آكلة الأكباد ، وجدى الصديق وجده المشدوخ ببدر وراس الكفر ، وعمتى خديجة ذات الخطر وعمته أم جميل حمالة الحطب ، وجدتى صفية وجدته حمامة ، وزوج عمتى خير ولد آدم محمد صلى الله عليه وسلم وزوج عمته شر ولد آدم أبو لهب سيصلى نارا ذات لهب

وخالتى عائشة أم المؤمنين ، وخالته أشقى الأشقين ، وأنا عبد الله وهو معاوية .

فقال له معاوية ويحك يابن الزبير كيف تصف نفسك بما وصفتها ، والله مالك فى القديم من رياسة ولا فى الحديث من سياسة ، ولقد قدناك وسدناك قديما وحديثا ، لا تستطيع لذلك إنكاراً ولا عنه فراراً ، وإن هؤلاء الحضور ليعلمون أن قريشاً قد اجتمعت يوم الفجار على رياسة حرب ابن أمية ، وأن أباك وأسرتك تحت رايته ، راضون بإمارته ، غير منكرين لفضله ، ولا طامعين فى عزله ، إن أمر أطاعوا وإن قال أنصتوا فلم تزل فينا القيادة وعز الولاية حتى بعث الله عز وجل محمداً صلى الله عليه وسلم فانتخبه من خير خلقه ، من أسرتى لا أسرتك وبنى أبى لا بنى أبيك ، فجحدته قريش أشد الجحود ، وأنكرته أشد الإنكار ، وجاهدته أشد الجهاد ، إلا من عصم الله منها ، فما ساد قريشاً وقادهم الا ابو سفيان بن حرب ، فكانت الفئتان تلتقيان ورئيس الهدى منا ورئيس الضلالة منا ، فهديكم تحت راية مهدينا وضالكم تحت راية ضالنا ، فنحن الأرباب وانتم الأذناب حتى خلص الله أبا سفيان ابن حرب بفضله ، من عظيم شركه وعصمه بالإسلام من عبادة الأصنام فكان فى الجاهلية عظيما شأنه وفى الإسلام معروفا مكانه ، ولقد أعطى يوم الفتح ما لم يعط احد من آبائك وإن منادى رسول الله صلى الله عليه وسلم نادى « من دخل المسجد فهو آمن ومن دخل دار ابى سفيان فهو آمن » فكانت داره حرما لادارك ولا دار أبيك ، وأما هند فكانت امراة من قريش ، فى الجاهلية عظيمة الخطر وفى الإسلام كريمة الخبر ، وأما جدك الصديق فبتصديق عبد مناف سمى صديقاً لا بتصديق عبد العزى ، وأما ما ذكرت من جدى المشدوخ ببدر فلعمرى لقد دعا إلى البزار هو واخوه وابنه ، فلو برزت اليهم انت وابوك ما بارزوكم ولا رأوكم لهم أكفاء ، كما قد طلب ذلك غيركم فلم يقبلوهم حتى برز اليهم أكفاؤهم من بنى أبيهم ، فقضى الله منايا هم بأيديهم فنحن قتلنا ونحن قتلنا وما أنت وذاك . وأما عمتك أم المؤمنين فبنا شرفت

وسميت أم المؤمنين ، وخالتك عائشة مثل ذلك ، وأما صفية فهى التى أدنتك من الظل ولولا هى لكنت ضاحياً . وأما ماذكرت من بنى عمتك وخال أبيك سيد الشهداء ، فكذلك كانوا رحمهم الله ، وفخرهم وإرثهم لى دونك ، ولافخرلك فيهم ، ولاإرث بينك وبينهم . وأما قولك أنا عبدالله وهومعاوية فقد علمت قريش أينا أجود فى الأزم وأحزم فى القدم وأمنع للحرم ، لاوالله ما أراك منتهيا حتى تروم من بنى عبد مناف مارام أبوك ، فقد طالبهم الذحول وقدم إليهم الخيول ، وخدعتم أم المؤمنين ولم تراقبوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إذ مددتم على نسائكم السجوف وأبرزتم زوجه للحتوف ومقارعة السيوف ، فلما التقى الجمعان نكص أبوك هاربا فلم ينجه ذلك أن طحنه أبو الحسين بكلكله طحن المحصيد بأيدى العبيد ، وأما أنت فأفلت بعد أن خمشتك براثينه ونالتك مخاليبه ، وايم الله ليقومنك بنو عبد مناف بثقافها ، أو لتصبحن منها صباح أبيك بوادى السباع ، وماكان أبوك المدهن حده ولكنه كما قال الشاعر .

تناول سرحان فريسة ضيغم فقضقضه بالكف منه وحطما

ومما كان بين معاوية وغير العلويين ولكنه لهم ، ما روى من أنه كان جالسا وعنده وجوه الناس فدخل رجل من أهل الشام فقام خطيبا فكان آخر كلامه أن لعن عليا فأطرق الناس وكان الأحنف بن قيس حاضراً فقال ، يا أمير المؤمنين إن هذا القائل ، ما قال ما قال آنفا إلا برضاك ، ولو يعلم أن رضاك فى لعن المرسلين لعنهم ، فاتق الله ودع عنك عليا فقد لقى ربه وأفرد فى قبره وخلا بعمله ، وكان والله المبرز سيفه الطاهر ثوبه الميمون نقيبته العظيم مصيبته . فقال معاوية يا أحنف لقد أغضيت العين على القذى ، وايم الله لتصعدن المنبر فتلعنن عليا طوعا أو كرها ، فقال له الأحنف إن تعفنى فهو خير لك ، وإن تجبرنى فوالله لانجرى فيه شفتاى أبداً ، قال قم فاصعد المنبر فقال الأحنف أما والله مع ذلك لأنصفنك فى القول والفعل ، قال وما أنت قائل يا أحنف إن أنصفتنى ، قال أصعد المنبر فاحمد الله بما هو أهله وأصلى

على نبيه صلى الله عليه وسلم ثم أقول ، أيها الناس إن أمير المؤمنين معاوية أمرنى أن ألعن عليا ، وإن عليا ومعاوية اختلفا فاقتتلا وادعى كل واحد منهما أنه بغى عليه وعلى فئته، فإذا دعوت فأمنوا رحمكم الله ، ثم أقول اللهم العن أنت وملائكتك وأنبياؤك وجميع خلقك الباغى منهما على صاحبه ، والعن الفئة الباغية اللهم العنهم لعنا كبيرا ، أمنوا رحمكم الله لا أزيد على هذا ولا أنقص منه حرفا ، ولو كان فيه ذهاب نفسى ، فقال معاوية إذن نعفيك يا أبا بحر .

ولقد كان معاوية يدعو إلى هذه المنافرات بنفسه ، ثم يطفىء جذوتها بماء حلمه ، حتى فى أنصار على من غير أبنائه وبنى هاشم وحتى فى النساء لا فى الرجال ، كتب إلى عامله بالكوفة ، أن يحمل إليه أم الخير بنت الحريش بن سراقة البارقى مكرمة ، وكانت ذات خطبة من نار فى تحريض جيش على ضد معاية وفئته ، عقب أن قتل عمار بن ياسر فى بعض أيام صفين ، فلما وصلته أنزلها على الحرم ثلاثة أيام ثم أدخلها عليه فى اليوم الرابع وعنده جلساؤه فقالت السلام عليك يا أمير المؤمنين ، فقال لها وعليك السلام يا أم الخير ، بحق ما دعوتنى بهذا الاسم ؟ قالت لكل أجل كتاب قال صدقت بحسن نيتى ظفرت بكم ، قالت ياأمير المؤمنين يعيذك الله من دحض المقال وماتودى عاقبته قال ليس هذا أردنا ، أخبرينا كيف كان كلامك إذ قتل عمار بن ياسر ، قالت لم أكن زبرته قبل ولا رويته بعد ، إنما كانت كلمات نفثها لسانى عند الصدمة فإن أحببت أن أحدث لك مقالا غير هذا فعلت ، فالتفت معاوية إلى بعض الحاضرين فذكر كلامها ، فقال لها يا أم الخير ماأردت بهذا الكلام الا قتلى ، ولو قتلتك ما حرجت فى ذلك ، قالت والله ما يسوءنى أن يجرى قتلى على يدى من يسعدنى الله بشقائه قال هيهات يا كثيرة الفضول ، ماتقولين فى عثمان رحمه الله ، قالت وما عسيت أن أقول ، استخلفه الناس وهم به راضون وقتلوه وهم له كارهون ،قال هذا ثناؤك الذى تثنين؟ قالت الله يشهد وكفى بالله شهيدا ما أردت بعثمان نقصاً ولقد كان سابقاً إلى الخير وإنه لرفيع

الدرجة غدا ، قال فما تقولين فى الزبير قالت وما أقول فى ابن عمة رسول الله وحواريه ، وقد شهد له صلى الله عليه وسلم بالجنة ، وأنا أسألك بحق الله يا معاوية — فإن قريشا تحدثت أنك أحلمها — أن تعفينى من هذه المسائل وتسألنى عما شئت من غيرها ، قال نعم ونعمة عين ، قد أعفيتك ثم أمر لها بجائزة رفيعة وردها مكرمة .

ولما انتقلت الخلافة من البيت السفيانى إلى المروانى كانت بين البيتين محاورات ومنافرات . روى أن عبد الله بن يزيد بن معاوية أتى أخاه خالدا فقال ، يا أخى لقد هممت اليوم أن أفتك بالوليد بن عبد الملك ، فقال له خالد بئس والله ماهممت به فى ابن أمير المؤمنين وولى عهد المسلمين ، فقال إن خيلى مرت به فعبث بها وأصغرنى ، فقال أنا أكفيك ، ثم دخل على عبد الملك والوليد عنده فقال يا أمير المؤمنين الوليد ابن أمير المؤمنين ، مرت به خيل ابن عمه عبد الله بن يزيد فعبث بها وأصغره ، وكان عبد الملك مطرقا فرفع رأسه فقال « إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون » فقال خالد « وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا » فقال عبد الملك أفى عبد الله تكلمنى والله لقد دخل على فما أقام لسانه لحنا فقال له خالد ، أفعلى الوليد تعول ، فقال عبد الملك إن كان الوليد يلحن فإن أخاه سليمان ، فقال خالد وإن كان عبد الله يلحن فإن أخاه خالد ، فقال الوليد اسكت يا خالد فو الله ما تعد فى العير ولا فى النفير ، فقال خالد اسمع يا أمير المؤمنين ثم أقبل عليه وقال ومن فى العير والنفير غيرى ؟ جدى أبو سفيان بن حرب صاحب العير ، وجدى عتبة بن ربيعة صاحب النفير ، ولكن لو قلت ، غنيمات وحبيلات والطائف ورحم الله عثمان لقلنا صدقت .

ودخل يزيد بن أبى مسلم على سليمان بن عبد الملك وكان دميما فلما رآه قال ، قبح الله رجلا أجرك رسنه وأشركك فى أمانته ، فقال له يزيد يا أمير المؤمنين رأيتنى والأمر لك وهو عنى مدبر ، ولو رأيتنى والأمر على مقبل ، لاستكبرت منى ما استصغرت ، واستعظمت منى ما استحقرت ، فقال

فقال أترى الحجاج استقر فى قعر جهنم بعد قال ، يا أمير المؤمنين لا تقل ذاك ، فإن الحجاج وطأ لكم المنابر وأذل لكم الجبابر ، وهو يجىء يوم القيامة عن يمين أبيك وعن يسار أخيك فحيث كانا كان .

وعلى ذكر الحجاج ويزيد بن أبى مسلم ، نذكر ما كان من يوسف بن سليك بن سلكة وقد دخل على الحجاج يوما ، وهو من الحوار الموجز المقنع ، فقال أصلح الله الأمير ، أرعنى سمعك ، واغضض عنى بصرك ، وأكفف عنى غربك ، فإن سمعت خطأ أو زللا فدونك والعقوبة ، قال قل ، فقال ، عصى عاص من عرض العشيرة فحلق على اسمى وهدم منزلى وحرمت عطائى قال هيهات أو ما سمعت قول الشاعر

جانيك من يجنى عليك وقد ... تعدى الصحاح مبارك الجرب
ولرب مأخوذ بذنب عشيرة ... ونجا المقارف صاحب الذنب

قال أصلح الله الأمير ، ولكنى سمعت الله عز وجل قال غير هذا ، قال وما ذاك فقال قال « يا أيها العزيز إن له أباشيخا كبيرا فخذ أحدنا مكانه إنا نراك من المحسنين ، قال معاذ الله أن نأخذ الا من وجدنا متاعنا عنده إنا اذا لظالمون ، فقال الحجاج عل بيزيد بن أبى مسلم فمثل بين يديه ، فقال افكك لهذا عن اسمه وصكك له بعطائه وابن له منزله ، ومر مناديا ينادى فى الناس صدق الله وكذب الشاعر .

هذا وباب الأجوبة والمحاورات حافل فلنقف منه عند هـــذا القدر الذى أوردناه .

٢ — الكتابة

١ — نماذجها

كان الحسن بن على رضى الله عنهما ، قد كتب إلى زياد فى رجل من شيعته وكان عنوان الكتاب ، من الحسن بن على إلى زياد فغضب زياد إذ قدم نفسه عليه ولم ينسبه الى أبى سفيان ، وعرض للرجل فحال بينه وبين ما يملك وكتب الى الحسن يقول . « من زياد بن أبى سفيان الى حسن ، أما بعد فانك كتبت الى فى فاسق لا يؤويه الا الفساق وايم الله لأطلبنه ولو بين جلدك ولحمك ، فانى أحب أن آكل لحما أنت منه » فكتب الحسن إلى معاوية فى ذلك وأدرج كتاب زياد داخل كتابه ، فلما قرأ معاوية الكتابين أكثر التعجب من زياد وكتب اليه :

أما بعد فان لك رأيين أحدهما من أبى سفيان والآخر من سمية ، فأما الذى من أبى سفيان فحزم وعزم ، وأما الذى من سمية فكما يكون رأى مثلها وإن الحسن بن على كتب إلى يذكر أنك عرضت لرجل من أصحابه ، وقد حجزناه عنك ونظراءه فليس لك على واحد منهم سبيل ولا عليه حكم ، وعجبت منك حين كتبت إلى الحسن لا تنسبه إلى أبيه أفالى أمه وكلته لا أم لك فهو ابن فاطمة الزهراء ابنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فالآن حين اخترت له .

وكتب عبد الرحمن بن الأشعث وقت خروجه على عبد الملك كتاباً اليه ، ليس فيه سوى هذه الأبيات الثلاثة :

سائلْ مُجاوِرَ جَرَمٍ هل جنيتُ لها ضرباً يُزيِّل بين الجيرة الخلط
وهل سمعتُ بجارٍ له لجب جم الصواهل بين الجم والفرط
وهل تركتُ نساء الحى ضاحيةً فى ساحةِ الدار يستوقدن بالغبط

وتحتها هذا البيت الرابع :

قتلَ الملوك وصار تحت لوائه شجرُ العرا وعراعرُ الأقوام

فكان جواب عبد الملك إليه هذه الأبيات الأربعة :

ما بال من أسعى لأجبر عظمه حفاظاً فينوى من سفاهته كسرى
أظن خطوط الدهر يبنى بينهم ستحملهم منى على مركب وعر
وإنى وإياهم كمن نبـــه القطا ولو لم تنبه باتت الطير لا تسرى
أناة وحلما وانتظاراً بهم غـــدا فما أنا بالوانى ولا الضرع الغمر

واتصل بعروة بن الزبير وهو عامل على اليمن من قبل الحجاج لعبد الملك بن مروان أن الحجاج جمع على مطالبته بالأموال التى بيده ، وعزله عن عمله ففر إلى عبد الملك وعاذ به تخوفاً من الحجاج ، واستدفاعا لضره ، فلما بلغ ذلك الحجاج كتب إلى عبد الملك .

أما بعد فإن لوذان المعترضين بك وحلول الجانحين إلى النكث بساحتك واستلانتهم دمث أخلاقك وسعة عفوك ، كالعارض المبرق لأعدائه لا يعدم له شائماً ، رجاء استمالة عفوك ، وإذا أدنى الناس بالصفح عن الجرائم كان ذلك تمريناً لهم على إضاعة الحقوق مع كل ضال والناس عبيد العصا هم على الشدة أشد استباقامنهما على اللين ، ولنا قبل عروة مال من مال الله وفى استخراجه منه قطع لطمع غيره ، فليبعث به أمير المؤمنين إن رأى ذلك والسلام .

فكتب إليه عبد الملك أما بعد فإن أمير المؤمنين رآك مع ثقته بنصيحتك تخبط فى السياسة خبط عشواء الليل ، فإن رأيك الذى يسول لك أن الناس عبيد العصا هو الذى أخرج رجالات العرب إلى الوثوب عليك ، وإذا أحرجت العامة بعنف السياسة كانو أوشك وثوباً عليك عند الفرصة ثم لا يلتفتون إلى ضلال الداعى ولا هداه إذ رجوا بذلك إدراك

الثأر منك ، وقد وليت العراق قبلك ساسة وهم يومئذ أحمى أنوفا وأقرب إلى عمياء الجاهلية وكانوا عليهم أصلح منهم عليك ، وللشدة واللين أهلون ، والأفراط فى العفو أفضل من الأفراط فى العقوبة والسلام .

وكتب الحجاج الى قطرى بن الفجاة وهو رئيس الخوارج . بسم الله الرحمن الرحيم من الحجاج بن يوسف إلى قطرى بن الفجاءة ، سلام عليك الموحد الله والمصلى عليه محمد عليه السلام أما بعد فانك كنت أعرابيا بدويا تستطعم الكسرة وتخف إلى التمرة ، ثم خرجت تحاول ما ليس لك بحق ، واعترضت على كتاب الله ومرقت من سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فارجع عما أنت فيه بما زين لك وادعنى فقد آن لك . فكان جوابه . بسم الله الرحمن الرحيم من قطرى بن الفجاءة إلى الحجاج بن يوسف ، سلام على من اتبع الهدى ذكرت فى كتابك أنى كنت بدوياً أستطعم الكسرة وأبدر إلى التمرة وبالله لقد قلت زورا بل الله بصرنى من دينه ما أعماك عنه ، إذ أنت سائح فى الضلالة غرق فى غمرات الكفر ، وذكرت أن الضرورة طالت بى فهلا برز لى من حزبك من نالى الشبع ، واتكأ فاتدع ، أما والله لئن أبرز الله صفحتك وأظهر لى صلعتك ، لتنكرن شيعتك ولتعلمن أن مقارعة الأبطال ليست كتسطير الأمثال .

ولما طاب الوليد بن عبد الملك من الحجاج أن يصف له سيرته كتب إليه الحجاج . إنى أيقظت رأيى وأنمت هواى فأدنيت السيد المطاع فى قومه وواليت الحرب الحازم لأمره ، وقلدت الخراج المؤثر لأمانته وصرفت السيف إلى النطف المسىء تخاف المريب صولة العقاب وتمسك المحسن بحظه من الثواب

وأذنب كعب العبسى إلى الوليد بن عبد الملك ذنبا فطلب إلى عروة بن الزبير أن يكتب إليه مستشفعاً فكتب عروة . لو لم يكن لكعب من قديم حرمته ما يغفر له عظيم جريرته ، لوجب ألا تحرمه التفيؤ بظل عفوك الذى تأمله القلوب ، ولا تعلق به الذنوب ، وقد استشفع بى إليك فوثقت له منك

بعفو لا يخالطه سخط ، فحقق أمله وصدق ثقتى بك تجد الشكر وافياً بالنعمة ، فكتب إليه الوليد ، قد شكرت رغبته اليك وعفوت عنه لمعوله عليك وله عندى ما يحب فلا تقطع كتبك عنى فى أمثاله وفى سائر أمورك .

وكتب بشر بن مروان الى عبد العزيز أخيه يعتذر . بسم الله الرحمن الرحيم . لولا الهفوة لم أحتج إلى العذر ، ولم يكن لك فى قبوله منى الفضل ، ولو احتمل الكتاب أكثر مما ضمنته لزدت فيه ، وبقيا الأكابر على الأصاغر من شيم الأكارم ، ولقد أحسن مسكين الدارمى حين يقول :

أخاك أخاك إن من لا أخا له ... كساع إلى الهيجا بغير سلاح

وان ابن عم المرء فاعلم جناحه ... وهل ينهض البازى بغير جناح

وبلغ يزيد بن عبد الملك وهو خليفة أن هشاما أخاه ينتقصه ، فكتب اليه إن مثلى ومثالك كما قال الأول :

تمنى رجال أن أموت وإن أمت ... فتلك سبيل لست فيها بأوحد

لعل الذى يبغى ردای ويرتجى ... به قبل موتى أن يكون هو الردى

فكتب اليه هشام ، إن مثلى ومثلك كما قال الأول :

ومن لم يغمض عينه عن صديقه ... وعن بعض ما فيه يمت وهو عاتب

ومن يتتبع جاهداً كل عثرة ... يجدها ولا يبقى له الدهر صاحب

فكتب اليه يزيد ، نحن مغتفرون ما كان منك ومكذبون ما بلغنا عنك مع حفظ وصية أبينا عبد الملك ، وما حض عليه من صلاح ذات البين ، وانى لأعلم أنك كما قال معن بن أوس :

لعمرك ما أدرى وإنى لأوجل ... على أينا تغدو المنية أول

وإنى على أشياء منك تريبنى ... قديما لذو صفح على ذاك مجمل

ستقطع فى الدنيا إذا ما قطعتنى ... يمينك فانظر أى كيف تبدل

اذا سوّتنى يوما رجعتُ إلى غدٍ ... ليُعقب يوما منك آخرُ مقبل

إذ أنت لم تنصف أخا وجدته ... على طرف الهجران ان كان يعقل

ويركب حد السيف من أن تضيمه إذا لم يكن عن شفرة السيف مزحل
وفى الناس إن رثت حبالك واصل وفى الأرض عن دار القلى متحول

فلما جاءه الكتاب رحل اليه فلم يزل فى جواره الى أن مات وهو معه فى عسكره مخافة أهل البغى عليه .

وكتب يزيد بن الوليد إلى مروان بن محمد وقد تلكأ فى بيعته . بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله أمير المؤمنين يزيد بن الوليد إلى مروان بن محمد ، أما بعد فإنى أراك تقدم رجلا وتؤخر أخرى فإذا أتاك كتابى هذا فاعتمد على أيهما شئت والسلام .

وكتب عبدالله بن معاوية بن عبدالله بن جعفر إلى بعض إخوانه يعاتبه: أما بعد فقد عاقنى الشك فى أمرك عن عزيمة الرأى فيك وذلك أنك ابتدأتنى بلطف عن خير خبرة ، ثم أعقبتنى جفاء من غير جريرة ، فأطمعنى أولك فى إخائك وأيأسنى آخرك من وفائك ، فلا أنا فى اليوم بجمع لك اطراحا ولا أنا فى غد وانتظاره منك على ثقة ، فسبحان من لو شاء كشف بإيضاح الشك فى أمرك عن عزيمة الرأى فيك ، فاجتمعنا على ائتلاف أوافترقنا على اختلاف ، والسلام .

وكتب عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه إلى الحسن البصرى أن اجمع لى أمر الدنيا وصف لى أمر الآخرة فكتب اليه يقول : إنما الدنيا حلم والآخرة يقظة ، والموت متوسط ، ونحن فى أضغاث أحلام ، من حاسب نفسه ربح ، ومن غفل عنها خسر ، ومن نظر فى العواقب نجا ، ومن أطاع هواه ضل ، ومن حلم غنم ، ومن خاف سلم ، ومن اعتبر أبصر ، ومن أبصر فهم ، ومن فهم علم ، ومن علم عمل ، فإذا زللت فارجع ، وإذا ندمت فأقلع وإذا جهلت فاسأل ، وإذا غضبت فأمسك ، واعلم أن أفضل الأعمال ما أكرهت النفوس عليه .

هذا وقد رغبنا عن الكتب الطويلة ، ككتاب الحسن هذا إلى عمر هذا يصف له فيه الإمام العادل ، وككتب عبد الملك إلى الحجاج وإجابات

الحجاج عنها ، وكرسالة سالم بن عبد الله مولى هشام بن عبد الملك عن هشام إلى خالد بن عبد الله القسرى والى العراق ، وكرسائل تلميذه وشيخ الكتاب عبد الحميد كاتب مروان بن محمد ، وذلك لطولها وضيق ما نحن فيه عنها اكتفاء بالإشارة اليها هنا وبالكلام فيما سيأتى من وصف الكتابة عنها .

ب ـ حياتها

أنهينا الكلام على الكتابة فى صدر الأسلام بانها كانت كتابة رسائل فحسب لم تصطبغ بصبغة فنية ذات صناعة ، وأن الكتابة الديوانية غير الكتابة الانشائية كانت معدومة فيه ، وكذلك الكتابة العلمية كتابة التاليف والتصنيف ، وأبنا أسباب ذلك جميعه . أما وقد تبدلت الحال فى العصر الأموى غير الحال وحالت أسباب وجدت أسباب فقد وجدت الكتابة الديوانية غير الأنشائية وكذا العلمية وتاثرت الإنشائية والخطية على النحو الذى نحن بصدد الكلام عليه الآن .

أولا ـ الكتابة الديوانية والاخوانية

نقصد بالكتابة الديوانية ما كان يصدر رسمياً عن رجال الدواوين إنشائيا فى الرسائل أو غير إنشائى فيما تقتضيه أعمال الدولة التى تشغل مثلها الآن الطوائف المعروفة بكتبة الدواوين ، وبالاخوانية ما كان إنشائياً غير رسمى بين بعض الناس وبعض .

فكتابة الرسائل فى بدء العهد الأموى سارت مسيرها مدة الخلفاء الراشدين ، فكان طابعها التبسط فى مباديها وخواتمها ، والسهولة فى عبارتها ، والإيجاز فى مقدارها ، والخلو من التكلف فى ألفاظها ومعانيها . وكان الخلفاء هم الذين يكتبون بأيديهم أو يملون غيرهم ، ولم تزل كذلك حتى انتهى العصر السفيانى دون أن يحدث فيها جديد ، إلا ما كان من إنشاء معاوية لديوان الخاتم ، ومهمته أن يرسل اليه ما يكون للخليفة من توقيع

ليصدر منه مختوما لا يدرى حامله مافيه ولا يتسنى له تبديله . وكان سبب إنشائه على ما ذكر الفخرى فى كتابه الآداب السلطانية أن معاوية أحال رجلا على زيادوهو واليه على العراق بمائة الف درهم فقرأ الرجل الكتاب وكان غير مختوم وجعل المائة مائتين حتى إذا رفع زياد حسابه إلى معاوية أنكر ذلك ثم تبين حقيقة الأمر فاستعاد المال من الرجل وأمر بوضع ديوان الخاتم كما تقدم .

ولما جاء العهد المروانى واستفحل الملك واتسعت شئونه على أيام عبد الملك بن مروان ثم استقرت الدولة وهدأت بعد ما تم له القضاء على الزبيريين وعلى الخوارج، وقتل عمرو بن سعيد الأشدق قرنه فى طلب الخلافة عظم شأن الكتابة الإنشائية فاتخذ عبد الملك سليمان بن سعد كاتبا له على الرسائل ولكنه بقى بنفسه يزاولها فى المهم . أما الديوانية غير الإنشائية . فكان القائم عليها منذ عهد معاوية سرجون بن منصور الرومى ، وحدث أن عبد الملك أمره بأمر فتوانى فيه ورأى منه بعض التفريط فقال لسليمان هذا إن سرجون يدل علينا ببضاعته وأظن أنه رأى ضرورتنا اليه فى حسابه أفما عندك فيه حيلة قال بلى لو شئت لحولت الحساب من الرومية إلى العربية وكان سليمان يجيد الرومية ، ثم كانت قد نبتت نابتة من أبناء العرب تعرفها أيضاً وأخرى من أبناء الروم تجيد العربية بحكم المخالطة والتشارك فى هذا المجتمع الجديد ، قال افعل ، قال أنظرنى أعانى ذلك قال لك نظرة ما شئت فأكمل سليمان ذلك فى سنة وصرف سرجون عن عمله وما كاد عبد الملك يفعل هذا حتى قلده الحجاج واليه على العراق فيما فعل وكان القائم على ديوانه الفارسى قد قتل فى حرب عبدالرحمن بن الأشعث وهو زادان فروخ . والذى كلفه الحجاج هذا النقل هو صالح بن عبد الرحمن مولى بنى تميم إذ كان يجيد الفارسية وكان مع زادان المذكور وفيه يقول عبد الحميد الكاتب (لله در صالح ما أعظم منته على الكتاب) . أما ديوان مصر وكان بالقبطية فإن الذى أمر بنقله عبد الله بن عبد الملك بن مروان

أمير مصر فى خلافة أخيه الوليد بن عبد الملك ، وكان القائم عليه أنتاش القبطى فحل محله ابن يربوع الفزارى رجل عبد الله فى هذا التحويل . وبهذا العمل العظيم فى تلك الأقاليم الشاسعة فتح عبد الملك وابنه الوليد فتحاً جديداً أمام العربية ، وميادين واسعة للعمل أمام أبنائها ، وإن نظرة واحدة الى كثرة الأيدى المزاولة للأعمال الكتابية فى أى قطر متحضر الآن لترينا قيمة هذا الفتح وعظمة هذه الميادين .

رجع إلى كتابة الرسائل التى كان عبد الملك قد اتخذ عليها لنفسه سليمان ابن سعد لنقول إنه صرفه عنها إلى رياسة الكتابة غير الإنشائية بعد تعريب ديوان الشام ، ولكن السنة فى تعيين كاتب للرسائل استمرت مرعية بعد عبد الملك فكان لكل خليفة كاتب رسائل ، بيد أنه لم تظهر لهؤلاء الكتاب شخصية فيما يصدرون إلا فى سالم بن عبد الله مولى هشام بن عبد الملك وكاتبه على رسائله ، فقد كان ينوب عنه فى كثير منها ويشير إلى ذلك فى ذيول رسائله وبهذا بدأت تظهر على يديه صناعة الكتابة الإنشائية وتحويلها من حالتها السابقة ذات التبسط والاطلاق ، الى نظم ذات شرائط وقيود ، إلا أن ما أتاه سالم لم يؤت أكله ولم يثمر ثمرته إلا على يد تلميذه زوج قريبته عبد الحميد بن يحيى الذى عرف بعدُ بعبد الحميد الكاتب ، نعم إن لسالمٍ الفضلَ الأول وبخاصة إذ كان يعرف اليونانية ونقل عنها إلى العربية شيئاً من رسائل أرسطو إلى الأسكندر فساعده ذلك على ما عانى من التجديد فى الرسائل ، وجعل الناسُ يدونون له مجموعة دون غيره ، قال ابن النديم عنها إنها تبلغ مائة ورقة ولكن ذلك لم يفده على أيامه بل وعاه عنه عبد الحميد ثم أذاعه وزاد فيه أيام ولايته الكتابة لمروان ابن محمد فضرب المثل ببلاغة إنشائه واعتبر شيخ الكتاب ورئيسهم إذ قيل « بدئت الكتاب بعبد الحميد وختمت بابن العميد » ونسب إليه ابن النديم مجموعة رسائل قال إنها تبلغ ألف ورقة ، ومما ساعد عبد الحميد على هذا النوع فوق ما تقدم من تلمذته لسالم التى هى الأساس لما فيها من نبوغ عربى وكسب يونانى ، صحبته لعبد الله بن المقفع الذى كان يجيد الفارسية ، فان

عبد الحميد استقى منه ما أفاده من تلك اللغة ذات الأدب الواسع والحضارة القديمة فجمع إلى ما برع فيه من حذق العربية محاسن الكتابتين اليونانية والفارسية ، ثم كان عهدُ مروان عهدُ فتن واضطراب لا تزال تطلب منه إرسال رسالة أو كتب كتاب فى شتى الأمور ومختلف الأغراض ، مما جعله يوجد هذه الفنون ويبتكر تلك المبتكرات التى تجلت عنه فى أشياء حاكاه فيها الناس بالدواوين وخارج الدواوين وأهمها :

١ — عرف فى الكتابة قبل عبدالحميد الإيجاز والإطناب وكثر الأول فى العهد السفيانى وظهر الثانى فى العهد المروانى، كما تقدمت الإشارة إلى ذلك بكتاب الحسن البصرى إلى عمر بن عبد معزيز فى صفة الإمام العادل وكتب عبد الملك إلى الحجاج وإجابات الحجاج عنها ، ولكنهما لم يبلغا المبلغ الذى وصلاه بعبد الحميد ، فقد وصلا به إلى درجة جعلت الناس يقولون فيه (يكتب فى سطر واحد ما يكتبه فى حمل بعير ، ويكتب فى حمل بعير ما يكتبه فى سطر واحد) وقد روى عن مطولاته أنه كتب عن مروان كتاباً إلى أبى مسلم الخراسانى حين أظهر الدعوةَ العباسية يستميله فيه ، قال عنه لمروان « لقد كتبت كتاباً متى قرأه بطل تدبيره ، فإن يك ذلك وإلا فالهلاك » وكان الكتاب لكبر حجمه يحمل على بعير ، فلما وصل إلى داهية خُراسان ، أمر بإحراقه قبل أن يقرأه ، وكتب على جزازة منه إلى مروان .

محا السيف أسطار البلاغة وانتحى عليك ليوث الغاب من كل جانب

ونقل ابن طيفور أحمد بن طاهر فى كتابه المنظوم والمنثور رسالة له عن لسان مروان أيضاً إلى ولى عهده عبد الله بن مروان حين وجهه لمحاربة الضحاك بن قيس الشيبانى رأس الخوارج ، فى ستمائة سطر بالخط الدقيق وهى فى صبح الأعشى أيضاً .

ويكفى أن نذكر فى درجة إيجازه بعض كتبه الموجزة . كتب موصياً بشخص (حق موصل كتابى إليك كحقه على ، إذ جعلك موضعاً لأمله ورآنى أهلا لحاجته ، وقد أنجزت حاجته فصدق أمله) . وطلب منه مروان أن

يكتب موجزاً وذاما لعامل أهدى إليه عبداً أسود فكتب إليه (لو وجدت لوناً شراً من السواد وعدداً أقل من الواحد لأهديته) . ولقد كان مع قدرته على الإطناب فى موطن الإيجاز وعلى الإيجاز فى موطن الإطناب يتخير لكل مقامه ، فيطنب فى الأخبار بالفتوح والحث على الجهاد والوعد المرغب، الوعيد المخوف وهكذا، ويوجز فى أخبار الهزائم ووصف الأعداء وتغيير شىء كان مقراً وهكذا ، فإذا لم يك من داع لأحدهما غادرهما إلى المساواة كما هى رسائله الخارجة عن بسط الإطناب وإيماء الإيجاز وإن اختلفت فيما بينهما نسبياً طولا وقصراً .

٢ — أطال فى فواتح الكتب وخواتيمها بما اعتبر جديداً مع رسوم أخرى زادها فى غير البدء والختام . ففى الفواتح أتى بكثير من التحميدات المتنوعة الأساليب وكانت قبل لا تجاوز الجملة الواحدة فصارت منه تؤدى فى سطور ، كأن يقول فى بدء كتاب (الحمد لله العلىّ مكانه، المنير برهانه العزيز سلطانه ، الثابتة كلماته ، الشافية آياته ، النافذ قضاؤه ، الصادق وعده) ويتنقل إلى صيغة أخرى فيقول (الذى قدَرَ على خلقه بملكه ، وعز فى سماواته بعظمته ، ودبر الأمور بعلمه ، وقدرها بحكمته على ما يشاء من عزمه) ثم يتنقل إلى صيغ أخرى بعد هاتين قبل أن يأخذ فى المقصود. وفى الخواتيم التى كانت مقصورة على السلام كان يطيل أيضاً بما لا يبعد عن الموضوع كقوله داعياً فى آخر كتاب له إلى أخيه يخبره فيه بأول من رزق من أبناء (فأسألُ الله الذى مَنَّ علينا بحسن صنعه فى الأرحام تاديبه بالذكاء وحراسته بالعافية وأن يرزقنا شكر ما حملنا فيه وفى غيره وأن يجعل ما يهب لنا من سلامته والمد فى عمره مرصداً بالزيادة مقروناً بالعافية محوطاً من المكروه ، فانه المنان بالمواهب والواهب للمنى لا شريك له) إلى آخر ما أنهى به الكتاب . ومن الرسوم التى ابتكرها وأخضعها للقيود لم تك قبل شرطاً فيها، تعقيبه بالحمد بعد البسملة فاصلا بينهما بأما بعد كأن يقول مثلا (بسم الله الرحمن الرحيم أما بعد فالحمد لله) وتغيير المعانى فى المبادىء والخواتيم فضلا عما تقدم فى إطالة الكلام ، باختلاف

أغراض كل كتاب كأن يبدأ الكتاب فيما هو نعمة وسار بالحمد والشكر ويقتصر فيما عداه على البسملة ، وكأن يختم المنشورات والعهود بنحو (وكفى بالله شهيدا) والتعازى بمثل (إنا لله وإنا إليه راجعون) إلى غير ذلك مما يتنوع بتنوع ما يعالج فى الكتاب .

٣ — أكثر من الرسائل الأخوانية وهى التى تكون بين المرء والمرء بعيدة عن المهام الرسمية وكانت قبله قليلة الكتاب ضئيلة الأصحاب ، ولم يقف فيها عند غرض دون غرض بل شعب فنونها ، من تهنئة إلى تعزية ومن عتاب إلى إيصاء ومن شكر إلى استعطاف ومن شكوى زمن إلى تصبر واحتمال ، إلى غير ذلك مما هو مأثور عنه ومروى البعض هنا ، ومحل إثباته وافياً الترجمة له لا ما نحن فيه إن شاء الله .

٤ — اقتحم غير ما تقدم فى الكتابة أموراً لم تعهد الكتابة فى مثلها ، فعالج فيها معانى لا تطاوع الكاتب فى القدرة عليها ، وكان مع ذلك قوى الحجة ناصع البرهان ، وليس أدل على هذا من رسالته فى النهى عن الشطرنج التى كتب بها عن الخليفة إلى ولاة الأمصار يأمرهم فيها بالضرب على أيدى المستهترين بهذه اللعبة لما شاع إذ ذاك من صرفها الناس عن معاشهم ومعادهم وصلتهم فيها ليلهم بنهارهم ، وهى طويلة يقول فيها بعد ديباجة ممهدة للغرض معينة على الحجة (وقد بلغ أمير المؤمنين أن ناساً من أهل الإسلام قد ألهمهم الشيطان بلعبة الشطرنج وحثهم عليها وألف بينهم فيها فهم معتكفون عليها من لدن صبحهم الى مساهم ، وهى ملهية لهم عن الصلوات شاغلة إياهم عما أمروا به من القيام بسنن دينهم وافترض عليهم من شرائع أعمالهم ، مع مداعبتهم فيها وسوء لفظهم عليها ، وأن ذلك من فعلهم ظاهر فى الأندية والمجالس غير منكر ولا مستفظع عند أهل الفقه وذوى الورع والأديان والأسنان منهم . فأكبر أمير المؤمنين ذلك وأعظمه وكرهه واستكبره) الى أن قال فى آخرها بعد بيان مضارها ومفاسدها يخاطب الوالى (فأذن بذلك فيهم وأشده فى اسواقهم وجميع أنديتهم وأوعز اليهم فيه وتقدم الى عامل شرطتك فى

إنهاك العقوبة لمن رفع اليه من أهل الاعتكاف عليها والإظهار للعب بها ، وإطالة حبسه فى ضيق وضنك وطرح اسمه من ديوان أمير المؤمنين ، ولا يجدن أحد عندك هوادة فى التقصير فى حق الله عزوجل والتعدى لأحكامه فتحل بنفسك ما يسوءك عاقبة مغبته وتتعرض به لغير الله عزوجل ونكاله واكتب إلى أمير المؤمنين مايكون منك إن شاء الله والسلام).

فهذه الفتوح لعبد الحميد هى التى أكبرت من شأنه عند الناس وجعلته عن طيب خاطر منهم شيخ الكتاب ، وأمطرت عليه من ذوى المعرفة والأقدار أوسمة التفرد والفخار ، فلله درة رحمه الله . وما كان أبره بأبنائه الكتاب حيث أودع لهم نصائحه فى وصيته إياهم وهى طويلة ، فلنكتف هنا عن نقلها بالإشارة إلى بعض ما فيها على أن يرجع إليها فى بعض مقارها كمقدمة ابن خلدون . بدأها تغمده الله برضوانه بالدعاء لأهل صناعة الكتابة ، وبيان منزلتهم وأنها أشرف منزلة بعد الخلافة ، وأخذ فى بيان نفعها لهم وموقعهم من الخلفاء والملوك ثم أخذ يطالبهم بما توجبه هذه المكانة عليهم من ضرورة اجتماع خلال الخير فيهم وتحليهم بكثير من فضائل عددها لهم ، ومن ضرورة نظرهم فى كل فن وعلم كالدين والعربية والتاريخ والخط ، وبعدئذ أخذ يطالبهم بالترفع بأنفسهم عن المطامع وسفاسف الأمور والسماية والكبر وأن يتواصى بعضهم ببعض ، حتى يحد من نبا به الزمان منهم عونا ومن قعدت به عن العمل سنه مؤانسا ، وما أجمل ما أوصاهم به من الإخلاص لمن اصطنعوهم ، والوفاء لهم فى شدتهم وبلواتهم ، ولم يفته - والكتابة سلم الرقى - أن يوصيهم إذا صعدوا بالعدل والرفق والأمانة والتواضع وعدم الاغترار بالصحبة قبل البلاء والاختبار ، على أنه مع هذا أوصاهم بالعمل على إصلاح الأخوان ورياضتهم ، كما لم يفته أن يحذرهم الأشر والبطر وتجاوز المرتبة والمنزلة والاغترار بالنفس والتعالى على النظراء . ولقد جعل ختام وصيته بعد الذى طلب فى آخرها من حمد الله وسؤاله التوفيق ، مطالبتهم العمل بهذه المثل (من تلزمه النصيحة يلزمه العمل) فلم يذكر بعده إلا الدعاء لهم آخراً كما دعا لهم أولا .

٢ — الكتابة العلمية وبدء التدوين

يعتبر العصر الأموى أول عصر ظهرت فيه الكتابة العلمية لأن وضع العلوم التى اقتضاها الإسلام من شرعية كالتفسير والحديث والقراءات والفقه ، ولسانية كالنحو ، وغيرهما مما اشتغل به المسلمون كالتاريخ والكيمياء والفلك والطب لم يبدأ إلا فيه ، فوجدت بذلك لغة التأليف والتصنيف وهى لغة لم يك للعربية بها عهد من قبل . وهذى كلمة عن كل من هذه العلوم .

العلوم الشرعية — هى المستخرجة من القرآن والسنة وأهمها كما تقدم التفسير والحديث والقراءات والفقه . وقد كان الصحابة رضوان الله عليهم فى عصر صدر الاسلام يشتغلون بها جميعاً كأنها علم واحد وكان المرجع فيه الى القراء منهم دون تفرقة بينها ولا تفرد من واحد منهم بأحدها شأن كل جديد ولذلك لم يؤثر عنهم أى تاليف فى شىء منها إلا ماهو منسوب إلى ابن عباس المتوفى سنة ٦٨ من تفسير ، على أن وفاته فى تلك السنة تخرجه عن صدر الاسلام إلى العصر الأموى الذى نتكلم فيه ، هذا إلى أن تفسيره لم يك أثراً مكتوباً إنما كان مجرد آراء نقلت عنه بالرواية وكان أشهر ناقليها مجاهد المتوفى سنة ١٠٤ والمنسوب إليه تفسير أجمع الباحثون على أنه أول تفسير عرف ، وكثير منهم يقول إن تفسير ابن عباس هو تفسير مجاهد دون وأثبت ولم يعرف عن التفسير فى هذا العصر غير ما ذكرنا .

والحديث كان الحامل على الاشتغال به مع الاشتغال بالتفسير الذى هو الأساس ما كثر من التأويل والفتاوى بعد مقتل عثمان وعلى وانقسام الأمة أحزاباً وشيعاً تأخذ كل منها نهجاً دينيا تريد أن تلتصر فيه لنفسها عن طريق الدين الذى لم يك به ما يشبع نهمها سوى الحديث . فكثر لذلك ، الوضع على رسول الله من غير المتورعين ، والهوى يعمى ويصم ،

فلما فاضت الأحاديث الموضوعة اضطر علماء الأمة إذ ذاك إلى الوقوف فى طريقها وتفرغوا لدراسة الحديث حتى نشأت طبقة المحدثين فوضعت أصولا للحديث تميز صحيحه من فاسده وقويه من ضعيفه إلى غير ذلك مما تكون منه مصطلح الحديث ولكن لا إلى الدرجة التى عرف بها فى العصر العباسى من تفصيل . وبالرغم من كثرة المحدثين فى العصر الأموى كيزيد ابن سفيان وعاصم بن سليمان وشعبة بن الحجاج وخالد الحذاء لم تعرف عنهم مؤلفات فيه إلا ما كان لأبى بكر محمد بن عمر ابن حزم نائب عمر بن عبد العزيز فى القضاء ووالية على المدينة فقد روى أن عمر أذن له فى تدوين حديث رسول فدون ما يحفظ منه فى كتاب بعث به عمر إلى الأمصار ولكن لم يعرف عن هذا الكتاب سوى هذا الخبر .

وعلوم القراءات كانت كلها فى هذا العصر تعلم بالتلقى على القراء ولم يعرف أن أحد منهم على كثرتهم أقدم على التاليف فيها حتى جاء العصر العباسى الذى دون فيه ما نقل عنهم وما زاد . وقد تقدم شىء ليس بالقليل عن القراءات أول هذا الكتاب حين الكلام على القرآن تحت عنوان « جمعه وروايته » .

أما الفقه فلم توجد أمة أسرعت كالعرب فى وضع أصوله وتفريع فروعه لأن اتساع ملكها وبسطة نفوذها على كثير من الممالك والأمصار مع اتخاذها كتاب الله وسنة رسوله مرجعاً فى كل تشريعاتها اضطرها أن تعمد اليهما لاستخراج ماتحتاج إليه من قوانين، وكان أول المشتغلين بالفقه الصحابة وجاء من بعدهم التابعون فعرفت فيهم طبقة باسم الفقهاء كطبقات المفسرين والمحدثين ولا سيما فى مدينة رسول الله التى كانت مرجع الفتيا مدة العصر الأموى ، غير أن الفقهاء مع كثرتهم لم يخلفوا آثارا مكتوبة فى الفقه فلم تعرف فيه مؤلفات قبل الأئمة الأربعة فى العصر العباسى بعد، وكان أولهم مالك بن أنس صاحب الموطا الذى أثبت فيه الحديث مرتباً على أبواب الفقة فكان أول كتاب فقهى عرف وأول كتاب فى الحديث أيضاً

لأن ما وضعه ابن حزم لم يعرف عنه شيء بعد إرسال عمر بن العزيز به إلى الأمصار كما تقدم .

العلوم اللسانية — لم تضع العرب من العلوم اللسانية فى العصر الأموى سوى النحو الذى سبقت به سائر العلوم اللسانية كما سبقت به من حيث التأليف جميع العلوم الأخرى من شرعية وغير شرعية وذلك لأن ما امتازت به العربية من اختلاف حركات الأعراب وكثرة دواعيها ودقة فروقها جعل اللحن ينتشر فى كلام الكثير عقب اتساع الفتوح وشدة الاختلاط ، فراع القوم ما راعهم على هذا اللسان وخشوا على القرآن ما خشوا من اللحن فى القراءة والتحريف فسارعوا إلى وضع هذا العلم وتقدموا فى أبحاثه ولما ينقض من العهد الأموى شطر كبير ، فإن أبا الأسود الدؤلى المتوفى سنة ٦٩ وهو أحد التابعين بالبصرة وذو الشهرة الكبيرة بالذكاء والبديهة والدهاء والمعرفة الواسعة بالقرآن والحديث والشعر ، قد أصل أصول النحو وفرع كثيراً من فروعه حتى اختلف إليه عدد كبير من رجال البصرة يتعلمونه منه ويتلقونه عليه كان منهم يحيى بن يعمر وميمون الأقرن وعنهما أخذ النحو عبد الله بن إسحق الحضرمى الذى فرع فيه وقاس حتى عمل كتابا فى الهمز وحده وصار أعلم أهل البصرة وواحدهم فى هذا الباب ، ثم وجدت طبقة ثالثة كان منها أبو عمرو بن العلاء ذو العلم الواسع باللغة والشعر ومذاهب العرب ، وعنه أخذت طائفة نقلت النحو إلى الكوفة أشهرهم عيسى بن عمر الثقفى فقد بسط النحو وصنف فيه عدة مؤلفات وهو صاحب الفضل على سيبويه الذى يعرف درجته ويدين بعلمه حتى قيل إنه لما فارقه إلى الخليل بن أحمد وسأله عن مصنفاته خبره أنها بلغت نيفا وسبعين وحتى قيل أيضاً إن أوسعها واسمه الجامع هو الذى أخذه سيبويه كما قال عن نفسه وكان يسأل الخليل عن غوامضه وهو بعينه « الكتاب » المنسوب إلى سيبويه ، بعد أن بسطه بعض البسط وزاد فيه بعض التحشية من كلام الخليل .

وقد اختلف فى المناسبة الأولى التى حدت بأبى الأسود أن يضع النحو

فقيل إن بنتاً له نظرت إلى السماء فقالت يا أبت ما أحسن السماء وضمت النون فقال لها نجومها فقالت لم أرد هذا إنما أردت أن السماء حسنة فقال لها إذن فقولى ما أحسن السماء وفتح النون، ثم ذهب إلى على كرم الله وجهه من صباحه فقص عليه القصة وقال إننى أخاف أن يفسد لسان العرب بمخالطة هذه الحمراء فقال له على يا أبا الأسود انح للناس نحواً يعتمدون عليه فقال وكيف يا أمير المؤمنين قال قل « الكلام كله اسم وفعل وحرف فالاسم ما أنبأ عن المسمى والفعل ما أنبىء به والحرف ما أفاد معنى ، واعلم يا أبا الأسود أن الأسماء ثلاثة ظاهر ومضمر واسم لا ظاهر ولا مضمر » قال أبو الأسود فأثبت هذا ثم وضعت باب التعجب والاستفهام وباب العطف والنعت وهكذا إلى أن وضعت باب إن واخواتها ما خلا لكن فلما عرضتها عليه أمرنى بضم لكن إليها وكنت كلما وضعت باباً عرضته عليه إلى أن حصلت ما فيه الكفاية فقال لى ما أحسن هذا النحو الذى نحوت ومن هنا ومما تقدم من قوله له (انح للناس نحواً يعتمدون عليه) سمى هذا العلم النحو . وقيل إن المناسبة عرضت لعلى نفسه وكان أبو الاسود الدؤلى عنده وذلك بأن تداعى إليه رجلان فادعى أحدهما قبل الآخر مالا فأعذر على إلى الآخر فى ذلك فقال يا أمير المؤمنين (ما له عندى حق) بضم اللام فقال له على ادفع اليه ماله قال وكيف وقد أردت نفى المال عنى فقال رحمه الله فسد اللسان ورب الكعبة ثم قال يا أبا الأسود انح للناس نحواً يعتمدون عليه وتسلسل الحديث إلى آخر ما ذكرناه . وعلى كلتا الروايتين يكون المشير بوضع النحو والمرشد فى وضعه على بن أبى طالب كرم الله وجهه والواضع بالفعل أبا الأسود الدؤلى، فجزاهما الله عن العربية خيراً .

العلوم الأخرى — نقصد بها غير الشرعية واللسانية كما تقدم ولم يك لها حظ فى هذه الدولة لعدم اشتداد الحاجة اليها ولأنها لم تك ذات مرجع عندهم يعتمدون عليه بخلاف الشرعية واللسانية فى الأمرين معا وهى لا تعدو كما سبق التاريخ والكيمياء والفلك والطب وكل ما يقال عن اشتغال العرب بها مدة العصر الأموى يحمل فيما يأتى :

(ا) التاريخ : أولع معاوية بن أبى سفيان باستماع قصص العرب وتواريخ أمم العجم فكان يجلس لذلك كل ليلة يستمع هذه الأخبار من الواقفين عليها شطراً من الليل، وكان من نتائج هذه الرغبة أن ألف له عبيد ابن شرية ـ وأصله من صنعاء أدرك النبى صلى الله عليه وسلم وعمر إلى أيام عبد الملك بن مروان ـ كتاب الملوك وأخبار الماضين كما ذكر ابن النديم ولكن لم يوقف لهذا الكتاب على أثر بعد كما هى الحال فى كتب تاريخية أخرى ذكرها ابن النديم عن هذا العصر أيضاً منها كتاب تراجم المشاهير لأبى مخنف الأزدى من أصحاب على ، وكتاب سيرة معاوية لأبى عوانة بن الحكم الكلبى ، وكتاب له آخر فى التاريخ العام ، وكذلك كان من رجال التاريخ الذين كتبوا فى هذا العهد، وهب بن منبه وموسى بن عقبة .ومما كان اشتغال الناس به شديداً فى هذا العصر الذى بعثت فيه العصبية، علم الانساب وهو علم عنيت به العرب منذ جاهليتها عناية لم تعرف عن أمة غيرها . قيل إن من الكتب التى وضعت فيه مدة بنى أمية كتابين وضعهما زياد لابنه عبيدالله أحدهما فى نسبته إلى أبى سفيان بن حرب والثانى فى مثالب العرب قبيلة قبيلة ليستغله ابنه ضد من لا يعترفون بتلك النسبة .

(ب) الكيمياء والفلك والطب : لما انتقلت الخلافة الأموية من البيت السفيانى إلى المروانى ويئس خالد بن يزيد بن معاوية منها وكان ذا همة وذكاء صرفهما إلى اكتساب العلم . ولما كانت صناعة الكيمياء رائجة إذ ذاك استقدم من الأمصار بعض ذوى الخبرة بها وعكف عليهم يتعلمها منهم ولما حذقها ألف فيها بالعربية . وكذلك كان راغباً فى علم الفلك فأنفق الأموال فى طلبه وإحضار عدده حتى برع فيه وألف أيضاً ، ذكر ابن القفطى فى كتابه أخبار الحكماء عن ابن السبندى وهو يترجم له أنه شاهد فى خزائن الكتب بالقاهرة كرة نحاسية مكتوباً عليها (حملت هذه الكرة من الأمير خالد بن يزيد بن معاوية) وكما كان خالد أول المشتغلين فى هذه الدولة بالكيمياء والفلك قيل إنه اشتغل كذلك بالطب وألف فيه أيضاً ولكن لم

يصل الينا شيء من تآليفه هذه جميعاً كما لم يصل من تآليف غيره إلا اليسير الذى لا يعتد به ، كترجمة ماسويه السريانى الجنس اليهودى المذهب ، وكان بالبصرة على عهد مروان بن الحكم وابنه عبد الملك ، لكتاب القس أهرون ابن أعين السريانى فى الطب وهو الكتاب الذى وجده عمر بن عبد العزيز فى خزائن دمشق وأذاعه على المسلمين للانتفاع به .

هذا ومما تقدم يفهم أن موطن العلوم الشرعية كان الحجاز ، ومواطن اللسانية كان العراق ، وموطن الأخرى كان الشام .

ثالثاً — الكتابة الخطية ووضع الشكل والإعجام

وصل الخط فى نهاية صدر الإسلام كما بينا آنفاً إلى نوعين ، الكوفى أصل الثلث ثم الحجازى أصل النسخ وكان خلواً من الشكل ومن الإعجام أى النقط . وقد بقى على هذين النوعين معظم العهد الأموى حتى ظهر فى أواخره قطبة المحرر الذى كان يتولى كتابة المصاحف لبنى أمية فاستنبط من كل منهما نوعاً جديداً زاد فى تقريبه إلى ما نعرف الآن من ثلث ونسخ فصارت الخطوط أربعة وقد اخترع لذلك قلمين هما الجليل الذى يكتب به على المبانى ، والطومار وهو أصغر منه ، ولم تزل الحال من بعده على ذلك حتى انقضى العصر الأموى دون أن يحدث فيه سوى هذين الخطين وسوى الشكل والإعجام وهما أهم ما حدث بالكتابة الخطية فيه .

فأما الشكل فالمراد به علامات الحركات من فتحة وكسرة وضمة وما يتصل بها من علامات التنوين والسكون والشدو غيرها . وقد كان الدافع إلى وضعه استمرار الناس يلحنون بعد أن وضع أبو الأسود ما وضع من قواعد النحو لأن تلك القواعد لم تكن شاملة لجميع أساليب اللغة لقلتها شأن كل جديد ولأنها لا تتناول سوى آخر الكلمات غالباً ولأن مراعاتها لا تتيسر إلا للخاصة لما تحتاج إليه من دقة وعناية ودربة ومرانة . وبالنظر إلى أن تفشى هذا اللحن وخوف العلماء والأمراء على القرآن منه قد ظهر وأبو الأسود الدؤلى واضع

النحو لا برال حيا كان من الطبيعى أن يلجأ الناس اليه فى هذا الإصلاح المنشود فقيل إن زياداً والى العراق بعث اليه وكان معه بالبصرة فقال له (يا أبا الأسود إن هذه الحمراء قد كثرت وأفسدت من ألسن العرب فلو وضعت شيئاً يصلح به الناس كلامهم ويعرفون به كلام الله تعالى) ولما كانت هذه العبارة لينة لا تتجاوز عرض أمنية وكان أبو الأسود من شيعة على ومبغضى الدولة الأموية وقد عزلوه عن البصرة فقد وجد منفذا لعدم إجابة هذه الرغبة وتثاقل فى الأمر، ولكن زيادا رأى أن يحقق رغبته معه بطريق حساس لا شدة فيه ذلك هو طريق الدين فدس له رجلا ينتظره فى طريقه حتى إذا ما مر به قرأ رافعاً عقيرته (إن الله برىء من المشركين ورسوله) بجر رسوله ففعل فاستعظم أبو الأسود ذلك وقال عز وجه الله أن يتبرأ من رسوله ثم ذهب إلى زياد مسرعا فقال له قد أجيبت الى ما سألت ورأيت أن أبدأ بإعراب القرآن فابعث إلى بعض الكتبة فأرسل له ثلاثين كاتباً تخير واحداً منهم كان من عبد القيس وقال له خذ المصحف وخذ صبغاً يخالف لون مداده وانظر إلى فى القراءة فإن رأيتنى فتحت شفتى بالحرف فانقط واحدة فوقه وإذا كسرتهما فانقط واحدة أسفله وإذا ضممتهما فاجعل النقطة بين يدى الحرف فاذا أتبعت شيئاً من هذه الحركات غنة (يقصد التنوين) فانقط نقطتين. ثم أخذ فى القراءة والكاتب يفعل ما أمره به، ولم يزل على ذلك حتى أتم القرآن كله وكان الصبغ الذى تخيره الكاتب مخالفاً لمداد المصحف، وهو الأسود، هو الصبغ الأحمر

هذا ما وضع أبو الأسود واتبعه فيه الناس ولكن استمرار التقدم الطبيعى فى كل شىء جعلهم يزيدون من بعده علامات أخرى كالسكون الذى جعلوه جرة أفقية فوق الحرف والشدة التى جعلوها قوساً يوضع على طرفيه فوق الحرف المفتوح وداخله الفتحة، وتحت المكسور وتحته الكسرة، وعلى شمال المضموم وعلى شماله الضمة، ولم يلبثوا أن قلبوا القوس فى الضمة والكسرة مع الاستغناء عن نقطهما دون الفتحة التى بقى معا على أصله،

ثم أحدثو تعديلا فى نقطتى التنوين بأن جعلوا إحداهما فوق الأخرى اذا كان الحرف التالى له حلقياً يظهر معه فى النطق ومتجاورتين إذا كان غير حلقى يلزم معه الأدغام أو الأخفاء، وقد اشتهر الشكل وشاع استعماله فى المصاحف دون الكتب والرسائل فبقى شكلها نادراً وبخاصة إذا كان المكتوب اليه من ذوى الدراية يعد الشكل سوء ظن به كما قال بعض الكتاب (شكل الكتاب سوء ظن بالمكتوب اليه).

وأما الأعجام فالغرض منه تمييز الحروف المتشابهة بعلامات تمنع اللبس بينها وهو يخالف الشكل من وجهة أن الشكل لم يك معروفا مطلقا قبل وضعه واستعماله وهو لابد كان معروفا منذ أن عرف الخط قبل الاسلام إذ يبعد جداً أن توضع الحروف حيث وضعت وفيها هذا التشابه الكبير دون علامات تدفع ما يترتب على هذا التشابه من لبس شديد ، غير أنه لم يك مستعملا لجهل كنه هذه العلامات حتى إذا ما اتسعت الفتوح واشتد الاختلاط وكثر اللحن الذى دعا إلى وضع النحو والشكل كثر التصحيف أيضاً وتناول كثيراً من آى القرآن كأن تقرأ الآية (وما يجحد بآياتنا إلا كل ختار كفور) بلفظ جبار والآية (وعذابى أصيب من أشاء) بلفظ أساء والآية (أحسن أثاثاً وريا) بلفظ زيا والآية (والذين كفروا فى عزة وشقاق) بلفظ غرة والآية (وما كان استغفار ابراهيم لأبيه الا عن موعدة وعدها إياه) بلفظ أباه والآية (لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه) بلفظ يعنيه وهكذا مما لا يبعد به التصحيف إلى معنى خاطىء ولا كثير البعد عن المعنى الأصلى فارتاع الناس لذلك ارتياعا شديداً على أيام عبدالملك بن مروان وبخاصة فى العراق على عهد واليه الحجاج الذى فزعوا اليه يطلبون دواء وفزع هو إلى كتابه يسألهم وضع علامات تميز بين المتشابه من الحروف دفعا لهذا التصحيف فأجابه إلى ما سأل نصر بن عاصم وساعده فى ذلك يحيى ابن يعمر وكلاهما من تلاميذ أبى الأسود صاحب الفضل الأول فى النحو والشكل ، ووضعا علامات النقط . ولكن لما كانت علامات الشكل نقطاً

كما تقدم استحسنا ألا تكون علامات الأعجام نقطا ، منعا للاختلاط فجعلاها أشراطاً صغيرة توضع بالمداد الأسود وهو الأصلى زيادة فى التمييز بينهما وبين علامات الشكل التى بقيت منذ أيام أبى الأسود تكتب بالمداد الأحمر ، هذا ما كان ولم يزل الأمر عليه طول العهد الأموى وشطراً من أول العباسى إلى أن جاء الخليل بن أحمد فجعل علامات الأعجام كما هى الآن نقطا وعدل عن نقط الشكل إلى صوره المعروفة وقد أخذها من صور الحروف الناشئة عن الحركات وهى الواو للضمة والألف أفقية مائلة للفتحة وكلتاهما فوق الحرف والياء للكسرة تحته ، كما غير السكون من الجرة الأفقية إلى دائرته المعروفة الآن والتشديد من القوس إلى علامته الحالية المأخوذة من أول كلمة شديد مثلا وأتم سائر العلامات المعروفة من مد وغيره وشاع استعمال هذه العلامات جميعاً ثم صارت تكتب كلها بالمداد الأسود حيث لم تعد حاجة إلى المخالفة فى الألوان للتفرقة لما أصبح واضحاً فى أشكالها من فروق.

هذا — أما وقد انتهينا إلى هنا من ذكر أنواع النثر التى كانت معروفة فى الجاهلية وصدر الإسلام وإن لم تجتمع معا فى أحدهما فإنه لا يفوتنا الكلام على نوع من المنثور جديد اقتضاه ما كان فى العهد الأموى من اختلاط العرب بالأعاجم اختلاطا أنتج ما أنتج من لحن وتحريف ذلك هو لغة التخاطب التى أصبح يستخدمها السواد .

لغة التخاطب واللحن والتحريف

هذا عنوان لم نعقد مثله فى عصرى الجاهلية وصدر الإسلام . فأما فى الجاهلية فلأن ملكة اللغة كانت لدى عامتهم وخاصتهم سواء كلهم يقيم الأعراب ويتجاوز بكلامه عن سليقة مزالق اللحن والتحريف لأنهم كانوا محصورين فى جزيرتهم بعيدين عن الاختلاط بغيرهم وكانوا يتعففون عن هذه المخالطة ويعدون مصاهرة الأعاجم سبة وعاراً . نعم إن الملكة كانت توغل فى الثبات والرسوخ كلما كانت القبيلة بعيدة من مظان الاختلاط ضاربة فى

ديار العروبة البعيدة عن الاعجام كقريش وثقيف وهذيل وخزاعة وكنانة وأسد وتميم ، فإذا ما تعرضت له لوجودها فى الأطراف قلت ملكتها جودة وظهرت فى كلامها آثار ذلك كما فى لغات القبائل المجاورة للفرس فى ريف العراق مثل تغلب وبكر والمجاورة للروم فى مشارف الشام مثل قضاعة وغسان ، والمخالطة للهند فى البحرين مثل عبد القيس وأزد عمان ، ولكن ذلك لم يسلب من لغات هذه القبائل ومثيلاتها صحة النطق وميزة العروبة وإن كانت أقل فصاحة من لغات تلك . وأما فى صد الأسلام فلأن الملكة لم تزل فيهم قريبة مما كانت عليه فى الجاهلية فبقيت لغة التخاطب قائمة الأعراب قوية الأداء حتى على ألسنة الموالى الطويلى المكث بينهم ، أما حديثو العهد فى الاقامة معهم فكانوا يرتضخون لكنة من لغتهم الأولى كحبشية بلال وفارسية سليمان ورومية صهيب ، كما كان يقع منهم بعض اللحن والتحريف ، روى أن رجلا منهم لحن بحضرة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « أرشدوا أخاكم فقد ضل » . وعلى هذا انسلخ عهد الخلفاء ولم يؤثر فيه من اللحن مايعتدبه ولذلك كانت النظرة إلى اللحنة تبدر من الرجل نظرة استهجان لها واستعظام لما صدر منه . قيل إن عمر بن الخطاب رضى الله عنه مر بقوم يتناضلون ورمى بعضهم فأخطأ فقال له عمر أخطأت فقال يا أمير المؤمنين « نحن متعلمين » فقال له عمر والله لخطؤك فى كلامك أشد علينا من خطئك فى نضالك ثم قال احفظوا القرآن وتفقهوا فى الدين وتعلموا اللحن يريد اتقاءه أو اللغة المجودة كما فى قوله تعالى (ولتعرفنهم فى لحن القول) .

أما فى العهد الأموى حيث انتشر العرب النازحون فى الأمصار واشتدت مخالطتهم لأهلها الأصليين من الأعجام ووصلت تلك المخالطة إلى العشرة الملازمة والمصاهرة الدائمة فقد نشأ جيل عربى يسمع من الأعاجم كما يسمع من العرب فوجدت لغة تخاطب لم تك موجودة من قبل وما اللغة إلا وليدة السماع والمحاكاة ومن هنا كان من الضرورى فى العصر الأموى إفراد هذه اللغة بكلمة تصف حالها وتبين كنهها على اختلاف الأمصار وتباين المتكلمين

فهذه اللغة الجديدة كانت خليطا من العربى المشوه بعضه باللحن والتحريف، والأعجمى الذى يختلف باختلاف الأعجميات فى الأمصار، من فارسية بالعراق ورومية بالشام وقبطية بمصر وهكذا ولكنها لم تتناول بلحنها وتحريفها ودخيلها جميع المتكلمين. فكانت بعيدة عن ذلك كله على ألسنة النازحين من العرب أنفسهم وكذلك تقريباً على ألسنة أبناء الخاصة منهم من أمهات عربيات، أما أبناؤهم من غير العربيات وأبناء عامتهم مطلقاً فلم تخل لغتهم من شىء من هذا، وقد يكون مصحوبا بلكنة أعجمية أيضاً ولكن هؤلاء جميعا كانت محادثتهم عربية فى مجموعها بالنظر إلى محادثة الأعاجم أهل البلاد الأصليين إلا من تعلموا العربية منهم ونبغوا فيها فقد كان مثلهم مثل العرب النازحين ولذلك سابقوهم فكانوا مثلهم فى ميادين الأدب والشعر وأسبق منهم فى ميادين العلم والتأليف.

هذا هو تيار العامية الجديد أصاب من أصاب ممن ذكرنا ثم لم يزل يعدو على إعراب العربية باللحن وعلى بنيتهـــا بالتحريف ويقذف بين مفرداتها بكثير من الدخيل حتى طم وطغى وتطرق إلى ألسنة كثير من الفصحاء كعبيد الله بن زياد والوليد بن عبد الملك وخالد القسرى فقد أصيبوا برذاذه على ما هم عليه من فصاحة وبيان كما أصيب غيرهم وغيرهم إلى أن أصبح البعيدون عن اللحن فى خاصة المتكلمين معدودين معروفين. روى عن الأصمعى أنه قال (أربعة لم يلحنوا فى جد ولا هزل، الشعبى وعبد الملك بن مروان والحجاج بن يوسف وابن القرية، والحجاج أفصحهم) على أن هذا القول عقب عليه غيره بما جعلهم ثلاثة لا أربعة إذ أبعد الحجاج منهم وإن كان أفصحهم، لما روى من أنه قال مرة للشعبى كم عطاءك بنصب عطاء فقال ألفين بالنصب أيضا فأدرك لحنه وأعاد السؤال بالرفع صحيحاً فقال الشعبى ألفان مصححاً أيضاً فقال له لم لحنت فيما لا يلحن فيه مثلك قال لحن الأمير فلحنت وأعرب فأعربت ولم أكن ليلحن الأمير فأعرب أنا عليه فأكون كالمقرع له بلحنه والمستطيل عليه بفضل القول، ولما روى أيضاً من أنه

قال ليحيي بن يعمر أتسمعنى ألحن قال فى حرف واحد قال فى أى قال فى القرآن قال ذلك أشنع ما هو قال تقول « قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم » إلى قوله أحب اليكم فتقرؤها بالرفع فقال لا جرم لاتسمع لى لحناً ثم ألحقه بخراسان غاضبا عليه . وأمثلة اللحن غير ما ذكرنا كثيرة ، ولقد كان بعضها يحمل على تغيير المعنى كما روى من أن الوليد بن عبد الملك قال لرجل دخل عليه من ختنك بفتح النون فقال رجل من الحى لا أعرف اسمه وكان عمر بن عبد العزيز حاضراً فقال إنه يقول من ختنك وضم النون فقال هو ذا بالباب . وسمع أعرابى رجلا يقول أشهد أن محمداً رسول الله بنصب رسول فقال يفعل ماذا . ومن التحريف ماروى من أن يزيد بن عبد الملك قال على المنبر مرة فى سب على لص بضم اللام وكان أعرابى لايضمها تحت المنبر فقال « فى قوله أعجوبتان أنه رمى عليا بانه لص وأنه باغ من جهله أن ضم لام لص » . وما قيل من أن يوسف بن خالد التميمى كان يقول هذا أحمر من هذا يريد أشد حمرة منه ، وقولهم هذه عصاتى بزيادة تاء ، وحى على على الفلاح بكسر الياء وهى مفتوحة ، إلى غير ذلك مما شاع مضافة اليه اللكن الأعجمية على ألسنة أبناء الأعجميات كقلب العين همزة والحاء هاء وكالتحدث عن الذكر بلهجة الأنثى والعكس وكالحيدة عن الألفاظ الموضوعة للمعنى إلى ألفاظ أخر يدفع اليها الارتضاخ الشديد بالعجمة كقول عبد الله ابن زياد للجند يوماً « افتحوا سيوفكم » وقول خالد القسرى مرة « أطعمونى ماء » وهكذا

غير أن شيوع اللحن فى العصر الأموى لم يزعزع من عقيدة الناس فى لغتهم لأنها لغة القرآن وأساس الدين مع اصطباغ الدولة بالصبغة العربية المحضة فاستمروا يتهيبون اللحن ويذمونه ويفتخرون بالإعراب ويمدحونه .

دخل رجل على زياد فقال إن أبونا هلك وإن أخينا غصبنا ميراثنا من أبانا فقال ما ضيعت من نفسك أكثر مما ضيعت من ميراثك فلا رحم الله أباك حين ترك ولدا مثلك .

واختصم رجلان الى عمر بن عبد العزيز فجعلا يلحنان فقال الحاجب قد آذيتما أمير المؤمنين فقال عمر أنت والله أشد إيذاء لى منهما .

واختار للحجاج عامله على البصرة رجالا منهم كثير بن أبى كثير فقال ما أرانى أفلت من الحجاج إلا باللحن فلما دخلوا عليه به قال له ما اسمك قال كثير قال ابن من قال فقلت فى نفسى إن قلت ابن أبى كثير لم آمن أن يتجاوزها فقلت ابن أبا كثير فقال اعزب لعنك الله ولعن من بعث معك .

وقيل لعبد الملك بن مروان لقد عجل عليك الشيب يا أمير المؤمنين فقال شيبنى ارتقاء المنابر وتوقع اللحن ، وكان يقول الإعراب جمال للوضيع واللحن هجنة للشريف ، ومن وصاياه أصلحوا من ألسنتكم فإن المرء تنوبه النائبة فيستعير الثوب والدابة ولا يمكنه أن يستعير اللسان . وتكلم رجل فسبق إلى لسانه ما لم يرد فلحن فقال حسبى الله والله لقد وجدت حرارتها فى حلقى قبل أن أتكلم بها . ودخل أعرابى السوق فسمع الناس يلحنون فقال سبحان الله يلحنون ويربحون . وكان يحيى بن نوفل يقول اللحن فى المنطق أقبح من آثار الجدرى فى الوجه . وقال أبان بن سعيد اللحن فى الرجل ذى الهيبة كالدنس فى الثوب الجديد . وقال يزيد بن مفرغ يعير عبيد الله بن زياد بقوله للجند افتحوا سيوفكم

ويوم فتحت سيفك من بعيد أضعت وكان أمرك للضباع

وقال رجل يعد من مناقبه عدم لحنه

فان فى المجد هماتى وفى لغتى علوية ولسانى غير لحان

لهذا كله أصبحت الفصيحة فى حذقها شديدة الحاجة إلى التلقين الصحيح والتعليم على أيدى المؤدبين والعلماء ، ومن ثم حرص الخلفاء على الأمرين معا فى تنشئة أبنائهم تنشئة صحيحة فلم يقفوا عند استحضار المؤدبين بل عمدوا إلى استخدام فصاحة البادية التى كانت على ما كانت عليه من فصاحة وبيان ، فصاهروا قبائلها منذ العهد الأول كما فعل معاوية بزواج بحدل الكلبية

أم يزيد ، وكانوا يبعثون بأبنائهم اليها لينشئوا نشأة الأعراب كما كانوا يزوجونهم منها ، وكذلك حرص العلماء على أخذ اللغة عن أهل البادية فما زالوا يتتبعونهم فى بواديهم ويتحكمون بهم فى التحدث اليهم كى يقيدوا ألفاظهم وينقلوا محاوراتهم فتكون حجة لديهم ومرجعاً بين أيديهم ، غير واثقين بالحضريين الذين كانوا دونهم ثبات ملكة ودقة استعمال . قال العجاج كان الكميت والطرماح يسألانى عن الغريب فاخبرهما به ثم أراه فى شعرهما وقد وضعاه فى غير مواضعه فقيل له ولم ذلك قال لأنهما قرويان يصفان مالم يريا فيضعانه فى غير موضعه وأنا بدوى أصف ما رأيت فأضعه فى مواضعه ، وكذلك كان العلماء يتحاكمون إلى الأعراب فيما أشكل عليهم فياخذون بحكمهم وينصاعون إلى قولهم إلى عهد ليس بالقليل من العصر العباسى بعد ، كما كان يفعل الأصمعى فيه اقتداء بما كان يفعله فى العصر الأموى قبله أبو عمرو بن العلاء .

الشـــعر

ا — نماذجه

١ — الشعر السياسى

حينما عزم معاوية على البيعة ليزيد وكان قد بلغه ما كره من سعيد بن العاص ومروان بن الحكم وعبد الله بن عامر أو عز إلى مسكين الدارمى أن يقول فى ذلك متى اجتمعوا عنده فقال .

ألا ليت شعرى مايقول ابن عامر ومروان أم ماذا يقول سعيد
بنى خلفاء الله مهلا فإنما يبوئها الرحمن حيث يريد
إذا المنبر الغربى خلاه ربه فإن أمير المؤمنين يزيد
على الطائر الميمون والجد صاعد لكل أناس طائر وجدود
فلازلت أعلى الناس كعبا ولاتزل وفود تسامیها إليك وفود
ولا زال بيت الملك فوقك عاليا تشيد أطناب له وعمود
قدوران حرب كالجوابى وتحتها أناف كأمثال الرئال ركود

فلما انتهى قال معاوية ننظر فيما قلت يا مسكين ونستخير الله فلم يتكلم أحد إلا موافقا .

ولما كانت الأنصار متشيعة لعلى ضد معاوية طلب ابنه يزيد من كعب بن جعيل أن يهجوهم فأبى ولكن دله على الأخطل فدعاه وأمره بذلك فقال فيهم من قصيدة .

لعن الإله من اليهود عصابة ... بالجزع بين صليصل وصرار[1]
قوم إذا هدر العصير رأيتهم ... حمراً عيونهم من المسطار[2]
خلوا المكارم لستم من أهلها ... وخذوا مساحيكم بنى النجار
إن الفوارس يعلمون ظهوركم ... أولادَ كل مقبح أكار[3]
ذهبت قريش بالمكارم كلها ... واللؤم تحت عمائم الأنصار

فدخل النعمان بن بشير الأنصارى على معاوية ثم حسر العمامة عن رأسه وقال يامعاوية هل ترى لؤماً قال ما أرى إلا كرماً قال فما بال عبد الأراقم يقول فينا

ذهبت قريش بالمكارم كلها ... واللؤم تحت عمائم الأنصار

ثم قال

معاوى إلا تعطنا الحق تعترف ... لحى الأزد مشدوداً عليها العمائم
أيشتمنا عبد الأراقم ضلة ... فماذا الذى تجدى عليك الأراقم
فمالى ثأر دون قطع لسانه ... فدونك من ترضيه عنك الدراهم

إلى أن قال طاعنا فى خلافة معاوية وفاخراً بأعمال الأنصار وأحسابهم

وإنى لأغضى عن أمور كثيرة ... سترقى بها يوما إليك السلالم
أصانع فيها عبد شمس، وإننى ... لتلك التى فى النفس منى أكاتم
فما أنت والأمر الذى لست أهله ... ولكن ولى الحق والأمر هاشم

فوهبه معاوية لسانه ثم أوعز إلى ابنه يزيد أن يستشفعه فيه فقبل.

وبيت النعمان هذا على ما كان من ولائه لمعاوية أولا، يرى فساد أمر بنى أمية فى أواخر حكمها، فهذا حفيده شبيب بن زيد بن النعمان يقول من قصيدة على أيام الوليد بن يزيد.

---

(١) ثلاثة أماكن قرب المدينة
(٢) الخمرة الصارعة لشاربها
(٣) الاكار: الحداث
(٤) الأراقم الحيات وهو لقب لثعلب

يأيها الراكب المزجى مطيته ... لقيت حيث توجهت السنا حسنا
أبلغ أمية أعلاها وأسفلها ... قولا يُنفر عن نوامها الوسنا
أن الخلافة أمر كان يعظمه ... خيارُ أولكم قدما وأولنا
فقد بقرتم بأيديكم بطونكم ... وقد وُعظتم فما أحسنتم الأذنا
لما سفكتم بايديكم دماكم ... بغيا وغشيتم أبوابكم درنا

وقال يزيد بن ربيعة بن مفرغ الحميرى فى استلحاق معاوية، زياد بن أبيه بأبى سفيان

ألا أبلغ معاويةَ بنَ صخر ... مغلغلة من الرجل اليمانى
أتغضب أن يقال أبوك عف ... وترضى أن يقال أبوك زان
فأشهد أن رَحْمك من زياد ... كرَحمِ الفيل من ولد الأتان
وأشهد أنها ولدت زيادا ... وصخر من سميةَ غير دان

وقد تقدم شعر كعب بن جعيل فى ذيل كتاب معاوية لعلى، وشعرُ النجاشى فى ذيل رد على عليه

وقال جواس بن القعطل الكلبى يذكر عدم مجازاة بنى أمية لكلب على نصرتها لهم

صبغت أمية بالدماء رماحنا ... وطوت أميةُ دوننا دنياها
أأمىّ ربِّ كتيبة مجهولة ... صيد الكماة عليكم دعواها
كنا ولاة طِعانها وحرابها ... حتى تجلت عنكم غماها
فالله يجزى لا أمية سعينا ... وعُلاً شددنا بالرماح عراها
جئتم من الحجُز البعيد نياطه ... والشام تنكر كهلها وفتاها
إذ أقبلت قيس كان عيونها ... حدَقُ الكلاب وأظهرت سيماها

ومن هاشميات الكميت بن زيد

ألا هل عم فى رأيه متأملُ ... وهل مدبرٌ بعد الأساءة مقبلُ
وهل أمة مستيقظون لرشدهم ... فيكشف عنه النعسة المتزمل

فقد طال هذا النوم واستخرج الكرى ... مساويهم لو كان ذو الميل يعدل
وعطلت الأحكام حتى كأننا ... على ملة غير التى نتحـل
كلام النبيين الهداة كلامُنا ... وأفعالَ أهلِ الجاهلية نفعل
رضينا بدنيا لا نريد فراقها ... على أننا فيها نموت ونقتل
ونحن بها مستمسكون كأنها ... لنا جُنة مما نخاف ومعقل
أرانا على حب الحياة وطولها ... يُجَد بنا فى كل يوم ونهزل

ومن قوله فى بنى هاشم أيضاً

إلى النفر البيض الذين بحبهم ... إلى الله فيما نالنى أتقرب
بنى هاشم رهط النبى فإننى ... بهم ولهم أرضى مرارا وأغضب
خفضت لهم منى جناحىْ مودة ... إلى كنف عطفاه أهل ومرحب
وكنت لهم من هؤلاء وهؤلا ... بجنا على أنى أذم وأعضب
وأرْمَى وأرمِى بالعداوة أهلها ... وإنى لأوذى فيهم وأذنب

وقال أيمن بن خريم وكان من المتشيعين لبنى هاشم أيضاً يمدحهم

نهاركمُ مكابدة وصوم ... وليلكمُ صلاة واقتراء
أأجمعكم وأقواما سواء ... وبينكم وبينهم الهـــواء
وهم أرض لأرجلكم وأنتم ... لأرؤسهم وأعينهم سماء

وقال أبو العباس الأعمى من أنصار بنى أمية يحرضهم على حرب ابن الزبير

أبنى أمية لا أرى لكم ... شبها إذا ما التفت الشيع
سعة وأحلاما إذا نزعت ... أهل الحلوم فضرها النزع
أبنى أمية غـــير أنكم ... والناس فيما أطمعوا طمعوا
أطمعتم فيكم عدوكمُ ... فسما بهم فى ذاكمُ الطمع
فلوَ انكم كنتم كقومكمُ ... مثلَ الذى كانوا لكم رجعوا
عما كرهتم أو لردهمُ ... حَذرُ العقوبة إنها تزع

وقال يهجو بنى أسد عشيرة آل الزبير

بنى أسد لا تذكروا الفخر إنكم ... متى تذكروه تكذبوا وتحمقوا
متى تسألوا افضلا تضنوا وتبخلوا ... ونيرانكم فى الشر فيها تحرّق
إذا استبقت يوما قريش خرجتم ... بنى أسد سكا وذو المجد يَسبق
تجيئون خلف المجد سوداوجوهكم ... إذ ما قريش الأضاميم أصفقوا
وما ذاك الا أن للؤم طابعا ... يلوح عليكم وسمه ليس يخلَق

وقال أعشى ربيعة واسمه عبد الله بن خارجةَ الشيبانى وهو مروانى من قصيدة فى عبد الملك بن مروان

وما أنا فى أمرى ولا فى خصومتى ... بمهتضَم حقى ولا قارع سنى
ولا مسلِم مولاى عند جناية ... ولا خائف مولاى من شر ما أجنى
وإن فؤادا بينَ جنبىّ عالم ... بما أبصرت عينى وما سمعت أذنى
وفضلنى فى الشعر واللب أننى ... أقول على علم وأعرف من أعنى
وإنىَ إذ فضلتُ مروانَ وابنه ... على الناس قد فضلت خير أب وابن

وهو الذى يقول لعبد الملك إذ تردد فى الخروج لمحاربة ابن الزبير

آلُ الزبير من الخلافة كالتى ... عَجِل النتاجُ بحملها فأحالها
أو كالضعاف من الحمولة حملت ... ما لا تطيق فضيعت أحمالها
قوموا إليهم لا تناموا عنهم ... كم للغواةِ أطلتم إمهالهـــا
إن الخلافة فيكمُ لا فيهمُ ... ما زلتم أركانها وثمالها
امسَوا على الخيرات قفلا مغلقا ... فانهض بيُمْنك فافتتح أقفالها

وقال نابغة بنى شيبان واسمه عبدُ الله بن المخارق لعبدِ الملك بنِ مروان حين عزم على خلع أخيه عبد العزيز من ولاية العهد والمبايعة بها لابنه الوليد فى مجلس حافل من قصيدة أوعز إليه أن يقولها

لابنك أولى بملك والده ... ونجم من قد عصاك مُطرَح
داود عدل فاحكم بسيرته ... ثم ابنُ حرب فانهم نصحوا
وهم خيارٌ فاعمل بسنتهم ... واحىَ بخير وا كدَح كما كدَحوا

وقال أبو وجزة السلمى المعروف بالسعدى يمتدح آل الزبير

راحت رواحا قلوصى وهى حامِدة ... آل الزبير ولم تعدل بهم أحدا
راحت بستين وسقا فى حقيبتها ... ما حملت حملها الأدنى ولا السددا
ما إن رأيت قلوصا قبلها حملت ... ستين وسقا ولا جابت به بلدا
ذاك القرى لا قرى قوم رأيتهم ... يَقرون ضيفهم الملوية الُجددا

وهو يريد بالقوم الذى يعرض بهم آل إبراهيم بن هشام والى المدينة لهشام ابن عبد الملك ، وكان قد وفد اليه أبو زيد الأسلمى مادحا فضربه بالسياط لأنه قال فى مدحه اياه « يا بن هشام يا أخا الكرام » فقال له كأنى لست منهم ، وفى هذا يقول أبو زيد هاجيا له

مدحت عُروقا للندى مصت الثرى ... حديثاً فلم تهمِمْ بأن تتزعزعا
نقائذ بؤس ذاقت الفقر والغنى ... وحلبت الايام والدهر أضرعا
سقاها ذوو الأرحام سجلا على الظما ... وقد كربت أعناقها أن تقطعا
بفضل سِجال لو سقوا من مشى بها ... على الأرض أرواهم جميعاً وأشبعا
فضمت بأيديها على فضل مائها ... من الرِّىّ لما أوشكت أن تضلعا
وزَهدها أن تفعل الخير فى الغنى ... مقاساتها من قبله الفقرَ جُوعا

وقال قطرىُّ بن الفجاءة أحد خلفاء الخوارج من قصيدة فاخرا ببلائه يوم دولاب ومتمنياً الموت

لعمرك إنى فى الحياة لزاهد ... وفى العيش ما لم ألق أم حكيم
ولو شهدتنى يوم دولاب أبصرت ... طعان فتى فى الحرب غير ذميم
فلم أر يوما كان أكثر مَقصِعا ... يمج دما من فائظ وكليم
وضاربة خدا كريما على فتى ... أغر نجيب الأمهات كريم
أصيب بدولاب ولم تك موطنا ... له أرض دولاب ودَيْرُ حميم
فلو شهدَتنا يوم ذاك وخيلنا ... تبيح من الكفار كل حريم
رأت فتية باعوا الإلـه نفوسهم ... بجنات عدن عنده ونعيم

وقال الطرماح بن حكيم وكان يعتقد مذهب الخوارج

لقد شقيتُ شقاء لا انقطاع له ... إن لم أفز فوزة تنجى من النار
والنار لم ينجُ من رَوعاتها أحد ... إلا المنيب بقلب المخلص الشارى
أو الذى سبقت من قبل مولده ... له السعادة من خلاّقها البارى

وقال ثابت بن كعب المعروف بثابت قُطنة وكان منقطعاً إلى آل المهلب من قصيدة فى رثاء يزيدَ بن المهلب

كل القبائل تابعوك على الذى ... تدعو إليه وبايعوك وساروا
حتى إذا حمَس الوغى وجعلتهم ... نُصب الأسنة أسلموك وطاروا
إن يقتلوك فإن قتلك لم يكن ... عارا عليك وبعض قتلٍ عار

وقال حمزة بن بَيْض يخاطب مُخلِد بن يزيد هذا

أتيناك فى حاجة فاقضِها ... وقل مرحباً يجبُ المرحب
ولا تتكلنا إلى معشر ... متى يعدوا عدة يكذبوا
فانك فى الفرع من أسرة ... لهم خضع الشرق والمغرب
وفى أدب منهمُ قد نشأ ... ت ونعم لعمرك ما أدبوا

٢ — شعر المدح والهجاء

لم يخرج الشعر السياسى السابق عن أنه مدح أو هجاء ولكنه ينصرف إلى الطائفة التى ينتمى اليها المقول فيه أكثرما ينصرف إلى شخصه، أما الذى نريده بهذا العنوان فهو على عكسه وإن كان غير تام الانفصال عنه خضوعاً لهوية قائله . ومحوله المقدمون فى هذا العصر الأخطل والفرزدق وجرير فلنختر لهم أولا —

قال الأخطل يمدح بنى أمية ويتخلص إلى مدح بشر بن مروان .

إن يحلموا عنك فالأحلام شيمتهم ... والموت ساعة يحمى منهم الغضب
كأنهم عند ذاكم ليس بينهم ... وبين من حاربوا قربى ولا نسب

كانوا موالى حق يطلبون به فأدركوه وما ملوا وما لعبوا
هم سعوا بابن عفان الأمام وهم بعد الشماس مروها ثمت احتلبوا

إلى أن قال فى بشر

إذا أتيت أبا مروان تسأله وجدته حاضراه الجود والحسب
ترى اليه رفاق الناس سائلة من كل أوب على أبوابه عصب
يحتضرون سجالا من فواضله والخير محتضر الأبواب منتهب

ومن جيد مدائحه لبنى أمية قصيدته التى يقول فيها .

حشد على الحق عياف الخنا أنف إذا ألمت بهم مكروهة صبروا
شمس العداوة حتى يستقاد لهم وأعظم الناس أحلاماً إذا قدروا

ومنها فى عبد الملك

نفسى فداء أمير المؤمنين إذا أبدى النواجذ يوماً عارم ذكر
الخائض الغمرة الميمون طائره خليفة الله يستسقى به المطر

ولما حمله بشر بن مروان على الحكم بين الفرزدق وجرير فقال مدحها « الفرزدق ينحت من صخر وجرير يغرف من بحر » لم يرض بذلك جرير وقال:

يا ذا الغباوة إن بشرا قد قضى ألا تجوز حكومة النشوان
فدعوا الحكومة لستم من أهلها إن الحكومة فى بنى شيبان
قتلوا كليبكم بلقحة جارهم ياخزر تغلب لستم بهجان

فقال يرد على جرير :

اخسأ اليك كليب إن مجاشعاً وأبا الفوارس نهشلا أخوان[1]
ولقد تناسبتم إلى أحسابكم وجعلتم حكماً من السلطان
فإذا كليب لا تساوى دارما حتى يساوى خرزم بأبان[2]
وإذا وردت الماء كان لدارم عَفواتُه وسهولةُ الأعطان

(١) مجاشع هو ابن دارم بن مالك التميمى ، ونهشل هو ابن لقيط بن زراة التميمى
(٢) خرزم : تل صغير ، وأبان جبل عظيم

ومن هجاء جرير للأخطل بهجاء قبيلته تغلب وافتخاره بمضر قوله :

إن الذى حرم المكارم تغلبا ... جعل النبوة والخلافة فينا
مضر أبى وأبو الملوك فهل لكم ... يا خزر تغلب من أب كابينا
هذا ابن عمى فى دمشق خليفة ... لو شئتُ ساقكم إلى قطينا

ومن موجع هجائه لتغلب

إنى جعلت فلن أعافى تغلباً ... للظالمين عقوبة ونكالا
قبح الإلهُ وجوه تغلب إنها ... هانت علىَّ مراسنا وسبالا
قبح الإلهُ وجوه تغلب كلما ... شبح الحجيج وكبروا إهلالا
عبدوا الصليب وكذبوا بمحمد ... وبجبرئيل وكذبوا ميكالا
المعرسين إذا انتشوا ببناتهم ... والدائبين إجارةً وسؤالا
والتغلبىُ إذا تنحنح للقرى ... حك استه وتمثل الأمثالا
ولو آن تغلب جمعت أنسابها ... يوم التفاضل لم تزن مثقالا
لا تطلبن خُئولة فى تغلب ... فالزنج أكرم منهم أخوالا

ولقد اجتمع الأخطل وجرير على هجاء التيم . فمن هجاء الأخطل لها قوله

وكنت إذا لقيتَ عبيدَ تيم ... وتيما قلت أيهما العبيد[1]
لئيمُ العالمين يسود تيما ... وسيدهم وإن كرهوا مسود

ومن أهاجى جرير فيهم قوله من قصيدة

إذا عد الكرامُ وجدتَ تيما ... نُخالتهم وغيرَهم اُللبابا
ترى للؤم بين سِبال تيم ... وبين سواد أعينهم كتابا

وقوله من أخرى :

ترى الأبطالَ قد كُلموا وتيم ... صحيحُ الجلد من أثر الكلوم
من الأصلاب ينزل لؤم تيم ... وفى الأرحام يخلق واللئيم

(١) يعنى تيم ضبة من تميم

ولما هجاه ابن أم غسان شاعر سليط بقوله :

لعمري لئن كانت بجيلة زانها ... جرير لقد أخزى كليبا جريرها[1]

رميت نصالا عن كليب فقصرت ... مراميك حتى عاد صفراً جفيرها

قال فيه :

ألا ليت شعرى عن سليط ألم تجد ... سليطٌ سوى غسان جارا يجيرها

فقد ضمنوا الأحساب صاحب سوأة ... يناجى بها نفسا خبيثا ضميرها

فما فى سليط فارس ذو حفيظة ... ومعقلها يوم الهياج جُعورُها

ولما اعترض البعيث دون ابن أم غسان ، وقال منتصراً له يهجو قوم جرير مخاطباً إياه

كليبٌ لئامٌ ، الناس قد تعلمونه ... وأنت إذا عُدت كليب لئيمها

أترجو كليب أن يجىء حديثها ... بخير وقد أعيا كليباً قديمها

قال فيه جرير :

ألم تر أنى قد رميت ابن فرتنى ... بصماء لا يرجو الحياة أميمها[2]

له أم سَوء بئس ما قدمت له ... إذا فرُط الأحساب عُد قديمها

ولما أعان الفرزدق البعيث على جرير إذ نال من مجاشع وهما منها بقوله فيه

عجبت لحين ابن المراغة أن رأى ... له غنما ، أهدى إلى القوافيا

وهل كان فيما قد مضى من شبيبتى ... له رخصة عندى فيرجو ذكائيا

ألم أك قد راهنت حتى علمتم ... مكانى وخلّت لى معد عِنانيا

وما حملت أم امرء فى ضلوعها ... أعق من الجانى عليها هجائيا

وأنت بوادى الكلب لا أنت ظاعن ... ولا واجد يابن المراغة بانيا

إذ العنز بالت فيه كادت تسيله ... عليك وتنفى أن تحل الروابيا

رد عليه جرير بقصيدة طويلة منها قوله يخاطبه :

---

(١) يعنى بجرير الاول جرير بن عبد الله البجلى من أصحاب رسول الله وعون على ، وبالثانى الشاعر (٢) الفرتنى ، الفاجرة والأميم ، المصاب فى أم رأسه

بأى نجاد تحمل السيف بعدما قطعتُ القوى من محمل كان باقيا
بأى سنان تطعن القومَ بعد ما نزعتُ سنانا من قناتك ماضيا
لسانى وسيفى صارمان كلاهما وما السيف أشوى وقعة من لسانيا

ثم نشب الهجاء بين جرير والفرزدق دون من ذكرنا حتى ضربت به الأمثال : وكان بدء انصراف جرير عن البعيث إلى الفرزدق قوله :

تمثى رجال من تميم لى الردى وما ذاد عن أحسابهم ذائد مثلى
كأنهم لا يعلمون مواطنى وقد علموا أنى أنا السابق المجلى
فلو شاء قومى كان حلمى فيهم وكان على جُهال أعدائهم جهلى
وأوقدت نارى بالحديد فأصبحت لها لهب يُصلى به الله من تُصلى
إذا سار فى الركب البعيثُ عرفتم ترمز حمراء العِجان على الرحل
لعمرى لقد أخزى البعيث مجاشعاً وقال ذوو أحسابهم ساء ما يُبلى

إلى أن قال متخلصاً إلى الفرزدق

ولما اتقى القين العراقى باسته فرغتُ إلى القين المقيد بالحَجْل
ألم تر أنى لا تُسِل رميتى فمن أرم لا تخطىء مقاتله نبَلى

وهذه الأبيات من قصيدة يرد بها جرير على قصيدة للبعيث من وزنها وقافيتها يقول فيها لجرير

أبى لِكليب أن تسامىَ معشرا من الناس أن ليسوا بفرع ولا أصل
سواسية سود الوجوه كأنهم ظرابىٌ غربان بمجروَدة نَحْل
فقل لجرير اللؤم ما أنت صانع وبين لنا إن البيان من الفصل
أبوك عطاء ألأم الناس كلهم فقبح من شيخ وقبحت من نجل

وهى التى يقول فيها للفرزدق لائماً إياه على قعوده عن هجو جرير

لعمرى لقد ألهى الفرزدق قيدُه ودُرج نوار ذو الدهان وذو الكحل
فيالَيت شعرى هل ترى لى مجاشع غَنائىَ فى جل الحوادث أو بذلى
وذَبىَ عن أعراضهم كل مترف وجِدى إذا كان القيام على رجل

والقيد الذى يشير إليه البعيث وجرير فى كلامهما عن الفرزدق هو ما كان

من الفرزدق فى تقييد نفسه وتوبته وحديثه عن ذلك فى قصيدة جاءت من وزنها ورويها قصيدتا جرير والبعيث، منها

لعمرى لئن قيدتُ نفسى لطالما ... سعيت وأوضعتُ المطيةَ للجهل
ثلاثين عاماً ما أرى من عَمايةٍ ... إذا برقت إلا شددت لها رحلى
أتتنى أحاديث البعيث ودونه ... زرود فشامات الشقيق إلى الرمل
فإن يك قيدى كان نذراً نذرته ... فما بِىَ عن أحساب قومى من شُغل
أنا الذائد الحامى الذمار وإنما ... يدافع عن أحسابهم أنا أو مثلى

ولما هجا الفرزدق قيساً فى أمر قتيبة بن مسلم الباهلى ولجرير فى قيس خشولة بقوله فيها:

أتانى وأهلى بالمدينة واقعة ... لآل تميم أقعدت كل قائم
كأن رءوس الناس إذ سمعوا بها ... مُشَدَّخة هاماتها بالأماثم
وما بين من لم يعط سمعاً وطاعة ... وبين تميم غير حز الحلاقم
أتغضبُ أن أذنا قتيبة حزتا ... جهاراً ولم تغضب لقتل ابن خازم[1]
وما منهما إلا نقلنا دماغه ... إلى الشام فوق الشاحجات الرواسم
نذَبْذَبُ فى الخلاذ تحت بطونها ... محذفة الأذناب جلح المقادم
وما أنت من قيس فتلبح دونها ... ولا من تميم فى الرءوس الأعاظم
تخوفنا أيام قيس ولم ندع ... لعَيلانَ أنفاً مستقيم الخياشم
لقد شهدت قيسٌ فما كان نصرُها ... قتيبة إلا عَضَّهـــا بالأباهم

قال جرير يجيبه

تحضض يابنَ القين قيساً ليجعلوا ... لقومك يوماً مثل يوم الأراقم[2]
كأنك لم تشهد لقيطاً وحاجبا ... وعمرو بن عمرو اذدعو يال دارم[3]
ولم تشهد الجونين والشِّعب ذا الصفا ... وشدات قيس يوم دير الجماجم[4]
فيوم الصفا كنتم عبيداً لعامر ... وبالخِنْو أصبحتم عبيدَ اللهازم[5]

---

(١) خارجى كقتيبة (٢) يوم كان لقيس على تغلب (٣) كان ذلك يوم شعب جبلة وكان لقيس على تميم (٤) هو اليوم الذى قتل فيه ابن الاشعث - بن خرج على الحجاج
(٥) اللهازم هم بنو تميم بن ثعلبة بن بكر

إذا عُدَّت الأيام أخزين دارِما وتخزيك يا بنَ القين أيامُ دارم

ومن موجع هجاء الفرذق لجرير قوله :

أرى الليل يجلوه النهار ولا أرى عظامَ المخازى عن عطيةَ تنجلى
أمن جزَعَ أن لم يكن مثلَ غالب أبوك الذى يمشى بربْق موصل
وإن تهج آل الزبرقان فإنما هجوتَ الطوال الشمّ من هضب يذبل (١)
وقد يدلج الكلبُ النجومَ ودونها فراسخ تُضنى العينَ للمتأمل
فما تم فى سعد ولا آل مالك غلامٌ إذا ما قيل لم يتبهدل (٢)
لهم وهب النعمانُ بردىْ مُحرّق بمجد معدٍّ والعديدِ المحصّل

وليس بأقل منه قول جرير فيه

كذب الفرزدقُ لن يجارى عامراً يوم الرهان بمقرف مبهور
ولقد جهلت بشتمْ قيس بعدما ذهبوا بريش جناحك المكسور
لن تُدرِكوا غطفانَ لو أجرِ يُتمُ يا بن الفُيون ولابنى منصور (٣)
فخروا عليك بكل سام مُعلم فافخر بصاحب كلبتين وكير
كم أنجبوا بخليفةٍ وخليفةٍ وأمير صائفتين وابن أمير

ولما فضل الراعى الفرزدق على جرير فى قصيدته التى مطلعها

ياصاحبىّ دنا الأصيل فسيرا غلب الفرزدقُ فى الهجاء جريرا

وعاتبه جرير فلم يعتبه ، قال جرير قصيدته الفاضحة التى مطلعها

أقلى اللوم عاذل والعتابا وقولى إن أصبتُ لقد أصابا

ومنها بعد نسيبه وفخره — والراعى من نمير —

فغض الطرف إنك من نمير فلا كعباً بلغتَ ولا كلابا
فلو وضعت فقاح بنى نمير على خبث الحديد إذن لذابا
ولو ولدت فقيرة جرو كلب لسبب ذلك الجرو الكلابا
ولو وطئت نساء بنى نمير على تَرب لأخبث بالترابا
فلا صلى الإلهُ على نمير ولا سُقيت قلوبهم سحابا

(١) يذبل جبل (٢) لم يكن من بهدلة (٣) بنو منصورٌ من قيس

أنا البازى المطل على نمير أتيح لهم من الجو انصبابا

ولكل من الفرزدق وجرير مدائح ولكن هوى الفرزدق علوى وهوى جرير أموى ، وهذا بعض منها

وفد جرير أول دخوله العراق على الحكم بن أيوب الثقفى ابن عم الحجاج وعامله على البصرة فقال وكان رجازاً

أقبلن من ثهلان أو وادى خيم على قلاص مثل خيطان السلم
إذا قطعنَ علـــا بدا علم حتى أنخناها إلى باب الحكم
خليفة الحجاج غير المتهم فى ضئضئ المجد وبحبوح الكرم

فبعث به إلى الحجاج فمدحه وكان من قوله فيه

إن ابن يوسف فاعلموا وتيقنوا ماضى البصيرة واضح المنهاج
ماض على الغمرات يمضى همه والليل مختلف الطرائق داج
منع الرشا وأراكم سبل الهدى واللص نـكله عن الأدلاج
فاستوسقوا وتبينوا سبل الهدى ودعوا النجى فليس حين تناجى

وهى طويلة ومنها فى صفته وهما بيتاها

من سد مطلع النفاق عليكم أم من يصول كصولة الحجاج
أم من يغار على النساء حفيظة إذ لا يثقن بغيرة الأزواج

فبعث به الحجاج إلى عبد الملك فمدحه بقصيدة طويلة منها

تعزت أم حزرة ثم قالت رأيت الواردين ذوى امتياح
تعلل وهى ساغبة بنيها بأنفاس من الشبم القراح
سأمتاح البحور فجنبينى أذاة اللوم وانتظرى امتياحى
ثق بالله ليس له شريك ومن عند الخليفة بالنجاح
أغثنى يا فداك أبى وأمى بسيب منك إنك ذو ارتياح
فأنى قد رأيت على حقاً زيارتى الخليفة وامتداحى
سأشكر أن رددت إلى ريشى وأنبتَّ القوادمَ فى جناحى
ألستم خير من ركب المطايا وأندى العالمين بطون راح ؟

ومن مدائح الفرزدق الرائعة على ما كان من اشتغاله عن المدح بالفخر والهجاء، قوله يمدح على بن الحسين من قصيدة

هذا الذى تعرف البطحاءُ وطأته ... والبيتُ يعرفه والحل والحرم
هذا ابنُ خير عباد الله كلهم ... هذا التقى النقى الطاهرُ العلم
إذا رأته قريش قال قائلُها ... إلى مكارم هذا ينتهى الكرم
وليس قولك من هذا بضائره ... العرب تعرف من أنكرت والعجم
يُغضى حياءً ويغضى من مهابته ... فما يُكلمُ إلا حينَ يبتسم
بكفه خيزران ريحه عبق ... من كف أروع فى عرنينه شمم
يكادُ يمسكه عرفانَ راحته ... ركنُ الحطيم إذا ما جاء يستلم
ينشق ثوبُ الدجى عن نور غرته ... كالشمس تنجاب عن إشراقها الظلم
من معشر حبهم دين وبغضهم ... كفرٌ وقربهم منجىً ومعتصم
إن عد أهل التقى كانوا أئمتهم ... أو قيل من خير أهل الأرض قيل هم

والمدائح والأهاجى فى هذا العهد أبعد من أن يجمع بين أطرافها اختيار، فلندعها إلى غيرها مرغمين.

٣ — شعر الغزل

قال جميل بن عبد الله بن معمر العذرى وهو إمام المتغزلين بالإجماع، يذكر أياماً له مع محبوبته بثينة وقد فرقت بينهما نوى شطون متمنياً أن تعود.

ألا ليت أيام الصفاء جديدُ ... ودهراً تولى يا بثين يعود
فنغنى كما كنا نكون وأنتم ... صديق وإذ ما تبذلين زهيد
إذا قلت ما بى يا بثينة قاتلى ... من الحب، قالت ثابت ويزيد
وإن قلت ردى بعض عقلى أعش به ... مع الناس قالت ذاك منك بعيد
فلا أنا مردود بما جئت طالبا ... ولا حبها فيما يبيد يبيد
يموت الهوى منى إذا ما لقيتها ... ويحيا إذا فارقتها فيعود
يقولون جاهد يا جميل بغزوة ... وأىّ جهاد غيرهن أريد

وقال :

لها فى سواد القلب بالحب منعةٌ ... هى الموت أوكادت على الموت تشرف
وما ذكرتك النفس يابثن مرة ... من الدهر إلا كادت النفس تتلف
وإلا اعترتنى زفرة واستكانة ... وجاد لها سجل من الدمع يذرف
وما استطرفت نفسى حديثاً لخلة ... أسرَّ به الا حديثك أطرف
أمنصفتى بثنٌ فتعدلَ بيننا ... إذا حكمت والحاكم العدلُ ينصف
تعلقتها والجسم منى مصحح ... فما زال ينمى حب بثن وأضعف
إلى اليوم حتى سل جسمى وشفنى ... وأنكرت من نفسى الذى كنت أعرف

وقال :

وما زلتم يابثن حتى لو آننى ... من الشوق أستبكى الحمام بكى ليا
إذا خدرت رجلى وقيل شفاؤها ... دعاء حبيب كنت أنت دعائيا
وما زادنى النأى المفرق بعدكم ... سلوا ولا طول التلاقى تقاليا
ولا زادنى الواشون إلا صبابة ... ولا كثرة الناهين إلا تماديا
ألم تعلمى ياعذبة الريق أننى ... أظل إذا لم ألق وجهك صاديا
وإنى ليلسينى لقاؤك كلما ... لقيتك يوما أن أبثك ما بيا
لقد خفت أن ألقى المنية بغتة ... وفى النفس حاجات اليك كما هيا

وقال وهو من أبدع . ما قال :

وانى لأرضى من بثينة بالذى ... لو آبصره الواشى لقرت بلابله
بلا وبألا أستطيع وبالمنى ... وبالأمل المرجوّ قد خاب آمله
وبالنظرة العجلى وبالحول تنقضى ... أواخره لا نلتقى وأوائله

وقال عمر بن عبد الله بن أبى ربيعة

قال لى صاحبى ليعلم ما بى ... أتحبُّ القتول أخت الرباب؟
قلت وجدى بها كوجدك بالما ... ء إذا ما منعت بردَ الشراب
مَن رسولى الى الثريا فانى ... ضقت ذرعاً بهجرها والكتاب
سلبتنى مجاجةُ المسك عقلى ... فسلوها بِمَ تحل اغتصابى؟

أبرزوها مثل المهاة تهادى ... بين خمس كواعب أتراب
وهى مكنونة تحير منها ... فى أديم الخدين ماء الشباب
ثم قالوا تحبها قلت بهراً ... عددَ النجم والحصا والتراب
دمية عند راهب ذى اجتهاد ... صوروها فى جانب المحراب

وقال فى وداع

كدت يوم الرحيل أقضى حياتى ... ليتنى مت قبل يوم الرحيل
لا أطيق الكلام من شدة الخو ... ف ودمعى يسيل كل مسيل
ذرفت عينها وفاضتْ دموعى ... وكلانا يُلُفّ بلب أصيل

وقال من وصف زورة ليلية طويل

فحييتُ إذ فاجأتها فتولهت ... وكادت بمكنون التحية تجهر
وقالت وعضت بالبنان فضحتنى ... وأنت امرؤ ميسور أمرك أعسر
فقلت لها بل قادنى الشوق والهوى ... اليك وما عين من الناس تنظر
فيالك من ليل تقاصر طوله ... وما كان ليلى قبل ذلك يقصر
ويالك من ملهى هناك ومجلس ... لنا لم يكدره علينا مكدر
فلما تقضى الليلُ إلا أقلَّه ... وكادت توالى نجمه تتغور
أشارت بأن الحى قد حان منهم ... هبوبٌ ولكن موعدٌ لك عزور
ولما رأت من قد تثور منهم ... وأيقاظهم قالت أشر كيف تأمر
فقلت أباديهمْ ، فإما أفوتهم ... وإما ينالُ السيف ثأراً فيثأر
فقالت أتحقيقاً لما قال كاشح ... علينا وتصديقاً لما كان يؤثرُ
فإن كان ما لا بد منه فغيره ... من الأمر أدنى للخفاء وأستر
وقامت كئيباً ليس فى وجهها دم ... من الحزن تذرى عبرة تتحدر
فقالت لأختيها أعينا على فتى ... أتى زائراً والأمر للأمر يقدر
فأقبلتا فارتاعتا ثم قالتا ... أقلى عليك الهم فالخطب أيسر
يقوم فيمشى بيننا متنكراً ... فلا سرنا يفشو ولا هو يظهر
فكان بِجنىَ دون من كنت أتقى ... ثلاث شخوص كاعبان ومعصر

فلما أجزنا ساحة الحى قلن لى ألم تتق الأعداء والليلُ مقمر
وقلن أهذا دأبك الدهرَ سادراً أما تستحى أو ترعوى أو تفكر

وقال أبو دهبل الجمحى

وبت كئيباً ما أنام كأنما خلالَ ضلوعى جمرة تتوهج
فطورا أمنى النفس من عمرَة المنى وطوراً إذا ماجاج بى الحزن أنشج
لقد قطع الواشون ما كان بيننا ونحن الى أن يوصل الحبل أحوج

وقال عبيد الله بن قيس الرقيات

رُقىَّ بعيشكم لا تهجرينا ومنينا المنى ثم امطلينا
عدينا فى غد ما شئتِ إنا نحب وإن مطلت الواعدينا
فإما تنجزى عدتى وإما نعيش بما نؤمل منك حينا

وقال قيس بن مُعاذ أوابن الملوح على خلاف فى أبيه وهو المعروف بمجنون ليلى

فوالله ثم اللهِ إنى لدائب أفكر ما ذنبى اليها وأعجب
ووالله ما أدرى علام قتلتنى وأىَّ أمورى فيك ياليل أركب
أأقطع حبل الوصل والموت دونه أم اشرب رنقا منكم ليس يُشرب
أم اهرب حتى لا أرى لى مجاورا أم اصنع ماذا أم أبوح فأغلب
فأيهما ياليلُ ما ترتضينه فإنى لمظلوم وإنى لمعتب

وقال كثير عزة لما أخرجت إلى مصر

وقال خليلى مالها إذ لقيتها غداة السنا، فيها عليك وجوم
فقلت له إن المودة بيننا على غير فحش والصفاءُ قديم
وإنى وإن أعرضتُ عنها تجلدا على العهد فيما بيننا لمقيم
وإن زمانا فرق الدهر بيننا وبينكمُ فى صرفه لمشوم

وقال قيس بن ذَريح فى زوجه لُبنى وقد حملت إلى أهلها مطلقة على غير رغبة منه

وانى لمفن دمع عينى بالبكا حِذار الذى قد كان أو هو كائن
وقالوا غداً أو بعد ذاك بليلة فراق حبيب لم يَبِن وهو بائن
وما كنت أخشى أن تكون منيتى بكفيكِ إلا أن ما حان حائن

وقال المخبل القيسى واسمه كعب فى ميلاء ابنة عمة :

بُلينا بهجران ولم أر مثلنا ... من الناس إنسانين يهتجران
أشد مصافاة وأبعد من قِلى ... وأعصى لواش حين يكتفيان
فوالله ما أدرى أكلُّ ذوى الهوى ... على ما بنا أم نحن مبتليان

وقال يزيد بن الطثرية :

بنفسىَ من لو مرَّ بَرْدُ بنانه ... على كبدى كانت شفاءً أناملُه
ومن هابنى فى كل أمر وهبته ... فلا هو يُعطينى ولا أنا سائله

وقال ذو الرمة :

ما بال عينكَ منها الماء ينسكبُ ... كأنه من كلىَ مفربةَ سَربُ
استحدث الركب عن أشياعهم خبرا ... أم راجع القلب من أطرابه طرب
لا بل هو الشوق من دار تخونها ... مرٌّ سحابٌ ومرا بارحٌ تَرب
دار لميةَ إذ مى تساعِفنا ... ولا يرى مثلها عُجم ولا عرب
عجزاء مكورة خُمصانة قلق ... منها الوشاحُ وتم الجسم والقصب
زين الثياب وإن ثوابها استلبت ... على الحشية يوما زانها السلب
براقة الجيد ، واللباتُ واضحة ... كأنها ظبية أفضى بها لبب
لمياءُ فى شفتيها حُوة لعس ... وفى اللثاث وفى أنيابها شنبَ
كحلاءُ فى دعج صفراءُ فى برج ... كأنها فضة قد شابها ذهب
تريك سُنة وجه غير مقرفة ... ملساء ليس بها خال ولا ندب
تزداد فى العين إبهاجا إذا سفرت ... وتحرج العينُ فيها حين تنتقب
والقرط فى حره الذفرى معلقة ... تباعد الحبل فيه فهو يضطرب
تلك الفتاة التى علقتها عرضاً ... إن الكريم وذا الاسلام يختلب

وقال توبة بن الحمير فى ليلى الأخيلية :

ولو أن ليلى الأخيلية سلمت ... علىَّ ودونى جندل وصفائح
لسلمت تسليم البشاشة أوزقا ... اليها صدى من جانب القبر صائح

وقالت تعنيه :

وذى حاجة قلنا له لا تبح بها فليس إليها ما حييت سبيل
لنا صاحب لا ينبغى أن نخونه وأنت لأخرى صاحب وخليل

وقال جرير من قصيدة طويلة أبدع النسيب فيها :

يا أم عمرو جزاك الله مغفرة ردى على فؤادى كالذى كانا
ألست أحسن من يمشى على قدم يا أملح الناس كل الناس إنسانا
يلقى غريمكم من غير عسرتكم بالبذل نخلا وبالأحسان حرمانا
لقد كتمت الهوى حتى تهيمنى لا أستطيع لهذا الحب كتمانا
لا بارك الله فى الدنيا إذا انقطعت أسباب دنياكِ من أسباب دنيانا
أبدل الليل لا تسرى كواكبه أم طال حتى حسبت النجم حيرانا
إن العيون التى فى طرفها حور قتلتنا ثم لم يحيين قتلانا
يصرعن ذا اللب حتى لا حراك به وهن أضعفُ خلق الله انسانا

وقال الأحوص واسمه عبد الله بن محمد بن عبد الله من الأوس :

الا لا تلمه اليوم أن يتبلدا فقد غلب المحزون أن يتجلدا
وما العيش إلا ما تلذ وتشتهى وإن لام فيه ذو الشنان وفندا
بكيت الصبا جهداً فمن شاء لامنى ومن شاء واسى فى البكاء وأسعدا
وإنى وإن عيرت فى طلب الصبا لأعلم أنى لست فى الحب أوحدا

٤ — شعر الأغراض الأخرى

كانت الأغراض الثلاثة المتقدمة نماذجها وهى الشعر السياسى وشعر الهجاء والمدح ثم شعر الغزل ، هى الغالبة على الشعر فى العصر الأموى ولذا أفردنا كلا منها بنماذج فيما مضى ، وجمعنا بين نماذج الأغراض الأخرى هنا قال الفرزدق يفتخر ولكنه لم يلس جريراً بلاذع هجوه .

ألم تر أنا بنى دارم زرارة منا أبو معبد
ومنا الذى منع الوائدا ت وأحيا الوئيد فلم توأد
وناجية الخير والأقرعا ن وقبر بكاظمة المورد

إذا ما أتى قبره عائذ أناخ على القبر بالأسعد
ألسنا بأصحاب يوم النسا ر وأصحاب ألوية المربد
ألسنا الذين تميم بهم تسامى وتفخر فى المشهد
أيطلب مجد بنى دارم عطيةُ كالجعل الأسود
قرنبى يحك قفا مقرف لئيم مآثره قُعدد
ومجد بنى دارم دونه مكانُ السماكين والمرقد

وقال الأخطل يصف الكأس

وكأس مثل عين الديك صرف تلقى الشاربين لها العقولا
إذا شرب الفتى منها ثلاثاً بغير الماء حاول أن يطولا
مشى قرشية لا شك فيها وأرخى من مآزره الفضولا

ومن قوله يصف السكران:

صريع مدام يرفع الشرب رأسه ليحيا وقد ماتت عظام ومفصل
نهاديه أحيـــاناً وحينا نجره وما كاد إلا بالحشاشة يعقل
إذ رفعوا صدراً تمايل صدره وآخر مما نال منها محـــل

فباب الفرزدق الذى لا ينازع فيه مع الشعر السياسى والمدح والهجاء الفخر، وباب الأخطل معهما وصف الخمر، أما باب جرير معهما أيضاً فهو النسيب وقد سلفت قطعة من قصيدة له فى نماذج الغزل، على أنه كان يجيد مع هذه، الرثاء أيضاً، ومما يحمد له فيه قوله يرثى الفرزدق.

لعمرى لقد أشجى تميما وهدّها على نكبات الدهر موت الفرزدق
عشية راحو للفراق بنعشة إلى جدث فى هوة الأرض معمق
لقد غادروا فى اللحد من كان يلتمى إلى كل نجم فى السماء محلق
عماد تميم كلها ولسانها وناطقها الذاخ فى كل منطق
فمن لذوى الأرحام بعد ابن غالب لجا وعانٍ فى السلاسل موثق
ومن لتميم بعد موت ابن غالـ ـب وأم عيال ساغبين وردفى
ومن يطلق الأسرى ومن تحقن الدما بداه ويشفى صدر حران محرق

فتى عاش يبنى المجد تسعين حجة وكان إلى الخيرات والمجد يرتقى

وقال حصين بن معاوية المعروف بالراعى يصف بيضة نعام حضنها ظليم بالليل ثم تركها عند طلوع الشمس ينتفض .

وما بيضة بات الظليم يحفها بوعساء أعلى تربها قد تلبدا
فلما علته الشمس فى يوم طلقة وأشرف مكاء الضحى فتغردا
أراد قياماً فازبأر عفاؤه وحرك أعلى جيده فتأودا
وهز جناحيه فساقط جيده فراشاً وهى عن متنة فتبددا
فغادر فى الأدحىّ صفراءَ تركة هجانا إذا ما الشرق فيها توقدا
بأليَنَ مسا من سعاد للامس وأحسن منها حين تبدى مجردا

وقال القطامى وهو عمير بن شُييم من تغلب

ليس الجديد به تبقى بشاشته إلا قليلا ولا ذو خُلة يصل
والعيش لا عيش إلا ما تقربه عين ولا حالة إلا ستنتقل
والناس من يلق خيرا قائلون له ما يشتهى ولأم المخطئ الهبلَ
قد يدرك المتأنى بعض حاجته وقد يكون مع المستعجل الزلل

وقال قطرى بن الفجاءة .

أقول لها وقد طارت شعاعاً من الأبطال ويحك لن تراعى
فإنك لو سألت بقاء يوم على الأجل الذى لك لم تطاعى
فصبراً فى مجال الموت صبراً فما نيل الخلود بمستطاع
ولا ثوب البقاء بثوب عز فيطوى عن أخى الخنع اليراع
سبيل الموت غاية كل حى فداعيه لأهل الأرض داع
ومن لا يعتبط يَسأم ويهرَم وتسلمه المنون إلى انقطاع
وما للمرء خير فى حياة إذا ما عدا من سقط المتاع

وقال صخر بن حبناء التميمى من الأزارقة .

إنى هزئت من آم الغمر إذ هزئت بشيب رأسى وما بالشيب من عار
ما شقوة المرء بالأقتار يقترة ولا سعادته يوما بأكثار

إن الشقى ، الذى فى النار منزله ... والفوز فوز الذى ينجو من النار
أعوذ بالله من أمر يزين لى ... لوم العشيرة أو يدنى من النار
وخير دنيا ينسى شر آخرة ... وسوف ينبئنى الجبار أخبارى
لا أقرب البيت أحبو من مؤخره ... ولا أكسر فى ابن العم أظفارى
إن يحجب الله أبصارا أراقبها ... فقد يرى الله حال المدلج السارى

ب — حياته

إحياء العصبيات :-

آلت الخلافة إلى معاوية على كره من الفريق الأعظم فى الأمة ، فكان عليه أن يصرف جل اهتمامه بل كله إلى استرضاء من يمكن استرضاؤهم من هذا الفريق والأحالة بين لم يرضوا وبين الطمع فى استخلاصها منه، وكان عليه فوق ذلك أن يحول الخلافة الشورية التى لم تك وقفا على بيت دون سائر البيوت إلى ملك عضوض يتوارث كما كانت تفعل القياصرة والأكاسرة فى الفرس والروم. وقد أتاحت له فسحة أجله الذى امتد به عشرين سنة بعد عام الجماعة أن يحقق هذين الأمرين معا بما بذل من عناية فاقت كل عناية وتابع من جهود كانت تزلزل دون احتمالها الرواسى . ولقد كان أول جهد انصرف اليه همه بعد ذلك العام أن يبعث العصبية الجاهلية من مرقدها ويرد العرب إزاءها كما كانت شيعا وأحزابا ، وما كان أشد تعطش القبائل كتميم وقيس من مضر ، وبكر وعبد القيس من ربيعة ، وكندة والأزد من اليمن إلى هذا البعث يطفئون به غلة كانت كامنة فى نفوسهم ضد المهاجرين من قريش ، والأنصار من الخزرج والأوس، لما كان لهما من سبق إلى الاسلام مكن لهم فى حمل أمور الدولة وأتاح لهم التمتع بسلطانها . ولما كان مقتل عثمان رحمه الله قد فرق بين المهاجرين والأنصار أو بين قريش واليمن إذا انضم الألون إلى معاوية وثبت الآخرون مع على حتى قال رجل من اليمن لقريش فى حروب صفين (أيها الناس هل من رائح إلى الله تحت العوالى والذى نفسى بيده لنقاتلنكم على

تأويله كما قانلناكم على تنزيله) وكان اضطغان القبائل المذكورة وغيرها على قريش أشد منه على اليمن لأن المهاجرين كانوا ذوى الحل والعقد وبيدهم الأمر والنهى وما الأنصار معهم الا مساعدون ، فرأى معاوية حين استأثر بالأمر أن قريشا وحدها فى كفة والعرب كلها من نزارية ويمنية فى أخرى فكان عليه أن يؤلف اليه الطائفتين ويسترضى الفريقين ، غير أن مطامع النزاريين وتمكن الطامعين فى الخلافة من قريش أن يؤلفوا منهم أعوانا وأنصارا ، جعله ينصرف أولا إلى تأليف اليمنيين ليكون منهم مع أهل الشام جبهته التى عليها يعتمد ويده التى بها يبطش وكان قد بدأ شيئا من هذا مع الكلبيين المنتشرين بدومة الجندل وتبوك وأطراف الشام بزواجه منهم ميسون بنت بحدل أم ابنه يزيد وباستناضهم - لذلك ولأن امرأة عثمان كانت منهم - حين حروب صفين إلى الخروج لقتال على مطالبة على زعمه بدم عثمان ، فمازال يستغويهم بالمال ويدعم هذه الصلة فى عهده الجديد بشتى الوسائل حتى صارت كلب ومن انضم اليها من سائر اليمنية حميريين وكهلانيين وغير اليمنية كالربعيين وبعض القيسيين حزبه ضد جمهرة قيس والأنصار ، وبذلك صارت العرب كلبية وقيسية أو يمنية ومضرية . ولفضل كلب هذا على بنى أمية كانت لهادالة عليها جعلت ابن القعطل الكلبى يقول لها ما قدمنا من شعر فيما ظنه تقصيرا منهم ثم تمشى هذا الانقسام فى سائر أحاء المملكة الإسلامية ، وطالما قامت بسببه المنازعات فى الشام والعراق وفارس وخراسان ومصر وأفريقية والأندلس بعد ، فما خلا إقليم منها من حزب مضرى وآخر يمنى لا يزالان يتنازعان السلطان تنازعا بعيد الأثر فى تصريف أحواله وإدارة شئونه وكانت لذلك كله فى الشعر شئون .

١ — استخدام الشعر فى السياسة

أحيا معاوية تلك العصبية العامة على ماهو ناجم من خلافات بين أسرته وبنى هاشم ، وبين بنى عبد مناف والزبيريين ، وبينهم جميعا والخوارج . فأحيا بحياتها الشعر وألبسه ثوبه الجاهلى الفضفاض ثم لم يتركه ينمو وحده

على هذا الأساس بل لم يزل يمده بالأراك يذكى ناره ويزيد فى لهيبه بما كان يصنع من تقريب الشعراء واستخدامهم فى نشر مايريد بجزلا عطاياهم رافعا من شأنهم ، وقد استمال اليه منذ القديم الربعيين إذا استخلص منهم لنفسه كعب بن جعيل التغلبى فسماه شاعر الشام واستغله فى الخلف بينه وبين على الذى اضطر أن ينصب له قرينا من أتباعه هو النجاشى شاعر العراق ، وقد سبق ذلك كما سبق إيعازه إلى مسكين الدرامى أن يقول فيما بلغه من مكروه عن سعيد بن العاصى ومروان بن الحكم وعبد الله بن عامر حين هم بعقد ولاية العهد لابنه يزيد فقال ما قال ، وقد سبق أيضا ما كان من طلب يزيد هذا من كعب بن جعيل المذكور أن يهجو الأنصار لما كان من بغض الأمويين لهم فى نصرتهم عليا ومن اشتداد التهاجى بين شاعرهم عبد الرحمن ابن حسان وشاعر الأمويين عبد الرحمن بن الحكم ، وأن ابن جعيل وإن امتنع عليه فى هجو قوم نصروا رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله له « أرادى أنت إلى الشرك بعد الإيمان » قد دله على غلام منهم نصرانى هو الاخطل فأرسل اليه يزيد فهجاهم هجاء مرا تقدم ماكان من النعمان بن بشير بشأنه مع معاوية الذى تظاهر بعدم رضاه عنه ولكنه وقع على قلبه بردا وسلاما ولهذا تحيل فى عدم تمكين النعمان منه واستمر متخذا للاخطل بين أحضانه يرعاه على نصرانيته حتى ترعرع فى نعمة الدولة وصار الشاعر الرسمى لها على عهد عبد الملك بن مروان بعد .

هذا ولقد كان من معاوية فوق ذلك التقريب والإغراء الذى جعل الشعر ينمو ويزهر ، تركه خصماءه أحراراً يقولون مايريدون عملا بسياسته الآنفة فى أن من ترك ينفس عن نفسه بقوله لا يخشى كبير خطر من فعله ، ولهذا كان يسمع هجاءه بأذنه فيعفو ويصفح . دخل عليه أبو بردة بن أبى موسى الأشعرى صاحب الفضل عليه فى التحكيم فقال له يا أمير المؤمنين إن عتبة الأسدى قال فيك .

معاوى إننا بشر فاسجح فلسنا بالجبال ولا الحديد

أكلتم أرضنا وجردتموها فهل من قائم أو من حصيد
فهبنا أمة هلكت ضياعا يزيد أميرها وأبو يزيد
أتطمع بالخلود إذا هلكنا وليس لنا ولا لك من خلود
ذروا خول الخلافة واستقيموا وتأمير الأراذل والعبيد

فما يمنعك يا أمير المؤمنين أن تبعث إليه من يضرب عنقه قال أفلا خير من ذلك قال وما هو يا أمير المؤمنين قال نجتمع أنا وأنت ونرفع أيدينا إلى السماء وندعو عليه ، بل كان يصبر على ما هو آلم من ذلك وأنكى . روى أن يزيد ابنه قال له ذات يوم مغضباً أما سمعت قول عبد الرحمن بن حسان فى إبنتك ؟ قال وما الذى قال ، فقال قال

وهى زهراء مثل لؤلؤة الغو اص ميزت من جوهر مكنون

قال صدق فقال يزيد وقال

وإذا ما نسبتها لم تجدها فى سناء من المكارم دون

قال صدق فقال وإنه قال

ثم خاصرتها إلى القبة الخض راء تمشى فى مرمر مسنون

فقال كذب ولم يزد على هذا

ورث معاوية هذه السنة سنة العمل على إحياء العصبيات واستخدام الدولة للشعراء ، خلفاءها من بعده وقد كان قبل موته فرض للموالين منهم الأعطيات فى بيت المال . ولقد شاءت الحوادث أن تعمل بعد وفاته على زيادة الخلف واشتداد العصبيات فما كاد يزيد ابنه يتربع على كرسى الخلافة حتى خرج عليه الحسين بن على بالعراق وعبد الله بن الزبير بالحجاز . فأما الحسين فقد قتل هو نفر من آل بيته وبعض من أتباعه على أيدى من من وجههم إليه عبيد الله بن زياد والى يزيد على العراق فنكأ هذا القتل قروحاً قديمة وأحدث كلوماً جديدة غيرت من قلوب كثير على يزيد حتى ان عبد الملك بن مروان بعد كان يعتقد أن زوال ملك آل حرب كان سببه هذا القتل ولذلك أودع كتابه الذى بعث به إلى الحجاج حين ولاه

الحجاز ما نهاه به عن التعرض لمحمد بن على المعروف بابن الحنفية وأتباعه وقد كان من قوله فيه (جنبنى دماء بنى عبد المطلب فليس فيها شفاء من الحرب وإنى رأيت بنى حرب سلبوا ملكهم لما قتلوا الحسين بن على) . وأما ابن الزبير فمات يزيد وجيشه محاصره بمكة فعاد الجيش ولكن بعد أن حرق أستار الكعبة وصدع ركنها بأمر قائده الثانى الحصين بن نمير ، وبعد أن كانت وقعة الحرة بالمدينة قبل وصوله مكة على يد قائده الأول مسلم بن عقبة ، تلك الواقعة التى عدها يزيد ثأراً لأشياخه القتلى فى وقعة بدر حيث تمثل إذ بلغه خبرها بأبيات ابن الزبعرى التى قالها فى وقعة أحد وأولها

ليت أشياخى ببدر شهدوا جزع الخزرج من وقع الأسل

فهذان الحادثان الجللان صرفا عن الدولة قلوباً لعلها كانت موالية لبنى سفيان ، فادعى ابن الزبير الخلافة بمكة عقب وفاة يزيد وأتته البيعة من كثير من الأمصار ولما مات معاوية بن يزيد بعد أربعين يوماً من بيعته اضطرب أمر بنى أمية اضطراباً شديداً لنفور الأمة ولصغر أخيه خالد بن يزيد فبايعت القيسية بالشام عبد الله بن الزبير وولى عليهم من قبله رئيسهم الضحاك بن قيس وتعصب الكلبيون لخالد لأنهم أخوال أبيه وانضم إليهم مروان بن الحكم ولكن ليستخلص الأمر لنفسه بعد لا نصرة لخالد ، ثم كانت وقعة مرج راهط بين قيس ويمن فانجلت عن هزيمة قيس بخديعة مروان بن الحكم الذى بويع بالخلافة فانتقل به الملك من السفيانية إلى المروانية ، غير أن مناوأة السفيانيين لم تزل إلا بقتل زعيمهم عمرو بن سعيد الأشدق على يد عبد الملك ، فإنه لما ولى الخلافة بعد أبيه كان هذا القتل أول أعماله . ثم ولى الحجاج بن يوسف الحجاز ليصمد لعبد الله بن الزبير وشمر هو لأخيه المصعب فى العراق فقتل المصعب وقتل من بعده الحجاج عبد الله ، ولم يبق إلا الخوارج فى أطراف العراق فرد إليهم الحجاج من الحجاز فلم يزل تقاتلهم جيوشه تحت قيادة المهلب بن أبى صفرة حتى كسر حدتهم وأزال شوكتهم وبذلك صفا الجو لعبد الملك بعد هذه الانقلابات السياسية

الخطيرة التى بدأت بموت معاوية فكانت تربة صالحة نما فيها الشعر السياسى المختلف الألوان واتسع اتساعا هام منه الشعراء فى كل واد حتى وجدت طائفة جديدة هى طائفة الشعراء السياسيين الذين ديدنهم الانتماء إلى الأحزاب السياسية انتماء ينصر فيه كل حزب بالدفاع عن عقيدته والاعلان عن محاسنه ومهاجاة من يتصدى لذمه . ونظراً لاشتداد الخلف واتساع أفقه كان الشعراء السياسيون فى العهد الأموى أكثر الطوائف عدداً وأبعدهم نفوذاً منذ عهد معاوية إلى أن زالت الدولة وهذه أسماء بعضهم فى كل حزب

فمن أنصار الحزب الأموى كعب بن جعيل ومسكين الدارمى والأخطل وجرير وأبو العباس الأعمى وأعشى ربيعة ونابغة بنى شيبان وغيرهم كثير : ومن أنصار العلويين النجاشى وأبو الأسود الدؤلى وابن مفرغ الحميرى والفرزدق والنعمان بشير وإن كان قد ولى لبنى أمية والكميت بن زيد وأيمن ابن خريم وغيرهم . ومن أنصار الخوارج قطرى بن الفجاءة وعمران بن حطان والطرماح بن حكيم وعبدالله بن الحجاج الذبيانى ومن أنصار آل الزبير أبو وجزة السلمى المعروف بالسعدى لنزوله فيهم ومحالفة إياهم وإسماعيل بن يسار النسائى وعبيد الله بن قيس الرقيات . ومن أنصار آل المهلب زياد الأعجم وكعب الأشقرى وبهس الجرمى . وقد كان الموطن الغالب لمؤيدى الدولة الشام وشعرهم هو الشعر الموالى وموطن المعارضين على اختلاف نحلهم العراق وشعرهم هو الشعر الصاخب .

٢ — انتشار المدح والهجاء

ولقد انشر بانتشار هذا الشعر السياسى الذى كان يقصد إلى الطائفة أكثر مما يقصد إلى الأشخاص المدح والهجاء الموجهان إلى الأفراد انتصارا لعصبيات القبائل أو رغبة فى المال والثراء ، فكثر لذلك الشعراء المداحون والهجاءون بقصد التكسب لا الدفاع عن رأى واعتقاد . وإذ كانت الدولة على هذا السنن تجرى فترجو وتخاف الشعراء وترتب لهم الأموال

من فى المسلمين ، فإن الناس وهم على دين ملوكهم يكونون فيهم أرغب ولهم أرهب ، وهذا الذى كان . فولع العظماء بسماع المدح وأجزلوا عليه العطايا والهبات وتسابقوا فى ذلك تسابق الجياد فى الميدان ثم خافوا الهجو وحادوا عن التعرض له بما دفعوا ثمناً لأعراضهم ووقاية لأحسابهم . وكما كان الممدوح يطمع أن يوصف بما ليس فيه من صفات عن طريق الشعر الذى يثبتها له وإن كانت منه براء ، كذلك كان المهجو يتقى أن يوصم بما ليس فيه فيلصق به بتأثير الشعر لصوقاً ليس منه فكاك . على أن هذا النهم فى المديح والفرق من الهجاء ملأ من الخلفاء القلوب وامتلك عليهم الأسماع فلم يعد يكفيهم أن يسمعوا للدولة تثبيتاً ولا عنها دفاعا لا يكون لأشخاصهم فيه أكبر نصيب . وقلدهم فى ذلك الولاة والأمراء حتى لقد كان الواحد منهم يأبى على الشاعر أن يفتخر بنفسه ويؤاخذه على ذلك جاهداً .

ذكروا أن الفرزدق ونصيبا حضرا عند سليمان بن عبد الملك فقال سليمان للفرزدق أنشدنى مقدراً أن يمدحه فأنشد

وركب كأن الريح تطلب عندهم ... لها من ترة من جذبها بالعصائب
سروا يخبطون الليل وهى تلفهم ... إلى شعب الأكوار ذات الحقائب
إذا آنسوا ناراً يقولون ليتها ... وقد خصرت أيديهم نار غالب

فأعرض سليمان عنه مغضباً فقال نصيب ياأمير المؤمنين ألا أنشدك فى رويها ما لعله لا يتضع عنها قال هات فأنشد

أقول لركب قافلين لقيتهم ... قفا ذات أوشال ومولاك قارب
قفوا خبرونى عن سليمان إننى ... لمعروفه من أهل ودّان طالب
فعاجو فأثنوا بالذى أنت أهله ... ولو سكتوا أثنت عليك الحقائب

فقال سليمان للفرزدق كيف تراه قال هو أشعر أهل جلدته وكان نصيب أسود فقال سليمان ياغلام أعط نصيباً خمسمائة دينار وألحق الفرزدق بنار بيه فخرج الفرزدق وهو يقول

وخير الشعر أكرمه رجالا ... وشر الشعر ما قال العبيد

ولما عهد الحجاج إلى يزيد بن الحكم الثقفى على فارس وأتاه يودعه قال له أنشدنى مقدرا مدحه أيضا فقال .

وأبى الذى سلب ابن كسرى راية بيضاء تخفق كالعقاب الطائر

فاسترد العهد منه وقال للحاجب إذا أتاك به فقل له أورثك أبوك مثلَ هذا فلما قال له الحاجب ذلك قال قل للحجاج

وورثت جدى مجدَه وفعاله ووثتَ جدك أعنزا بالطائف

ثم بلغ من أثرة الخلفاء أن كانوا يرون احتباس الشاعر المجيد عليهم ويحنقون أشد الحنق إذا قصد بمديحه غيرهم ولذلك كان غضب عبد الملك على جرير شديدا لمدحه الحجاج ، وحين أوفده الحجاج اليه مع ابنه محمد ليشفع له عنده قال له حين دخل عليه واستأذن فى الأنشاد ، وماعساك أن تقول فينا بعد قولك فى الحجاج

من سد مطلع النفاق عليكم أم من يصول كصولة الحجاج

إن الله لم ينصرنى بالحجاج وانما نصر دينه وخليفته أو لست القائل

أم منْ يغار على النساء حفيظة إذ لا يثقن بغيرة الأزواج

والله لهممت أن أطير بك طيرة بطيئا سقوطها . ولولا توسل محمد فى رضاه عنه ، وتحايله هو فى الأذن له بالأنشاد حتى أنشد قصيدته المتقدم بعضها فى النماذج فتبسم عبد الملك إذ سمع البيت

ألستم خير من ركب المطايا وأندى العالمين بطون راح

ثم قال ، كذلك نحن ومازلنا كذلك ، مارضى عنه — ومن رجال المدح والهجاء من ذكرنا من الشعراء السياسيين ، ومنهم فى هذا العهد غير هؤلاء ، أرطاة بن سهية وأعشى تغلب والجحاف السلمى وجعفر بن الزبير ومالك ابن أسماء ومالك بن الريب وغيرهم كثير ، فانه لم يبق من الشعراء من لم ينغمس فى هذا الحمأة سوى أفراد معدودين ألهاهم الغزل كبعض من ذكرنا مثلَ جميل أو منعتهم عزة نفوسهم أن يمدحوا كعقيل بن علفة والمقنع الكندى وليس لهما نظراء سوى القنيل .

٣ — انتشار الغزل ونشأة الغناء

ولقد شاءت سياسة الدولة مع ماتقدم مما فتح أمام الشعراء أبواب التكسب بالشعر حتى صار الشعر يُدو عليهم من الخيرات مالم يخطر لهم على بال جلبا لمدحهم الزائف أو دفعا لهجوهم اللاذع ، أن يقف الخلفاء فى وجه ذوى المكانة من خصومهم القرشيين وقوفا يصدهم أن يحولوا فى أنحاء الدولة أو يتصلوا بأحد من ذوى الأقدار فى البلاد المفتوحة فاحتجزوهم فى الحجاز أنسب المواطن لهذا الحجز ، ولكنهم أغدقوا عليهم النعم إغداقا ونثروا لهم المال نثرا فولد فيهم هذا الفراغ ذو الجدة التفنن فى ضروب الاستمتاع والجرى إلى غير حد فى ميادين النعيم وكان من ذلك أن نبت بهذا الأقليم نوع ثالث من الشعر شرق وغرب مع النوعين السابقين وكثرت شعراؤه كثرة شعرائهما وذلك هو الغزل . غير أن الغزلين انشطروا شطرين بحكم البيئة التى فيها يعيشون والنظام الذى عليه يجرون . فسكان المدن منهم وأخصها المدنية ومكة والطائف مأوى الجوارى والقيان ، وملتقى الحاجين والزائرين قد توزعت أبصارهم فى مجالى الحسن المتغير الكثير ، فلم تقف أفئدتهم عند شخص دون شخص وصاروا طلاب جمال يتلمسونه أنى وجد ، ويعلقون به ما أقام ، حتى إذا ماذهب أوزاحمه ما هو أجمل منه غادروه وطاروا وراء الجديد مسرعين . وحامل لواء هذا بالاجماع عمر بن عبد الله ابن أبى ربيعة المخزومى . أما سكان بوادى الحجاز حيث لاترف ولا ثراء ، وحيث العفة العربية فى الرجل والمرأة ضاربة الجران ، فلم يجدوا من العوامل ما وجد هؤلاء فصار الواحد منهم يقف حبه على امرأة تتمنع عليه ولا يطمع منها فى منال ، الا الزورات البريئة وقلما تتاح ، فلا يزال يشكو بثه وحزنه وصبابته ووجده ، فى شعر ينتزعه من القلب ويحسن فيه التعبير عن الوجدان . وإمام هؤلاء جميعا غيرَ مدافع ، جميل بن عبد الله بن معمر العذرى صاحب بثينة . ولما كان هذا النوع من الغزل لايصدر الا عن

الحب اللافح بخـــلاف النوع الأول الصناعى ، فقد اعتبره الأدباء الغزل الحق وجعلوا رجاله الغزلين العاشقين وبذلك كان جميل إمام الناسبين جميعاً بالاجماع ، ومن رجال الغزل غير هذين المقدمين مجنون ليلى والعرجى والحارث المخزومى وأبو دهبل الجمحى وابن قيس الرقيات وكثير عزة وقيس بن ذريح والمخبل القيسى وابن ميادة وذو الرمة والأحوص ويزيد بن الطثرية وحميد بن ثور وغيرهم كثير ممن خلقوا أدبا ثالثا بالحجاز نظير الأدب الموالى بالشام والمعارض بالعراق هو الأدب اللاهى أو الباكى . هذا وقد استتبع وجوده نشوء الغناء بالحجاز لما بين الغناء وهذا النوع الشعرى من تمام الصلة وشدة العلاقة ولحاجة العيشة المترفة اليهما حاجة تكمل أسباب لذاذتها وتحوطها بالنعيم من جميع جهاتها .

نشأة الغناء وكثرة المغنين

نشأ الغناء العربى بالحجاز أولَ مانشأ بما تهيأ له من عوامل الترف والغنى والدعة والفراغ فضلا عن مَيل العرب بطبائعهم إليه واستعداد الحجازيين له أكثر من غيرهم ، لما عرف عنهم من رقة طبع ولطف ذوق ، وعن قطرهم من اعتدال هواء واعتلال نسيم . وكانت نشأته بمكة على يد أبى عثمان سعيد بن مِسجح مولى بنى مخزوم من السودان . ويقولون فى سبب هذا أنه سمع غناء من بنائين أحضرهم معاويةُ إلى مكة من الشام لبناء الدور المسماة بالرقط فأعجبه غناؤهم فاقتبس منه وغنى على شاكلته بالعربية ، أو أنه سمع ذلك من عمال أحضرهم من الفرس عبد الله بن الزبير لتجديد الكعبة بعد هدم جوانبها على أثر ضربها حين خروجه ، على أنه لا مانع من الجمع بين السببين فيكون قد اقتبس من الغناءين الرومى والفارسى . وقد زاده اقتناعا سفره بعد ذلك إلى الشام وإلى الفرس لتهذيب ما اقتبس بأخذ ما يستحسن واطراح ما يستقبح ولهذا لم تتم له الشهرة إلا حيث أجاد النقل والتهذيب وكان ذلك على أيام عبد الملك بن مروان .

ومن أوائل ماصنع من أصوات وهو من أجود أصواته مع ذلك ، هذه

الأبيات من شعر الأحوص .

مُنى على عانٍ أطلت عناءه ... قد يملك الحر الكريم فيسجح
أسلام إنك قد ملكت فأسجحى ... فى الغلّ عندك والعناة تُسرح
إنى لأنصحكم وأعلم أنه ... سيان عندكِ من يَغش وينصح
وإذا شكوت إلى سلامة حبها ... قالت أجد منك ذا أم تمزح

وقد أخذ عنه ابن سريج والغريض وغيرهما وعن الغريض أخذ معبد بعد، أما نشأته بالمدينة فكانت على يد سائب خاسر مولى عبد الله بن جعفر من الفرس ، ويقولون فى سبب هذا أن رجلا فارسياً يدعى نَشيطاً قدم المدينة فغنى بالفارسية وكان لعبد الله بن جعفر شغب بالطرب والغناء فأعجب به فقال له سائب مولاه أنا أصنع لك مثل غناء هذا الفارسى بالعربية ثم غدا عليه وقد صنع هذا اللحن

لمن الديار رُسومها قفرُ ... لعبت بها الأرواح والقَطر
وخلا لها من بعد ساكِنها ... حِجَجٌ مضين ثمان أو عشر
والزعفرانُ على ترائبها ... شَرِق به اللبباتُ والنحر

وقد أخذ عنه مالك بن أبى السمح ومعبد أيضاً وجميلة وعزة الميلاء .

وبعمل ابن مسجح وسائب ومن أخذ عنهما وجد الغناء العربى الواقع على أصول النغم . فبعد أن لم تكن العرب تعرف منه إلا النَّصَبَ وهو حداء الركبان ، والهزج وهو الخفيف الذى كانت ترقص عليه الأعراب ، ثم السناد وهو الثقيل الذى كان يغنى به فى غير الحداء والترقيص ، أصبحت وقد تعددت عندها النغمات وكثرت الألحان فى صناعة الأصوات حتى صارت تضارع فيه إن لم تفق أمتى الفرس والروم . ومما ساعد على هذا التقدم السريع ما كان من شديد المنافسة بين مكة والمدينة وتسابقهما فى التفوق وتعليم القيان اللاتى ملأنهما من سبى الفرس والروم وفيهما من بنات الملوك والأشراف من اتسمن بميسم الحسن وتجملن بآثار الحضارة والنعيم فكن خير معينات على هذا النبوغ ، وأخذت المدينتان تزخران بالمغنيات

وتبعثان بأفواجهم إلى قصور الخلفاء والأمراء هذا وإن يك قد تحشم دون الاعتداد بالغناء، فقد ترك الناس يلهون به ويستمعون ومعهم ابنه يزيد ذو الشغف به والاستماع للقيان، على أنه لم يمض كبير وقت حتى هدأت الأمور بعد قليل من حكم عبد الملك وطال الملك فيه وفى أولاده فشجع وشجعوا حركة الغناء ثم جن به جنونا ابنه يزيد، وكان اجن من يزيد هذا ابنه الخليع الوليد بن يزيد.

ولما كان الشعر العربى أصلح أنواع الشعر للغناء وكأنه لم يخلق إلا له فى نفوس الأعراب، فقد عاد إليه رواج الغناء بالرقى الباهر والتقدم غير المسبوق بنظير، إذ شاع استماع العامة له فى الغناء وكان قبل يكاد يكون وقفا على الخاصة وذوى الأقدار فكان هذا أذيع له وأشد تعريفاً بصاحبه فى بيوت العظماء وقصور الخلفاء، ومن هنـــا اتخذه الشعراء سلماً للشهرة فخادنوا المغنين وصافوهم، وكثيراً ما كان يتقاسم شاعر ومغن ما يصيب كلاهما من جوائز وصلات. ثم كثر الشعراء المغنون كنصيب، والمغنون الشعراء كابن عائشة وغيرهما أمثال حُنين الحيرى وسعيد الدارمى ومحمد ابن الأشعث وعبادل مولى قريش.

ولقد حمل إقبال المغنين على بعض الشعر دون بعض فى تخـــير الأصوات، جمهرة الشعراء على التسابق فى هذا الفخار فأقبلوا من كل نفوسهم على أشعارهم يجودونها بما يرققون من ألفاظ ويسلسون من أساليب وبما يبتكرون من معان ويودعونها من تأثير فكان للشعر من هذه الناحية فى تجميل أسلوبه وتجلية معناه ما أوجد له طابعاً جديداً وبخاصة فى أنسب فنونه للغناء وهو فن الغزل الذى من أجله ذكرنا هذه الكلمة فى الغناء فلنعد بعدها إلى ما كنا بصدده عن الشعر من بيان الأغراض.

٤ ـــ ضآلة الأغراض الأخرى وكثرة الرجز

على أنه لم يبق علينا بعد الذى أفضنا فيه عن الأغراض الثلاثة الرئيسة

التى أسلفنا سوى أن نقول إنها لم تدع لسائر أغراض الشعر بجانبها من ظهور ، فقد غطت على ما عداها وصرفت الشعراء بقوة طغيانها وشدة تيارها عن أن يقولوا فى غيرها ، فلم تدع لهم متسعاً ينفذون منه إلى سواها إلا ما كان الفينة تبعد عن الفينة وللمناسبة تعرض شديدة الدواعى قوية التأثير ، ولذا لا نكاد نجد شاعراً خلص إلى فن غيرها خلوصاً عرف به أو كان ذا غناء فيه . وإذن كل من ذكرنا من الشعراء إلا القليل كان له فى باقى فنون الشعر أو بعضها ما حفظ للشعر بقاءها وجعله لا ينقص فى عصره هـذا غرضاً كان له من قبل جاهلية أو إسلاما . وفيما ذكرنا من نماذج تحت الرقم الرابع ما يوضح هذه الفنون الباقية وهى أربعة ، الفخر والوصف والرثاء والحكمة . هذا ولا يفوتنا قبل الخروج عما نحن فيه إلى موضوعنا الأخير وهو « عناية الخلفاء والأمراء باللغة والأدب ثم انتشار الرواية وكثرة الرواة » إلى أن ننبه إلى ما ناله الرجز فى هذا العصر من رقى فاق فيه ما كان فى العهدين السالفين على أيدى رجال ليسوا بالقليل ، أشهرهم العجاج وأبو النجم وكانا متعاصرين ثم رؤبة بن العجاج و درك بعدهما العباسيين . وقد كان لتعاصر أبى النجم والعجاج وما دب بينهما من تنافس فى هذا السبيل أثر كبير فى تقدم الرجز ، جعل الناس يعتدون به وفى مقدمتهم الشعراء ، فقد جارى كلاهما الآخر مجاراة شديدة ، وجاريا معا الشعراء فى إطالة القصيد وتناولا كثيرا من الأغراض حتى عدا من الفحول المقدمين ، ثم جاء رؤبة فهج نهجهما وزاد ، ولكل من الثلاثة ديوان . على أن أبلغ ما قال الرجاز مودع كتاب أراجيز العرب لعميد اللغة وفقيدها صاحب السماحة والسيادة السيد محمد توفيق البكرى رحمه الله .

عناية الخلفاء والأمراء باللغة والأدب

ثم نشأة الرواية وكثرة الرواة

قلنا فى آخر الكلام على الكتابة العلمية والتدوين ، إن موطن العلوم الشرعية كان الحجاز وموطن اللسانية العراق وموطن الأخرى الشام. وبذلك كانت المجامع الأولى للعلم ، المدينة ومكة والبصرة والكوفة ثم دمشق . ولقد عنى خلفاء الأمويين وأمراؤها منذ معاوية بتنشيط الحركة العلمية والذهاب بها قدماً إلى الأمام . فهذا معاوية وحفيده خالد بن يزيد كان لهما على ما تقدم الفضل المباشر فى تدوين العلوم غير الشرعية واللسانية بما بذلا من مجهود شخصى أوجدها من عدم وجعل لها فى العربية مكانا ومستقرا . أما الشرعية واللسانية فلم تكونا فى حاجة من الخلفاء والأمراء إلى المجهود المباشر ، لأن اندفاع العلماء من الصحابة والتابعين إلى نشر الإسلام ولغة الإسلام ، وتفقيه الناس بتعليم القرآن والحديث واللغة ، كان بالغاً أشده غير محتاج إلى مزيد ، فلم يزل بهم فى اطراد حتى تم لهم وضع أسسها فى المجامع المذكورة ثم لم يلبثوا أن انبثوا فى عواصم البلاد المفتوحة شرقاً وغرباً يثبتون أصول هذه العلوم ويرفعون من قواعدها حتى شملت الحركة العلمية كل مكان وأقبل الموالى بشغف شديد يتلقون عنهم ما يذيعون ليرفعوا من شأن أنفسهم فى نظر الفاتحين وليثبتوا أنهم أبناء أمم متمدينة ذات استعداد للرقى عظيم ، فكان أن أصبحوا حملة لواء العلم بعد الصحابة والتابعين ، وهذه الجهود العلمية المثمرة وإن لم يك للخلفاء والأمراء فيها نصيب العامل المشارك ، كما كانت الحال من بعضهم فى العلوم الأخرى ، كانت تنمو تحت رعايتهم وتترعرع بسقيهم وعنايتهم فكثيراً ما حبسوا على رجالها الأرزاق وأسندوا إليهم كبار المناصب فضلا عما كانوا يحملون لهم من تعظيم وتبجيل وفى هذا حث أيما حث على تقدم العلوم ووفرة النابغين وإن لم يزاول كثير بالفعل التأليف والتصنيف .

وأما عنايتهم باللغة والأدب فقد فاقت كل عناية وشغلت من نفوسهم المحل الثانى بعد المهام السياسية أو الأول معها ، لأنها عون عليها ، ذلك بأنهم رأوا تثبيت ملكهم فى إحياء العصبية كما تقدم فكان فى هذا إحياء الأدب القديم وإعادة مذكرته ومدارسته بعد أن ألهى عنه طويلا صدر الإسلام حتى كاد ينسى .

ومما توج هذه العناية بالنجاح الباهر والمحصول الوافر أن كان الخلفاء أنفسهم من كبار الملمين باللغة والأدب العارفين لمحاسن الكلام ودقائقه الراغبين فى ألا تخلو مجالسهم من حوار فيه ونقاش ، فان هذه الأشياء مجتمعة ومعها غيرها مهم أيضاً حملت أرباب الكلام على العناية بالقول والاحتفال بتجويده قبل إهدائه إليهم كما حملت رواة الأدب على أن يلموا بالكثير الذى يحسنون عرضه ويجيدون تقليبه حتى تولد بذلك ضرب رشيق من الحوار الأدبى تم نضجه واستوى على يد شيخ هذه الحلبة الخليفة النابه عبد الملك ابن مروان ، إذ هدأت بيده عواصف الفتن واستقرت بأعماله أمور الدولة ففاض عهده وعهد أولاده من بعده وكلهم أديب بارع وبحاثة عالم بهذا الحوار الذى شغل ما كان يشغله من قبل الحوار السياسى فى عهد معاوية وأنتج ما نرى بعضه الآن قد ملأ كتب الأدب وعاد على اللغة بوافر الغلات ، ولما كان عبد يعتبر رأس ذلك الحوار ورافع لوائه لم نجد بدأ من إيثاره بكلمة تمثل الدرجة التى بلغها والتى كان على نمطها ما كان منه فى عهد أولاده من بعد .

آلت الخلافة إلى عبد الملك وكان أعلم خلفاء بنى أمية ومعقد فخارهم ، من أية ناحية نظرت إليه ألفيته الجواد لا يشق غباره والفحل لا يقدع أنفه والخصم يدين له الألداء بالإذعان والتسليم ، فان طلبت السياسة ألفيت حكمة وخبرة وطدت الملك وقوته وجعلته للطائع العسل حلاوة والماء سلاسة وعلى العاصى الصاب طعماً والشوك مساً ، وإن أردت ديناً وعلماً وجدت الشريعة قد سلمت إليه زمامها وألقت عنده عصا تسيارها ، من شدة حفظ

للكتاب والسنة إلى جودة فقه لمعانيهما إلى بعد النظر فى التشريع ومعرفة الأحكام ، فاذا ما نشدت أدباً وهو معناناً هنا هالك منه الخضم بغزارة مائه وبعد قراره ومرتمى ساحله وشدة تياره ، إذا استسقيت رواك فيضه وإن جادلت هاضك موجه ، ولقد ظهر ذلك جلياً فى بصره بالشعر وهو صميم الأدب ظهوراً لم يجاره فيه الرواة وفى علو نقده له وحسن تمثله به علواً لم يتسام إليه النقاد حتى أصبح مجلسه منتدى الأدب ومنتقد الشعر وصفا له الوقت وطال فتم على يديه فتح هذا الباب الجديد للأدباء . وهذى بعض أمثلة له ترى درجة بصره بالشعر ، وجودة نقده إياه ، وحسن تمثله به .

١ — درجة بصره بالشعر

قال لمؤدب ولده، إذا رويتهم شعرا فلا تروهم إلا مثل قول العجير السلولى

يبين الجار حين يبين عنى ... ولم تأنس إلى كلاب جارى
وتظعن جارتى من جنب بيتى ... ولم تستر بستر من جدارى
وتأمن أن أطالع حين آتى ... عليها وهى واضعة الخمار
كذلك هدى آبائى قديماً ... توارثه النجار عن النجار
فهدينى هديهم وهم افتلونى ... كما افتلى العتيق من المهارى

وقال إذ قبض على أزمة الأمور بيده وأصبح يرجى حلمه وصفحه، لعدة من أهل بيته وولده . ليقل كل واحد منكم أحسن شعر سمع ، فذكروا لامرىء القيس والأعشى وطرفة وأكثروا حتى أتوا على محاسن ماقالوا، فقال أشعر من هؤلاء والله معن بن أوس حيث يقول :

وذى رحم قلمت أظفار ضغنه ... بحلمىَ عنه وهو ليس له حلم
إذا سمته وصل القرابة سامنى ... قطيعتها تلك السفاهة والظلم
فأسعى لكى أبنى وبهدم صالحى ... وليس الذى يبنى كمن شأنه الهدم
يحاول رغمى لا يحاول غيرَه ... وكالموت عندى أن يحل به رغم
فما زلت فى لينى له وتعطفى ... عليه كما تحنو على الولد الأم
لأستل منه الضغن حتى سللته ... وقد كان ذا ضغن يضيق به الحلم

وقال يوماً فى مجمع من الشعراء ، يامعشر الشعراء تشبهوننا بالأسد الأبخر والجبل الوعر والملح الأجاج ألا قلتم كما قال كعب الأشقرى :

لقد خاب أقوام سروا ظلم الدجى ... يؤمنون عمرا ذا الشعير وذا البر
يؤمنون من نال الغنى بعد شيبه ... وقاسى وبيدا ما يقاسى ذوو الفقر
فقل للجيم يالبكر بن وائل ... مقالة من يلحى أخاه ومن يزرى
فلو كنتم حيا صميما نفيتم ... بخيلكم بالرغم منه وبالصغر
ولكنكم يا آل بكر بن وائل ... يسودكمُ من كان فى المال ذا وفر
هو المانع الكاب النباح وضيفه ... خميص الحشايرعى النجوم التى تسرى

وقال وقد ذُكر زهير وهرم ، ما يضر من مدح بما مدح به زهير آل أبى حارثة من قوله .

على مكثريهم حق من يعتريهم ... وعند المقلين السماحة والبذل

« ألا يملك أمور الناس فما ترك زهير منهم غنياً ولا فقيراً إلا وصفه ومدحه » .

وقال يوماً لولده وأهله « أى بيت ضربته العرب ووصفته أشرف حواء وأصلا وبناء ، فقالوا فأكثروا ولم يصيبوا فقال هو « أكرم بيت وصفته العرب بيت طفيل الذى يقول فيه .

وبيت تهب الريح فى حجراته ... بأزض فضاء بابه لم يحجب
سماوته أسمال برد محبر ... وصهوته من أتحمى معصب
وأطنابه أرسان جرد كأنها ... صدور القنا من بادىء ومعقب
نصبت على قوم تدور رماحهم ... عروق الأعادمن عرين وأشيب

فهذا من فكاهاته فى هذا الباب . ومنها أيضا أنه قال لجلسائه ، أى المناديل أفضل ، فقال قائل مناديل مصر كأنها غرقىء البيض وقال آخر مناديل اليمن كأنها نور الربيع فقال بل مناديل عبدة بن الطبيب حيث يقول .

لما نزلنا نصبنا ظل أخبية ... وفار للقوم باللحم المراجيل
ورد وأشقر ما يأنيه طابخه ... ما غير الغلى منه فهو مأكول

ثمت قمنا إلى جرد مسومة أعرافهن لأيدينا مناديل

٢ — جودة نقده للشعر :

ذكر لجلسائه يوماً قول نصيب

أهيم بدعد ما حييت فإن أمت أوكل بدعد من يهيم بها بعدى

فكل عابه إذ لم تجد الرواة ولا من يفهم جواهر الكلام له مذهباً فيه فقال فلو كان اليكم كيف كنتم قائلين فقال رجل منهم كنت أقول .

أهيم بدعد ما حييت فان أمت فواحزنا من ذا يهيم بها بعدى

فقال ما صنعت شيئاً فقيل له ، فكيف كنت قائلا فى ذلك يا أمير المؤمنين قال كنت أقول

أهيم بدعد ما حييت فإن أمت فلا صلحت دعد لذى خلة بعدى

فقالوا أنت والله أشعر الثلاثه يا أمير المؤمنين .

ووفد عليه عمر بن عبد الله بن أبى ربيعة فقال له أنت القائل

أأترك ليلى ليس بينى وبينها سوى ليلة إنى إذن لصبور

قال نعم قال فبئس المحب أنت تركتها وبينك وبينها غدوة

واستنشد أسيلم بن الأحنف الأسدى أحسن ما مدح به فقال قول القائل

ألا أيها الركب المخبون هل لكم بسيد أهل الشام تحبوا وترجعوا

من النفر البيض الذين إذا اعتزوا وهاب رجال حلقة الباب قعقعوا

إذا النفر السود اليمانون نمنموا له حوك برديه أجادرا وأوسعوا

جلا المسك والخمام والبيض كالدمى وفرق المدارى رأسه فهو أنزع

فقال له ولكن ما قال أخو الأوس أحسن مما قيل لك وأنشد ، يريد أبا قيس ابن الأسلت ،

قد حصت البيضه رأسى فما أطعم نوماً غير تهجاع

ولما أنشده الأخطل قوله

بكر العواذل يبتدرن ملامتى والعاذلون فكلهم يلحانى

فى أن سبقت بشربة مفدية صرف مشعشعة بماء شنان

قال له إن شبيب بن البرصاء أكرم منك وصفاً لنفسه حيث يقول

وإنى لسهل الوجه يعرف مجلسى ... إذا أحزن القاذورة المتعبس
يضىء سنا جودى لمن يبتغى القرى ... وليل بجيل القوم ظلماء حندس
ألين لذى القربى مرارا وتلتوى ... بأعناق أعدائى حبال فتمرُس

ولما دخل عليه أرطأة بن سهية وكان قد هاجى شبيباً هذا استنشده بعض ما قال فيه فأنشده والخطاب لشبيب

أبى كان خيراً من أبيك ولم يزل ... جنيباً لآبائى وأنت جنيب

قال له كذبت شبيب خير منك أبا ثم أنشده والخطاب لشبيب أيضاً

ومازات خيرا منك مذعض كارها ... برأسك عادى البجاد ركوب

قال له صدقت أنت فى نفسك خير من شبيب. قال أبو عبيدة فعجب من عبد الملك من حضر لمعرفته أقدار الناس على بعدهم منه فى بواديهم إذ كان الأمر كما قال.

ومن هذه الناحية ماروى من أنه لما دخل عليه الجحاف بن حكيم السلمى بعد أن أمنه وحضر من بلاد الروم واستنشده بعض ما قال فى غزوته فأنشده

صبرَت سُليم للطعان وعامر ... وإذا جزعنا لم نجد من يصبر

قال له كذبت ما أكثر من يصبر، فلما أنشده

نحن الذين إذا علوا لم يفخروا ... يوم اللقاء وان عَلوا لم يضجروا

قال له صدقت حدثنى أبى عن أبى سفيان بن حرب أنكم كنتم كما وصفت يوم فتح مكة.

ولما استأذنه عبيد الله بن قيس الرقيات بعد أن عفا عنه وأمنه وكان منقطعاً إلى مصعب بن الزبير فى أن يمدحه فأذن فأنشده قصيدته التى يقول فيها.

إن الأغر الذى أبوه أبو العا ... صى عليه الوقار والحجب
يأتلق التاج فوق مفرقه ... على جبين كأنه الذهب

قال له يا ابن قيس تمدحنى بالتاج كأنى من العجم وتقول فى مصعب

إنما مصعب شهاب من الله تجلت عن وجهه الظلماء
ملكه ملك عزة ليس فيه ... جبروت منه ولا كبرياء

أما الأمان فقد سبق لك ولكن لا تأخذ مع المسلمين عطاء أبدا

ولما بلغه قول جرير فى مهاجاته الأخطل من أبيات تقدمت بالنماذج

هذا ابن عمى فى دمشق خليفة لو شئت ساقكم إلى قطينا

قال ما زاد ابن المراغة على أن جعلنى شرطياً له أما إنه لو قال (لو شاء ساقكم إلى قطينا) لسقتهم إليه كما قال

واجتمعا عنده يوماً ومعهما الفرزدق فأحضر بين يديه كيساً فيه خمسمائة دينار ثم قال ليقل كل منكم بيتاً فى مدح نفسه فأيكم غلب فله الكيس فبدأ الفرزدق فقال

أنا القطران والشعراء جربى وفى القطران للجربى شفاء

فقال الأخطل للفرزدق

فإن لك زق زاملة فإنى أنا الطاعون ليس له دواء

فقال جرير لهما

أنا الموت الذى آتى عليكم فليس لهارب منى نجاء

فقال عبد الملك فلعمرى إن الموت يأتى على كل شىء وقضى له .

وكأن الفرزدق إذ اجتمع مع جرير عنده بعد ظن فى أخذه هذا المعنى غلبة له على جرير فقال ، النوار طالق إن لم أقل شعرا لا يستطيع ابن المراغة أن ينقضه أبدا ولا يجد فى الزيادة عليه مذهبا ، قال عبد الملك ما هو فقال

فإنى أنا الموت الذى هو واقع بنفسك فانظر كيف أنت مزاوله

وما أحد يابن الأتان بوائل من الموت إن الموت لاشك نائله

فأطرق جرير ثم قال أم حزرة طالق ثلاثا إن لم أكن نقضته وزدت عليه فقال عبد الملك هات فقد والله طلق أحد كما لا محالة فأنشد .

أبا البدر يغشى نورعينيك فالتمس بكفيك يابن اللقين هل أنت نائله

أنا لدهر يفنى الموت والدهر خالد فجئنى بمثل الدهر شيئاً يطاوله

فقال عبد الملك فضلك والله يا أبا فراس وطلق عليك فبانت النوار وندم الفرزدق وذلك حيث يقول

ندمت ندامة الكسعى لما غدت منى مطلقة نوار
وكانت جنى فخرجت منها كآدم حين أخرجه الضرار

هذا وكان عبد الملك لبصره بالشعر يذعن للخصم فى النقد إذا كان مصيبا وهذا من البصر أيضاً . روى أنه لما أنشد قول كثير فى أخذه الخلافة .

فما تركوها عنوة عن مودة ولكن بِحَدِّ المشرفى استقالها

أعجب به كل العجب وكان الأخطل حاضراً فقال ما قلتُ والله يا أمير المؤمنين أحسن منه قال وما قلت فأنشد

أهلوا من الشهر الحرام فأصبحوا موالى ملك لا طريف ولا غصب
جعلتها لك حقاً وجعلك قد أخذتها غصباً قال صدقت .

ولم يك هذا منه تعصبا لشاعره الأخطل فكثيراً ما كان يقضى عليه . روى أنه لما أنشد قوله

فإذا تعاودت الأكف زجاجها نفحت فشم رياحها المزكوم

فأعجب به وقال سمعتَ بمثل هذا ياشعبى ؟ وكان حاضراً فقال الشعبى أشعر منه والله أعشى قيس حيث يقول

من اللائى حملن على المطايا كريح المسك تستل الزكاما

قال صدقت

٣ — حسن تمثله بالشعر —

أما حسن تمثله بالشعر — وتقدم بعضه فى خطبه وكتبه — فقد كان حليفه فى كل داعية ، جداً كانت أم هزلا —

كان إذا جلس للقضاء بين الناس أقام وصيفاً على رأسه ينشده

إنَّا إذا مالت دواعى الهوى وأنصت السامع للقائل
واصطرع القوم بألبابهم نقضى بحكم عادل فاصل
لا نجعلُ الباطل حقاً ولا نلمِظ دون الحق بالباطل
نخاف أن تسفه أحلامنا فنخملَ الدهر مع الخامل

وكان يتمثل فى الحروب عند كل لقاء بقول شبيب بن البرصاء

دمانى حصن للفرار فسامنى مواطن أن يثنى على فأشتما
فقلت لحصن نح نفسك إنما يذود الفتى عن حوضه أن يهدما
تأخرت أستبقى الحياة فلم أجد لنفسى حياة مثل أن أتقدما
سيكفيك أطراف الأسنة فارس إذا ريع نادى بالجوار وبالحمى
إذا المرء لم يغش المكاره أوشكت حبال الهوينى بالفتى أن تجذما

ولما لاذت به زوجه عاتكة بنت يزيد إذ خرج لحرب مصعب تريد منعه فأبى فبكت وبكت معها جواريها جلس وقال قاتل الله كثيراً والله لكأنه كان يرانى ويراك ياعاتكة حيث يقول

إذا ما أراد الغزو لم تثن همه حصان عليها عقد در يزينها
نهته فلما لم تر النهى عاقه بكت فبكى مما شجاها قطينها

ثم نهض فكان فى خروجه قتل مصعب .

وعاتكة هذه هى التى حدث بينها وبينه جفوة شقت عليه ووسط من خاصته من يزيلها فلما طلع الرسول برضاها اندفع متمثلا بقول كثير أيضاً

وإنى لأرعى قومها من جلالها وإن أظهروا غشاً نصحت لهم جهدى
ولو حاربوا قومى لكنت لقومها صديقاً ولم أحمل على قومها حقدى

ومع ذلك لم يستمع لها إذ جد الجد فى الحرب وكان هذا شأنه .

ورد عليه كتاب بن الأشعث السابق وهو يستعرض جارية بعث بها إليه واليه على اليمن فنحاها وامتنع فقال ما يمنعك يا أمير المؤمنين قال يمنعنى ما قاله فينا الأخطل لأنى إن خرجت منه كنت ألام العرب وأنشد

قوم إذا حاربوا شدوا مآزرهم دون النساء ولو باتت بأطهار

ولما استنشد أبا العباس الأعمى رثاءه مصعباً فأنشده قوله

يرحم الله مصعبا فلقد مات كريما ورام أمرا جسيما

قال أجل إنه مات كريماً

ولكنه رام التى لا يرومها من الناس إلا كل حر معمم

وكان فى تمثله بالشعر صريحاً لا يبالى، روى أن عروة بن الزبير إذ لحق به

بعد قتل أخويه مصعب وعبد الله وأقام عنده فكان يكرمه منفرداً ويستخف به مجتمعاً قال يا أمير المؤمنين أراك تكرم ضيفك فى الخلا وتهينه فى الملا قال لله در زهير حيث يقول

فقرى فى بلادك إن قوما متى يدعوا بلادهم يهونوا

فاستأذن عروة فى الرجوع إلى المدينة فقضى حوائجه وأذن له .

ومن هذا أيضاً أنه كان كلما نظر إلى أخيه معاوية وكان ضعيفاً تمثل بهذين البيتين للمغيرة بن حبناء فى أخيه صخر وكان كذلك .

أبوك أبى وأنت أخى ولكن تفاضلت الطبائع والظروف

وأمك حين تنسب أم صدق ولكن ابنها طبع سخيف

ولما مات أخوه عبد العزيز وكان به حدِبا كان يكثر ترديد هذه الأبيات ويبكى .

يأيها المتمنى أن يكون فتى مثل ابن ليلى لقد خلى لك السبلا

إن ترحل العيس كى تسعى مساعيه يُشفق عليك وتعمل دون ماعملا

لو سرت فى الناس أقصاهم وأقربهم فى شقة الأرض حتى تحسر الأبلا

تبغى فتى فوق ظهر الأرض ماوجدوا مثل الذى غيبوا فى بطنها رجلا

أعدد ثلاث خصال قد عُرفن له هل سب من أحد أو سُب أو بخلا؟

ولما دخل عليه نصيب بعد وفاة عبد العزيز هذا وكان من خواصه ومادحيه قال له أنشدنى ما رثيت به أخى فأنشده

عرفت وجربت فما أرى كماض تلاه الغابر المتأخر

ولكن اهل الفضل من أهل نعمتى يمرون أسلافاً أمامى وأغبر

فان أبكه أعذر وإن أغلب الأسى بصبر فمثلى عندما اشتد يصبر

أعاد بيته الأخير وقال له ويلك أنا أحق بهذه الصفة فى أخى منك فهلا وصفتنى بها وجعل يبكى .

وآخر ما تمثل به من الشعر وتأثر له من التمثيل بالشعر ما حدث به الشعبى قال ، دخلت على عبد الملك بن مروان فى علته التى مات فيها فقلت

كيف تجدك يا أمير المؤمنين فقال أصبحت كما قال عمر بن قمئة .

كأنى وقد جاوزت تسعين حجة خلعت بها عنى عنان لجامى
رمتنى بنات الدهر من حيث لا أرى فكيف بمن يرمى وليس يرام
فلو أنها نبل إذن لاتقيتها ولكنما أرمى بغير سهام
وأهلكنى تأميل يوم وليلة وتأميل عام بعد ذاك وعام

فقلت كيف ذلك يا أمير المؤمنين وهذا كما قال لبيد

قامت تشكى إلى الموت مجهشة وقد حملتك سبعا بعد سبعينا
فان تزادى ثلاثاً تبلغى أملا وفى الثلاث وفاء للثمانينا

فعاش حتى بلغ التسعين فقال

كأنى وقد جاوزت تسعين حجة خلعت بها عن منكبى ردائياً

فعاش والله حتى بلغ مائة وعشرين فقال

وغنيت دهراً قبل مجرى داحس لو كان للنفس اللجوج خلود

فعاش حتى بلغ مائة وأربعين فقال

ولقد سئمت من الحياة وطولها وسؤال هذى الناس كيف لبيد

فتبسم عبد الملك وقال قويت من نفسى بقولك يا عامر وإنى لأجد خفا وما بى من بأس ، وأمر لى بصلة وقال لى اجلس ياشعبى فحدثنى ما بينك وبين الليل فجلست فحدثته حتى امسيت وخرجت من عنده فما وأصبحت حتى سمعت الواعية فى داره .

نشأة الرواية وكثرة الرواة

هذا هو النهج الذى نهجه عبد الملك فى مجالسه فشاع الحوار الأدبى بين الناس ووجدت ملكة النقد فى نفوسهم وانتشرت مجامع الأدب من دور الخلفاء إلى دور الولاة وإلى المساجد والأسواق وبخاصة سوق البصرة المعروف بالمربد ، فقد حل فى الاسلام محل عكاظ فى الجاهلية وزاد ، فكانت تتألف فيه حلقات المناشدة والمفاخرة وتعقد به مجالس الأدب والرواية إذ يقصد إليه الشعراء من كل فج ، ومع كل شاعر راويته ولكل حلقته

الخاصة به وبأنصاره. فكان التنافس بين الشعراء شديداً وحسبك دليلا على هذا ما كان بين الفرزدق وجرير ومن دب الخلاف بينهم بسببهما من الشعراء.

ثم سار أبناء عبد الملك فى ذلك سـيرته وقد سبق ما كان من ابنه سليمان فى تفضيل نصيب على الفرزذق إذ استنشدهما . ومن قبله كان الوليد يدع الشعراء فى مجلسه يستمع بعضهم لبعض وينقد بعضهم بعضاً . دخل عليه جرير وابن الرقاع عنده ينشده القصيدة التى يقول فيها .

غلب المساميحَ الوليدُ سماحة وكفى قريشَ المعضلاتِ وسادها

قال جرير فحسدته على أبيات منها حتى إذا أنشد فى وصف الظبية (تزجى أغن كان إبرة روقه) قلت فى نفسى والله لن يقدر أن يقول أو يشبه فلما قال (قلم أصاب من الدواة مدادها) ما قدرت حسداً أن أقيم فانصرفت .

ومن بعدهما كان يزيد أخوهما مثلهما وأكثر ، فقد رد الأحوص من منفاه ببيت من الشعر قاله فيه وسمعه من مغنيته وهو

كريم قريش حين ينسب والذى أقرت له بالملك كهلا وأمردا

ثم جاء عهد هشام الذى ملك نحو عشرين سنة كما ملك أبوه ومن قبلهما معاوية ، فكان غرامه بالأدب شديداً حتى كان يأرق فى جوف الليل فيطلب من الأعراب من يحدثه فإذا أجاد كانت فى هذا سعادته ، ولقد أحضر له الخادم ذات ليلة أبا النجم الراجز وكان غاضبا عليه منذ أن قال فى ارجوزة يمدحه فيها (والشمس فى الأفق كعين الأحول) وكان هشام أحول فقبله مع ذلك لشدة شغفه بمن يحدثه وسأله ما عندك من الولد فقال ثلاث بنات زوجت منهم اثنتين وبنى يقال له شيبان فسأله عما أوصاهما به عند الزفاف فقال قلت للأولى واسمها برة

أوصيت من برة قلبا حرا بالكلب خيرا والحماة شرا
لا تسامى ضرباتها وجرا حتى ترى حلو الحياة مرا
وإن كستك ذهبا ودرا والحى عميهم بشر طرا

فضحك هشام وقال فما قلت للأخرى قال قلت

سبى الحماة وابهتى عليها وإن دنت فازدلفى إليها
وأوجعى بالقهر ركبتيها ومرفقيها واضربى جنبيها
وظاهرى النذر لها عليها لا تخبرى الدهر بذاكِ ابنيها

فضحك هشام حتى بدت نواجذه وقال فما حال الأخرى قال درجت بين بيوت الحى ونفعتنا فى الرسالة والحاجة . قال فما قلت فيها قال قلت

كأن ظلامة أخت شيبان يتيمة ووالداها حيان
الرأس قمل كله وصئبان وليس فى الرجلين إلا خيطان
فهى التى يذعر منها الشيطان

فضحك هشام حتى ضحك النساء لضحكه وقال للخصى ما بقى من نفقتك قال ثلثمائة دينار قال ادفعها إلى أبى النجم ليجعلها فى رجلى ظلامة مكان الخيطين . ولقد كتب إلى عامله على العراق أن يدفع إلى حماد الرواية خمسمائة دينار ويرحله إليه بدمشق على جمل مهرى ، فلما وصله بعد اثنى عشرة ليلة استدناه وقال له بعثت إليك لبيت خطر ببالى لم أدر قائله قال حماد قلت وما هو يا امير المؤمنين قال

ودعوا بالصبوح يوماً فجاءت قينة فى يمينها إبريق

فقلت هذا يقوله عدى بن زيد فى قصيدة له قال أنشدنيها فانشدته إياها فطرب. ثم أجزل من عطائه وأعاده إلى أهله

بهذا الصنيع وأمثاله من الخلفاء ونحوه مما قلدهم فيه الأمراء والولاة وسائر الناس شعراء وغير شعراء انتشرت الرواية وكثر الرواة ، وكان من أشهرهم عامر الشعبى الذى تقدم ذكره مع عبد الملك وحماد الرواية الذى كنا فى حديثه مع هشام ، فأما عامر فكان واسع الرواية فى كل فن ، وقد أوفده الحجاج إلى عبد الملك ليكون خاصته وسميره ، ومع قوله عن نفسه « لست لشىء من العلوم أقل رواية منى للشعر » كان يقول « لو شئت لأنشدت شهراً ولا أعيد بيتاً » وكانت وفاته سنة ١٠٤ ، وأما حماد فكان البحر لا ساحل له وكان المقدم عند بنى أمية حتى استحق دون الرواة أن يلقب بالراوية ، ولقد سأله الوليد بن يزيد

وهو يكلمه فى سبب هذا اللقب عن مقدار ما يحفظ من الشعر فقال كثير ولكنى أنشد على كل حرف من حروف المعجم مائة قصيدة كبيرة سوى المقطعات من شعر الجاهلية دون شعر الاسلام ، وهو أول من عنى بتدوين الشعر إذ جمع السبع الطوال التى عرفت بعد بالمعلقات، غير أنه لم يك ثقة كما كان الشعبى ثقة ، فقد اتهم بالزيادة فى أشعار الناس كما انهم خلف الأحمر بالوضع والاختلاق ، ولكن ما وضع ميزه النقاد وأرباب الكلام ، وقد أدرك حماد الدولة العباسية إذ توفى سنة ١٥٥

ومن الرواة الثقات أبو عمرو بن العلاء وقد تقدم وغير هؤلاء كثير ، فليرجع فى أخبارهم وفى سائر ما أشرنا إليه من نقد إلى كتب الأدب التى تزخر بذلك وتفيض .

وبعد

فإن لنا بعد الذى تقدم عن اللغة نثرها وشعرها فى العصر الأموى ، أن نصفها غير متحسبين، بأنها قامت بكل مقتضيات الملك والسياسة أحسن قيام، وأن فيها من المطلوعة ماسايرت وتساير به أعظم المدنيات وأرقى الحضارات. والله حسبنا وهو المستعان .

التراجم

عمر بن الخطاب

أولا — نسبه ومولده ونشأته وصفته

هو عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزى بن رباح بن عبد الله بن قرط بن رزاح بن عدى بن كعب بن لؤى الذى هو قريش ، فهو كنانى قرشى يلتقى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الأب الثامن له والسابع لرسول الله كعب بن لؤى خطيب قريش وحكيم كناتة ، وأمه حنتمة بنت هاشم بن المغيرة عم أبى الحكم عمرو بن هشام بن المغيرة بن عبد الله بن عمر ابن مخزوم ، فهى من البيت المخزومى قرين البيت المنافى من قريش ، فهو عريق النسب فى البيتين .

ولد رحمه الله كما قال عن نفسه قبل يوم الفجار الأعظم الآخر بأربع سنين أى قبل البعثة بأربع وعشرين سنة ، لأن رسول الله صلى عليه وسلم كان ينبل على عمومته فى ذلك اليوم وهو ابن عشرين كما خبر عن نفسه وهو يكبره بأربع وعشرين سنة .

وقد نشأ رحمه الله ـ بدء أمره كما كان ينشأ السواد الأعظم من العرب يرعى الغنم لأبيه ، ولكنه لم يلبث أن غادر ذلك إلى الاشتغال بالتجارة حرفة الأشراف من قريش ، تلك الحرفة التى كانت تحملهم على أن يجوبوا الأرض من حولهم جنوباً إلى اليمن وشمالا إلى الشام وشرقاً إلى فارس وغرباً إلى مصر والحبشة ، فتكثر بذلك تجارتهم وتتسع له معارفهم ، وما كاد يطول أمره فيها حتى عرف بشجاعة قلب وشدة عارضة وقوة بيان ليست

إلا للقليل من الأشراف ، ومن ثم عهدت إليه قريش على رجاحة أحلامها وكثرة غطارفتها بأمرين كانا أهم الأمور لديها ، هما السفارة عنها فى السلم والمنافرة لها فى الحرب ، فاضطلع بهما غير مفرط فى تبعة المنافر ولا مقصر عن منزلة السفير ، ولعله لهذا كان قبل إسلامه من أشد قريش على رسول الله عنتاً ، كما كان خاله أبو الحكم عمرو بن هشام المذكور ، ولعل رسول الله لهذه العزة فى الرجلين دعا الله فقال « اللهم أعز الإسلام بأحب الرجلين اليك إما عمرو بن هشام وإما عمر بن الخطاب » فأجاب الله دعوته فى عمر فكان أحبهما إليه سبحانه وبقى عمرو على عنته لشقوته فحقت عليه كلمة العذاب ولقبه رسول الله ﷺ بأبى جهل فغلبت عليه ونسى أبو الحكم ، ولا خلاف بين الواصفين لجسمه فى أنه كان جسيما طوالا يمشى كأنه راكب وأنه كان أصلع فى عينيه حمرة وفى عارضيه خفة على كثافة فى سبلته ، إنما الخلاف فى أدمته أو شقرته ، والصحيح أنه كان أبيض تعلوه حمرة كما حدث بذلك ابنه وهو يصفه ، وإذ علاه الشيب كان يصفر لحيته ويرجل رأسه بالحناء .

ثانيا — إسلامه وهجرته

أسلم عمر فى السنة السادسة من البعثة بعد نيف وأربعين مسلماً ، أما كيف كان إسلامه فإنى تاركه يتحدث فيه عن نفسه قال : أتحبون أن أعلمكم كيف كان إسلامى قالوا نعم قال كنت من أشد الناس على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فبينا أنا فى يوم شديد الحر ببعض طرق مكة إذ لقينى رجل من قريش[1] فقال لى أنت تزعم أنك هكذا وقد دخل عليك هذا الأمر فى بيتك قلت وما ذاك قال أختك قد صبأت[2] فرجعت مغضباً ، وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجمع الرجل والرجلين إذا أسلما عند رجل به قوة فيكونان معه ويصيبان من طعامه ، وقد كان ضم إلى زوج

(١) هو نعيم بن عبد الله . (٢) هى فاطمة وتلقب أميمة وتكنى أم جميل . وصبأت : أسلمت .

أختى[١] رجلين[٢] فجئت حتى قرعت الباب فقيل من هذا فلت ابن الخطاب وكان القوم جلوساً يقرءون القرآن فى صحيفة معهم ، فلما سمعوا صوتى ذعروا وأخفوا الصحيفة من أيديهم ، فقامت المرأة ففتحت لى فقلت يا عدوة نفسها قد بلغنى أنك صبوت ، ورفعت شيئاً فى يدى فضربتها به فسال الدم ، فلما رأت الدم بكت ثم قالت يا بن الخطاب ما كنت فاعلا فافعل فقد أسلمت ، فدخلت وأنا مغضب فجلست على السرير فنظرت فإذا بكتاب فى ناحية البيت ، فقلت هذا الكتاب أعطنيه فقالت لا أعطيك لست من أهله إنك لا تغتسل ولا تطهر وهذا لا يمسه إلا المطهرون . فلم أزل بها حتى أعطتنيه فإذا فيه « بسم الله الرحمن الرحيم » فلما مررت بالرحمن الرحيم ذعرت ورميت بالصحيفة من يدى ثم رجعت إلى نفسى فإذا فيها « سبح لله ما فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم » فكلما مررت باسم من أسماء الله عز وجل ذعرت ، ثم ترجع إلى نفسى حتى بلغت « آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير ، وما لكم لا تؤمنون بالله ، والرسول يدعوكم لتؤمنوا بربكم وقد أخذ ميثاقكم إن كنتم مؤمنين » . فقلت أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله ، فخرج القوم يتبادرون مع التكبير استبشارا بما سمعوه منى ، وحمدوا الله عز وجل ، ثم قالوا يا ابن الخطاب أبشر فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا يوم الاثنين فقال « اللهم أعز الإسلام بأحب الرجلين إليك إما عمرو بن هشام وإما عمر بن الخطاب » وإنا نرجو أن تكون دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم لك ، فلما عرفوا فى الصدق قلت لهم أخبرونى بمكان رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا فى بيت فى أسفل الصفا وصفوه له[٣] فخرجت حتى قرعت الباب فقيل من هذا قلت ابن الخطاب ، فما اجترأ أحد منهم أن يفتح الباب

---

(١) هو سعيد بن زيد . (٢) أحد الرجلين خباب بن الأرت والآخر غير معروف كان يقرئه خباب . (٣) البيت هو دار الأرقم بن الأرقم .

وقد عرفوا شدتى على رسول الله ولم يعلموا باسلامى ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « افتحوا له فإنه ان يرد الله به خيرا يهده » ففتحوا لى وأخذ رجلان بعضدى حتى دنوت من النبى صلى الله عليه وسلم فقال أرسلوه فأرسلونى فجلست بين يديه فأخذ بمجمع قميصى فجذبنى إليه ثم قال أسلم يابن الخطاب اللهم اهده فقلت أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله ، فكبر المسلمون تكبيرة سمعت بطرق مكة ، ثم خرجت فكنت لا أشاء أن أرى رجلا قد أسلم يضرب إلا رأيته ، فلما رأيت ذلك قلت لا أحب أن يصيبنى ما يصيب المسلمين فذهبت إلى خالى[1] وكان شريفاً فقرعت الباب عليه فقال من، قلت ابن الخطاب فخرج إلى فقلت له أشعرت أنى صبوت قال فعلت قلت نعم قال لا تفعل قلت بلى قد فعلت قال لا تفعل وأجاف الباب دونى وتركنى قلت ما هذا بشىء ، وخرجت حتى جئت رجلا من عظماء قريش فصصت عليه مثل الذى قصصت على خالى فكان منه إلى مثل الذى كان لى من خالى، فلما رأيت ذلك انصرفت فقال لى رجل تحب أن يعلم إسلامك قلت نعم قال فإذا جلس الناس فى الحجر[2] فاجتمعوا أتيت فلانا وسمى رجلا لا يكتم السر[3] فأصغ إليه وقل له فيما بينك وبينه إنى قد صبوت فأنه سوف يظهر عليك ويصيح ويعلنه ، فاجتمع الناس فى الحجر فجئت الرجل ففعلت فقال ألا إن عمر بن الخطاب قد صبا .فما زال الناس يضربونى وأضربهم فقال خالى ما هذا فقيل ابن الخطاب فقام على الحجر فأشار بكمه فقال الا إنى قد أجرت ابن أختى فانكف الناس عنى ، وكنت لا أشاء أن أرى أحداً من المسلمين يضرب إلا رأيته وأنا لا أضرب فقلت ما هذا بشىء حتى يصيبنى مثل ما يصيب المسلمين ، فأمهلت حتى إذا جلس الناس فى الحجر وصلت إلى خالى فقلت اسمع فقال ما اسمع قلت جوارك عليك رد فقال لا تفعل

---

(١) هو عمرو بن هشام (٢) ما بين الكعبة والحطيم ، والحطيم هو الجدار المدار حولها

(٣) هو جميل بن معمر بن حبيب الجمحى، لم يوم الفتح أسر ومات فى خلافة عمر

يابن أختى قلت بل هو ذاك فقال ما أسمع قلت ما شئت فما زلت أضرب وأضرب حتى أعز الله الإسلام .

هذا إسلام عمر قد أفاض فيه الحديث عن نفسه وأردت هنا إثباته كى أقرر به وقائع ذات خطر فى حياته ثم فى أدبه ، هى عزته فى نفسه وفى بيت أبوته وعزته فى خئولته وبيت أمومته ، ثم شقه فى إسلامه طريقاً لم يشقها سواه ، حيث فرق بين سر وجهر وضعف وقوة تفريقا كان من أجله يطلب رسول الله صلى الله عليه وسلم عزة الأسلام باسلامه فلما أسلم سماه لذلك بالفاروق كما روت عائشة حين تقول « إن الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه وهو الفاروق فرق بين الحق والباطل » .

وكانت هجرة عمر قبـــل هجرة الرسول بعد عشرة مهاجرين ومعه عشرون مهاجراً ، أما كيف كانت فانى تارك الحديث عنه لعلى رضى الله ومنه تعلمون أنه لم يك فيها أقل جرأة ولا إقداماً منه فى إسلامه ، قال : ماعلمت أحدا من المهاجرين هاجر إلا مختفياً إلا عمر بن الخطاب فإنه لما هم بالهجرة تقلد سيفه وتنكب قوسه وانتضى فى يديه أسهما واختصر عنزته[1] ومضى قبل الكعبة والملأ من قريش بفنائها ، فطاف بالبيت سبعا متمكنا ثم أتى المقام فصلى متمكنا ثم وقف على الحلق واحدة واحدة وقال لهم ، شاهت الوجوه لايرغم الله الا هذه المعاطس ، من أراد أن تثكله أمه ويؤتم ولده ويرمل زوجته فليلقنى وراء هذا الوادى ، قال ذلك ومشى فما تبعه أحد إلا قوم من المستضعفين علمهم وأرشدهم ومضى لوجهه حتى بلغ المدينة فنزل ومن معه على رفاعة بن المنذر .

هذا . وإذا كان لنا أن نستخلص من إسلامه شيئاً كان له فى حياته الأثر البارز والتكوين الواضح لم يك ذلك الشىء إلا العزة والكرامة اللتين جاوزتا شخصه إلى الدين فأظهرتاه عزيز الجانب مهيب السلطان . أقبل سعد

---

(١) العنزة بالتحريك الرمح الصغير فيه زج ، واختصرها وضعها على خاصرته .

ابن أبى وقاص مرة يزحم الناس عليه وقد اجتمعوا حوله فى مال يقسمه بينهم حتى وصله فعلاه بالدرة وقال « إنك أقبلت لا تهاب سلطان الله فى الأرض فأحببت أن أعلمك أن سلطان الله لن يهابك » ولهذا قال ابن مسعود « كان إسلام عمر فتحاً وكانت هجرته نصراً وكانت إمارته رحمة » ولقد رأيتنا وما نستطيع أن نصلى فى البيت حتى أسلم فلما أسلم قاتلهم حتى تركونا فصلينا » وقال حذيفة « لما أسلم عمر كان الاسلام كالرجل المقبل لا يزداد إلا قربا فلما قتل كان الاسلام كالرجل المدبر لا يزداد إلا بعدا »

ثالثا — سيرته فى إسلامه قبل خلافته و بعدها

١ — أسلم عمر رضى الله عنه بعد نيف وأربعين مسلما كما تقدم سنة ست من البعثة ، ولكنه حيث هاجر كان التالى عند رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبى بكر فى سمو المكانه وثقة الاستشارة فلقى الدين منه نصراً مؤزراً سابقت فيه شجاعة قلبه ورباطة جأشه سداد رأيه ونفاذ بصيرته. شهد مع رسول الله ﷺ بدراً وأحدا والخندق وبيعة الرضوان وخيبر والفتح وحنينا وغيرها فكان فارسا مقداما وشجاعا مغواراً، ثم كان المعمول برأيه المأخوذ بقوله، وما انفرد دون الصحابة برأى إلا جاء الوحى له مصدقا وبمشورته نازلا. استشار رسول الله صلى الله عيه صحابته فى أسرى بدر وكانوا نحو السبعين فكلهم أشار بتخلية السبيل والمفاداة إلا عمر فإنه قال بقتلهم إعزازاً للاسلام وإلقاء لهيبته فى القلوب ، ولكن رسول الله خالف قوله إلى قول الكثرة فنزل الوحى معاتبا له على ما فعل بالآية (ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض) فقال صلى الله عليه وسلم (لقد كاد يصيبنا فى خلافك شر ياعمر) وقال (لو نزل من السماء عذاب لم يفلت منه إلا ابن الخطاب) ولما مات عبد الله ابن أبى وأراد النبى أن يصلى عليه قال عمر أليس الله نهاك أن تصلى على المنافقين فقال ، أنا بين خيرتين قالى تعالى (استغفر لهم أولا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم) ثم صلى

فنزلت الآية (ولا تصل على أحد منهم مات أبدا ولا تقم على قبره إنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون) وكذلك نزلت الآية (يأيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن) حينما كلم رسول الله فى أن يحتجب نساؤه ولا يظهرن للناس كما يظهرن . والآية (عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجا خيرا منكن) حين عاتب النبيُّ بعض نسائه ومرهو عليهن يقول لئن انتهيتن وإلا ليبدلن الله له منكن خيراً . وفى حادثة الأفك نزل القرآن بلفظه حيث قال لرسول الله ، من زوجك يا رسول الله قال الله تعالى قال أتظن أن الله قد دلس عليك فيها سبحانك هذا بهتان عظيم ، إلى غير ذلك مما جعل رسول الله تقول (ما نزل بالناس أمر قط فقالوا فيه وقال فيه عمر إلا نزل القرآن على نحو ما قال عمر) ومما جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يصفه بأنه محدَّث أو مفهم أو ملهم فى قوله (إنه كان فيمن قبلكم من الأمم ناس محدثون وإنه إن كان فى أمتى هذه أحد منهم فانه عمر بن الخطاب) .

٢ — وكان رحمه الله يضم إلى الحزم وبعد الرأى نفاذا وإقداما لا يعرفان فى كثير من الحزمة المتريثين . ندبه صلى الله عليه وسلم يوم أحد ليرد على أبى سفيان إذ أشرف على الجبل حين أراد الانصراف ونادى بأعلى صوته (الحرب سجال يوم بيوم بدر اعل هبل) فقام فقال (الله أعلى وأجل لا سواء ، قتلانا فى الجنة وقتلاكم فى النار) فناداه أبو سفيان هلم إلى ياعمر فجاءه غير هياب ولا مذعور فقال له أنشدك الله يا عمر أقتلنا محمدا ، قال لا وإنه ليسمع كلامك الآن فقال أبو سفيان أنت أصدق عندى من ابن قميئة وكان ابن قميئة هذا زعم أنه قتل محمداً .

ولم يك يجاره فى حزمه من سابق الصحابة ومتقدميهم إلا أبو بكر الصديق ، فهما اللذان أشارا على رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يخرج بالمسلمين بعد غزوة أحد حتى لا يظن المشركون بهم وهنا فوافقهما وخرجوا ثم عادوا بعد ارتحال أبى سفيان وقد أنزل الله فيهم (فانقلبوا بنعمة من الله

وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم) وهما اللذان أشارا على النبي ألا يأبه لنعيم الأشجعي وقد بعثه أبو سفيان ليخذل المسلمين عن الخروج فى بدر الثانية وقد كانوا تواعدوا عليها يوم أحد فاستمع لهما وأجاب وكان فى ذلك ما كان من رفعة المسلمين وإعزاز .

٣ — على هذا النهج القوى المتين كان عمر حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما اختاره الله لجواره وأراد الأنصار الاستئثار بالخلافة على رأى كثرتهم أو مشاركة قريش فيها على رأى القلة منهم وعلم بذلك عمر أقبل إلى أبى بكر فقال « أما علمت أن الأنصار قد اجتمعوا فى سقيفة بنى ساعدة يريدون أن يولوا هذا الأمر سعد بن عبادة . وأحسنهم من يقول منا أمير ومن قريش أمير » ثم مضيا مسرعين فلقيا أبا عبيدة عامر بن الجراح فتماشوا اليهم ثلاثتهم فجاءوا وهم مجتمعون ثم كان ما كان من خطب الأنصار وكلام أبى بكر وطال اللجاج وأبى الأنصار إلا الشركة فى أقل ما يرضون ، وإذ ذاك قام عمر فقال « هيهات لا يجتمع اثنان فى قرن والله لا ترضى العرب أن يؤ روكم ونبيها من غيركم ولكن العرب لا تمتنع أن تولى أمرها من كانت النبوة فيهم وولى أمورهم منهم ، لنا بذلك على من أبى من العرب الحجة الظاهرة والسلطان المبين ، من ذا ينازعنا سلطان محمد صلى الله عليه وسلم وإمارته ونحن أولياؤه وعشيرته إلا مدل بباطل أو متجانف لإثم أو متورط فى هلكة » فقام أبو بكر وقد قطع عمر الشك باليقين فقال هذا عمر وهذا أبو عبيدة فأيهما شئتم فبايعوا فأبى الاثنان إلا إياه وبايعاه فبايعه الناس ، وبفعل عمر فى هذا المأزق خرجت الأمة من فتنة كانت لا محالة منتهية بالإسلام إلى ضياع ، ولم تكن حكمته فى صرف الأمر عن الأنصار إلى المهاجرين بأقل منها حكمته وحكمة أبى عبيدة فى مبايعة أبى بكر الذى لولا موقفه وحده دون سائر الصحابة فى حروب الردة بعد ، لنضب معين الدين ولردت إلى عالم التاريخ دولة المسلمين .

وإليك فضلا آخر لعمر فى هذا الأمر الأخير هو خطبته حين بلغه أن

قوماً يفضلونه على أبى بكر الصديق رحمه الله وقد تقدمت بالنماذج .

هذا . لعل ظهور ما فضل به عمر الصحابة بعد أبى بكر ظهورا لا يدع مجالا للشك ، هو الذى دفع أبا بكر إلى أن يعهد إليه بالخلافة ولقد رشحه قبل العهد فى آخر خطبة له ترشيحاً أتى به على صفاته فى آخر خطبة له وقد تقدمت بالنماذج .

٤ — ولما ولى الخلافة كان أول منطق نطق به قوله : (إنما مثل العرب مثل جمل أنف اتبع قائده فلينظر قائده حيث يقوده ، وأما أنا فورب الكعبة لأحملنهم على الطريق) وهذه كلمات يسيرة منه ولكنها ترى بجلاء كيف كان يقدر موقفه من العرب وموقف العرب منه قدراً يجعله فى نظر نفسه المسئول إذا تنكبت العرب طريق الخير ، وكيف انه كان بنفسه ذو ثقة مزدوجة تعرفه الطريق الحق وتمكنه من حمل العرب عليه ، وما كان أجل تواضعه مع هذه الثقة حيث قال إذ صعد المنبر (ما كان الله ليرانى أرى نفسى أهلا لمجلس أبى بكر ثم نزل عن مجلسه مرقاة وأخذ فى خطبته ، بل لقد كان أجل من هذا اعترافه بعجزه إزاء تبعات الخلافة وأنها فوق مجهوده إن لم يتداركه الله حيث يقول بعد أن ذكر الناس بالله عز وجل واليوم الآخر (يا أيها الناس إنى قد وليت عليكم ولولا رجاء أن أكون خيركم لكم وأقواكم عليكم وأشدكم استضلاعا بما ينوب من مهم أموركم ما توليت ذلك منكم ، ولكنى عمرمهما محزنا انتظار مواقفة الحساب بأخذ حقوقكم كيف آخذها ووضعها أين أضعها وبالسير فيكم كيف أسير ، فربى المستعان فإن عمر أصبح لا يثق بقوة ولا حيلة إن لم يتداركه الله عز وجل برحمته وعونه وتأييده) .

٥ — قال عمر ذلك ثم تحمل أعباء الخلافة بعزمه القوى لا يتوانى ولا يستكين ، ندب الناس مع المثنى بن حارثة الشيبانى أمير جيش العراق إلى أهل فارس قبل صلاة الفجر من الليلة التى توفى فيها أبو بكر رحمه الله ، وكان ذا دراية بالحرب وبالوجوه التى تبعث فيها جيوش المسلمين

لا يزال ينثر من فنونها فى وصاياه للقواد والجنود ما فيه هدى للقائد وراحة للمجاهد ، وهذى بعض فقر منها ، قال لأبى عبيد بن مسعود الثقفى : (اسمع من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأشركهم فى الأمر ولا تجتهد مسرعاً حتى تتبين ، فإنها الحرب ، والحرب لا يصلحها إلا الرجل المكيث الرزين الذى يعرف الفرصة والكف) وله فى ذلك إلى أبى عبيدة رسالة تقدمت بالنماذج وأخرى لسعد بن أبى وقاص ستأتى فى أدبه ، وكان رضى الله عنه يقول للمجاهدين عند عقد الألوية (بسم الله وبالله وعلى عون الله امضوا بتأييد الله وما النصر إلا من عند الله ولزوم الحق والصبر فقاتلوا فى سبيل الله من كفر بالله ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين ولا تجبنوا عند اللقاء ولا تمثلوا عند القدرة ولا تسرفوا عند الظهور ولا تقتلوا هرماً ولا امرأة ولا وليداً وتوقوا قتلهم إذا التقى الزحفان وعند شن الغارات)

وبهذه الدراية بالحرب والجد فيها والدأب عليها فتح العراق والشام ومصر والجزيرة وديار بكر وأرمينية وأذربيجان وفارس وغيرها مما استكملت به الدولة رقعة لو تمت لعشرة غيره فى عشرة أمثال زمنه لعدوا بذلك كما قيل من الغزاة الفاتحين .

٦ — ولقد كان رحمه الله يعلم مع ذاك ما يقرره الاقتصاديون الآن من أن المال عصب الدولة لا تقوم لها قائمة بدونه فقد ضرب فى تدبير المال والمحافظة عليه المثل الأعلى حتى شاء أن يكون هذا الصفة المميزة له على كثرة صفاته ومميزاته ، خطب مرة فقال : (أيها الناس من أراد أن يسأل عن القرآن فليأت أبى بن كعب ومن أراد أن يسأل عن الفرائض فليأت زيد بن ثابت . ومن أراد أن يسأل عن الفقه فليأت معاذ ابن جبل ، ومن أراد أن يسأل عن المال فليأتنى فان الله جعلنى له خازناً وقاسما) . وعن هذه الصفة المتأصلة فى نفسه وضع الخراج على الأرض المفتوحة وكانت العرب تريد قسمتها كما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم بخيبر فلم يقبل منهم وقال لهم فما لمن جاء بعدكم من المسلمين ، ثم أنشأ ديوان

الأعطيات يقيد فيه الدخل والخرج فكان النواة لتعريب الدووانين بعد ،
وكان رحمه الله شديد الحرص على مال الدولة كثير الضن به ، ما طمع فى شىء
من بيت المال سوى ما وظفه لنفسه وكان درهما وربع درهم كل يوم إلى
أن جاءت له زوجه بقميص جديد فسألها من أين جئت به ؟ قالت نأخذ من
بيت المال درهما وربع درهم فأنفقت الدرهم وادخرت الربع حتى وفرت
ثمن هذا القميص إذ رأيتك إذا غسلت ثوبك اختبأت حتى يجف ، فقال هلك
عمر ، إذن نحن لا نستحق من بيت المال إلا درهما ثم أمر بالقميص فبيع
ورد ثمنه إلى بيت المال وقطع ربع الدرهم من عطائه ، وكان إذا احتاج أتى
صاحب بيت المال فاستقرضه فربما أعسر فيأتيه يتقاضاه فيلزمه حتى يحتال له
وربما خرج عطاؤه فقاضاه . واشتكى يوما شكوى فنعت له العسل وفى
بيت المال عُكة منه فأتى المنبر فقال للناس إذا أذنتم لى فيها أخذتها وإلا فهى
على حرام . وسأله رجل من ذوى قرابته فزجره وأخرجه فقيل له فى ذلك
فقال إنه سألنى من مال الله فما معذرتى إن لقيته ملكا خائناً . وكان كثير
القصد على عماله فيما يأخذون شديد المحاسبة لهم فيما يدخرون ، لا يمهل من
تغيرت حاله منهم بفاشية مال إلا استقدمه وعزله واحتجنها منه فلا يلقى
منهم استنكارا لما فعل ولا مخالفة فيما أمر ، إذ كان القدوة المثلى والمثل الأعلى ،
وقصصه فى ذلك متعارفة مشهورة . استعمل عتبة ابن أبى سفيان على كنانة
فقدم معه مال فقال ما هذا ياعتبة قال مال خرجت به معى وتجرت فيه قال
مالك تخرج المال معك فى هذا الوجه ثم صيره فى بيت المال .

٧ — وكان رحمه الله فوق ما تقدم به من درايته بالحرب وتدبيره للمال
ذا سياسة بارعة مع عماله وسائر رعيته ، كان إذا استعمل عاملا كتب له عهداً
وأشهد عليه رهطا من المهاجرين والأنصار واشترط عليه ألا يركب برذونا
ولا ياكل نقيا ولا يلبس رقيقاً ولا يتخذ بابا دون حاجات الناس . وكان
كلما صعد المنبر فأمر المسلمين بشىء ونهاهم عن شىء مما فيه صلاحهم جمع أهله
ووعظهم وتوعدهم وقال لهم إن الناس ينظرون اليكم نظر الطير وأقسم بالله

لا أجد أحدا منكم خالف إلا ضعفت عليه العقوبة .

٨ — وكانت تلك السياسة مرتكزة من نفسه على صفتين قد امتلكتاها عليه فسارتا بها على قوم محجة وأوضح طريق ، هما العدل المطلق الذى يريه القوى ضعيفاً حتى يأخذ الحق منه والضعيف قوياً حتى يأخذ الحق له ، ثم الاستشارة العامة التى تجعل الحكمة ضالته يلتقطها أنى وجدها . وإن سيرته فى كلتيهما لملأى بالحوادث الناطقة والوقائع الشاهدة . فمن آيات الله عدله أنه كان لا يدع موسما من مواسم الحج يمر دون أن يجمع بين عماله والشاكين ليقتص لهم منهم وينصفهم ، وكان الناس على علم منه بما يريد إذ لا يزال يكرر على مسامعهم ما يؤمنهم على حقوقهم ويرد عليهم مظالمهم . خطب مرة فقال : (يأيها الناس إنى والله ما أرسل عليكم عمالا ليضربوا أبشاركم ولا ليأخذوا أموالكم ، ولكنى أرسلهم إليكم ليعلموكم دينكم وسنتكم ، فمن فُعل به شىء سوى ذلك فليرفعه إلىّ ، فوالذى نفس عمر بيده لأقصنه منه ، فقال له عمرو بن العاص : يا أمير المؤمنين أرأيتك إن كان رجل من أمراء المسلمين على رعية فأدب بعض رعيته إنك لتقصنه منه ، قال إى والذى نفس عمر بيده إذن لأقصنه منه وكيف لا أقصه منه وقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقص من نفسه، ألا لا تضربوا المسلمين فتذلوهم ولا تجمروهم فتفتنوهم ولا تمنعوهم حقوقهم فتكفروهم) . وشكا إليه رجل أبا موسى الأشعرى أنه ضربه فكتب إليه : « إن كنت ضربت فلانا على ملأ من الناس فعزمت عليك لما تقدمت له فى ملأ من الناس حتى يقتص منك، وإن كنت فعلت ذلك فى خلاء فاقعد له فى خلاء من الناس حتى يقتص منك ، ولولا أن عفا الرجل عنه إذ قعدله لجرى عليه القصاص على ماله من سابقة فى الإسلام وبلاء . ومثل ذلك حدث بأمره لعمرو بن العاص، كما حدث أن استقدم سعد بن أبى وقاص على ما له من مكانة فى الفتح لشكوى من أهل عمله بالكوفة ولكنه وجده وقد جمعهم معه بريئاً . ومن وصاياه لسعد إذ أمره على حرب العراق قوله : (لا يغرنك من الله

أن قيل خال رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحب رسول الله فان الله عز وجل لا يمحو السيء بالسيء ولكنه يمحو السيء بالحسن ، إن الله ليس بينه وبين أحد نسب إلا طاعته فالناس شريفهم ووضيعهم فى ذات الله سواء ، الله ربهم وهم عباده يتفاضلون بالعافية ويدركون ماعنده بالطاعة ، فانظر الأمر الذى رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم منذ بعث عليه إلى ان فارقنا فالزمه فإنه الأمر ، هذه عظتى إياك إن تركتها ورغبت عنها حبط عملك وكنت من الخاسرين) وكان لاستدامة عدله لا يزال يتفقد أحوال رعيته ويعس ليلا ويبعث نقاته إلى الأمصار يستطلعون سير عماله ويوافونه بها .

ومن آيات استشارته والعمل برأى ذوى الرأى وأهل الخبرة ما سبق أن ذكرناه فى إرشاده الناس عن محل سؤالهم ، ولعل كبرى هذه الآيات مافعله فى اختيار رجال الشورى لانتخاب الخليفة من بينهم على ألا ينتخب ابنه وإن كان منهم . وكان لا يأنف أن ينزل على رأى الحق أيا كانت مكانته وحديثه مشهور مع المرأة التى سمعته يخطب فى منع الناس أن يغالوا فى المهور فلما حين قالت له كف ياعمر والله يقول : « وآتيتم إحداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً » كان جوابه أصابت امرأة وأخطأ عمر كل الناس أفقه منك ياعمر . فانظر إلى هذه السلاسة والانقياد مع تلك الصلابة وهاتيك الشدة ، تجده لرجل المحل الذى يقدر كل أمر قدره ويعطى كل حال شأنه ، وقد قال الطبرى فى وصفه « كان رضى الله عنه شديداً على أهل الريب وفى حق الله صليباً حتى يستخرجه ، ليناً وسهلا فيما يلزمه حتى يؤديه ، وبالضعيف رحيما رءوفاً) .

٩ — وقد كان يزين حزمه زهد وتواضع وكثرة عطف على شدة خوف من الله وثقة به . دخل على ابنته حفصة فقدمت إليه مرقاً بارداً وصبت فى المرق زيتاً فقال : (أدمان فى إناء واحد لا أذوقه حتى ألقى الله) ومر فى عسسه بصبية يبكون وقد وضعت أمهم قدراً على نار فسألها عما يبكيهم فقالت الجوع وسألها عما فى القدر فقالت ماء أسكتهم به حتى يناموا ، فانطلق حتى

لا تزال تلحظ كثرتها فيما بقى لنا ، ولهذه القلة فيما وصلنا من أدبه تكون دراسة هذا الأدب بالمعنى الذى ينبغى أن يكون، شاقة عنيفة من هذا الكم القليل الباقى ، الذى لا يسعد الدارس بالمدد الكافى ولا يمكنه من إيفاء ما يحاول من تصوير ، ولكنا مع هذا وذاك واجدون بعض ما يعين على ما نريد فى الناحيتين الآتيتين من تصوير إن شاء الله .

٢ — ميادينه وأهدافه

أما والكثرة الغالبة التى وصلت إلينا من أدب عمر ، قد صدرت منه مدة خلافته ، وأما والسياسة العامة للدولة العربية كانت قائمة على الفصل بين الأدارة والقضاء والجيش ، كما هو الشأن الآن فى دول الحضارة الحديثة ، فان ذلك الأدب توجه من عمر أكثر ما توجه إلى هذه السلطات يضع أصولها ويفرع فروعها ، فجاءت طائفة منه إلى ولاة البلدان ومن ورائهم عمالها ، وطائفة إلى رؤساء القضاء فى الأمصار ومن خلفهم قضاة أقاليمها ، وثالثة إلى أمراء الأجناد ومن بعدهم كبار قوادها ، فكان أن نمت تلك الآداب منه ، على كبير علم ، وصادق تجربة ، وبعد نظر .

١ — لم يدس فى الناحية الإدارية نفسه بالتأديب حتى يكون القدوة الصالحة والأسوة الحسنة ، استمع إليه يبين الواجب عليه للناس قبل أن يبين حقه عليهم حيث يقول :

أيها الناس — إن الله عز وجل قد ولانى أمركم وقد علمت أنفع ما بحضرتكم لكم ، وإنى أسأل الله أن يعيننى عليه ، وأن يحرسنى عنده ، وأن يلهمنى العدل فى فيئكم كالذى أمرنى به ، فانى امرؤ مسلم وعبد ضعيف إلا ما أعان الله عز وجل . ولن يغير الذى وليت من خلافتكم من خلق شيئاً إن شاء الله ، إنما العظمة لله عز وجل ، وليس للعباد منها شىء ، فلا يقولن أحد إن عمر تغير منذ ولى ، أعقل الحق من نفسى وأتقدم به وأبين لكم أمرى ، فأيما رجل كانت له حاجة أو ظلم مظلمة أو عتب علينا فى خلق

فليؤذنى ، فانما أنا رجل منكم — قال ذلك عن نفسه ثم توجه إليهم فقال — فعليكم بتقوى الله فى سركم وعلانيتكم وحرماتكم وأعراضكم ، وأعطوا الحق من أنفسكم ولا يحمل بعضكم بعضاً على أن تحاكموا إلىّ ، فانه ليس بينى وبين أحد من الناس هوادة ، وأنا حبيب إلىّ صلاحكم عزيز علىّ عنتكم ، وأنتم أناس عامتكم حضر فى بلاد الله ، وأهل بلد لا زرع فيه ولا ضرع إلا ماجاء الله به إليه ، والله عز وجل قد وعدكم كرامة كثيرة ، وأنا مسئول عن أمانتى وما أنا فيه ، ومطلع على ما يحضرنى بنفسى إن شاء الله لا أكله إلى أحد ، ولا أستطيع ما بُعد منه إلا بالأمناء وأهل النصح للعامة منكم ، ولست أجعل أمانتى إلى أحد سواى إن شاء الله .

وها هو يقول فيما كتب به إلى عتبة بن غزوان حين ولاه البصرة ، يا عتبة — اتق الله فيما وليت ، وإياك أن تنازعك نفسك إلى كبر يفسد عليك أخوتك ، وقد صحبت رسول الله صلى الله عليه وسلم فعززت به بعد الذلة ، وقويت به بعد الضعف ، حتى صرت أميراً مسلطاً وملكا مطاعاً ، تقول فيسمع منك ، وتأمر فيطاع أمرك فيالها نعمة إن لم ترفعك فوق قدرك ، وتبطرك على من دونك ، احتفظ من النعمة احتفاظك من المعصية ، ولهى أخوفهما عندى عليك أن تستدرجك وتخدعك فتسقط سقطة تصير بها إلى جهنم ، أعيذك بالله ونفسى من ذلك .

وفى الناحية القضائية كان يلبوعاً غزيراً للفقه ، ومقننا حكيما فى أحكامه ، وهذه رسالته فى القضاء إلى أبى موسى الأشعرى قد وضعت أصول الأحكام فى أحكم نظام ، وتقدمت بالنماذج ، وستأتى رسالة منه فيه إلى معاوية وأخرى إلى شريح .

وكذلك كان فى ناحية الحرب والغزو ، وهذه رسالة جامعة لكثير من فنون الحرب وسياستها ، وجهها إلى سعد بن أبى وقاص من ولاة حرب فارس قال:

أما بعد فانى آمرك ومن معك من الأجناد بتقوى الله على كل حال ، فإن تقوى الله أفضل العدة على العدو وأقوى المكيدة فى الحرب ، وآمرك

ومن معك أن تكونوا أشد احتراسا من المعاصى منكم من عدوكم ، فإن ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم ، وإنما ينصر المسلمون بمعصية عدوهم لله ، ولولا ذلك لم تكن لنا بهم قوة ، لأن عددنا ليس كعددهم ، ولا عدتنا كعدتهم ، فإن استوينا فى المعصية كان لهم الفضل علينا فى القوة وإلا ننصر عليهم بفضلنا لم نغلبهم بقوتنا ، اعلموا أن عليكم فى سيركم حفظة من الله يعلمون ما تفعلون ، فاستحيوا منهم ، ولا تعملوا بمعاصى الله وأنتم فى سبيل الله ، ولا تقولوا إن عدونا شر منا فلن يسلط علينا ، فرب قوم سلط عليهم شر منهم كما سُلط على بنى إسرائيل بمساخط الله المجوس فجاسوا خلال الديار وكان وعداً مفعولا ، واسألوا الله العون على أنفسكم كما تسألونه النصر على عدوكم ، أسأل الله تعالى ذلك لنا ولكم ؛ يا سعد ترفق بالمسلمين فى سيرهم ، ولا تحشمهم سيرا يتعبهم ولا تقصر بهم عن منزل يرفق بهم ، حتى يبلغوا عدوهم والسفر لم ينقص قوتهم ، فإنهم سائرون إلى عدو مقيم حامى الأنفس والكراع ، وأقم بمن معك كل جمعة يوما وليلة حتى تكون لهم راحة يحيون فيها أنفسهم ويرمون أسلحتهم وأمتعتهم ، ونح منازلهم عن قرى أهل الصلح والذمة ، فلا يدخلها من أصحابك إلا من تثق بدينه ولا ترزأ أحداً من أهلها شيئاً ، فان لهم حرمة وذمة ابتليتم بالوفاء بها كما ابتلوا بالصبر عليها ، فما صبروا لكم فتولوهم خيراً ، ولا تستنصروا على أهل الحرب بظلم أهل الصلح . وإذا وطئت أرض العدو فأذك العيون بينك وبينهم ، ولا يخف عليك أمرهم ، وليكن عندك من العرب أو من أهل الأرض من تطمئن إلى نصحه وصدقه ، فان الكذوب لا ينفعك خبره وإن صدقك فى بعضه ، والغاش عين عليك وليس عينا لك ، وليكن منك عند دنوك من أرض العدو أن تكثر الطلائع وتبث السرايا بينك وبينهم ، فتقطع السرايا أمدادهم ومرافقهم ، وتتبع الطلائع عوراتهم ؛ وتنق للطلائع أهل الرأى والبأس من أصحابك وتخير لهم سوابق الخيل فان لقوا عدوا كان أول ما تلقاهم القوة من رأيك ؛ واجعل أمر السرايا إلى أهل الجهاد

والصبر على الجلاد ، ولا تخص بها أحداً بهوى فتضيّع من رأيك وأمرك أكثر مما حابيت به أهل خاصتك ، ولا تبعثن طليعة ولا سرية فى وجه تكون فيه غلبة أو ضـــيقه ونكاية ، فاذا عاينت العدو فاضمم اليك أقاصيك وطلائعك وسراياك واجمع اليك مكيدتك وقوتك، ثم لا تعاجلهم المناجزة مالم يستكرهك قتال حتى تبصر عورة عدوك ومقاتله ، وتعرف الأرض كلها كمعرفة أهلها ، فتصنع بعدوك كصنعه بك ، ثم أذك أحراسك على عسكرك وتيقظ من البيات جهدك ، ولا تؤتى بأسير ليس له عقد إلاضربت عنقه ، لترهب به عدو الله وعدوك ،والله ولى أمرك ومن معك وولى النصر لكم على عدوكم وهو المستعان

وفوق هذه الوصايا الحربية العامة ، كان رؤساء الجند يكتبون إليه فى كل ما يعن لهم من أمر ، فيأتيهم منه الرأى الصائب الذى يعقبه الظفر والنصر . ومن ذلك أن سعداً لما فتح المدائن كتب إليه أن يزدجرد غادرها إلى حلوان ، وأن الفرس عسكروا بجلولاء بقيادة مهران ، وأن أهل الموصل عسكروا بتكريت بقيادة الأنطاق ، فكتب إليه أن سرح هاشم بن عتبة إلى جلولاء واجعل على مقدمته القعقاع بن عمرو ، وعـــلى ميمنته سعر بن مالك ، وعلى ميسرته عمرو بن مالك ، وعلى ساقته عمرو بن مرة ، وأن سرح إلى تكريت عبد الله بن المعتم ، واستعمل على مقدمته ربعى بن الأفكل العنزى ، وعلى ميمنته الحارث بن صابر الذهلى ، وعلى ميسرته فرات بن حيان العجلى وعلى ساقته هانىء بن قيس ، فإن فتح الله عليكم جلولاء وتكريت فسرح القعقاع إلى حلوان ، ففعل سعد ما أمر به فتم فتح الثلاث سنة ست عشرة .

هذه هى الميادين الثلاثة التى كان يجرى فيها أدب عمر أكثر ما يجرى ، والتى كان يهدف إلى غاياتها أكثر ما يهدف ، وهناك ميدان رابع لم يكن أقل نصيباً منها فى أدب عمر ، ذلك هو ميدان المال والاقتصاد ، فإن عمر نفسه حينما كان يخص رجالا بأشياء كان يخص نفسه بالمال ، لأنه كان يعلم

إذ ذاك ما يقرره الاقتصاديون الآن ، من أن المال عصب الدولة الذى لا تقوم لها قائمة بدونه ، ولقد ضرب فى تدبيره والمحافظة عليه أبرع الأمثال حتى شاء أن يكون ذلك الصفة التى يفضل فيها غيره على ما كان له من فضائل ومميزات . خطب مرة فقال :

أيها الناس من أراد أن يسأل عن القرآن فليأت أبى بن كعب ، ومن أراد أن يسأل عن الفرائض فليأت زيد بن ثابت ، ومن أراد أن يسأل عن الفقه فليأت معاذ بن جبل ، ومن أراد أن يسأل عن المال فليأت إلىّ ، فان الله جعلنى له خائرنا وقاسما ، وعن هذه الصفة المتأصلة فى نفسه كتب إلى عماله بوضع الخراج على الأرض المفتوحة وكانوا يريدون قسمتها فرفض وقال فما لمن جاء بعدكم من المسلمين ، وعنها أنشأ ديوان الأعطيات لقيد الدخل والخرج ، فكان النواة لسائر الدواوين بعد ، ثم كان شديد الحرص على مال الدولة كثير الضن به حتى على نفسه فى نفقته ، وله فى هذه الناحية الأخبار الكثيرة مع عماله ومع نفسه ومع سائر الناس ، وفى مأثوره الشىء الكثير عن تلك الأخبار ، وليس فى المقام متسع لإيراد ذلك .

٣ — نمطه ومميزاته

شارك عمر رضى الله عنه القرشيين فيما امتازت به لهجتهم من تهذيب فى العبارة وترق فى الأسلوب ، جعلها من غير شك أوضح اللهجات بياناً وأعذبها أسلوباً وأخفها منطقاً وأوسعها فهما ، شأن اللهجات فى حواضر المدن وقواعد الملك ، فإن لها من الحلاوة والطلاوة ما ليس لغيرها فى سائر المدن وعامة القرى ، ولكنه لم يقف فى مشاركته حيث المنزلة العامة لقريش ، بل تعداها إلى منزلة خاصة سمت به ورفعت من شأنه ، حتى كان سفير قريش البالغ فى مهام أمورها ، ومدرهها المدافع عنها يوم جمعها ، ثم شارك المهاجرين الأولين فى مصاحبة النبى صلى الله عليه وسلم مهبط الوحى ومنبع العرفان ، والمجلى بكلامه بعد الكتاب فى حلبة الفصاحة والبيان .

ولقد سمت به مكانته فى إسلامه كما سمت به فى جاهليته ، فكان المقدم مع الصديق لدى كل مهم وعند كل خطب ، والموفق إلى الصواب فى كل ما به يدلى وإليه يرمى ، وحسبه فى هذه الناحية أنه كان إذا انفرد برأى دون سائر الصحابة ، وأحياناً دون رسول الله ، نزل الوحى على ما يقول مصدقا ، ولما يرى مؤيداً ، مع تشابه فى العبارة واتحاد فى بعض المفردات ، وهيهات لهذا أن يكون منه ، دون أن ندين له بمكانة بيانية تنزع عن عقل رشيد وبيان سديد ، وقد سبقت لذلك أمثلة كثيرة فى سيرته .

ذاكم هو النمط العام لأدب عمر الذى كان يمثل به أدب الطبقة الخاصة من أصحاب رسول الله المهاجرين من قريش ، أما ميزاته فكثيرة ، وهذا طرف منها :—

١ — يرينا الذى بين أيدينا من أدب عمر ، أنه وإن كان مكثاراً فى القول يرسله خطبة ووصية أو يبعث به رسالة وجوابا ، لم يك جاريا فيه بين طرفى الأطناب والإيجاز ، وإنما كان إلى الإيجاز أميل وفيه أرغب ، وإذا رغب عنه لداعية ما ، جنح إلى المساواة دون الأطناب ، فأدبه من هذه الناحية أشبه ما يكون بطبيعته وخلقه ، قصدٌ إلى الحق لا توانى فيه ولا تعريج ، وصراحة فى القول لا لف فيها ولا دوران ، وحرص على الزمن لا تضييع منه ولا تفريط ، وكل هذه وأشباهها فيه ، عوامل تدعو إلى الإيجاز بقدر ما تحارب الأطناب ، ومعظم ما أطال فيه القول ، إذا تدبر الانسان فى معانيه ، وجده من الإيجاز لا المساواه بله الاطناب ، كما هى رسالته السابقة إلى أبى موسى الأشعرى فى القضاء ، على أن له فى القضاء نفسه رسالة بينة الإيجاز جداً إلى معاوية هى التى يقول فيها « أما بعد فإنى أكتب إليك بكتاب فى القضاء لم آلك ونفسى فيه خيراً ، الزم خمس خصال يسلم لك دينك وتأخذ فيه بأفضل حظك ، إذا تقدم إليك الخصمان ، فعليك بالبينة العادلة واليمين القاطعة ، وأدن الضعيف حتى يشتد قلبه ويبسط لسانه ، وتعهد الغريب فإنك إن لم تتعهده ترك حقه ورجع إلى

أهله وإنما ضيع حقه من لم يرفق به ، وآس بين الناس فى لحظك وطرفك ، وعليك بالصلح بينهم ما لم يتبين لك فصل القضاء .

وله فيه أيضاً رسالة إلى شريح هى الإيجاز نفسه ، يقول فيها ، أما بعد فلا تشار ولا تمار ولا تبع ولا تبتع فى مجلس القضاء ولا تقضين بين إثنين وأنت غضبان .

هذا وإن إيجازه فى خطبه لا يقل عنه فى رسائله ، ومن آيات ذلك أول خطبة خطبها حين ولى الخلافة وقد تقدمت بسيرته معلقا عليها .

٢ — ويرينا الذى بين أيدينا من أدب عمر ، أن العبارة كانت عنده فى المرتبة الثانية بعد المعنى ، فكان إذا أقبل يتحدث موصياً أو خطيباً ، وإذا انكفأ يملى مرسلا أو مجيباً ، انصرف بكل نفسه إلى الأعراب عما فى نيته من معان ، وترك الألفاظ والعبارات تأتيه من أصل فطرته وقوة بيانه غير حافل بها ولا مدقق فى بلوغها ، ومن هنا كان يظهر فى أدبه ، ما يظهر فى شعر الشاعر المطبوع من التحليق إلى ما لا يصله فيه غيره أكثر ما يقول ، كما قد يظهر فيه تنزل إلى المستوى العادى فى بعض الأحيان لا يتدنى إلى لغة السواد ، ولكن يتمثل فى سهولة المفردات من غير ابتذال ، وفى وضوح الأسلوب دون إسفاف ، وآية ذلك من خطبه تلك التى سلفت فى بيان الواجب له وعليه ، أما آيته فى رسائله فنها كتابه بالعهد إلى أهل إيلياء (بيت المقدس) وقد تقدم بالنماذج .

على أن الذى يتدبر هذه الناحية فى أدبه ، لا يلبث أن يرى أنه كان يسهل حين التبيين والتشريع ، فإذا ما كان واعظاً وزاجراً حلق فى سماء البيان ، ولربما اجتمع له الأمران فى الموقف الواحد كهذه الخطبة التى بين وأرشد فى أولها ، ثم وعظ وزجر فى آخرها وهى : —

أيها الناس ، إنه أتى على حين وأنا أحسب أن من قرأ القرآن إنما يريد الله وما عنده ، ألا وإنه قد خيل إلى أن أقواماً يقرءون القرآن يريدون ما عند الناس ، ألا فأريدوا الله بقراءتكم وأريدوه بأعمالكم ، فإنما كنا نعرفكم إذ

الوحى ينزل ، وإذ النبى صلى الله عليه وسلم بين أظهرنا ، أما وقد رفع الوحى وذهب النبى عليه السلام فانما أعرفكم بما أقول لكم ، الا فمن أظهر لنا خيراً ظننا به خيراً وأثبناه عليه ، ومن أظهر لنا شراً ظننا به شرا وأبغضناه عليه - ثم قال فى آخرها - أيها الناس اقدعوا هذه النفوس عن شهواتها فانها طلعة ، وإنكم إلا تقدعوها تنزع بكم إلى شر غاية ، إن هذا الحق ثقيل مرىء ، وإن الباطل خفيف وبىء ، وترك الخطيئة خير من معالجة التوبة ، ورب نظرة زرعت شهوة ، وشهوة ساعة أورثت حزناً طويلا .

فهو إذن من الذين يضعون الكلم فى مواضعه ولكل مقام مقال

٣ — ويرينا الذى بين أيدينا من أدب عمر أنه كان لا يتقيد بتلاؤم الموضوعات التى يعالجها ، ولا بمناسبة بعضها لبعض ، بل كان يفضى بكل مافى نفسه وإن لم يوجد التلاؤم ، وهذا مشاهد فى كثير من مأثوره كهذه الخطبة التى عالج فيها عدة موضوعات ليس بين بعضها وبعض وثاق من رباط قال :

أيها الناس إن بعض الطمع فقر ، وإن بعض اليأس غنى ، وإنكم تحبون ما لا تأكلون ، وتأكلون ما لا تدركون ، وأنتم مؤجلون فى دار غرور ، كنتم على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم تؤخذون بالوحى ، فمن أسر شيئاً أخذ بسريرته ومن أعلن شيئاً أخذ بعلانيته ، فأظهروا لنا أحسن أخلاقكم ، والله أعلم بالسرائر ، فانه من أظهر لنا قبيحاً وزعم أن سريرته حسنة لم نصدقه ، ومن أظهر لنا حسنة ظننا به حسنا ، واعلموا أن بعض الشح شعبة من النفاق فأنفقوا خيرا لأنفسكم ومن يوق شح نفسه فاولئك هم المفلحون . » ثم قال »

أيها الناس أطيبوا مثواكم ، وأصلحو أموركم ، واتقو الله ربكم ، ولا تلبسو نساءكم القباطى فإنه ان لم يشف فإنه يصف » وقال »

أيها الناس إنى وددت أن أنجو كفافا لا لى ولا على ، وإنى لأرجو إن عمرت فيكم يسيرا أو كثيرا أن أعمل بالحق فيكم إن شاء الله ، وألا يبقى أحد من المسلمين وإن كان فى بيته إلا أتاه حقه ونصيبه من مال الله وإن

لم يعمل إليه نفسه ولم ينصب له بدنه ، وأصلحوا أموالكم التى رزقكم الله ، ولقليل فى رفق خير من كثير فى عنف ، والقتل حتف من الحتوف يصيب البر والفاجر ، والشهيد من احتسب نفسه ـ وإذا أراد أحدكم بعيرا فليعمد إلى الطويل العظيم فليضربه فان وجده حديد الفؤاد فليشتره

٤ — ويرينا الذى بين أيدينا من أدب عمر ، أنه كان شديد الاخلاص للدين كثير الانصراف عن الدنيا ، حاضر الخوف من الله شديد الحذر من احتمال التبعات ، ولقد توجهت شدته الجاهلية إلى هذه الناحية فى إسلامه فظهرت فى أدبه ظهورا عشيت من قوته العيون ، وهلعت لوقعه القلوب ، وإن أخوف ما كان يخاف على نفسه هو نفسه التى بين جنبيه ، فكان شديد القوة عليها كثير المعالجة لها ، خشية ما قد يكون من طغيان صفاته ، وقد تقدمت بالنماذج خطبة له فى ذلك .

٥ — ويرينا الذى بين أيدينا من أدب عمر ، أنه كان ذا دراية بأدب الخطابة ومواضع الصواب ، لا يزال يرشد به ويهدى اليه . خرج ذات يوم مع مولى له يعد إبلا مع خراج العراق وكانت كثيرة ، فقال المولى هذا من فضل الله وبرحمته ، فقال له كذبت ، ليس هذا هو الذى يقول الله فيه « قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا » إنه يقول بالهدى وبالسنة وبالقرآن فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون ، ولذا كان يحاسب نفسه على الألفاظ ويضعها فى مواضعها التى تليق بها كما كان يتطير منها . أقبل على قوم يوقدون ناراً فقال السلام عليكم يأهل الضوء ، كارها أن يقول يأهل النار . وأراد أن يستعين برجل فى عمل ، فلما سأله عن اسمه قال ظالم بن سراق فقال تظلم أنت ويسرق أبوك ، ولم يستعن به .

٦ — وأخيراً يرينا الذى بين أيدينا من أدب عمر ، أنه كان قديراً على الحكمة البارعة والكلمة الجامعة ، لا يزال يرسلها جنانه إلى بيانه ، فتنحدر على لسانه منثورة أو فى خلال كلام ، حتى لا تكاد تجد له قولا غير مؤيد

بحكمة أو مزين بجامعة ، وقلما يعرض له أمر دون أن ينطق فيه بهما أو بأحداهما . وهذا بعض ما أثر عنه منهما .

من ذلك قوله ، من كتم سره كان الخيار فى يده ، وقوله لا تؤخر عمل يومك لغدك ، وقوله من لم يعرف الشر كان جديرا أن يقع فيه ، وقوله كفى بالمرء غيا أن تكون فيه خلة من ثلاث ، أن يعيب شيئا ثم يأتى مثله ، أو يبدو له من أخيه ما يخفى عليه من نفسه ، أو يؤذى جليسه فيما لا يعنيه .

ومما جاء منها عن بديهه لأمر عرض قوله وقد سمع نادبة تنوح فضربها وقال «إنها لا تبكى بشجوكم ، ولكنها تهريق دمعها لأخذ دراهمكم ، إنها تؤذى أمواتكم فى قبورهم وأحياءكم فى دورهم ، إنها تنهى عن الصبر وقد أمر الله به وتأمر بالجزع وقد نهى الله عنه . وقوله وقد سمع رجلا يقول ، إنى أنفق مالى ونفسى فى سبيل الله فقال أولا يسكت أحدكم فان ابتلى صبر وإن عوفى شكر . وقد سمع رجلا يثنى على آخر فى وجهه فقال له عقرت الرجل عقرك الله . ثم قوله وقد قيل له وهو يهنأ بعيرا من إبل الصدقة ، هلا قام بذلك عبد من عبيد الصدقة فقال « وأى عبد هو أعبد منى » . إلى غير ذلك مما كثر فى النوعين وشاع .

رابعا — علاقته بالشعر

كان عمر رحمة الله عليه يقدر الشعر قدره ، ويعرف مكانته ، وتجلى هذا منه فى أمور :

١ — ما أثر من قوله فى التشجيع على قرضة والحض على الانتفاع به ، ثم بعض أفعاله فى ذلك .

فمن أقواله قوله ، أفضل صناعات الرجل الأبيات من الشعر يقدمها فى حاجته ، يستعطف بها قلب الكريم ويستميل بها قلب اللئيم . وقوله لابنه عبد الرحمن ، يا بنى انسب نفسك تصل رحمك واحفظ محاسن الشعر يحسن أدبك ، فمن لم يعرف نسبه لم يصل رحمه ومن لم يحفظ محاسن الشعر لم يؤد

حقا ولم يقترف أدباً ، وقوله للناس عامة ، تعلموا الشعر فإن فيه محاسن تبتغى ومساوى تتقى ، إلى غير ذلك .

ومن أفعاله : أنه كتب إلى أبى موسى الأشعرى يقول « مُر من قبلك بتعلم الشعر فأنه يدل على معالى الأخلاق وصواب الرأى ومعرفة الناس ، وأنه بعث إلى المغيرة بن شعبة وهو واليه على الكوفة ، أن استنشد من قبلك من الشعراء ما قالوا فى الاسلام ، فاستنشدهم وكتب له بذلك فأتاهم .

٢ — كان رحمه الله لا يكاد يعرض له أمر إلا أنشد فيه ما يلائمه من الشعر متمثلا به فيصيب .

حج ذات مرة فلما كان بضجنان وهو جبل قرب مكة وله واد باسمه قال ، لا إله إلا الله العلى العظيم المعطى ما شاء من شاء ، كنت أرعى إبل الخطاب بهذا الوادى فى مدرعة صوف ، وكان فظا يتبعنى إذا عملت ويضربنى إذا قصرت ، والآن أمسيت وليس بينى وبين الله أحد ، ثم تمثل — فى أن هذا لن يغره فى الدنيا ولن يلهيه عن الآخرة — بهذه الأبيات لورقة بن نوفل .

لا شىء فيما ترى تبقى بشاشته ... يبقى الإلـه ويودى المال والولد
لم تغن عن هرمز يوما خزائنه ... والخلد قد حاولت عاد فما خلدوا
ولا سليمان إذ تجرى الرياح له ... والإنس والجن فيما بينها ترد
أين الملوك التى كانت نوافلها ... من كل أوب إليها راكب يفد
حوض هنالك مورود بلا كذب ... لا بد من ورده يوما كما وردوا

وكثيراً ما كان يتمثل بهذين البيتين للأعور الشنى

هون عليك فإن الأمو ... ر بكف الإلـه مقاليدها
فليس بآتيـــك منهيها ... ولا قاصر عنك مأمورها

٣ — كان شديد التأثر بالشعر إلى درجة البكاء إن كان ثمت ما يبكى .

بكى حين سمع متمم بن نويرة ينشد أبا بكر ، عينيته التى رثى بها أخاه مالكا حين قال

وكنا كندمانى جذيمة حقبة ... من الدهر حتى قيل لن يتصدعا

فلما تفرقنا كأنى ومالكا لطول اجتماع لم نبت ليلة معا

وبكى حين دخل عليه مسجد رسول الله أمية بن الأسكر فى كبر وضعف ورعشة ، يطلب رد ابنه كِلاب من الغزو وأنشده من أبيات

سأستعدى على الفاروق ربا له دفع الحجيج إلى سياق
وأدعو الله مجتهداً عليه ببطن الأخشبين إلى دِقاق
إن الفاروق لم يردد كلابا إلى شيخين هامهما زواق

ثم كتب برده فرد .

ولم يكن تأثره بالشعر قصرا على هذه الناحية العاطفية المثيرة ، ولكنه كان يتأثر به لذاته بعيدا عن تلك الناحية ، روى أنه لما سمع قول طرفة

ولولا ثلاث هن من عيشة الفتى وجدك لم أحفل متى قام عودى
فمنهن سبقى العاذلات بشربة كميت متى ما تعل بالماء تزبد
وكرى إذا نادى المضاف مجنباً كسيد الغضا نبهته المتورد
وتقصيريوم الدجن والدجن معجب ببهكنة تحت الخباء المعمد

طرب وقال ، لولا أنى أسير فى سبيل الله وأضع جبهتى لله لجالست أقواما يلتقون أطايب الحديث كما ينتقون أطايب التمر ثم لم أبال أن أموت .

٤ — كان من أهل الذوق السليم والنظر الصحيح فى الشعر ، ثم من أهل النقد الصائب له .

سمع قول أبى القيس بن الأسلت وهو ينشده قصيدته

الكيس والقوة خير من ال إشفاق والفهّة والهاع

فأخذ يعيد هذا البيت ويردده ويقول نعم .

وسمع قول عَبْدَة بن الطبيب وهو ينشده قصيدته

والمرء ساع إلى ما ليس يدركه والعيش شح وإشفاق وتأميل

فأعاد الشطر الثانى وأخذ يعجب من حسن ما قسم وفصل .

وكذلك فعل حين أنشد بيت زهير

وإن الحق مقطعه ثلاث يمين أو نفار أو جلاء

مكبراً فى زهير علمه بالحقوق وتفصيله لمقاطعها هذا التفصيل الحق .

٥ — ولقد كان له بالشعر الحكيم غرام أى غرام ، ومن أجل ذلك كان يفضل زهيرا ويقول أشعر الشعراء الذى يقول من ومن يعنى أبياته الحكيمة فى آخر معلقته . حدث ابن عباس قال ، قال لى عمر ليلة مسيره إلى الجابية فى أول غزوة غزاها ، هل تروى لشاعر الشعراء قلت ومن هو قال الذى يقول

ولو أن حمداً يخلد الناس أخلدوا ولكن حمد الناس ليس بمخلد

قلت ذاك زهير ، قال فذاك شاعر الشعراء ، قلت وبم كان شاعر الشعراء قال ، لأنه كان لا يعاظل فى الكلام ، وكان يتجنب وحشى الألفاظ ، ولم يمدح أحداً إلا بما فيه . ومن ثم ترونه وضع للنقد أسساً رجع بعضها إلى الصياغة وهو عدم الالتواء فى التراكيب وعدم الأغراب فى المفردات ، ورجع بعضا إلى الفكرة وهو تحرى الحقيقة والبعد عن المبالغات ، وقد كان حريصاً على إبقاء حكمه هذا لزهير دون سائر الشعراء . تحدث مرة مع وقد غطفان فقال أى شعرائكم الذى يقول .

أتيتك عاريا خلقـــا ثيابى على خوف تظن بى الظنون

قالوا النابغة ، قال فأيهم الذى يقول :

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة وليس وراء الله للمرء مذهب

قالوا النابغة ، قال فأيهم الذى يقول :

فإنك كالليل الذى هو مدركى وإن خفت أن المنتأى عنك واسع

قالوا النابغة ، فقال هذا أشعر شعرائكم ، ولم يقل هذا أشعر الشعراء لأن ذاك عنده هو زهير ، ويظهر أن ابن عباس قد اقتنع منه بهذا الحكم لزهير ، فقد قال فيما قال ، بينما عمر بن الخطاب رضى الله عنه وبعض صحبه يتذاكرون الشعر ، فقال بعضهم فلان أشعر ، وقال بعضهم بل فلان أشعر ، فأقبلت فقال قد جاءكم أعلم الناس به ، ثم قال من أشعر الشعراء يا بن عباس قلت زهير بن أبى سلمى ، قال هل من شعره ما تستدل به على ما ذكرت فقلت امتدح قوماً من بنى عبد الله بن غطفان فقال

لو كان يقعد فوق الشمس من كرم قوم بأولهم أو مجدهم قعدوا
قوم أبوهم سنان حين تنسبهم طابوا وطاب من الأولاد ما ولدوا
إنس إذا أنسوا جن إذا فزعوا مرزءون بهاليل إذا حشدوا
محسدون على ما كان من نعم لا ينزع الله عنهم ماله حسدوا

فقال عمر ، أحسن ، وما أعلم أحداً أولى بهذا الشعر من هذا الحي من بني هاشم بفضل رسول الله صلى الله عليه وسلم وقرابتهم منه ، فقلت وفقت يا أمير المؤمنين ولم تزل موفقا .

٦ — ومع هذه المكانة للشعر فى نفسه، كان إذا تعارض الشعر بالدين علا بالدين عليه ، ومن ثم كان لا يسمح لشاعر ما بالخروج عن دائرته والاجتراء على أحكامه ، وكان يقابل كل خارج بالزاجر من العقاب فيقبع ويرتدع .

أتاه الزبرقان بن بدر بالحطيئة وهو يقول إنه هجانى فقال وما قال لك قال قال

دع المكارم لا ترحل لبغيتها واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسى

فقال عمر ما أسمع هجاء ولكنها معاتبه ، فقال الزبرقان أو ما تبلغ مروءتى إلا أن آكل و ألبس ، فسأل عمر لبيداً عن ذلك فقال ما يسرنى أنه قد لحقنى من هذا الشعر ما لحقه وأن لى حمر النعم . وسأل حساناً ، أهجاه فقال لم يهجه ولكن سلح عليه ، فأمر به فحبس حتى استعطفه بأبياته عن صبيته التى منها

ما ذا تقول لأفراخ بذى مرخ زغب الحواصل لا ماء ولا شجر
ألقيت كاسبهم فى قعر مظلمة فاغفر عليك سلام الله يا عمر

فأطلقه ووصله بما لا يحتاج معه إلى تناول أعراض المسلمين ، ولم يك عمر حين سأل لبيداً وحساناً بالذى يخفى عليه هذا اللون من مقذع الهجاء ولكنه أراد أن يستشهد قبل أن يحكم وكان هذا شأنه .

روى أن النجاشى لما هجا رهط تميم بن مقبل واستعدوه عليه وقالوا إنه هجانا ؛ فقال وماذا قال فيكم قالوا قال

إذا الله عادى أهل لؤم ورقة فعادى بنى العجلان رهط ابن مقبل

فقال هذا رجل دعا ، فأن كان مظلوما استجيب له ، قالوا إنه قال بعد ذلك

قبيلته لا يخفرون بذمـــة ولا يظلمون الناس حبة خردل

فقال ليت آل الخطاب هكذا ؛ قالوا وقد قال

ولا يردون الماء إلا عشية إذا صدر الوراد عن كل منهل

فقال ذاك أقل للتعب والكلال وأجم لهم وأمكن ، قالوا وقد قال

تعاف الكلاب الضاريات لحومهم وتا كل من كعب وعوف ونهشل

فقال أجن القوم موتاهم ولم يضيعوهم ، قالوا ولكنه قال

وما سمى العجلان إلا لقولهم خذالقعب واحلب أيهاالعبد واعجل

فقال ما أرى فى هذا بأساً كلنا عبيدالله وسيد القوم خادمهم ، ولكنه وهو يرى البأس كل البأس أشهد وعاقب ليجعل الحكم بعد تحكيم من أهل الذكر فيسن للناس فى التأديب الطريق الحكيم .

على أنه كان لا يعمد إلى الأشهاد إذا لم يكن فيما يقضى به عدوان ، كالذى كان منه مع عمر بن النعمان بن عدىّ إذ بلغه عنه وقد استعمله على ميسان هذا الشعر

فمن مبلغُ الحسناء أن خليلها بميسان يسقى من زجاج وحنتم

إذا شئت غنتى دهاقين قرية وصناجةٌ يحدو على كل منسم

فإن كنت ندمانى فبالأكبر اسقنى ولا تسقنى بالأصغر المتثلم

لعل أمـــير المؤمنين يسوءه تنادمنا بالجوسق المتهدم

فإنه كتب إليه « بسم الله الرحمن الرحيم حم تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم ، غافر الذنب ، وقابل التوب ، شديد العقاب ، ذى الطول ، لا إلـه إلا هو إليه المصير ، أما بعد فقد بلغنى قولك

لعل أمير المؤمنين يسوءه تنادمنا بالجوسق المتهدم

وايم الله إنه ليسوءنى فأقدم فقد عزلتك . فلما قدم عليه قال يا أمير المؤمنين والله ما شربتها قط ، وإنما هو شعر طفح على لسانى وإنى لشاعر ، فقال عمر أظن ذاك ولكن لا تعمل لى على عمل أبدا .

تلك نواح ست من علاقة عمر بالشعر وعلاقة الشعر بعمر ، تثبت أنه كان ذا دراية واسعة بأدب العرب وعلم العرب وآبدة العرب ، لأن شعرها كان ديوانها الجامع لذلك كله ، ثم هو كان يقول الشعر على قلة ، قال ابن عباس خرجت مع عمر فى بعض أسفاره فانا لنسير ليلة وقد دنوت منه إذ ضرب مقدم رحله بسوطه وقال

كذبتم وبيت الله يقتل أحمد ولما نطاعن دونه ونناضل
ونسلمه حتى نصرع حوله ونذهل عن أبنائنا والحلائل

ثم سار فلم يتكلم قليلا ثم قال

ألم تر أن الله أظهر دينه على كل دين قبل ذلك حائد
وأسلمه من أهل مكة بعدما تداعوا إلى أمر من الغى فاسد
غداة أجال الخيل فى عرصاتها مسومة بين الزبير وخالد
فأمسى رسول الله قد عز نصره وأمسى عداه من قتيل وشارد
وما حملت من ناقة فوق رحلها أبر وأوفى ذمة من محمد
وأكسى لبرد الخال قبل ابتذاله وأعطى لرأس السابق المتجرد

ومما ينسب اليه أيضاً قوله وقد طعنه أبو لؤلؤة المجوسى الفارسى ، وكان كعب الأحبار قد أنذره بذلك ثلاثاً .

توعدنى كعب ثلاثا أعدها ولا شك أن القول ما قال لى كعب
وما بى حذار الموت إنى لميت ولكن حذار الذنب يتبعه الذنب

خامساً — وفاته

وهكذا بطعنة أثيمة من علج خائن ، غادر عمر هذه الدنيا إلى الآخرة لثلاث بقين من ذى الحجة سنة ثلاث وعشرين وهو يقول « أحمد الله الذى لم يجعل منيتى بيد رجل سجد لله سجدة واحدة » ولم تلهه الطعنة قبل إسلام روحه عن تعيين رجال الشورى الستة لاختيار الخليفة بعده وفيهم ابنه عبد الله على ألا يختار ، ولا عن وصايته للخليفة الذى سيقع عليه الاختيار .

وقد دفن صبيحة أن مات فى بيت عائشة مع النبى صلى الله عليه وسلم وأبى بكر كوصاته ، وإنه لا يفوتنا أن نشير إلى ما وصفه به أبو بكر من فضائل حين رشحه فى آخر خطبه للخلافة وقد تقدمت ، وأن نثبت وصف ابن عباس له وقد سأله عنه معاوية بعد وفاته حيث يقول «رحم الله أبا حفص كان والله حليف الإسلام ومأوى الأيتام ، ومنتهى الإحسان ومحل الإيمان، وكهف الضعفاء ومعقل الحلفاء ، قام بحق الله عزوجل صابرا محتسبا حتى أوضح الدين وفتح البلاد وأمن العباد، فأعقب الله على من يتنقصه اللعنة إلى يوم الدين » .

رحمه الله رحمة واسعة وجزاه عن الإسلام والمسلمين أتم جزاء وأوفاه، آمين .

الحطيئة

اولا ــ نسبه ونشأته

كان لأوس بن مالك بن جُؤية القطعى العبسى أمة يقال لها الضراء ، وكان لزوجه بنت رياح بن عمرو بن عوف الذهلية الشيبانية البكرية أخ يقال له الأفقم ، وحدث أن ولدت الضراء ولدا جاء شبيها بالأفقم فسألتها مولاتها من أين هذا الصبي فقالت لها من أخيك الأفقم فصدقتها للشبه بينهما ، ولكن الجارية عادت بعد أن أعتقتها هى وصبيها هذا تقول إنها علقت به من أوس وإنها هابت أن تقول لسيدتها إنه من زوجك ونسبته إلى أخيها . ذلكم المولود هو جرول بن أوس العبسى أو جرول بن الأفقم البكرى ، وله فى كلا الحيين إخوة من أبويه ، وهو الشاعر الذى لقب بعد الحطيئة لقصره ودمامته وكنى بأبى مليكة إحدى بناته .

نشأ الحطيئة فرأى نفسه مسلوباً أعز ما يعتز به عربى وهو صحة نسبه وحاول أن يقف من أمه على الحق فى ذلك فكانت تخلط عليه خلطاً يزيده ريبة وضلالا . ولكنه مع هذا التدافع بين عبس وبكر قضى حياته الأولى بعد عتقه تحت كنف بنت رياح مع ولديها ابنى أوس فكان كأحدهما وكانت أمه قد تركته وتزوجت رجلا من نجاد من عبس جاءت منه بأخوة له فكانت نقمته عليها وعلى هذا الرجل وعلى بنيه منها بالغة تتمثل فى قوله :

ولقد رأيتك فى النساء فسؤتنى ... وأبا بنيك فساءنى فى المجلس

ولم يزل منحازاً إلى أخويه العبسيين ينعم بما ينعمان به حتى شاع أمر اعتراف أمه بأنه من أبيهما أوس فطالبهما بميراثه فأبيا عليه وقالا له أقم معنا فنحن نواسيك فغضب عليهما وقال يهجوهما :

لا تجمعا مالى وعرضى باطلا كلا لعمر أبيكما الحباق
عبدان خيرهما يشل بضبعه شل الأجير قلائص الوراق
وكلاهما جرت جعارِ برجله يتنين بين مشيمة وملاق

ثم أنكر نسبته إلى عبس ولحق بأخوته من الأفقم منتسباً إلى قومهم آل عوف وهو يقول :

سيرى أمام فإن المال يجمعه سيب الإله وإقبالى وإدبارى
إلى معاشر منهم يا أمام أبى من آل عوف بدور غير أسرار
نمشى على ضوء أحساب أضأن لنا ما ضوأت ليلة القمراء للسارى

ولكنهم وقفوا منه موقفاً لم يدفعوه فيه ولم يقبلوه فقال آملا اعترافهم :

إن اليمامة خير ساكنها أهل القُرَية من بنى ذهل
الضامنون لمال جارهم حتى تتم نواهض البقل
قوم إذا انتسبوا ففرعهم فرعى وأثبت أصلهم أصلى

ثم قال فاخراً بهم :

قومى بنو عوف بن عمرو إن أراد العلم عالم
قوم إذا ذهبت خضا رم منهم خلفت خضارم
لا يفشلون ولا تبيت على أنوفهم المخاطم

ومع ذلك لم يجده هذا فى اعترافهم بنسبه وكل ما أناله بنو الأفقم نخلات من نخل أبيهم حتى إذا ما طالبهم بميراثه كاملا لم يعطوه شيئاً وضربوه فغضب عليهم وقال :

تمنيت بكراً أن يكونوا عمارتى وقومى وبكر شر تلك القبائل
إذا قلت بكرى نبوتم بحاجتى فياليتنى من غير بكر بن وائل

ثم عاد إلى بنى عبس فانتسب إلى أوس وأقام على ذلك وبه عرف فى الناس .

ثانياً — مكانته فى مدحه وهجائه

نشأ الحطيئة كما أسلفنا مغموز النسب غير معروف الأصل ووعى يرى أمه موضع ضعفه وذلته لما كان من إتيانها به نكرة شائعة وخلطها فى نسبه خلطاً يزيده ريبة وضلالا ، فولد هذا فى نفسه سخطا غير محدود عليها وعلى سائر قرابته ، جعل لسانه يجرى فيهم بشر لا يعدله شر وجعل هذا الشر يتعداهم إلى غيرهم فى أقبح المهاجى عن سجية وطبع ، فإذا ما مدح كان ذلك عن رغبة وطمع حتى غلب هذان على معظم شعره ولم يقل فى غيرهما إلا لماما وحسبك أن تعلم فى هذا أن المأثور فى ديوانه جاء عشرا ومائة بين قصائد مطولات ومقطعات أو أبيات فلم يخل من الهجو والمدح فيها إلا إحدى وعشرون ثم هذه الخاليات أقلها عدد أبيات وأضيقها دائرة انتشار ، ولذلك لا نغلو إذا قلنا إنه كان رجل مدح وهجاء ، وإنه لهذا وللعكوف فى حياته الطويلة عليهما صار بهما خبيرا ، فإذا مدح رفع وإذا هجا آذى ووضع ، حتى أهاب الناس أفرادا وجماعات حضرا وبدوا ، وإليك فى هذا أربع حادثات من حوادث تمثل مبلغه فى هذى النواحى الأربع على ما نريد من تصوير .

١ — وقف على حسان بن ثابت وهو ينشد فقال له حسان وهو لا يعرفه كيف تسمع يا أعرابى قال ما أسمع بأسا فقال حسان أما تسمعون إلى هذا الأعرابى ما كنيتك أيها الرجل قال أبو مليكة قال ما كنت قط أهون على منك حين اكتنيت بامرأة فما اسمك قال الحطيئة فأطرق حسان ثم قال له امض بسلام .

٢ — وقدم المدينة والناس فى سنة مجدبة وسخطة من خليفة فمشى أشرافها بعضهم إلى بعض فقالوا قد قدم علينا هذا الرجل وهو شاعر والشاعر يظن فيحقق وهو يأتى الرجل من أشرافكم يسأله فإن أعطاه جهد نفسه هجاها وإن حرمه هجاه ، فأجمع رأيهم على أن يجعلوا له شيئاً معداً

يجمعونه بينهم فكان أهل البيت من قريش والأنصار يجمعون العشرة والعشرين والثلاثين دينارا حتى جمعوا له أربعمائة دينار وظنوا أنهم قد أغنوه ثم أتوه فأعطوه إياها فأخذها وظنوا أنهم قد كفوه عن المسألة وإذا هو يوم الجمعة قد استقبل الإمام ماثلا ينادى « من يحملنى على بغلين وقاه الله كبة جهنم » .

٣ — ونزل ومعه بناته بالنضاح بن أشيب الكلبى فقال له النضاح إن لنا جدة ولك علينا كرامة فمرنا بامرك ما أحببت نأته وانهنا عما أنت تكرهه نجتنبه فقال أنا أغير الناس قلباً وأشعرهم لسانا فمر بنيك ألا يسمعوا بناتى الغناء فإنه رقية الزنا ، وكان للنضاح سبعة بنين فيهم الغناء فقال لا تسمع لهم غناء ما مكثت فينا فأقام عنده حولا لم يسمع غناء .

٤ — وجاور بنى مقلّد بن يربوع فمشى بعضهم إلى بعض وقالوا إن هذا الرجل لا يسلم أحد من لسانه فتعالوا حتى نسأله عما يحب فنعمله وعما يكره فنجتنبه فأتوه فقالوا له يا أبا مليكة إنك اخترتنا على سائر العرب ووجب حقك علينا فمرنا بما تحب أن نفعله وبما تحب أن ننتهى عنه فقال لا تكثروا زيارتى فتملونى ولا تقطعوها فتوحشونى ولا تجعلوا فناء بيتى مجلسا فلم يزل مقيما فيما يرضى حتى انجلت عنه السنة وارتحل وهو يقول :

جاورت آل مقلّد فحمدتهم ... إذ ليس كل أخى جوار يحمد
أيام من يرد الصنيعة يصطنع ... فينا ومن يرد الزهادة يُزهد

ولما كانت أمه مدشأ ذله وضعته كما تقدم كان لا يفتأ يهجوها أشنع هجاء وكان إذا عمد إلى ذمها لا يقف عند حد فهو يصفها بما يقف دونه أوقح الناس فى حقها غير مبال بما يناله من شناعته ، وهل أشنع من قوله على لسانها ولو كانت قد قالته حقا

تقول لى الضراء لست لواحد ... ولا اثنين فانظر كيف شرك أولكا
وأنت امرؤ تبغى أباً قد ضللته ... هبلت ألما تستفق من ضلالكا

وها هو ذا يقول لها غير هذا

تنحى فاقعدى منى بعيداً أراح الله منك العالمينا
ألم أظهر لك البغضاء منى ولكن لا أخالك تعقلينا
أغربالا إذ استودعت سراً وكانونا على المتحدثينا
حياتك ما علمت حياة سوء وموتك قد يسر الصالحينا

ويقول لها أيضاً مصوراً ما سببته لبنيها من معرة وذاكراً سوء لسانها وبعد خيرها

جزاك الله شراً من عجوز ولقاك العقوق من البنين
لقد سوست أمر بنيك حتى تزكنهم أدق من الطحين
لسانك مبرد لم يبق شيئا ودرك در جاذبة دهين
فإن تخلى وأمرك لا تصولى بمشتد قواه ولا متين

إلى غير هذه من مذامه فيها . وما ذكرت ما ذكرت لأرى مبلغ عقوقه لها كما يفعل بعض الذاكرين بل لأضع يدى على النقطة السوداء التى جعلت الدنيا تظلم فى عينيه حتى صار يرى سعادته وشفاء غلته فى الهجو كأنه ينتقم من الناس لنفسه أو يجرحهم ليكون وإياهم سواسية وإنه فى ذلك لجد معذور وعلم الله لو خرج صحيح النسب غير مغموز العرض لتغير وجه حياته ولسار سيرة كانت قد تكون على النقيض مما رأينا ولكن أمه جاءت منشأ نقمته ، ولعله أفاد منها فوق ذلك سلاطة اللسان وخبث القول إذ كانت فى هذا على ما يظهر إلى الدرجة التى صيرته لا يكاد يغفل هذا اللون من عيوبها كلما تعرض لها بهجاء .

ولم يقف هجوه عند أمه وإن كانت أوفر آله منه ، فقد تعداها إلى غيرها من سائر القرابة .

هجا أباه وعمه وخاله والله يعلم أى أب وأى عم يقصد فقال

لحاك الله ثم لحاك حقا أباً ولحاك من عم وخال
فنعم الشيخ أنت لدى المخازى وبئس الشيخ أنت لدى المعالى
جمعت اللؤم لا حياك ربى وأسباب السفاهة والضلال

وليس أبلغ من هذا فى تصوير كفاية أبيه لكل مخزية وقصوره عن كل مكرمة ،

وهجا أمرأته بالبيت الذى سار مسير المثل

أطوف ما أطوف ثم آوى إلى بيت قعيدته لكاع

ثم هجا نفسه ، فقدهم بالهجاء يوما فلم يجد من يهجوه وأسعدته الفرصة برؤية وجهه فى حوض ماء وكان قبيحاً دميماً فقال

أبت شفتاى اليوم إلا تكلما بسوء فما أدرى لمن أنا قائله

أرى لى وجهاً قبح الله خلقه فقبح من وجه وقبح حامله

وأخيراً سجل على نفسه الذلة واللؤم إذ أمر وهو يجود بنفسه أن يحمل على فريئة « أتان » ليموت عليها لأن العرب ترى أنه لا يموت على ظهرها كريم فقال

« لا أحد أذل من حطيئة هجا بنيه وهجا المريئة من لؤمه مات على فريئة »

ولعل أبغض الأقربين إلى الحطيئة بعد أمه بنو بجاد رهط زوجها ولذا كان يكثر من هجائهم ، إذ كانوا كأبناء العم لرهط أبيه أوس وبين بنى بنى الأعمام ما هو معروف من ملاحاة وشقاق ، فمن ذلك قوله وهو هجو موجع أليم فى شتى النواحى التى تعرض لها

قبح الإله بنى بجاد إنهم لا يصلحون وما استطاعوا أفسدوا

بلد الحفيظة واحد مولاهم جمد على من ليس عنه بجمد

أغمار شمط لا تثوب حلومهم عند الصياح إذا تعود العود

فإذا تقطعت الوسائل بيننا فيما جنت أيديهم فليبعدوا

من كان يحمد فى القرى ضيفانه فبنو بجاد فى القرى لم يحمدوا

وعلى هذا السنن من الذم كان يجرى لسانه فى قرابته دون أن يجرى فيهم بخير ، وعليه وعلى المدح متعاقبين كان يجرى فى بكر وعبس فكلما رضى عن إحداهما انتسب إليها فمدحها وذم الأخرى وهكذا دواليك حتى أصبح هجوه وليد غضب ومدحه وليد رضا يتقلبان على الموضع الواحد

غير آبهين بحق ولا مردودين بواقع ، ما لم يثبت الموضع على إثارة سخطه أو استدامة رضاه ، وإذا كان على ما سلف لا ينتسب إلى إحداهما إلا مدفوعاً بطمعه جارياً وراء جشعه فإذا ما رد فى ذلك انقلب من أجلهما ساخطاً غاضباً فقد صار المال مبعث رضاه إذا بذل له ومنشأ سخطه إذا حبس عنه وقد أخذ من أجله يطوف فى الجزيرة إلى قوميه شرقا وغربا وإلى غيرهما كذلك وجنوبا وشمالا حتى أصبح التكسب بالشعر ديدنه فاختط بذلك خطة لم يصل إليها الشعراء قبله ولا رضوها بعده ، لما اختص به دونهم من ضعة نفس وضيعة أصل مكنتا له فيما أراد وجعلتاه بمنجى إذا نال أن ينال ورحم الله من قال

فاذهب فأنت طليق عرضك إنه عرض عززت به وأنت ذليل

هكذا كان يمشى متلفعاً بلسانه يبسطه لسان خير وثناء لمن يعطى ويسلطه لسان شر وبذاء على من يمنع ، حتى أهاب الناس كما تقدم وأوجد له فى القبائل مرتزقا دائما ولدى العظماء جُعلا يكاد يكون مفروضا ، وحسبنا فى بيان مقدرته على الهجاء هنا إلى أن يأتى ما نريد فى ثنايا ما نقول ، أن نشير إلى جريان اسمه فى هذا الباب مجرى أعـــلام الأجناس التى تعدت مدلولاتها الذاتية إلى معان عامة أصبحت أقرب منها الى الأفهام ، ومن منا يسمع لفظة الحطيئة ولا يتسابق إلى نفسه كل ما ينطوى تحت السفه البالغ والشر المستطير الذى كان صاحبنا صاحب نهضته والمجلى فى حلبته .

هذا وما كان قاتله الله فى مديحه بأقل منه فى هجوه ، ولذلك تخاطفه عدد من السادة حباهم بمدحه وظفر منهم بإشباع نهمه .

١ — منهم طريف بن دفاع الحنفى وكان قد لقيه فى طريقه فقال له ما تريد أبا مليكة قال أريد اللبن والتمر قال اصحبنى فلك ذلك عندى فسار معه إلى اليمامة وأقام عنده حينا فأعطاه وأكرمه فذلك حيث يقول

سرينا فلما أن أتينا بلاده أقمنا وأرتعنا بخير منيع
رأى المجد والدفاع يبنيه فابتنى إلى ظل بنيان أشم رفيع

تمرست فيه الخير لما لقيته ... لما أورث الدفاع غير مضيع
فتى غير مفراح إذا الخير مسه ... ومن نكبات الدهر غير جزوع
عدو بنات الفحل كم من نجيبة ... وكوماء قد ضرجتها بنجيع
فذاك فتى إن تأته فى صنيعة ... إلى ماله لا تأته بشفيع

ولا نظن ذا سيادة ومكانة يطمع أن يوصف فى الثبات إزاء الخير والشر معاً لا يستخفه فرح ولا يزعزعه جزع ولا ذا صنيعة ومعروف يقصد على غير معرفة وبدون شفيع يطمع أن يوصف فى ذلك بأبلغ مما وصف به الحطيئة صاحبه . على أن له فيه من المدائح غير هذا ما أسمعك منه بعضا .

قال وما أسهله قولا وأعذبه قريضا والضمير لامرأته :

قلت أصبرها صادقا ... ويحك أمثال طريف قليل
قد يقصر الماجد عن فعله ... وينفس الجودَ عليه البخيل
بلغه صالحَ سعى الفتى ... عز تليد وعنان طويل

وقال متمنياً أن يكون كل خليل له مثله وواصفاً فى ذلك جفنته :

ياليت كل خليل كنت آمله ... يكون مثل ابن دفاع من البشر
قد يملأ الجفنة الشيزى فيترعها ... من ذات خيفين معشاء إلى السحر
من كل شهباء قد شابت مشافرها ... تنحاش من أسها الأفعى إلى الوزر

وقال وما أمدحه بيتا يصفه وقد تجاور بكرمه منى السائلين حتى ساووا بين المنع والأعطاء .

فما زلت تعطى النفس حتى تجاوزت ... مناها فاعط الآن إن شئت أو دع

٢ — ومنهم الحارث بن عبد يغوث المَذحِجى الملقب بالأعور وهو أبو شريك بن الأعور صاحب على بن أبى طالب . ومن مدائحه فيه لاميته التى أطلق لخياله فيها العنان وجارى أعشى قيس أو أن الأعشى هو الذى جاراه فى لاميته للأسود بن المنذر مجاراة اشتبك فيها قول بقول وتسابق فحل وفحل .

فبينا ترى الأعشى يقول والخطاب للناقة :

لا تشكى إلى وانتجعى الأسـ ـود أهلَ الندى وأهلَ الفعال
فرع نبع يهتز فى غصن المجـ ـد غزير الندى شديد المحال
عنده البر والتقى وأسا الصد ع وحلّ للمعضلات الثقال
وصلات الأرحام قد علم النا س وفك الأسرى من الأغلال
وهوان النفس الكريمة للذكـ ـر إذا ما التقت صدور العوالى
أريحى صلت يظل له القو م ركودا قيامهم للهلال
إن يعاقب يكن غراما وإن يعـ ـط جزيلا فإنه لا يبالى

ترى صاحبنا يقول والخطاب للناقة أيضاً :

لا تشكى إلى وانتظرى الأعـ ـور رحب الفناء جزل النوال
مطلق الكف واللسان طويل البـ ـاع من سر ضئضىء الأقوال
فاستخفت مناى ذعلبة الغـد وة غب السرى مروح الكلال
همها الأعور الهجان مبارى الـ ـريح للشرحيـــة الأوزال
رفعته الآباء فى سقب الـ ـعز ولم يتكل على الأخوال
فاعترفت الرغبى هنيدة من فضـ ـل ثراه فنعم مأوى الرجال
ولنعم الفتى إذا احتضر البأ س وكانت دعوى الكماة نزال
معلم يضرب المدجج بالسيـ ـف إذا صال دون سمر للعوالى

إلى أن يقول بعد ذلك فى سيادته قومه على سؤددهم فيبدع القول محسنا ويفضل المعنى محكما .

سدتم الحارث بن كعب أولى الـ ـمجد فى مجدها بعشر خلال
أنتم المانعون ناحية السرب بكم حد سورة الأبطال
والمجيرون العاطفون على الدهر وصحاب الميسور فى كل حال
ومناخ العافين فى زمن المحـ ـل إذا أحجرت حنين الشمال
وبفضل الخطاب للخطة البز لاء تعيى مهامز المقتال
وبحمل العظيم عندى عرى الكـ ـيد إذا ضن كل صائد مال

وبرد الخصوم شتى ثقالا مثل ما وجبت هجان الجمال
وبقود الجياد تقذف بالأشلاء شعثاً كأنهن السعالى
وبفك العناة قد يئسوا فى القيـ ـد من كز وفدة الرحال
وبكشف الغماء فى الرأى ذى الغـ ـرم إذا بلدت دواهى الرجال

٣ — ومنهم علقمة بن علاثة بن الأحوص بن جعفر بن كلاب وكان يتحاسده الشرف ابن عمه عامر بن الطفيل بن مالك بن كلاب حتى كانت بينهما المنافرة التى اشتد فيها الأعشى لعامر واشتد فيها الحطيئة لعلقمة ولم يك هنا بأقل صمود له منه فيما مضى من اللامية فإن الأعشى لم يكد يذكر فى الموضوع أبياته .

علقم ما أنت إلى عامر الناقض الأوتار والواتر
إن تسد الحوص فلم تعدهم وعامر ساد بنى عامر
ساد وألفى قومه سادة وكابرا سادوك عن كابر

حتى انحدر من هذا النوع الجيد إلى حمأة الفحش والخنا بعد قوله فى التخلص من تشبيب القصيدة إلى الغرض منها وهو .

دعها فقد أعذرت فى حبها واذكر خنا علقمة الفاجر

أما صاحبنا وكان أقدر شاعر على خلط المدح بالهجاء على سبيل التناظر بين فاضل ومفضول فقد استمر قوله فى الصميم من الموضوع من غير ما فحش ولا إسفاف ، وإليك فى هذا قوله .

لعمرى لقد جاوزتكم آل ملك إلى ماجد ذى جمة وفضول
إذا واضحوه المجد أربى عليهم بمستفرغ ماء الذنائب سجيل
وان يرتقوا فى خطة يرق فوقها يثبت على ضاحى المحل رجيل
فصدوا صدود الوانى أبقى عليكم بنى مالك إذ سد كل سبيل
فما جعل الصفر اللئام جدودهم كآدم قلب من بنات جديل
فتى لا يضام الدهر ماعاش جاره وليس بادمان القرى بملول
هو الواهب الكوم الصفايا الجاوه وكل عتيق الحرتين أسيل

أخو ثقة ضخم الدسيعة ماجد كريم النثا مولاه غير ذليل
وأشجع فى الهيجاء من ليث غابة إذا مستباة لم تثق بحليل
إذا الناس مدوا للفعال أكفهم يذخت بعادى السراة طويل
وجرثومة لا يبلغ السيل أصلها فقد صد عنها الماء كل مسيل
بنى الأحوصان مجدها ثم أسلمت إلى خير مرد سادة وكهول
وليت تراث الأحوصين فلم يضع إلى ابنى طفيل عامر وعقيل
فما ينظر الحكام بالفصل بعدما بدا واضح ذو ذوغرة وحجول

وبينا ينقض الأعشى ما قاله فى علقمة بقوله يمدحه بعد

علقم ياخير بنى عامر للضيف والصاحب والزائر
والضاحك السن على همه والغافر العثرة للعاثر

إذا الحطيئة يزيد صاحبه فضلا على فضل ويجلل عامرا نقصاً على نقص بكره إلى الموضوع يقول فيه :

يا عام قد كنت ذا باع ومكرمة لو أن مسعاة من جاريته أمم
جاريت قرماً أجاد الأحوصان به جزل المواهب فى عرنينه شمم
لا يصعب الأمر ألا ريث يركبه ولا يبيت على مال له قسم
مصباح سارى ظلام يستضاء به فى إثر موثوقة تهدى لها الغنم
ومثله من كلاب فى أرومتها يعطى المقاليد أو يلقى له السلم
هابت بنو مالك مجدا ومكرمة وغاية كان فيها الموت لو قدموا
وما أساءوا فراراً عن مجلية لا كاهن يمترى فيها ولا حكم

ثم هو يثبت على ولائه لعلقمة حتى مات بحوران وهو راحل اليه قبل أن يصله فيرثيه هذا الرثاء :

إلى القائل الفعال علقمة الندى رحلت قلوصى تحتويها المناهل
إلى ما جد الآباء قرم عثمثم له عطن يوم التفاضل آهل
فما كان بينى لو لقيتك سالما وبين الغنى إلا ليال قلائل
لعمرى لنعم المرء من آل جعفر بحوران أمسى أعلقته الحبائل

لقد غادرت حزماً وبراً ونائلا ... ولبا أصيلا خالفته المجاهل
وقدراً إذا ما انفض الناس أوفضت ... إلى نارها سعياً اليها الأرامل
لعمرى لنعم المرء إن عى قائل ... عن القيل أو أدنى عن الفعل فاعل
لعمرى لنعم المرء لا متهاون ... عن السورة العليا ولا متخاذل
تكاد إيداه تسلمان رداءه ... من الجود لما استقبلته الشمائل
يداه خليج البحر إحداهما دما ... تفيض وأخرى فعل حزم ونائل
فان تحى لا أملل حياتى وان تمت ... فما فى حياة بعد موتك طائل

ولم يعدم الحطيئة وهو يترد على علقمة شمالا ، والأعور وطريف جنوبا ، وديار قوميه عبس وبكر غرباً وشرقاً أن يتلاقى فى جولاته بأناس ينال منهم عطاء فيمدح وبآخرين لا يرى لهم فضلا فيهجو فيكون فى كلا الأمرين بالغاً .

١ — التقى بوضاح بن قرط أخى بن مازن بن مالك بن عمر بن تميم فأعطاه جزيلا فقال :

وأعطى ابن قرط غداة السلي ... م لما التقينا عطاء جزيلا
كفيت بها مازنا كلها ... أصاغرها وكفيت الكهولا
كرام أبى الذم آباؤهم ... فلا يجعلون للوم سبيلا
عراض الخدود كرام الجدو ... ديمدون للمجد باعا طويلا

والتقى بقدامة العبسى فسأله فلم يعطه فقال فيه .

تجهم لى بالشر يوم لقيته ... قذامة خُصياً فنبلى معبل
منعت قلوصا بالمطال فلا يكن ... بنا بيك منها غير ثرب وجندل
وعزت عليك الفحل سوداء جونة ... وقد تنجل الأرحام من كل منجل

وفى قدامة هذا وقومه يقول متهكماً وكان إذا ذم لا يقتصد

قدامة أمسى يعرف الجهل أنفه ... بجدعاء لم يعرك بها أنف فاخر
فخرتم ولم نعلم بحادث مجدكم ... فهاتوا هلموا بعدها للتنافر
ومن أنتم إنا نسينا من انتم ... وريحكم من أى ريح الأعاصر

أهذى التى تأتى على كل منهج تبوع أم القفواء خلف الدوابر
متى جئتم إنا رأينا شخوصكم ضئالا فما إن بيننا من تناكر
وأنتم ألى جئتم مع النمل والدبا فطارا وهذا شخصكم غير طائر

وكان إذا أعطى القليل كف عن المدح والذم معاً ولكن لا إلى سكوت يطمئن إليه المعطى بل إلى قول لا يعدم أن يلفحه منه شرر ذكر أنه مر بعتيبة بن النهاس العجلى أحد وجوه بكر بن وائل وكان يبخل فقال له أعطنى فقال وهو لا يعرفه ما فى مالى فضل عن قومه قال فلا عليك ثم ذهب فقال لعتيبة أحد قومه لقد عرضتنا لشر كبير هذا الحطيئة فقال ردوه فلما عاد قال له لم كتمت نفسك كأنك تطلب علينا العلل اجلس فلك عندى ما يسرك فجلس فقال له من أشعر الناس قال الذى يقول

ومن يجعل المعروف من دون عرضه يفره ومن لا يتق الشتم يشتم

فقال عتيبة وهذا من مقدمات أفاعيك وبعث معه غلامه يشترى له ما يريد من الثياب فاشترى له ما طلب بما لم يبلغ مائتى درهم فلما عاد قال له عتيبة هذا مقام العائذ بك أبا مليكة من خيرك وشرك فقال قد قلت بيتين فاسمعهما وأنشد

سئلت فلم تبخل ولم تعط نائلا فسيان لا ذم عليك ولا حمد
وأنت امرؤ لا الجود منك سجية فتعطى وقد يعدى على النائل الوجد

ثم انصرف . وعلى ذكر هذا البيت الذى ذكره الحطيئة نقول

إنه كان قائله الله خبير باستدراج ذوى المال إلى العطاء يدب إلى ذلك دبيباً رفيقاً على ما يحمل فى ثناياه من التوعد والتقرب ، ومن ذلك ما قال للحارث وأبى العاص ابنى هشام بن المغيرة الملقب بجلالة ، وقد أفادا من التجارة ربحاً وفيراً ، يزهدهما به فى تشدد التجار ويرغبهما فى عمل الأجواد

فهلا أمرت ابنى هشام فيربعا على ما أصابا من مئين ومن ألف
من الروم والأحبوش حتى تناولا ببيعهما مال المرازبة الغلف
ونبئت أن الجود منهم خليقة يجودون فى يبس الزبيب وفى القطف

وهل يخلدن ابنى جلالة مالهم وحرصهم عند البياع على الشف

ولا بد أن يكونا قد أعطياه جزيلا لأنا لم نر له فيهما ذماً وما كان يترك مانعاً ولا معطياً مقلا كما سلف دون ذم .

ثم هو فوق ذلك كان يأخذ على المسئول طريق التعلل كى يضطره إلى الإعطاء اضطراراً كما فعل مع رجل من عاملة يدعى ابن شعل إذ يقول

أتيت ابن شعل بالحشاشة صاديا وقد ركدت يوما أصول السمائم
فقلت له يا انقع صداى بشربة من الماء تقصى عنك لومة لائم
فقال انتسب أعلم مواقع نعمتى وكان القرى فيهم كحز الحلاقم
فقلت له أمسك فحسبك أننا سألتك صرفاً من جياد الحراقم

فأما إذا أخلف المسئول ظنه فإنه يسلقه بلسان تهكمى ليس أبلغ منه فى الإيجاع .

ولقد كان حنق الحطيئة على من ينزل به يستضيفه أشد من حنقه على من يسأله فيمنعه ، لأنه كان فوق جشعه بخيلا أحد بخلاء معدودين فى العرب ، ومرزئة البخيل فى مال موجود أشد على نفسه من منع عطاء مسئول ولذلك كان يمنع النازل فإذا لم يفلح فى المنع قراه وهجاه .

مر به رجل وهو فى غنم فقال ياصاحب الغنم فرفع عصاه وقال حجراء سلم فقال الرجل إنى ضيف قال للضيفان أعددتها فانصرف عنه .

ومر به آخر وهو جالس بفناء بيته فقال السلام عليكم قال قلت ما لا ينكر قال إنى خرجت من أهلى بغير زاد قال ما ضمنت لأهلك قراك قال أفتأذن لى أن آتى ظل بيتك أتفيأ به قال دونك الجبل يفىء عليك قال أنا ابن الحمامة قال انصرف وكن ابن أى طائر شئت فانصرف الرجل .

ونزل به ضيف من رؤاس إحدى بطون كلاب لم يفلح فى منعه فقراه وقال يهجو :

وسلم مرتين فقلت مهلا كفتك المرة الأولى السلاما
وتقنق بطنه ودعا رؤاسا لما قد نال من شبع وناما

ونزل به صخر بن أعيا الأسدى الشاعر فسقاه شربة من لبن ثم قال يهجوه

ولما رأيت أنما يبتغى القرى ... وأن ابن أعيا لا محالة فاضحى
شددت حيازيم ابن أعيا بشربة ... على فاقة سدت أصول الجوانح

فأجابه صخر بقوله :

ألا قبح الله الحطيئة إنه ... على كل ضيف ضافه هو سانح
دفعت إليه وهو يخنق كلبه ... ألا كل كلب لا أبالك نابح
بكيت على مذق خبيث قريته ... ألا كل عبسى على الزاد شانح

على هذا الجشع والبذاء نشأ الحطيئة وفيهما طالت عيشته الجاهلية حتى عد من المعمرين فيها ، ولما أن جاء الإسلام أسلم ولكنه بقى على حاله لم يهذبه دين ولم يعدل به عن الشر إسلام ، فما إن كانت وفاة رسول الله ﷺ وردة العرب حتى ارتد مع المرتدين ثم كان من المحرضين للقبائل على الارتداد ومنع الزكاة . قال محرضاً فى تهكم شديد بأبى بكر والدين :

ألا كل أرماح فصار أذلة ... فداء لأرماح نصبن على الغمر
أطعنا رسول الله إذ كان بيننا ... فياعجباً ما بال دين أبى بكر
أيورثها بكرا إذا مات بعده ... فتلك وبيت الله قاصمة الظهر
فدى لبنى ذبيان أمى وخالتى ... عشية ذادوا بالرماح بنى فهر
أبوا غير ضرب يحثم الهام وقعه ... وطعن كأفواه المزفتة الحمر
وباست بنى عبس وأستاه ظبيء ... وباست بنى دردان حاشا بنى نصر
فقوموا ولا تعطوا اللئام مقادة ... وقوموا وإن كان القيام على الجمر

فأنت تراه فى هذا الشعر يُفيض فى مدح من ارتد ومنع الزكاة ويهجو من لم يفعل جاعلا قومه عبسا فى طليعة المهجوين وذبيان فى أوائل الممدوحين على مابينهما من عداوة أوقدتها حرب داحس والغبراء ، ثم يعجب أن يرث أبو بكر رسول الله فى إمامة الناس ولعله كان السبب فى أن تصطلح عبس وذبيان على مدافعة قريش صلحا جعله يعود فيقول :

ألم تر أن ذبيانا وعبسا ... لباغى الحرب قد نزلا براحا

يقال الأجربان ونحن حى بنو عم تجمعنا صلاحا
منعنا مدفع الثلبوت حتى تركنا راكزين به الرماحا
نقاتل عن قرى غطفان لما خشينا أن تذل وتستباحا

ولما نهضت إليهما فزارة فى ذلك قال يمدح خارجة بن حصن الفزارى :

فدى لابن بدر يوم قدم خيله وقدخام أقوام ، طريفى وتالدى
أبى حق ما منت قريش نفوسها فوارس أبطال طوال السواعد
وقد علمت خيل ابن خشعة أنها متى تلق يوما ذا جلاد تجالد
وقد علمت خيل ابن خشعة أنها متى تلق يوما غمرة لا تعاند

ولما أن قضى المسلمون على الردة والمرتدين وأرغموا القبائل على دفع الصدقاف عاد الحطيئة إلى الإسلام ولكن بقى فى طريقه على المدح والهجاء يتقلب فى البوادى والحواضر خوفاً وطمعاً فاتصل ببيوتات مجتمعات وسادة أفراد .

فأما البيوتات المجتمعات فقد كان أحظاها بمدائحه وأكثرها له نوالا فى إسلامه آل بغيض بن عامر الذين كاد ينقطع إلى مدحهم وذم بنى عمهم آل الزبرقان بن بدر ، ونرانا مضطرين إلى ذكر نسبى الرجلين لما جاء واقعاً عليه غير مفهوم بدونه من أشعاره فيهما . فبغيض هو ابن عامر بن لأى بن شماس بن جعفر أنف الناقة بن قريع أخى عطارد بن عوف بن كعب بن سعد تميم ، والزبرقان هو بن بدر بن امرىء القيس بن خلف بن بهدلة أخى عطارد بن عوف المذكور ، فهو بمنزلة العم أو ابن العم لبغيض . وكان سبب اتصال الحطيئة بهما أن الزبرقان خرج يريد عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى سنة مجدبة ليؤدى إليه صدقات قومه فلقى الحطيئة ومعة امرأتان أو امرأة وابنان وبنات له فقال له الزبرقان أين تريد قال العراق ، حطمتنى السنة فقال له هل لك فى جوار كريم ولبن كثير وتمر، قال ما أرجو هذا كله قال له الزبرقان فإن لك هذا فسر إلى امرأتى وكتب إليها أن أحسنى إليه وأكثرى له من التمر واللبن فقدم عليها وكان دميما سىء الحال لا تأخذه

العين ومعه عيال كثير فلما رأت حاله هان عليها وقصرت به فرأى ذلك بنو أنف الناقة وهم بيت سعد فأرسلوا إليه أن ائتنا فنحن خير لك وكتموا المرأة اسمه فلم تعرفه وكانوا إذا دعوه إلى أنفسهم يأبى ويقول إن من رأى النساء التقصير والغفلة ولست أحمل على صاحبي ذنبها وألح عليه شماس بن لأى وبغيض والمخبل ، وكان المخبل سليط اللسان وهو ابن عمهم ، وعلقمة ابن هوذة منهم وكان أشد القوم إلحاحاً عليه لشعر قاله الزبرقان فيه وهو

لى ابن عم لا يزا ل يعيبنى ويعيب عائب
وأعينه فى النائبا ت ولا يعين على النوائب
تسرى عقاربه إلى (م) ولا تنبهه عقارب
لاه ابن عمك ما تخا ف الجازيات من العوائب

وكان الآخرون ممتلئين حسداً وبغياً فمكث الحطيئة بتلك الحال أشهراً والزبرقان بالمدينة ثم ان امرأة الزبرقان تحملت وتركت الحطيئة يومين وليلتين فاغتنم ذلك بنو شماس فأتوه فقالوا له احتمل أيها الرجل فقال أما الآن فنعم ، وأتاه بغيض بن عامر وكان شريفاً فاحتمله حتى أتى به اهله فأكثروا له من التمر واللبن وأعطوه لقاحاً وكسوة وأبطأ عليهم أن يهجو الزبرقان وكان فى بنى بهدلة قلة ولم يكونوا إلى هؤلاء ولا قريبا منهم ، غير أن الزبرقان كان بنفسه شريفاً عضب اللسان فحضضوا الحطيئة عليه فقال لست بهاجيه ولا ذنب له فيما صنعت امرأته ولكنى ممتدحكم وذاكر ما أنتم له أهل ويظهر أنه مدحهم بما لم ينل فيه من الزبرقان كقوله من بعض قصائده فيهم

جزى الله خيراً والجزاء بكفه على خير ما يجزى الرجال بغيضا
فلو شاء إذا جئناه صد فلم يلم وصادف منأى فى البلاد عريضا

فقالوا ما مدحنا من لم يشتم الزبرقان ثم لم يقصروا فى كرامته ، فلما أكثروا عليه قال يمدحهم ويعرض بهجو الزبرقان وهو مجلى هذه الحلبة .

ألا أبلغ بنى كعب رسولا فهل قوم على خلق سواء

عطاردها وبهدلة بن عوف فهل يشفى صدوركم الشفاء
ألم أك ناثياً فدعوتمونى فجاءنى المواعد والدعاء
ألم أك جاركم فتركتمونى لكلبى فى دياركم عواء
ألم أك جاركم ويكون بينى وبينكم المودة والإخاء
ولما أن أتيتكم أبيتم وشر مواطن الحسب الإباء
ولما أن أتيتهم حبونى وفيكم كان لو شئتم حباء
ولما أن مدحت القوم قلتم هجوت وهل يحل لى الهجاء
فلم أشتم لكم حسبا ولكن حدوت بحيث يستمع الحداء
فلا وأبيك ما ظلمت قريع بأن يبنوا المكارم حيث شاءوا
ولا وأبيك ما ظلمت قريع ولا عنفوا بذاك ولا أساءوا
وإن الجار مثل الضيف يغدو لوجهته وإن طال الثواء
وإنى قد علقت بحبل قوم أعانهم على الحسب الثراء
إذا نزل الشتاء بدار قوم تجنب جار بيتهم الشتاء
هم المتحفزون على المنايا نمال الجار ذلكم الوفاء
هم الآسون أم الرأس لما تواكلها الأطبة والإساء
هم القوم الذين إذا ألمت من الأيام مظلمة أضاءوا
هم القوم الذين علمتموهم ندا الداعى إذا رفع اللواء
فأبقوا لا أبا لكم عليهم فإن ملامة المولى شقاء
وإن أباهم الأدنى أبوكم وإن صدورهم منكم براء
وإن عديدهم يربى عليكم وإن نماءهم لكم نماء
وثغر لا يقام به كفوكم ولم يك دونهم منكم كفاء
ترقى فى أعنتها قريع فسعد كلها لهم الفداء

فلما قدم الزبرقان على أهله سأل عن الحطيئة فقالوا تحول إلى بغيض فأتاهم فقال ضيفى وأنا أرسلته إلى امرأتى ولكن كان منها الجهل فقالوا ما هو لك بضيف وقد أهنته وطرحته فتلاحوا حتى كان بينهم تناص

وشجاج فاستعدى عليهم الزبرقان عمر بن الخطاب رحمة الله عليه فقال ليذهب إلى أى الحيين أحب فإنه مالك لنفسه فذهب إلى بغيض ، فلما رأى الزبرقان أنه اختار عليه أرسل إلى رجل من النمر بن قاسط يقال له دثار بن سنان فهجا بغيضا وبنى قريع بقوله على نحو ما قال الحطيئة :

أرى إبلى بجوف الماء حنت ... وأعوزها به الماء الروا
وقد وردت مياه بنى قريع ... فما وصلوا القرابة مذ أساءوا
تحلأ يوم ورد الناس إبلى ... وتصدر وهى محنقة ظماء
ألم أك جار شماس بن لأى ... فأسلم حين أن نزل البلاء
فقلت تحولى يا أم بكر ... إلى حيث المكارم والعلاء
وجدنا بيت بهدلة بن عوف ... تعالى سمكه ودجى الفناء
وما أضحى لشماس بن لأى ... قديم فى الفعال ولا رباء
سوى أن الحطيئة قال قولا ... فهذا من مقالكم جزاء

فلما بلغ ذلك الحطيئة هجا الزبرقان فقال .

والله ما معشر لاموا أمرأ جنبا ... فى آل لأى بن شماس بأكياس
لقد مريتكم لو أن دِرتكم ... يوما يجىء بها مسحى وإبساسى
وقد مدحتكم عمدا لأرشدكم ... كيما يكون لكم متحى وإمراسى
وقد نظرتكم إيناء صادرة ... للخمس طال بها حوذى وتنساسى
لما بدا لى منكم غيب أنفسكم ... ولم يكن لجراحى فيكم آس
أجمعت يأسا مينا من نوالكم ... ولا يرى طاردا للحر كالياس
ما كان ذنب بغيض أن رأى رجلا ... ذا فاقة حل فى مستوعر شاس
جارا لقوم أطالوا هون منزله ... وغادروه مقيما بين أرماس
ملوا قراه وهرته كلابهم ... وجرحوه بأنياب وأضراس
لا ذنب لى اليوم أن كانت نفوسكم ... كفارك كرهت ثوبى وإلباسى
من يفعل الخير لا يعدم جوازيه ... لا يذهب العرف بين الله والناس
دع المكارم لا ترحل لبغيتها ... واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسى

قد ناضلوك فأبدوا من كنانتهم مجدا تليدا ونبلا غير أنكاس
ما كان ذنبي أن فلت معاولكم من آل لأى صفاة أصلها راسى

فاستعدى عليه الزبرقان عمر بن الخطاب رضى الله عنه وقال إنه هجانى فرفع عمر الحطيئة إليه وقال للزبرقان وما قال لك فقال قال :

دع المكارم لا ترحل لبغيتها واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسى

فقال عمر ما أسمع هجاء ولكنها معاتبة ، فقال الزبرقان أو ما تبلغ مروءتى إلا أن آكل وألبس فقال عمر على بحسان فجىء به فسأله فقال لم يهجه ولكن سلح عليه ، ويقال إنه سأل لبيدا على ذلك فقال ما يسرنى أنه لحقنى من هذا الشعر ما لحقه وأن لى حمر النعم فأمر به عمر فحبس فقال يستعطفه :

أعوذ بحدك إنى امرؤ سقتنى الأعادى اليك السجالا
فانك خير من الزبرقا ن أشد نكالا وأرجى نوالا
تحنن على هداك المليـ ـك فان لكل مقام مقالا
ولا تأخذنى بقول الوشا ة فان لكل زمان رجالا
فان كان ما زعموا صادقا فسيقت اليك نسائى رجالا
حواسر لا يشتكين الوجا ء يحفضن آلا ويرفعن آلا

فلم يلتفت له ، حتى إذا جاء فى استعطافه إلى ناحية الصبية وحاجتهم إلى عائل فقال :

ماذا تقول لأفراخ بذى مرخ زغب الحواصل لا ماء ولا شجر
ألقيت كاسبهم فى قعر مظلمة فاغفر عليك سلام الله يا عمر
أنت الإمام الذى من بعد صاحبه ألقى اليك مقاليد النهى البشر
لم يؤثروك بها إذ قدموك لها لكن لأنفسهم كانت بك الأثر
فامنن على صبية بالرمل مسكنهم بين الأباطح تغشاهم بها القرر
أهلى فداؤك كم بينى وبينهم من عرض داوية يعمى بها الخبر

بكى وأخرجه وقال له إياك وهجاء الناس قال إذن يموت عيالى جوعاً

هذا مكسى ومنه معاشى قال فاياك والمقذع من القول . قال وما المقذع ؟ قال أن تخاير بين الناس فتقول فلان خير من فلان وآل فلان خير من آل فلان ثم قال والله لولا أن تكون سنة لقطعت لسانك ، ولكن خذه يازبرقان . فأخذه فقامت غطفان فقالو له يا أبا شذرة إخوتك وبنو عمك هبه لنا فوهبه لهم ، فأقام لا يذكر الزبرقان بسوء حتى إذا عاد دثار النمرى المذكور يقول :

دعانى الأثبجان ابنا بغيض ... وأهلى بالفلاة فمنيانى
وقالا سر بأهلك فأتينا ... إلى حب وأنعام سمان
فسرت إليهم عشرين شهرا ... وأربعة فذلك حجتان
فلما أن أتيت بنى بغيض ... وأسلمنى لدانى الداعيان
يبيت الذئب والعوثاء ضيفاً ... لنا بالليل بئس الضائفان
أمارس منهما ليلا طويلا ... أهجهج عن بنى ويعروانى
تقول حليلتى لما اشتكينا ... سيدركنا بنو القرم الهجان
سيدركنا بنو القمر بن بدر ... سراج الليل للشمس الحصان
فقلت ادعى وأدعو إن أندى ... لصوت أن ينادى داعيان
فمن يك سائلا عنى فإنى ... أنا النمرى جار الزبرقان
طريد عشيرة وطريد حرب ... بما اجترمت يدى وجنى لسانى
كأنى إذ حللت به طريداً ... حللت على الممنع من أبان
أتيت الزبرقان فلم يضعنى ... وضيعنى بتريم من دعانى

عاد الحطيئة مستغرقاً فى أشد مما كان فيه مدحا وهجاء حتى وقع اكثر شعره وخيره مدة إسلامه الطويلة فى هؤلاء وبخاصة بعد أن مات عمر رحمه الله . وإليك من هذا غير ما تقدم بعضا .

قال من بائيته ، طافت أمامة بالركبان آونة ،

سيرى أمام فإن الأكثرين حصا ... والأكرمين إذا ما ينسبون أبا
قوم هم الأنف والأذناب غيرهم ... ومن يسوى بأنف الناقة الذنبا

قوم يبيت قرير العين جارهم ... إذا لوى بقوى أطنابهم طنبا
قوم إذا عقدوا عقدا لجارهم ... شدوا العناج وشدوا فوقه الكربا
ردوا على جار مولاهم بمهلكة ... لولا الإلـه ولولا عطفهم عطبا
فوفروا ماله من فضل مالهم ... لولا الإلـه ولولا سعيهم ذهبا
لن يتركوا جار مولاهم بمتلفة ... غبراء ثم يطووا دونه السببا
لا بد فى الجد أن تلقى حفيظتهم ... يوم اللقاء وعيصا دونهم أشبا

وبقوله قوم هم الأنف صاروا يفخرون بهذا اللقب بعد أن كانوا يستحيون منه .

٢ — وقال من داليته « ألا طرقتنا بعد ما هجمت هند » .

وإن التى نكبتها عن معاشر ... على غضاب أن صددت كما صدوا
أنت آل شماس بن لأى وإنما ... أتاهم بها الأحلام والحسب العِد
فإن الشقى من تعادى صدورهم ... وذو الجد من لانوا إليه ومن ودوا
يسوسون أحلاما بعيداً أناتها ... وإن غضبوا جاء الحفيظة والجِد
أقلوا عليهم لا أبا لأبيكم ... من اللوم أو سدوا المكان الذى سدوا
أولئك قوم إن بنوا أحسنوا البِنا ... وإن عاهدوا أوفوا وإن عقدوا شدوا
وإن كانت النعماء فيهم جزوا بها ... وإن أنعموا لا كدروها ولا كدوا
وإن قال مولاهم على جل حادث ... من الدهر رُدوا فضل أحلامكم ردوا
وإن غاب عن لأى بغيض كفتهم ... نواشئ لم تطرر شواربهم بعد
مطاعين فى الهيجا مكاشيف للدجى ... بنى لهم آباؤهم وبنى الجد
فمن مبلغ أبناء سعد فقد سعى ... إلى السورة العليا لهم حازم جلد
رأى مجد أقوام أضيع فحثهم ... على مجدهم لما رأى أنه الجهد
وتعذلنى أبناء سعد عليهم ... وهل قلت إلا بالذى علمت سعد

٣ — وقال من رائيته « عفا مُسحلان من سليمى فحامره » والحديث والخطاب عن الزبرقان وله .

وآليت لا آسى على نائل امرىء ... طوى كشحه عنى وقلت أواصره

وأكرمت نفسى اليوم من سوء طعمة ... ويقنى الحياء المرء والرمح شاجره
وكلفتنى مجد امرىء لن تناله ... وما قدمت آباؤه ومآثره
توانيت حتى كان من غب أمره ... على مفخر أن قمت يوماً تفاخره
فدع آل شماس بن لأى فإنه ... على مرقب ما حوله هو قاهره
وفاخر بهم فى آل سعد فإنهم ... مواليك أو كاثر بهم من تكاثره
فإن الصفا العادى لن تستطيعه ... فأقصر ولم يلحق من الشر آخره
فلا المال إن جادوا به أنت مانع ... ولا العز من بنيانهم أنت عاقره
ولا هادم بنيان من شرفت له ... قريع بن عوف خلفه وأكابره
لهم سورة فى المجد لو ترتدى بها ... براطيل جواب نبت ومناقره
قروا جارك العميان لما تركته ... وقلص عن برد الشراب مشافره
سناما ومحضا أنبت اللحم فاكتست ... عظام امرىء ما كان يشبع طائره
هم لاحمونى بعد فقر وفاقة ... كما لاحم العظم الكسير جبائره

٤ — وقال من رائية أخرى والخطاب للزبرقان أيضاً :

هلا غضبت لرحل جا ... رك إذ تنبذه حضاجر
أغررتنى وزعمت أنـ ... ـك لابن فى الصيف تامر
فلقد كذبت فما خشيـ ... ـت بأن تدور بك الدوائر
وأمرتنى كيما أخا ... لط عصبة فيها مقاذر
ولحيتنى فى معشر ... هم ألحقوك بمن تفاخر
ولقد سبقتهم إلى ... فقد نزعت وأنت آخر
إنى نهانى أن أذمـ ... ـك ماجد الجدين فاخر
قرم لقرم ماجد ... ما إن ينافره المنافر
سمح أخو ثقة شجا ... ع لا ينهنهه المزاجر
هو مد بيت المجد حيـ ... ـث بناه شماس وعامر
فجزى الإله أخى بغيـ ... ـضاً خير ما يجزى المعاشر

٥ — وقال من مقصورته « ألا هبت أمامة بعد هدء » :

لعمر الراقصات بكل فج ... من الركبان موعدها مناها
لقد شَدت حبائل آل لأى ... حبالى بعد ما ضعفت قواها
كرام يفضلون قروم سعد ... إلى أحسابهم وإلى نهاها
وهم فرع الذرى من آل سعد ... إذا ما عد من سعد ذراها
ويبنى المجد راحل آل لأى ... على العوجاء مضطمرا حشاها
ويسمى للسيادة مرد لأى ... فتدركها وما وصلت لحاها
وخطة ماجد من آل لأى ... إذا ما قام صاحبها قضاها
فلا نكراء للمعروف يوما ... وغايات المكارم منتهاها
إذا اعوجت قناة الأمر يوما ... أقاموها لتبلغ منتواها
وكانوا العروة الوثقى إذا ما ... تصعدت الأمور إلى عراها

٦ — وقال من يائيته « يادار هند عفت إلا أثافيها » :

إليكم يا ابن شماس شججت بها ... عرض الفلاة إذا لاحت فيافيها
حتى أنخت قلوصى فى دياركم ... بخير من يحتذى نعلا وحافيها
إنى لعمر الذى يسرى لكعبته ... عُظْم الحجيج لميقات يوافيها
لقد تداركنى منه ولاحمنى ... سيب كسا أعظما قد لاح عاريها
فليجزه الله خيرا من أخى ثقة ... وليهده بهدى الخيرات هاديها
والمخلف الألف بعد الألف يتلفها ... والواهب المائة المعكى وراعيها
قوم نموا فى بنى سعد وذروتها ... يوما إذا عد من سعد مساعيها
لله درهم قوما ذوى حسب ... يوما إذا جلبة حلت مراسيها
أهل الحفاظ إذا ما أزمة أزمت ... بالناس حاضرهم منها وباديها
الواثقون لجار البيت ما عقدوا ... ومنهم سابق الجلى وداعيها
والمشعلون ضرام الحرب إذ لقحت ... يوما إذا ازور عنها من يصاليها
يمشون فى نسج داود كأنهم ... بزل طلى أدمها بالزفت طاليها
يصلون حر الوغى فى كل معترك ... بالخيل قاطبة شقرا هواديها
تمشى بشكتهم شعث مسومة ... تحت الضبابة معقودا نواصيها

وله فيهم غير هذه القصائد الست التى اخترنا منها ما اخترنا وغير القصيدتين السالفتين فى الحديث كثير من القصائد والمقطعات تركناها لأن القول فيها يطول .

أما السادة الأفراد فانا متخيرون من بينهم اثنين هما الوليد بن عقبة وسعيد بن العاص .

أما الوليد فكان سبب اتصاله به أن الوليد كان والى الكوفة لعثمان رحمه الله وهو أخوه لأمه أروى وكان الحطيئة كثير التردد على بنى ذهل بالكوفة، وبعيد على مثل الحطيئة أن يدع واليها دون أن يستنزل عطاياه وبخاصة إذ كان كالوليد من الأجواد الشعراء . ومن خير ما قال فيه قصيدته « عفا توأم من أهله فحلاجله » وفيها أجاد نعته بالحكم والشجاعة كما أجاد وصف الجيش ومنها :

أرى لابن أروى خلتين اصطفاهما ... قتال إذ يلقى العدو ونائله
فتى يملأ الشيزى ويروى بكفه ... سنان الردينى الأصم وعامله
يؤم العدو حيث كان بجحفل ... يصم السميع جرسه وصواهله
إذا حان منه منزل الليل أو قدت ... لأخراه فى أعلى البقاع أوائله
ترى عافيات الطير قد وثقت لها ... بشبع من السخل العتاق منازله
بنات الأغر والوجيه ولاحق ... يقودون فى الأشطان ضخما جحافله
يظل الرداء العصب فوق جبينه ... يقى حاجبيه ما تثير قنابله
وإنى لأرجوه وإن كان نائيا ... رجاء الربيع أنبت البقل وإبله
لزغب كأولاد القطا راث خلقها ... على عاجزات النهض حمر حواصله

وأما سعيد فكان سبب اتصاله به أن سعيدا كان والى المدينة لمعاوية وبينا هو جالس بعد أن عشى الناس وقد خفوا إلى حدائه وسمارة إذا أعرابى قبيح الوجه كبير السن سيئ الهيئة على البساط ، فانتهى إليه الشرط ليقيموه فأبى فنظر إليه سعيد وقد حانت منه التفاتة فقال دعوا هذا الرجل وخاضوا فى حديث العرب وأشعارها فقال ولا يعرفونه ما أصبتم جيد

الشعر ولا شاعر العرب فقال له سعيد فهل عندك من ذلك علم قال نعم قال فمن أشعر الناس قال الذى يقول :

لا أعد الإقتار عدما ولكن ... فقد من قد رزئته الأعدام

وأنشدها حتى أتى عليها قال فمن يقولها قال أبو دواد الأيادى ، قال ثم من قال الذى يقول :

أفلح بما شئت فقد يد ... رك بالضعف وقد يخدع الأريب

وأنشدها حتى أتى عليها قال فمن قالها قال عبيد بن الأبرص أخو بنى أسد قال ثم من قال والله لحسبك بى عند رهبة أو رغبة إذا رفعت إحدى رجلى على الأخرى ثم عويت فى أثر الفوانى كما يعوى الفصيل وراء الأبل الصادرة قال فمن أنت قال أنا الحطيئة فرحب به سعيد وقال لقد أسأت بكتمانك نفسك منا الليلة وقد علمت شوقنا إليك وإلى حديث العرب فقال يمدحه

لعمرى لقد أمسى على الأمر سائس ... بصير بما ضر العدو أريب
جرىء على ما يكرة المرء صدره ... وللفاحشات المنديات هيوب
سعيد وما يفعل سعيد فانه ... نجيب فلاه فى الرباط نجيب
سعيد فلا يغررك خفة لحمه ... تخدد عنه اللحم فهو صليب
إذا خاف إصعاباً من الأمر صدره ... علاه فبات الأمر وهو ركوب
إذا غاب عنا غاب عنا ربيعنا ... ونسقى الغمام الغر حين يؤوب
فنعم الفتى نعشو إلى ضوء ناره ... إذا الريح هبت والمكان جديب

فأعطاه وأكرمه وله فيه مدائح غيرها سيأتى بعضها .

وأخيراً لهذه الرغبة فى العطاء كان يمدح الحطيئة فإذا مدح لغير رغبة كان الحامل له على مخالفة هذه الطبيعة فيه أمرا ذا بال يغلب أن يكون الرهبة كما كان فى مدحه عمر رضى الله عنه وزيد الخيل بن مهلهل الطائى .

فأما مدحه عمر فقد تقدم منه قطعتان ساقهما إليه استعطافاً وترضياً حين حرم عليه الوقوع فى أعراض المسلمين ، ومع ذلك ظفر منه على

ما روت الرواة بثلاثة آلاف درهم اشترى منه بها تلك الأعراض، ثم لم يزل يشكو إليه الفاقة ويتطلب منه تدبير أمره فى لون من القول يحسن التحدث عن نفسيته وشرهه كأن يقول

يا أيها الملك الذى أمست له ... بصرى وغزة سهلها والأجرع
أشكو إليك فأشتكى ذرية ... لا يشبعون وأمهم لا تشبع
كثروا على فما يموت كبيرهم ... حتى الحساب ولا الصغير المرضع
وجفاء مولاى الضنين بماله ... ودلوع نفس همها بى مودع
والحرفة القدمى وأن عشيرنا ... زرعوا الحروث وأننا لا نزرع
فبعثت للشعراء مبعث داحس ... أو كالبسوس عقالها تتكوع
ومنعتنى شتم البخيل فلم يخف ... شتمى فأصبح آمناً لا يفزع
وأخذت أطراف الكلام فلم تدع ... شتما يضر ولا مديحاً ينفع

ولذلك لم يكد يخلص من هذا الحجر بموت عمر رحمه الله حتى تنفس الصعداء وعاد غير متورع إلى أكثر مما كان فيه . ذكر أنه لقى ابن عباس ذات يوم فى مسجد رسول الله ﷺ فقال له ابن عباس فى حديث طويل ينهاه فيه أن ينال من الناس وهو يحاول أن يبرر له ذلك « والله يا أبا مليكة لو كنت عركت بجنبك بعض ما كرهت من أمر الزبرقان كان خيراً لك ولقد ظلمت من قومه من لم يظلمك وشتمت من لم يشتمك قال إنى والله بهم يا أبا العباس لعالم قال ما أنت أعلم بهم من غيرك قال بلى والله يرحمك ثم أنشأ يقول

أنا ابن بجدتهم علماً وتجربة ... فسل بسعد تجدنى أعلم الناس
سعد بن زيد كثير إن عددتهم ... ورأس سعد بن زيد آل شماس
والزبرقان ذنابا هم وشرهم ... ليس الذنابى أبا العباس كالراس

فأقسم عليه ابن عباس ألا يقول إلا خيراً فقال أفعل ، ولكن أنى لهذا أن يقاوم نفسه ويحترم عهده .

وأما مدحه زيد الخيل فكان سببه أن زيد الخيل خرج يتطرق فلقى

الحطيئة مع كعب بن زهير ورجل من بنى بدر يتصيدون فأخذهم فأعطاه كعب فرساً وأعطاه البدوى نوقا فتركهما وأما الحطيئة فقال والله ما عندى من مال فأعطيك وما هو إلا لسانى ثم قال يمدحه

إلا يكن من يثاب فانه ... سيأتى ثنائى زيدا ابن مهلهل
فما نلتنا غدراً ولكن صبحتنا ... غداة التقينا فى المضيق بأخيل
تفادى حماة الخيل من وقع رمحه ... تفادى خشاش الطير من وقع أجدل
فأعطتك منا الود يوم لقيتنا ... ومن آل بدر وقعة لم تهلل

وقال فى ذلك أيضاً

وقعت بعبس ثم أنعمت فيهم ... ومن آل بدر قد أصبت الأكابرا
فإن يشكروا فالشكر أدنى إلى التقى ... وإن يكفروا لا ألف يازيد كافرا
تركت المياه من تميم بلاقعا ... بما قد ترى فيهم حلولا كراكرا
وحى سليم قد أبدت شريدهم ... ومن قبل ما قتلت بالأمس عامرا

هذه جولة مع الحطيئة فى أهاجيه ومدائحه منذ أن بدأ حياته فى الجاهلية قبل الإسلام بأكثر من نصف قرن إلى أن اختتمها فى آخر خلافة معاوية بأكثر من نصف قرن سنة تسع وخمسين ، ومنها نرى أنه يفساق إلى الهجو طامعا ومخيفا ولا يقبل على المدح إلا راغبا أو خائفا وأنه كان فى كليهما الشاعر كل الشاعر فلننتقل منهما إلى ما عالجه غيرهما من فنون .

ثالثا — فنونه غير المدح والهجاء

عالج الحطيئة من فنون الشعر غير المدح والهجا ، الرثاء والفخر والغزل والوصف ، ولكنه فيما عدا الوصف لم يطل ولم يقصد ، وهذى كلمة عن كل فن من هذه الأربعة ترى كيفية معالجته له ومنزلته فيه

فأما الرثاء فقد سار فيه كما كان يسير فى المدح متأثرا بالمعانى التى كان يتناولها فى مدائحه لدرجة تعطيه صبغة المدح أكثر مما يجب أن يكون لطابع الرثاء ، وهأنت ذا رأيت رثاءه لعلقمة بن علاثة فيما سلك قد بدء بدء المادح

لا الرائى بقوله

إلى القائل الفعال علقمة الندى ... رحلت فلوصى تجتويها المناهل
إلى ماجد الآباء قرم عشمثم ... له عطن يوم التفاضل آهل

وما كاد يبدأ أبيات الرثاء بقوله

فما كان بينى لو لقيتك سالما ... وبين الغنى إلا ليال قلائل

إلى الأبيات الثلاثة بعده حتى عاد إلى المدح الصرف كأنه نسى أن المقام مقام رثاء إلا فى البيت الأخير

فإن تحى لا أملل حياتى وإن تمت ... فما فى حياة بعد موتك طائل

على أنه ليس بصريح ، وإنه ليخيل إلى فى هذا الرثاء أنه كان مدحاً أعده لعلقمة وهو ذاهب إليه فلما وجده ميتاً أضاف إليه تلك الأبيات المشعرة بالرثاء . ثم كان إلى ذلك لا يطيل فى الرثاء إطالته فى المدح ولا بعضها، وهذا علقمة بن هوذة من آل لأى واهب المئين له لم يزد فى رثائه على الأبيات

يا جفنة ترك ابن هوذة خلفه ... ملأى لصحبته كحوض المقترى
كعريضة الشيزى يكلل فوقها ... شحم السنام غداة ريح صرصر
أم من لراسية كأن وراءها ... نقع تعاوره بنات الأخدر
أم من لخصم مضجعين قنيهم ... ميل خدودهم عظام المفخر
إن الرزية لا ابالك هالك ... بين الدماخ وبين هالة خنزر
تلك الرزية لا رزية مثلها ... فاقنى حياءك لا أبالك واصبرى

بل هذا عمر بن الخطاب لم يزد فى رثائه على هذين البيتين على ما بقافيتهما من ثقل وعلى أنه قيل إنهما لرجل من عذرة

تأمل فإن كان البكا رد هالكا ... على أهله فاجهد بكاء على عمر
ولا تبك ميتا بعد ميت أجنه ... على وعباس وآل أبى بكر

وإذا تلمسنا له عذرا فى عدم رثاء عمر أو فى الأقلال فيه إلى هذا الحد فكيف نتلمسه فى رثاء العلقمتين إلا بقولنا إنه كان يتطلب على المدح أجرا لا يتحقق بالرثاء فأقل فيه .

٢ — وأما الفخر فلم نظفر له فيه بما قصد إليه قصداً إلا قصيدة واحدة قالها يفخر بقومه بني قطيعة على أبناء عمهم بني نجاد فاستمع إليه يقول فيها :

بني عمنا إن الركاب بأهلها ... إذا ساءها المولى تروح وتبتكر
بني عمنا ما أسرع اللوم منكم ... إلينا ولا نبغي عليكم ولا نجر
ونشرب رنق الماء من دون سخطكم ... ولا يستوي الصافي من الماء والكدر
وكنا إذا دارت عليكم عظيمة ... نهضنا فلم ينهض ضعاف ولا ضجر
ونحن إذا ما الخيل جاءت كأنها ... جراد زفت أعجازه الريح منتشر
نحامي وراء السبي عنكم كما حمت ... أسود ضوار حول أشبالها هصر
مطاعين في الهيجاء بيض وجوههم ... إذا ضج أهل الروع ساروا وهم وقر
فأما بجاد رهط جحش فأنهم ... على النائبات لا كرام ولا صبر
إذا نهضت يوماً بجاد إلى العلا ... أبى الناشئ الموهون والأشمط الغمر
تدرون إن شد العصاب عليكم ... ونأبى إذا شد العصاب فلا ندر
نعام إذا ما صيح في حجراتكم ... وأنتم إذا لم تسمعوا صارخا دثر
ترى اللؤم منهم في رقاب كأنها ... رقاب ضباع فوق آذانها الغفر
إذا طلعت أولى المغيرة قوموا ... كما قومت نيب مخرمة زجر
أرى قومنا لا يغفرون ذنوبنا ... ونحن إذا ما أذنبوا لهم غفر

ثم هو قد أكثر من فخره ببني عدى من عبس ولكن بأسلوب مدح لا يحمل طابع الافتخار وذلك كأن يقول :

وفتيان صدق من عدى عليهم ... صفائح بصرى علقت بالعوائق
إذا ما دعوا لم يسألوا من دعاهم ... ولم يمسكوا فوق القلوب الخوافق
وطاروا إلى الجرد العتاق فألجموا ... وشدوا على أوساطهم بالمناطق
أولئك آساد العرين وغاثة الـ ... ـصريخ ومأوى المرملين الدرادق
أحلوا حياض الموت فوق جباههم ... مكان النواصي من وجوه السوابق

ولما كانت عظمة عدى قد تركزت في آل حصن بن حذيفة على عهد ولديه عيينة ، خارجة فقد ظفر هذان السيدان بمدائح من الحطيئة فاخرا لا مستجديا

وذلك أن عيينة غزا الحجاز فغنم ، وغزا بنى تغلب بالخابور فى ذات السنة فغنم ، وبلغ ذلك عامر بن الطفيل مهجو الحطيئة فى منافرة ابن عمه علقمة فحسد لذلك عيينة وبلغ الحطيئة ذلك فقال فاخراً عليه .

فأبلغ عامراً عنى رسولا ... رسالة ناصح بكم حفى
فإياكم وحية بطن واد ... هموز الناب ليس بكم بسى
فخلوا بطن عقمة والتقونا ... إلى نجران فى بلد رخى
فكم من دار صدق قد أباحت ... لقومهم رماح بنى عدى
فما إن كان عن ود ولكن ... أباحوهم بصم السمهرى
وكل مفاضة جزلاء زغف ... مضاعفة وأبيض مشرفى
ومطرد الكعوب كأن فيه ... قدامى ذى مناكب مضرحى
إذا خرجت أوائلهن يوماً ... بجلجلة بجن عبقرى
منعن منابت القلام حتى ... علا القلام أفواه الركى

وفى عيينة هذا يقول فى الموضوع فاخراً أيضاً .

فدى لابن بدر ناقتى ونسوعها ... وقل له لا بل فداء له أهلى
شفى وتغلى من وراء شفائها ... صدور رجال من حرارتها تغلى
سما بالجياد الجرد لا متخاذل ... ولا واهن عن جاره مرس الحبل
غداة استهلت بالنسار سحابة ... تشبهها رجل الجراد من النبل
أبوا أن يقيموا للرماح وشمرت ... شغار وأعطوا منية كل ذى رجل
فما غنموا يوم النسار ولا ونت ... فوارسنا إذ أبصروا عورة الرجل

وقد تقدم فيما ذكر له من شعر فى الردة قوله فى خارجة بن حصن ، وله يقول فاخراً ومادحاً أيضاً .

وقاتلت العداة قتال صدق ... فلا شلت يداك أبا الرباب
أباح قتال خارجة بن حصن ... لأهل الحزن منقطع السحاب
تركت الحى من عمرو فلولا ... وحربا قد أنحت على الرباب

ولم يجرؤ الحطيئة أن يفخر بنفسه وهو القائل ، أنا حسب موضوع ،

إلا فى أبيات لا ندرى كيف قالها ولا سيما ما يتعلق بالكرم منها وهو كما قلنا أحد بخلاء معدودين هى :

وقد علمت هند على النأى أننى ... إذا عدموا يسرا لنعم المكلف
أرد المخاض البزل والشمس حية ... إلى الحى حتى يوسع المتضيف
وكنت إذا دارت رحى الأمر رعته ... بمخلوجة فيها عن العجز مصرف

وكذلك الغزل لم نظفر له فيه بما جعله غير تابع إلا قصيدة واحدة قالها وهو بحوران يتشوق إلى صاحبته هند بمنازل قومه عبس، وقد بدأها بتمنى زيارتها على بعدها ثم انتقل إلى تذكر ما كان له معها من لقاء وحديث ومنه خرج إلى وصفها فى مخالطتها ورائحتها ولم يلبث أن عاد إلى ذكرياتها فانتثر دمعه وذلك حيث يقول .

ألا طرقت هند الهنود وصحبتى ... بحوران حوران الجنود همود
فلم تر إلا فتية ورحالهم ... وجردا على أثباجهن لبود
وكم دون ليلى من عدو وبلدة ... بها للعتاق الناجيات بريد
وخرق يجر القوم أن ينطقوا به ... وتمشى بها الوجناء وهى لهيد
كأن لم يقم أظعان هند بملتقى ... ولم ترع فى الحى الحلال ترود
ولم تحتلل جنبى أثال إلى الملا ... ولم ترع قوى حذيم وأسيد
بها العين يحفرن الرخامى كأنها ... نصارى على حين الصلاة سجود
إذا حدثت أن الذى بى قاتلى ... من الحب قالت ثابت ويزيد
إذا ما نأت كانت لقلبى علاقة ... وفى الحى عنها هجرة وصدود
سخون الشتاء يدفىء القرمسها ... وفى الصيف جماء العظام برود
عبير ومسك آخر الليل نشرها ... به بعد علات البخيل تجود
تذكرت هندا فالفؤاد عميد ... وشطت نواها فالمزار بعيد
تذكرتها فارفض دمعى كأنه ... نثير جمان بينهن فريد
غفول فلا تخشى غوائل شرها ... عن الزاد ميسان العشاء رقود

وقد أجاد فيها ما أراد من وصف، وكم كان دقيقا فى تشبيه بقر الوحش

وهي تتدلى بأفواهها إلى نبات الرخامى تقتلعه من الرمل بالنصارى يخرون حين الصلاة سجودا ، وهو إن كان قد استعان فى نعتها بالسخونة شتاء ، والبرودة صيفاً بقول طرفة .

تطرد القر بحر صادق وعكيك الصيف إن جاء بقر

فقد كان فى هذا خيرا من الأعشى لأنه ألم بالمعنى كما ألم طرفة فى بيت ، فى حين أن الأعشى لم يلم به إلا فى بيتين هما :

وتبرد برد رداء العرو س فى الصيف رقرقت فيه العبيرا
وتسخن ليلة لا يستطيـ ع نباحاً بها الكلاب إلا هريرا

والحطيئة كما استعان قد استعين به ، فإن جميلا أخذ قوله .

إذا حدثت أن الذى بى قاتلى من الحب قالت ثابت ويزيد

أخذا يكاد يكون حرفياً فقال :

إذا قلت ما بى يا بثينة قاتلى من الحب قالت ثابت ويزيد

ولعل خير ما قال فى الغزل هذا التشبيب الذى يقول فيه :

وآثرت إدلاجى على ليل حرة هضيم الحشا حسانة المتجرد
إذا النوم ألهاها عن الزاد خلتها بعيد الكرى باتت على طى مجسد
إذا ارتفقت فوق الفراش تخالها تخاف انبتات الخصر ما لم تشدد
وتضحى غضيض الطرف دونى كأنما تضمن عينها قذى غير مفسد
إذا شئت بعد النوم ألقيت ساعدا على كفل ريان لم يتخدد
لها طيب ريا إن نأتنى وإن دنت دنت وعثة فوق الفراش الممهد
خميصة ما تحت الثياب كأنها عسيب نمى فى ناضر لم يخضد
تفرق بالمدرى أثيثا نباته على واضح الذفرى أسيل المقلد
تضوع رياها إذا جئت طارقاً كريح الخزامى فى نبال الخلا الندى
فلما رأت من فى الرحال تعرضت حياء وصدت تتقى القوم باليد
وفى كل عمسى ليلة ومعرس خيال يوافى الركب من أم معبد
وأنى اهتدت والدو بينى وبينها وما كان سارى الدو بالليل يهتدى

فهو تشبيب تعدى دائرة التشبيب إلى الغزل الممتع البديع حتى أصبح يبارى فى بابه ما جاء فى القصيدة بعده من مديح خرج اليه بعد وصف الناقته يقول :

فما زالت العوجاء تجرى ضفورها ... اليك ابن شماس تروح وتغتدى
تزور امرأ يعطى على الحمد ماله ... ومن يؤت أثمان المحامد يحمد
يرى البخل لا يبقى على المرء ماله ... ويعلم أن البخل غير مخلد
كسوب ومئلاف إذا ما سألته ... تهلل فاهتز اهتزاز المهند
متى تأته تعشو إلى ضوء ناره ... تجد خير نار عندها خير موقد
وذاك امرؤ إن يعطك اليوم نائلا ... بكفيه لا يمنعك من نائل الغد

وما عدا هذين مما له فى الغزل لا يعدو الأبيات يفتتح بها قصائده فيما هو معروف عن التشبيبات من ذكر الديار وآثارها ما عفا ومالم يعف وما نبت فى مرابعها من نبت ورتع فى مراتعها من جآذر وظلمان .

أما الوصف فقد ضرب فيه بسهم صائب وحصل منه على قسط كبير جعله خير فنونه بعد المدح والهجاء . ولذا فانا مطيلو القول فيه بعض إطاله ومفصلو ما تناوله منه نوع تفصيل .

١ — وصف الحطيئة الناقة وصفاً جاء كثير الكم فى شعره واضح الأثر فى فنه ، ذلك بأنه كان رجل رحلة كما سلف لا يزال يضرب فى الأرض ابتغاء الرزق ، فخبر بهذا حال الرواحل عن كثب وهدته الحاجة اليها إلى كثير مما عالج فى أوصافها ، ومع وقوع هذه الأوصاف على الأغلب فى مفتتحات القصائد جاءت طويلة ممتعة كما ترى فى قوله :

وأدماء حرجوج تعاللت موهنا ... بسوطى فارمدت نجاء الخفيدد
تلاعب أثناء الزمام وتتقى ... علالة ملوى من القد محصد
فان آنست حسا من الصوت عارض ... ت فى القصد حتى تستقيم ضحى الغد
وإن نظرت يوماً بمؤخر عينها ... إلى علم فى الغور قالت له ابعد
كأن هوى الريح بين فروجها ... تجاوب أظآر على ربع ردى

ترى بين لحييها إذا ما تزغمت لغاماً كبيت العنكبوت الممدد
وترمى يداها بالحصا خلف رجلها وترمى بها الرجلان دابرة اليد
وتشرب بالقعب الصغير وإن تقد بمشفرها يوما إلى الرحل تنقد
وإن حل عنها الرحل قارب خطوها أمين القوى كالدملج المتعضد
وان بركت أوفت على ثفناتها على قصب مثل اليراع المقصد
وان ضربت بالسوط صرت بنابها صرير الصياصى فى النسيج الممدد
وكادت على الأطواء أطواء ضارج تساقطنى والرحل من صوت هدهد
إذا ما ابتعثنا من مناخ كأنما نكف ونثنى من نواعم أبد
وتضحى الجبال الغبر خلفى كأنها من الآل حفت بالملاء المعضد
ويمسى الغراب الأعور العين واقعاً مع الذئب يعتسان نارى ومفأدى
فما زالت العوجاء تجرى ضفورها اليك ابن شماس تروح وتغتدى

وبهذا البيت الأخير كان تخلصه إلى ما سبق بعد غزله السابق من مديح

٢ — وكما وصف ناقة الرحلة وصف بعيرها ونجابته استمع إليه يقول فى شعر غير تبيع .

إذا قلت إنى آئب أهل بلدة وضعت بها عنه الولية بالهجر
ترى بين مجرى مرفقيه وثيله هواء كفيفاة بدا أهلها قفر
إذا صر يوما ما ضعاه بجرة نزت هامة فوق اللهازم كالقبر
وإن عب فى ماء سمعت لجرعه خواة كتثليم الجدوال فى الدبر
وإن خاف من وقع المحرم يلتحى على عضد ريا كسارية القصر
تلته فلم تبطىء به من ورائه معقربة روحاء ريئة الفتر
إلى عجز كالباب سد رتاجه ومستنلع بالكور ذى حبك سمر

٣ — ولقد جره التعرض لوصف الرواحل إلى وصف الحمر والثيران الوحشية يشبهها بهما فى سرعة العدو فى حالات لهما .

فمن ذلك وقد اقتصر فيه على تشبيهها بالحمار دون الثور ، قوله من قصيدة فى علقمة بن علاثة بعد وصف للناقة :

كأنى كسوت الرحل جونا رباعيا ... شنونا تربته الرسيس فعاقل
شنون أبوه أخدرى وأمه ... من الحقب فحاش على العرس باسل
إذا ما أرادت صاحبا لا يريده ... فمن كل ضاحى جلده هو آكل
ترى رأسه مستحملا قبل ردفها ... كما حمل العبء الثقيل المعادل
وإن جاهدته جاهدت ذا كريهة ... وإن تعد عدوا يعد عاد مناقل
يثيران جونا ذا ضلال كأنه ... جديد البقاع هيجته المعاول
إلى القائل الفعال علقمة الندى ... رحلت قلوصى تجتويها المناهل

ومنه وقد ضم إلى الحمار فى التشبيه به الثور ، قوله مما جاء مستقلا بعد وصف للناقة أيضا .

وكأن رحلى فوق أحقب قارح ... بالشطنان نهاقه التعشير
جون يطارد سمحجا حملت له ... بعوازب القفرات فهى نزور
وكأن نقعهما ببرقة ثادق ... ولوى الكثيب سرادق منشور
ينحو بها من برق عيهم طاميا ... زرق الجمام رشاؤهن قصير
وردا وقد نفضا المراقب عنهما ... والماء لا سدم ولا محضور
أو فوق أخلس ناشط بشقيقة ... لهق بغائط قفرة محبور
باتت له بكثيب حربة ليلة ... وطفاء بين جماديين درور
حرج يلاوذ بالكناس كأنه ... متطوف حتى الصباح يدور
والماء يركب جانبيه كأنه ... قشب الجمان وطرفه مقصور
حتى إذا ما الصبح شق عموده ... وعلاه أسطع لا يرد منير
أوفى على عقد الكثيب كأنه ... وسط القداح معقب مشهور
وحكى الكثيب بصفحتيه كأنه ... خبث الحديد أطارهن الكير

٤ — ولم يقف الحطيئة فى وصف الإبل عند إبل الرحلة نوقها وأبعرتها ، بل تعداها إلى إبل اللبن والنتاج ، وإليك فى هذا شعرا يقول فيه معلنا بخله بابله على إخوته كما بخلوا عليه :

فإن يصطنعنى الله لا أصطنعكم ... ولا أوتكم مالى على العثرات

عطاء الإلـه إذ بخلتم بما لكم ... مهاريس ترعى عازب القفرات
عظام مقيل الهام غلب رقابها ... يباكرن برد الماء بالسبرات
يزيل القتاد جذبها عن أصوله ... إذا غدت مقورة خرصات
إذا حجر الكلب الصقيع اتقينه ... بأثباج لا خور ولا قفرات
وإن لم يكن إلا الأماليس أصبحت ... لها حلق ضرائها شكرات
وترعى براحا حيث لا يستطيعها ... من الناس أهل الشاء والحمرات
إذا أنفد الميار ما فى وعائه ... وفى كيل لا نيب ولا بكرات
وليس بناهيها عن الحوض أن ترى ... مع الذادة المقشورة العجرات
ترايع آفاق البلاد يزينها ... براطيل فى أعناقها البتعات
وكم من عدو قد رأى بكراتها ... تقطع فيها نفسه حسرات
وإن طاف فيها الحالبان اتقتهما ... بجوف على أيديهما همرات
إذا وردت من آخر الليل لم تعف ... حياض الأضا المطروقة الكدرات
وغيث جمادى كأن تلاعه ... وحزانه مكسوة حبرات
يظل بها الشيخ الذى كان فانيا ... يدف على عوج له نخرات

واسمع اليه يقول عن علاقتها بالفحل وعلاقة الفحل بها من وصف لها آخر ذى طول .

يطفن بجون جافر يتقينه ... بروعات أزناب قليل كسورها
تبيت أوابيها عواكف حوله ... عكوف العذارى بزعنها خدورها
دعاهن فاستسمعن من أين رزه ... بسمحاء من دون اللهاة هديرها
كميت كركن الباب قد شق نابه ... وأحيت له مقلاتها ونزورها

٥ — وإذا قلنا فيما سلف إن الحطيئة أجاد نعت الإبل لأنه كان رحالا، فلنقل هنا إنه لم يعالج فى بيئته ما يدعوه إلى نعت الخيل لأنه لم يك من رجالها ، على أنا وجدنا له فى هذا النوع أبياتاً يسيرة قالها على سبيل المحاكاة لا المخالطة ولكنه أجاد فيها وهى .

وسرب ذعرت بذى ميعة ... ترى فى البديهة منه اعترامًا

له متن عير وساقا ظلـ ... يم ونهد المعدين ينبى الحزاما
صليب الحجاج شديد اللجا ... ج يجذب بعد الحميم اللحاما
أمير الفصوص كعير الفلا ... ة يتلو نحائص قبا جساما

٦ — ومن فنون الوصف التى برع فيها الحطيئة وبخاصة فى عهده الاسلامى وصف الجيوش والزحف بها فيما كان يقصد اليه من مدح الولاة، كما تقدم فى مدحه الوليد بن عقبة، وكقوله من مدحة لم تقدم فى سعيد ابن العاص وهى :

إذا هم بالأعداء لم يثن همه ... كعاب عليها لؤلؤ وشنوف
حصان لها فى البيت زى وبهجة ... ومشى كما تمشى القطاة قطوف
ولو شاء وارى الشمس من دون وجهه ... حجاب ومطوى السراة منيف
ولكن إدلاجا بشهباء نخمة ... لها لقح فى الأعجمين كشوف
إذا قادها للموت يوما تتابعت ... ألوف على آثارهن ألوف
فصفوا وماذىّ الحديد عليهم ... وبيض كأولاد النعام كثيف
أنابت إلى جنات عدن نفوسهم ... وما بعدها للصالحين حتوف

وكذا قوله من قصيدة يمدح فيها أبا موسى الأشعرى وكان يتمنى أن يكون فى هذا الجيش الذى يصف ولكن أبا موسى أعفاه .

يالهف نفسى على بيع هممت به ... قد كان لو نلت بيعاً رابحاً نامى
أريده ما نأى عين وأتركه ... من بعد ما كان منى قيد إبهام
نفسى فداك لنعمى تستراد لها ... وللزحوف إذا همت باقدام
وجحفل كبهيم الليل منتجع ... أرض العدو يؤس بعد إنعام
جمعت من عامر فيها ومن أسد ... ومن تميم ومن حاء ومن حام
وما رضيت لهم حتى رفدتهم ... ومن وائل رهط بسطام بأصرام
فيه الرماح وفيه كل سابغة ... جدلاء مبهمة من نسج سلام
وكل أجرد كالسرحان أترزه ... مسح الأكف وسقى بعد إطعام
وكل شوهاء طوع غير آبة ... عند الصباح إذا همروا بالجام

مستحقبات رواياها جحافلها يسمو بها أشعرى طرفه سام

٧ — هذه هى الناحية الحسية لأوصاف الحطيئة وهو فيها جيد بجيد . ولم يكن فى الوصف المعنوى بأقل منه باعاً فى الحسى ، وها نحن أولاء نريك منه مثلين فى معنيين متضادين هما البخل والكرم .

فأما البخل فحسبك أن تسمع فيه قوله فى وصف بخيل بأسلوب قصصى

كدحت بأظفارى وأعملت معولى فصادف جلموداً من الصخر أملسا
تشاغل لما جئت فى وجه حاجتى وأطرق حتى قلت قدمات أو عسى
وأجمعت أن أنعاه حين رأيته يفوق فوق الموت حتى تنفسا
فقلت له لا تأس لست بعائد فافلح يعلوه السماديز ملبسا

وأما الكرم فاستمع اليه يصفه فى هذه القطعة المبدعة الممتعة التى يقول فيها وهى قصصية أيضا .

وطاوى ثلاث عاصب البطن مرمل ببيداء لم يعرف بها ساكن رسما
خى جفوة فيه من الأنس وحشة يرى البؤس فيها من شراسته نعمى
تفرد فى شعب عجوزا إزاءها ثلاثة أشخاص تخالهم بهما
حفاة عراة ما اغتذوا خبز ملة ولا عرفوا للبر مذ خلقوا طعما
رأى شبحا وسط الظلام فراعه فلما رأى ضيفاً تسور واهتما
تروى قليلا ثم أحجم برهة وإن هو لم يذبح فتاه فقدهما
وقال ابنه لما رآه بحيرة أيا أبت اذبحنى ويسر له طعما
ولا تعتذر بالعدم عل الذى طرا يظن لنا مالا فيوسعنا ذما
فقال هيا رباه ضيف ولا قرى بحقك لا تحرمه تا الليلة اللحما
فبينا هم عنت على البعد عانة قد انتظمت من خلف مسحلها نظما
ظماء تريد الماء فانساب نحوها ألا إنه منها إلى دمها أظما
فأمهلها حتى تروت عطاشها فأرسل فيها من كنانته سهما
فخرت نحوص ذات جحش فتية قدا كتنزت لحما وقد طبقت شحما
فيا بشره أن جرها نحو أهله ويا بشرهم لما رأوكلمها يدمى

وبات أبوهم من بشاشته أبا ... لضيفهم والأم من بشرها أما
وياتواكراماقدقضواحق ضيفهم ... وما غرمواغرما وقد غنموا غنما

٨ — وعلى ذكرنا القصص بهاتين القطعتين نقول إن الحطيئة كان بارعاً فى سوق كثير من المعانى قصصاً حسن الصوغ واضح الغرض ، وهذه قصة ثالثة يصف فيها غدر امرأة بزوجها

وما كنت مثل الكاهلى وعرسه ... بغى الود من مطروفة العين طامح
غدا باغياً يسعى رضاها وودها ... وغابت له غيب امرىء غير ناصح
دعت ربها ألا يزال بحاجة ... ولا يغتدى إلا على جد بارح
فلما رأت أن لا يجيب دعاءها ... سقته على لوح دماء الزرادح
وقالت شرابا بارداً فاشربنه ... ولم يدر ما خاضت له بالمجادح
فشد بذا خزيا على ذى حفيظة ... وهان بذا عزما على كل جارح

٩ — والوصف فى شعر الحطيئة واد ممرع أتينا منه بزهرات رابيات ، ونرى أن نختمه بما قال تحسراً على شباب قد تولى فتبدل به مشيباً مبرحا وما أشد تباريح المشيب قال

وقد قالت . أمامة هل تعزى ... فقلت أمام قد غلب العزاء
إذا ما العين فاض الدمع منها ... أقول بها قذى وهو البكاء
إذا ما المرء بات عليه وكف ... من الحدثان ليس له كفاء
لعمرك ما رأيت المرء تبقى ... طريقته إذا طال البقاء
على ريب المنون تداولته ... فأفنته وليس لها فناء
إذا ذهب الشباب فبان منه ... فليس لما مضى منه لقاء
يصب إلى الحياة فيشتهيها ... وفى طول الحياة له عناء
فمنها أن يقاد به بعير ... ذلول حين تهترش الضراء
ومنها أن ينوء على يديه ... وينهض فى تراقيه انحناء
وينظر حوله فيرى بليه ... حواء من روائهم حواء
ويحلف حلفة لبنى بليه ... لأمسوا معطشين وهم رواء

ويأمر بالجمال فلا تعشى إذا أمسى وقد قرب العشاء
تقول له الظعينة أغن عنى بعيرك حين ليس به غناء

وبعد

فقد آن لنا أن نذكر شيئاً من آراء المتقدمين فى الحطيئة بعد الذى قدمنا فيه .

١ — قال صاحب الأغانى: هو من فحول الشعراء ومتقدميهم وفصحائهم متصرف فى جميع فنون الشعر من المدح والهجاء والفخر والنسيب مجيد فى ذلك أجمع وكان ذا شر وسفه .

٢ — ووصف أبو عبيدة وابن سلام شعره فقالا ـ كان الحطيئة متين الشعر شرود القافية وكان دنىء النفس بذيا هجاء وما تشاء أن تطعن فى شعر شاعر إلا وجدت فيه مطعناً وما أقل ما تجد ذلك فى شعر ، وقد وضعه أبو عبيدة فى الطبقة الثالثة مع أوس بن حجر ونابغة بنى جعدة .

٣ — وقال الأصمعى عن عمه . كان الحطيئة جشعاً سئولا ملحفا دنىء النفس كثير الشر قليل الخير بخيلا قبيح المنظر رث الهيئة مغمور النسب فاسد الدين ، وما تشاء أن تقول فى شعر شاعر من عيب إلا وجدته وقلما تجد ذلك فى شعره ، وكان الاصمعى يشبه بشاراً بالأعشى والنابغة ويشبه مروان بن أبى حفصة بزهير والحطيئة ويقول عن مروان هو متكلف ، يريد أنه ذو صنعة ، وكان يقول عن القتال الكلابى كان فى دناءة نفسه يشبه الحطيئة ، ثم كان يقول كلما أنشد شيئاً من شعر الحطيئة ، أفسد مثل هذا الشعر الحسن بهجاء الناس وكثرة الطمع .

٤ — وجعله القرزدق أحد الثلاثة الذين ذكرهم بالاسم فيمن وهبوا له القصائد من النوابغ إذ يقول :

وهب القصائد لى النوابغ إذ مضوا وأبو يزيد وذو القروح وجرول

فهو جرول ، وذو القروح امرؤ القيس ، وأبو يزيد هو المخبل السعدى .

٥ — وقال رجل من كعب لكثير والناس مجتمعون عليه ، من أشعر الناس قال الذى يقول :

وآثرت إدلاجى على ليل حرة هضيم الحشا حسانة المتجرَّد
تُفرق بالمدرى أثيتا نباته على واضح الذفرى أسيل المقلد

فقال الرجل هذا الحطيئة فقال كثير هو ذاك .

٦ — وأخبر حماد بن إسحاق عن أبيه عن ابن عيينة أنه قال سمعت ابن شبرمة يقول أنا والله أعلم بجيد الشعر ولقد أحسن الحطيئة حيث يقول .

أولئك قوم إن بنوا أحسنو البنى وإن عاهدا أوفوا وإن عقدوا شدوا
وإن كانت النعماء فيهم جزوا بها وإن أنعموا لا كدروها ولا كدوا
وإن قال مولاهم على جل حادث من الدهر ردوا فضل أحلامكم ردوا

٨ — قال حماد هذا ، سمعت أبى وقد أنشد قول الحطيئة .

« وفتيان صدق من عدى عليهم » — الأبيات الخمسة السالفة — يقول أما إنى ما أزعم أن أحدا بعد زهير أشعر من الحطيئة .

٨ — وحدث حماد عن أبيه أيضاً أنه قال بلغنى أنه لما قال ابن ميادة « تمشى به ظلمانه وجآذره » قيل له سبقك الحطيئة إلى هذا فقال والله ما علمت أنه قال هذا قط والآن علمت والله أنى شاعر حين واطأته . وهذا الخبر تحدث به الأصمعى عن ابن أخى الرماح بن ميادة أن عمه الرماح قال له ما علمت أنى شاعر حتى واطأت الحطيئة فإنه قال :

عفا مسحلان من سليمى فخامره تمشى به ظلمانه وجآذره

فوالله ما سمعته ولا رويته فواطأته بطبعى فقلت :

ذوى العش والممدود أصبح قاوياً تمشى به ظلمانه وجآذره

فلما أنشدتها قيل لى قد قال الحطيئة « تمشى به ظلمانه وجآذره » فعلمت أنى شاعر حينئذ . وهذا البيت الذى واطأ الرماحُ الحطيئةَ فى عجزه مطلع إحدى قصائد الحطيئة فى ذم الزبرقان ومدح بغيض وقد تقدم شىء منها ، وإنما مثبوه هنا مع أبيات ثلاثة لأنها الأربعة صوت غناء من المائة المختارة هو كما ذكر أبو الفرج ومن أجله ترجم له .

عفا مسحلان من سليمى فخامره تمشى به ظلمانه وجآزره
بمستأسد القريان عاف نباته فنُواره ميل إلى الشمس زاهره
رأت عارضاً جوناً فقامت غريرة بمسحاتها قبل الظلام تبادره
فما برحت حتى أتى الماء دونها وسدت نواحيه ورفع داره

وقد وقع فى شعره أصوات غير هذا الصوت وإن لم تكن من المائة المختارة ذكرها الأغانى فى آخر الكلام عنه .

٩ — وقال أبو عمرو بن العلاء لم تقل العرب بيتا قط أصدق من بيت الحطيئة .

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه لا يذهب العرف بين الله والناس

فقيل له فقول طرفة :

ستبدى لك الأيام ما كنت جاهلا ويأتيك بالأخبار من لم تزود

فقال من يأتيك بها ممن زودت أكثر ، وليس بيت مما قالت الشعراء إلا وفيه مطعن إلا بيت الحطيئة هذا . وقال سلم بن قتيبة ما أعلم قافية تستغنى عن صدرها وتدل عليه وإن لم ينشد مثل قول الحطيئة وأنشد هذا البيت . وسمع كعب الأحبار رجلا ينشد هذا البيت فقال والذى نفسى بيده إنه لمكتوب فى التوراة بقصد قولها « لا يذهب العرف بين الله والعباد » .

١٠ — ولما حضرت عبيد الله بن شداد الوفاة كان مما أوصى به ابنه محمدا قوله « يا بنى ليكن أولى الأمور بك تقوى الله فى السر والعلانية والشكر لله وصدق الحديث والنية فان للشكر مزيدا والتقوى خير زاد كما قال الحطيئة .

ولست أرى السعادة جمع مال ولكن التقى هو السعيد
وتقوى الله خير الزاد ذخرا وعند الله للأتقى مزيد
وما لا بد أن يأتى قريب ولكن الذى يمضى بعيد

وعلى ذكر الحكمة فى شعر الحطيئة نقول إنه ممن عرفت لهم الأبيات الحكيمة فى أشعارهم ولا شك أنه أوتى هذا فيما أوتيه عن زهير وقد أخذ

عنه سوى هذا تنقيح الشعر وأسر القوافى والخلو من المعاظلة والتعقيد وغير ذلك مما يحسه قارىء شعريهما ، وإنما كان منه هذا التأثر بشعر زهير لأنه باجماع الرواة كان رواية زهير وآل زهير ، وهو القائل لكعب بن زهير قد علمت روايتى لكم أهل البيت وانقطاعى إليكم وقد ذهب الفحول غيرى وغيرك فلو قلت شعرا تذكر فيه نفسك وتضعنى موضعاً بعدك فان الناس لأشعاركم أروى وإليها أسرع ، فلم يضن عليه كعب بذلك وقال .

فمن للقوافى شأنها من يحوكها ... إذا ما ثوى كعب وفوز جرول

كفيتك لا تلقى من الناس واحدا ... تنحل منها مثل ما تنتحل

نقول فلا نعيا بشىء نقوله ... ومن قائليها من يسىء ويجمل

نثقفها حتى تلين متونها ... فيقصر عنها كل ما يتمثل

وإليك بعد ما تقدم من رأى الناس فيه رأيه هو فى نفسه وفى الشعراء وهو ما سنختم به الترجمة عنه إذ قال له ابن عباس يا أبا مليكة من أشعر الناس فقال أمن الماضين أم من الباقين قال من الماضين قال الذى يقول :

ومن يجعل المعروف من دون عرضه ... يفره ومن لا يتق الشتم يشتم

وما بدونه الذى يقول :

ولست بمستبق أخا لا تلمه ... على شعث أى الرجال المهذب

« يعنى زهيرا ثم النابغة » — ولكن الضراعة أفسدتهما كما أفسدت جرولا « يعنى نفسه » والله يابن عم رسول الله لولا الطمع والجشع لكنت أشعر الماضين فأما الباقون فلا تشكك أنى أشعرهم وأصردهم سهما إذا رميت.

هذه عقيدته فى نفسه وهى على ما فيها من خلاف للواقع ليست بالنظر إلى ما سلف كثيرة المغالاة ، فإن مما لا شك فيه أنه من متقدمى الفحول فى الجاهلية والإسلام وحسبه هذا بقاء ذكر وذيوع صيت .

على بن أبى طالب

تمهيـــد

أصابت قريشاً أزمة قعدت بكثير من أشرافها عن متناول القوت ، كان منهم أبو طالب بن عبد المطلب بن هاشم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم — ولم تك دعوته قد ظهرت بعد — لعميه حمزة والعباس : « ألا نحمل ثقل أبى طالب فى هذا المحل ؟ » ثم جاءوا إليه وسألوه أن يدفع إليهم ولده ليكفوه أمرهم وكانوا أربعة فقال : « دعوا عقيلا وخذوا من شئتم . فأخذ حمزة جعفرا ، وأخذ العباس طالبا ، وأخذ الرسول أصغر الإخوة فكان عليا موضع كلامنا الآن ، وعمره وقتئذ ست سنين ، فهو مربى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولذا سار على ما سار عليه من إنكار ما ينكر على قريش ، حتى إذا ما أظهر دعوته كان أول من آمن به من الصبيان دون أن يتدنس بدنس الجاهلية ؛ ومنه السجود للأصنام ، ومن ثم لازم اسمه كالرديف قولهم عنه دون غيره (كرم الله وجهه) . وأمه فاطمة بنت أسد بن هاشم ، فهو هاشمى الطرفين وابن عم الرسول ، ثم هو زوج ابنته فاطمة الزهراء ، وهـذه مفاخر ليست لغيره ، وكان له غيرها كثير : منها سبقه إلى الإسلام وهو صبى بدعوة من رسول الله له دون سائر الصبيان ، إذ لم يك يدعو غير المكلفين . ومنها منزلته العظمى فى الجهاد ففى وقعة بدر كان القتلى نيفاً وستين ، قتل منهم وحده نيفاً وعشرين ، وفى وقعة حنين انهزم كل المسلمين عن رسول الله صلى الله عليـه وسلم إلا سبعة نفر : ستة حول بغلته خوفاً عليه وهو السابع الذى استمر وحده يضرب بالسيف حتى أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين ، ومنها مبيته على فراشه صلى الله عليه وسلم وآله ليلة الهجرة وقوله إذ طلب منه ذلك سمعاً وطاعة وطيبة نفس بالفداء لك يارسول الله . ومنها ما ورد فيه من الآيات الكريمة

والأحاديث الشريفة الدالة على علو منزلته عند الله وعند رسوله . فمن الآيات ما جاء فى سورة الدهر عن الأبرار وما أعد الله لهم من نعيم جزاء ما ذكر لهم فيها من صفات فقد ورد عن ابن عباس أنها فى علىّ وفاطمة لأنهما هما اللذان أطعما الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا . ومن الأحاديث قوله صلى الله عليه وآله وسلم (من كنت مولاه فعلى مولاه اللهم وال من والاه وعاد من عاداه . وقوله وقد استخلفه على المدينة وهو خارج إلى غزوة تبوك فرأى منه كرها للتخلف إذ لم يكن تخلف عن غزوة سواها (أما يرضيك أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى غير أنه لا نبى بعدى) إلى غير ذلك مما جعل المأمون وهو من هو فى الفلسفة وغور الفكر يدين الله على أن عليا خير خلفاء الله بعد رسوله ، وأن نسله أولى بالخلافة بعده ، وهذا رأى جمع للنقاش فيه أربعين فقيها من علماء عصره وأقنعهم به فى حديث طويل ذكره بعض المؤرخين وعهد بالخلافة من بعده إلى الرضا على بن موسى من آل على ، ولولا أن المنية عاجلت عليا هذا وخرج العباسيون على المأمون فلم يعاود الأمر لنقلت الخلافة منهم إلى العلويين .

وإنما ذكرنا هذا عن المأمون عقب ما ذكرنا من فضائل على مع اعتقادنا أنه ليس الحق يؤخذ مسلما به منه لشدة تشيعه ، لندل به على أن الخلافة إذ جاوزت عليا بعد رسول الله إلى أبى بكر الصديق ، كان علىّ محل عطف ، وكان هذا التجاوز محل قول ، وزاد هذا العطف وذلك القول إذ عهد بها أبو بكر إلى عمر من دون على ، ثم زادا أكثر حين أخطأته الشورى إلى عثمان ، ولعل هذه الصدمات هى التى جعلته من أزهد الناس فى الخلافة حين اجتمع عليه الناس للبيعة بعد مقتل عثمان ولولا اجتماعهم عليه ملحين بعد ذلك الحادث الجليل لتركها تغادره كما غادرته من قبل .

بُويع عليه السلام بالخلافة سنة خمس وثلاثين وكانت حياته قبلها حياة زهد عرف به ، وعلم شهر عنه ، وعقل جعله المستشار الأمين للخلفاء الثلاثة قبل : أما بعد الخلافة فكانت حياة حوادث جسيمة مليئة بالفواجع

والنكبات التى ابتدأت بابتداء البيعة وما زالت آخذة فى الشدة والطغيان حتى قتله أحد الخوارج غيلة بمسجد الكوفة سنة أربعين . وهأنذا بجمل ذلك إجمالا يشتمل على بعض ما كان له فيه من قول لحاجتنا إليه بعد .

أولا — بينه وبين طلحة والزبير وعائشة ثم حرب الجمل

حين بايعه المهاجرون والأنصار بالمدينة ، كتب إلى الأمصار طالباً إقرار البيعة فأتته من كل الولاة ومن قِبلَهم إلا معاوية وأهل الشام ؛ وبينما هو يهم مقبلا على معالجة معاوية ومن معه ، شغله ما كان من طلحة والزبير ، وذلك أنهما بعد أن بايعاه أتياه فقالا له أتدرى علام بايعناك يا أمير المؤمنين ؟ قال نعم على السمع والطاعة ، وعلى ما بايعتم عليه أبا بكر وعمر وعثمان : فقالا لا ولكن على أنا شريكاك فى الأمر — وكان الزبير لا يشك فى ولاية العراق وطلحة يطمع فى ولاية اليمن — فقال : لا ولكنكما شريكان فى القول والاستقامة ، ورفض توليتهما فاستأذناه فى العمرة فقال والله ما العمرة تريدان ولكن امضيا إلى شأنكما ، فخرجا من المدينة إلى مكة مظهرين الشكاة منه والنقض لبيعته والمطالبة بدم عثمان ، وبلغا ذلك وما كان من رد أهل الشام لبيعته عائشة ، وكانت بمكة وفى نفسها ما فيها من على منذ حادثة الإفك . فأمرت فعمل لها هودج ركبت فيه إلى البصرة ، لأنها كانت عثمانية ، ومعها طلحة والزبير ، وابناهما محمد بن طلحة وعبد الله بن الزبير ، وجمع غيرهم من بنى أمية عامة وولد عثمان خاصة ، وبلغ ذلك عليا بالمدينة فولى عليها قثم بن العباس وشخص إلى الكوفة ، ليكون بين هؤلاء بالبصرة وبين معاوية فى الشام ، ثم أخذ إذ وصلها يدعو الناس إلى نصرته على هؤلاء الخارجين فما راعه إلا إغارة طلحة والزبير ومن معهما على عثمان بن حنيف عامله على البصرة نصف ليل ، وقتلهم أربعين من حراسه وأسره والتمثيل به ، فجمع أهل الكوفة وقام فيهم خطيباً يقول :

« الحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على سيدنا محمد خاتم النبيين وآخر المرسلين أما بعد . فإن الله بعث محمداً عليه الصلاة والسلام إلى الثقلين كافة ، والناس فى اختلاف ، والعرب بشر المنازل . مستضيئون للثارات بعضهم على بعض ، فرأب الله به الثأى ولأم به الصدع ورتق به الفتق وأمن به السبل وحقن به الدماء وقطع به العداوة الواغرة للقلوب والضغائن الخشنة للصدور ، ثم قبضه عز وجل مشكوراً سعيه مرضياً عمله مغفوراً ذنبه كريماً عند ربه نزله ؛ فيالها من مصيبة عمت المسلمين وخصت الأقربين . وولى أبو بكر فسار بسيرة رضيها المسلمون ، ثم ولى عمر فسار بسيرة أبى بكر رضى الله عنهما ، ثم ولى عثمان فنال منكم ونلتم منه حتى إذا كان من أمره ما كان أتيتموه فقتلتموه ؛ ثم أتيتمونى فقلتم لى بايعنا فقلت لكم لا أفعل وقبضت يدى فبسطتموها ونازعتكم كفى فجذبتموها وقلتم لا نرضى إلا بك ولا نجتمع إلا عليك وتداككتم علىّ تداكك الإبل الهيم على حياضها يوم وردها حتى ظننت أنكم قاتلى وأن بعضكم قاتل بعض فبايعتمونى وبايعنى طلحة والزبير ، ثم ما لبثا أن استأذنانى للعمرة فسارا بأم المؤمنين إلى البصرة فقتلا بها المسلمين وفعلا الأفاعيل ، وهما يعلمان والله أنى لست بدون واحد ممن مضى ولو أشاء أن أقول لقلت ، اللهم إنهما قطعا قرابتى ونكثا بيعتى وألبا على عدوى ، اللهم فلا تحكم لهما ما أبرما وأرهما المساءة فيما عملا وأملا » .

ثم نفر بالناس إلى البصرة حتى إذا كان على مقربة من طلحة والزبير أرسل إليهم بطلب الطاعة فلم يجيبا فكتب إليهم يقول : « أما بعد فقد علمتما أنى لم أرد الناس حتى أرادونى وأنى لم أبايعهم حتى بايعونى وإنكما لممن أرادو بايع ، وإن العامة لم تبايعنى لسلطان خاص ، فإن كنتما بايعتمانى كارهين فقد جعلتما لى عليكما السبيل بإظهاركما الطاعة وإسراركما المعصية . وإن كنتما بايعتمانى طائعين فارجعا إلى الله عن قريب . أنت يازبير لفارس رسول الله وحواريه وأنت ياطلحة لشيخ المهاجرين ، وإن دفاعكما هذا الأمر

قبل أن تدخلا فيه كان أوسع عليكما من خروجكما منه بعد إقراركما به . وقد زعمتما أنى قتلت عثمان فبينى وبينكما بعض من تخلف عنى وعنكما من أهل المدينة ، وزعمتما أنى آويت قتلته فهـــؤلاء بنوه فليدخلوا فى طاعتى ثم ليخاصموا إلىّ قتلة أبيهم وما أنتما وعثمان إن كان ظالماً أو مظلوماً ، ولقد بايعتمانى وأنتما بين خصلتين قبيحتين نكث بيعتكما وإخراجكما أمكما ، وكتب إلى عائشة . « أما بعد فإنك خرجت تطلبين أمراً كان عنك موضوعا ولعمرى لمن عرضك للبلاء وحملك على المعصية أعظم إليك ذنباً من قتلة عثمان ، وما غضبت حتى أُغضبت وما هجت حتى هُيجت ، فاتق الله وارجعى إلى بيتك الذى أمرت أن تقرى فيه » . فأجاب الثلاثة بالبقاء على الخلاف وخرجوا ومن معهم لقتاله وعائشة فى هودجها على جمل وخرج هو برجاله كذلك ولكنه أعذر إلى القوم بأن قال لطلحه والزبير قبـــل التناوش ، استحلفا عائشة بحق الله وبحق رسوله عليها أربع خصال أن تصدق فيها ، هل تعلم رجلا من قريش أولى منى بالله ورسوله ، وإسلامى قبل كافة الناس أجمعين ، وكفايتى رسول الله كفار العرب بسيفى ورمحى ، وعلى براءتى من دم عثمان ، وعلى أنى كنت أحسن قولا فيه منكما ، وعلى أنى لم أستكره أحدا على بيعتى ، فأغلظ له طلحة ورق إليه الزبير . فخرج على إليه حاسراً واعتنق كلاهما صاحبه وبكى فقال على « ما جاء بك ها هنا يازبير . قال : « جئت أطلب دم عثمان . قال : « تطلب دم عثمان !! قتل الله من قتل عثمان . أنشدك الله يا زبير هل تعلم أنك مررت بى وأنت مع رسول الله ﷺ وهو متكىء على يدك فسلم على وضمك إلى ثم التفت إليك فقال لك يا زبير . « إنك تقاتل علياً وأنت له ظالم » . فقال اللهم نعم . قال فعلام تقاتلنى ! قال : نسيتها والله ولو قد ذكرتها ما خرجت إليك ولا قاتلتك ، ثم اعتزل الحرب وعاد إلى طلحة وعائشة ينهاهما فلم ينتهيا ، فقفل راجعاً إلى المدينة ولكنه نزل على ابن جرموز بوادى السباع للمبيت عنده فقتله وهو نائم . ولما أصر طلحة على القتال اصطدم الفريقان ولم يزالوا يغدون كل يوم

ويروحون حتى كانت الموقعة الفاصلة فى اليوم الثامن بقتل طلحة وابنه محمد وعرقبة الجمل ، وجى بعائشة ومروان بن الحكم وعمرو بن عثمان وموسى ابن طلحة وعمرو بن سعيد بن العاص إلى على ، وكان عبد الله بن الزبير قد فر فطلب منهم البيعة فبايعوه وأعفاهم من القتل وخلى سبيلهم . ثم دخل على عائشه فقال لها ياصاحبة الهودج قد أمرك أن تقعدى فى بيتك فخرجت تقاتلين ، أترتحلين ؟ قالت أرتحل ، فرحلها إلى المدينة ومعها أربعون امرأة لابسات لبس الرجال ومسلحات

بهذا انتهت وقعة الجمل ولما كان سببها طلحة والزبير وعائشة على زعم المطالبة بدم عثمان ، ناسب أن نذكر أشياء توضح أن علياً كان بريئاً من دمه وأن هؤلاء الثلاثة خرجوا عليه ظالمين له وهى : —

١ — كان طلحة والزبير وعائشة من أكابر المحرضين على عثمان كما هو مفصل فى كتب التاريخ فكيف يتفق هذا مع خروجهم للمطالبة بدمه إن لم يكن غرضهم مناوأة على .

٢ — تقدم أن الزبير لما تذكر من على حديثاً عن رسول الله بأنه سيقاتله وهو له ظالم امتنع عن قتاله .

٣ — كان مما روى عن النبى صلى الله عليه وسلم قوله لعائشة ما معناه (كأنى بك ياحميراء تنبحك كلاب الحوأب وأنت خارجة لقتال على ظالمة) وقد نبحتها كلاب هذا الماء حين مرت عليه فهمت بالرجوع ولم يثنها عنه إلا عبد الله بن الزبير .

٤ — قدم الأحنف بن قيس المدينة فى حكاية طويلة حدث بها عن نفسه وكان عثمان محاصراً فمر على كل من طلحة والزبير وحده يسأله عمن يبايع بعد عثمان فكلاهما رضى له عليا ولم يعدل به سواه ، فانطلق إلى مكة وما كاد يصلها حتى قتل عثمان ، فدخل على عائشة بمثل ما تقدم فأمرته بعلى ورضيته له دون غيره ، فعاد إلى المدينة فبايع عليا ، ثم رجع إلى قومه بالبصرة فما راعه إلا قدوم هؤلاء الثلاثة لمحاربة على والأخذ بدم عثمان ، فبعث إلى على يقول :

أأحضر إليك فى مائتين من أهلى أم أكفيك أربعة آلاف سيف من قومى فبعث إليه على : بل اكفنى ذلك وكفى ، فاعتزل بقومه حرب الجمل .

٥ — قال معبد الخزاعى قلت لعلى بعد وقعة الجمل إنى سائلك عن مسألة كانت منك ومن عثمان فإن نجوت اليوم نجوت غدا إن شاء الله . قال سل عما بدالك . قلت : أخبرنى أى منزلة وسعتك إذ قتل عثمان ولم تنصره . قال : إن عثمان كان إماما وإنه نهانا عن القتال عنه . وقال من سل سيفه فليس منى ، فلو قاتلنا دونه لعصيناه . قال : فأى منزلة وسعت عثمان إذ استسلم حتى قتل . قال : المنزلة التى وسعت ابن آدم إذ قال لأخيه « لئن بسطت إلى يدك لتقتلنى ما أنا بباسط يدى إليك لأقتلك إنى أخاف الله رب العالمين » . قال فهلا وسعتك هذه المنزلة يوم الجمل . قال : إنا قاتلنا يوم الجمل من ظلمنا ، كما قال الله تعالى : « ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل ، إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون فى الأرض بغير الحق أولئك لهم عذاب أليم ، ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور » . فقاتلنا نحن من ظلمنا وما علينا من سبيل ، وصبر عثمان على ظلمه وذلك من عزم الأمور .

ثانيا — بينه وبين معاوية ثم حرب صفين

كانت البيت السفيانى يتطلع لرياسة العرب منذ تولى يزيد بن أبى سفيان الشام من قبل عمر ، وخلفه عليها من قبله أيضاً أخوه معاوية إذ مات فى طاعون عمواس فى السنة الثامنة عشرة ، ولقد كانت وصاة أبيه له وهو ذاهب إليها : (يا بنى إن هؤلاء الرهط من المهاجرين سبقونا وتأخرنا عنهم ، فرفعهم سبقهم وقصر بنا تأخرنا ، فصرنا تباعًا وصاروا قادة ، وقد قلدوك جسيما من أمرهم فلا تخالفن أمرهم أحببت ذلك أم كرهته فإنك تجرى إلى أمد لم تبلغه ولو قد بلغته لتنفست فيه) . ثم ازداد هذا التطلع إذ ولى عثمان الخلافة وهو أموى فأقر معاوية على ولايته ، واستمر معاوية يتحين الفرصة

لإظهار نيته حتى حانت بقتل عثمان عن غير تعيين منه للخليفة من بعده كما كان من أبي بكر لعمر ولا إيضاح لطريق الانتخاب كما كان من عمر فى أمر الشورى ، ثم عثمان أموى لأنه ابن عفان بن أبى العاص بن أمية . ولمعاوية أن يمتنع عن مبايعة الخليفة الجديد حتى يأخذ بدمه ، ودون الأخذ بدمه ، وقد تفرق بين الآلاف من أهل الأمصار ، ما لا سبيل لخليفة ما إلى اجتيازه ، لأن فيه إيقاظاً لفتنة أشد وإشعالا لثورة أنكى ، وفعلا امتنع عن مبايعة على إذ بايعته الأمصار ، وكان قد وصله قميص عثمان مضرجا بدمه وفيه اصبع زوجته نائلة بنت الفرافصة مقطوعة ، فجمع وجوه أهل الشام وصعد المنبر ناشراً هذا القميص والأصبع وأفاض فى القصة ينال من على ويلسب إليه الدس والتحريض على عثمان ، وقعوده عن نصرته وهو محاصر ، وعن المطالبة بدمه إذ بويع ، حتى أبكاهم جميعا ، ثم دعاهم إلى نصرته فى المطالبة بدمه فأجابوه وبايعوه أميراً عليهم ولكنه تعلل فى قبول الأمرة طالباً الخلافة حيث لا تجوز المطالبة بدم خليفة إلا من خليفة ، فبايعوه على ذلك ، وبهذا استقام له الأمر بالشام ، وكتب إلى على يقول :

سلام على من اتبع الهدى . أما بعد فقد كنا وإياكم بدار جامعة ، وألفة أليفة ، حتى طمعت يابن أبى طالب فتغيرت ، وأصبحت تعد نفسك قويا على من عاداك بطغام أهل الحجاز وأوباش العراق وحمق الفسطاط وغوغاء السواد . وايم الله لينجلين عنك حمقاها ، ولينقشعن عنك غوغاؤها انقشاع السحاب عن السحاب ، قتلت عثمان بن عفان ، ورقيت سلما أطلعك الله عليه مطلع سوء عليك لا لك . وقتلت الزبير وطلحة ، وشردت أمك عائشة ، ونزلت بين المصريين فمنيت وتمنيت ، وخيل لك أن الدنيا قد سخرت لك بخيلها ورجلها ، وإنما تعرف أمنيتك لو قد زرتك فى المهاجرين من أهل الشام بقية الإسلام ، فيحيطون بك من ورائك ثم يقضى الله علمه فيك . والسلام على أولياء الله .

فأجابه على : « أما بعد : فقدر الأمور تقدير من ينظر لنفسه دون

جنده ، ولا يشتغل بالهزل من قوله ، فلعمرى لئن كانت قوتى بأهل العراق أوثق عندى من قوتى بالله ومعونتى به ، لم يكن عندى بالله يقين ، فناج نفسك مناجاة من يستغنى بالجد دون الهزل ، فإن فى القول سعة . ولن يعذر مثلك فيما طمح إليه الرجال ، وأما ما ذكرت من أننا كنا وإياكم بدار جامعه ، فكنا كما ذكرت ففرق بيننا وبينكم أن الله بعث رسوله منا فآمنا به وكفرتم . ثم زعمت أنى قتلت طلحة والزبير ، فذلك أمر غبت عنه ولو حضرته لعلمته فلا عليك ولا العذر فيه إليك . وزعمت أنك زائرى فى المهاجرين وقد انقطعت الهجرة حين أسر أبوك ، فإن يكن فيك عجل فاستبقه ، وإن أزرك فجدير أن يكون الله قد بعثنى عليك للنقمة منك . والسلام » .

وطالت المكاتبات بينهما جدا وقد ذكرت منها ثلاثة كتب فى الكلام على الكتابة فى صدر الإسلام . وأجمع كتاب لأعذار معاوية ، وحجج على عليها هذا الكتاب الذى نريد إثباته الآن وهو :—

« من على إلى معاوية ، أما بعد : — فقد أتانى كتابك تذكر فيه اصطفاء الله محمدا صلى الله عليه وآله وسلم ، لدينه وتأييده إياه بمن أيده من أصحابه . فلقد خبأ لنا الدهر منك عجبا . إذ طفقت تخبرنا ببلاء الله عندنا ونعمته علينا فى نبينا . فكنت فى ذلك — كناقل التمر إلى هجر ، أو داعى مسدده إلى النضال — وزعمت أن أفضل الناس فى الإسلام فلان وفلان . أمر إن تم اعتزلك كله ، وإن نقص لم تلحقك ثلمته . وما أنت والفاضل والمفضول ، والسائس والمسوس ، وما للطلقاء وأبناء الطلقاء والتمييز بين المهاجرين الأولين ، وترتيب درجاتهم وتعريف طبقاتهم . هيهات لقد حن قدح ليس منها ، وطفق يحكم فيها من عليه الحكم لها . ألا تربع أيها الإنسان على ظلعك وتعرف قصور ذرعك ، وتتأخر حيث أخرك القدر ، فما عليك غلبة المغلوب ولا لك ظفر الظافر . وإنك لذهاب فى التيه رواغ عن القصد . ألا ترى غير مخبر ولكن بنعمة الله أحدث . إن قوما استشهدوا فى سبيل الله

ـ ولكل فضل ـ حتى إذا اشتشهد شهيدنا قيل سيد الشهداء وخصه رسول الله بسبعين تكبيرة حين صلاته عليه، أو لا ترى أن قوماً قطعت أيديهم فى سبيل الله ولكل فضل حتى إذا فعل بواحدنا ما فعل بواحدهم قيل « الطيار فى الجنة » ذو الجناحين ، ولولا ما نهى الله عنه من تزكية المرء نفسه لذكر ذاكر فضائل جمة تعرفها قلوب المؤمنين ولا تمجها آذان السامعين . فدع عنك من مالت به الرمية . فأنا صنائع ربنا والناس بعد صنائع لنا . لم يمنعنا قديم عزنا ولا عادى طولنا على قومك أن خلطناهم بأنفسنا فنكحنا وأنكحنا فعل الأكفاء ولستم هناك ، وأنى يكون ذلك ومنا النبى ومنكم المكذب ، ومنا أسد الله ومنكم أسد الأحلاف ، ومنا سيد شباب أهل الجنة ومنكم صبية النار ، ومنا خير نساء العالمين ، ومنكم حمالة الحطب ، فى كثير مما لنا وعليكم . فإسلامنا قد سمع ، وجاهليتنا لا تدفع ، وكتاب الله يجمع لنا ما شذعنا وهو قوله « وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض ، فى كتاب الله » وقوله « إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه ، وهذا النبى والذين آمنوا والله ولى المؤمنين » فنحن أولى بالقرابة منكم وتارة أولى بالطاعة ، ولما احتج المهاجرون على الأنصار يوم السقيفة برسول الله ، فلجوا عليهم ، فإن يكن الفلج به فالحق لنا دونكم ، وإن يكن بغيره فالأنصار على دعواهم . وزعمت أنى لكل الخلفاء حسدت وعلى كلهم بغيت ، فإن يكن ذلك فليس الجناية فيه عليك فيكون العذر إليك . وتلك شكاة ظاهر عنك عارها . وقلت إنى كنت أقاد كما يقاد الجمل المخشوش حتى أبايع . ولعمر الله لقد أردت أن تذم فمدحت ، وأن تفضح فافتضحت . وما على المسلم من غضاضة فى أن يكون مظلوماً ما لم يكن شاكا فى دينه ، ولا مرتاباً بيقينه وهذه حجتى إلى غيرك قصدها ، ولكنى أطلت لك منها بقدر ما سنح من ذكرها ، ثم ذكرت ما كان من أمرى وأمر عثمان ، فلك أن تجاب عن هذه لرحمك منه ، فأينا كان أعدى له وأهدى إلى مقاتله ؟ أمن بذل نصرته فاستقعده واستكفه ؟ أمن استنصره فتراخى عنه وبث المنون إليه ؟ حتى أتى قدره عليه . كلا والله ! « لقد علم الله المعوقين منكم ، والقائلين لإخوانهم هلم

إلينا ولا يأتون البأس إلا قليلا ، وما كنت لأعتذر من أنى كنت أنقم عليه أحداثا ، فإن كان الذنب إليه ، إرشادى وهدايتى له فرب ملوم لا ذنب له ، وقد يستفيد الظنة المتنصح ، ، وما أردت إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب » . وذكرت أنه ليس لى ولأصحابى إلا السيف ، فلقد أضحكت بعد استعبار ، متى ألفيت بنى عبد المطلب عن الأعداء ناكلين ؟ وبالسيف مخوفين ؟ « لبث قليلا يلحق الهيجا حمل ، فسيطلبك من تطلب ويقرب منك ما تستبعد ؛ وأنا مرقل نحوك فى جحفل من المهاجرين والأنصار والتابعين لهم بإحسان ، شديد زحامهم ساطع قتامهم ، متسربلين بالموت ، أحب اللقاء إليهم لقاء ربهم ؛ قد صحبتهم ذرية بدوية وسيوف هاشمية ، قد عرفت مواقع نصالها فى أخيك وخالك وجدك وأهلك ، وما هى من الظالمين ببعيد » .

ولعل آخر كتاب من معاوية إلى على هو « من معاوية إلى على ، أما بعد :

ليس بينى وبين قيس عتاب غير طعن الكلى وضرب الرقاب

بهذا لم يبق بين الخصمين إلا السيف ، فلم يترك معاوية عظيما من أتباع على ، ولا ممن وقفوا على الحيدة إلا كتب إليه ينفره من على ويستميله إليه ، فقليل ثبت وكثير مال . وكان ممن مال وطمع عمرو بن العاص ، فاصطفاه معاوية لإخلاصه له ودهائه واتخذه ذا مشورته فى كل أموره ، وكتب له بولاية مصر طعمة ، ثم خرج من الشام إلى على فى خمسة وثمانين ألفا وخرج على من الكوفة إليه - وكان قد اتخذها قاعدة ملكه لما تقدم - فى تسعين ألفا فالتقوا بصفين ودارت الحرب بين الطرفين سجالا . حتى إذا ما اختطف أهل الشام عمار بن ياسر فقتلوه - وكان مرويا عن رسول الله إذا كان يبنى مسجد المدينة وشكا اليه عمار تثقيل الصحابه عليه فى حمل اللبن قائلا : - « إنهم يريدون قتلى يا رسول الله » أنه قال له « لا يقتلك أصحابى ولكن تقتلك الفئة الباغية - دب الذعر فى جيش معاوية ، والحماسُ فى جيش على الذى كثر المحرضون فيه من رجال ونساء ، حتى إذا كان يوم الهرير وهو أشد أيام صفين الستة والأربعين زحف أهل العراق على أهل الشام

فأزالوهم عن مراكزهم ، وانتهوا إلى سرادق معاوية فدعا بفرسه وهمّ بالهزيمة . فقال له عمرو « مر بالمصاحف أن ترفع فى أطراف الرماح ويقال هذا كتاب الله يحكم بيننا وبينكم » ففعل ، ولما نظر أهل العراق إلى المصاحف — وجلهم فقهاء — ارتدعوا واختلفوا ، ثم تغلب الفريق القائل بوقف القتال على الفريق الثانى الذى كان فيه على ، وبدأت حادثة التحكيم وهى أن يختار كل طرف رجلا ويجتمع الرجلان ليحكما فى الأمر ، فاختار معاوية عمرا واختار أهل العراق أبا موسى الأشعرى ، مراغمين فى ذلك لعلى الذى ماكان يريده وأشار باختيار أبى الأسود الدؤلى أو عبد الله ابن عباس فلم يطيعوه ، واجتمع الحكمان بدومة الجندل وكتبا عقد التحكيم الذى يخولهما حق الفصل ويؤمنهما على كل شىء وأمضيا عليه أسماء الشهود من الطرفين ، وكان تاريخه صفر سنة ٣٧ ، وحددا لاجتماعهما الفاصل رمضان من السنه المذكورة . وقبل أن نذكر ما كان فى هذا الاجتماع المنتظر نسوق ملاحظتين يمكن أن نتنبأ بهما عما سيكون . أولاهما أن عمرا قد أوتى من المكر والدهاء والمكيدة وسعة الحيلة ما اشتهر به لدى العرب كافة . وأن أبا موسى على عكس ذلك رجل دينى محض لم يذق للسياسة طعما فليس بالرجل الذى يقف أمام داهية العرب هذا الموقف الذى يحتاج إلى الحنكة فى السياسة وابتكار ضروب المكر والدهاء ، أكثر مما يحتاج إلى الورع والتقوى والتعمق فى أمور الدين ؛ والثانية أن معاوية وأهل الشام اختاروا عمرا راضين عنه ، وكان عمرو يميل إلى معاوية ويحب تأييده وتثبيت الخلافة له ويتفق معه فى الغرض الذى يتظاهر بالخروج من أجله وهو المطالبة بدم عثمان ، وإنما قلنا يتظاهر لأن الأمر لم يك يعدو هذا ، وإلا فما الذى حال بينه وبين هذه المطالبة إذ استتب له الأمر بعد ؟؟

أما على فقد أكره هو وكثير من أصحابه على اختيار أبى موسى ، ولم يكن ليرضى به حكما ولا ليثق فيه ، فقد سبق لأبى موسى أن فارقه وخذل الناس عنه حين جاءه أهل الكوفة يستشيرونه فى الخروج مع على إلى حرب الجمل

وكان من قوله لهم « أما سبيل الآخرة فأن تقيموا ، وأما الدنيا فأن تخرجوا » ثم قال . أما والله إن بيعة عثمان رضى الله عنه فى عنق ، فإن لم يكن بد من قتال لا نقاتل مع أحد حتى يفرغ من قتلة عثمان ، ولا تكلفوا الدخول فى هذا فإنها فتنة صماء ، النائم فيها خير من اليقظان ، واليقظان خير من القاعد ، والقاعد خير من القائم ، والقائم خير من الراكب : فكونوا جرثومة من جراثيم العرب ، أغمدوا السيوف وأنصلوا الأسنة ، واقطعوا الأوتار ، وآووا المظلوم والمضطهد ؛ حتى يلتئم هذا الأمر وتنجلى هذه الفتنة » إلى غير ذلك من الأقوال التى ثبطت الهمم وجعلت عليا يعزله عن الولاية ، فأية نصرة تنتظر منه لعلى إزاء عمرو وخاصة إذ كان يعتقد فوق هذا أن عبد الله ابن عمر وهو أحد من اعتزلوا الطرفين ، أحق بالخلافة وأولى .

اجتمع الحكمان الاجتماع الفاصل بدومة الجندل فى رمضان المذكور ، فاستدرج عمرو أبا موسى حتى وافقه على أن عثمان قتل مظلوما وعلى أن معاوية أولى من يطالب بدمه إذا قعد الخليفة عن ذلك ؛ ثم على خلع على من الخلافة وذلك ما كان يبغى إذ كان غرضه تجريد على من صفة ليست لمعاوية وتحكيم السيف بعد ، وكان أبو موسى يريد استخلاف عبد الله بن عمر ، ولكن عمرا وافقه على الخلع وعلى أن يختار المسلمون بعد ذلك من أحبوا ووافقه أبو موسى ، وكتبا بذلك صحيفتين ختماهما وتناول كلاهما واحدة وانصرف إلى صاحبه . وفى هذا كسب أى كسب لمعاوية ، ففيه خلع على من الخلافة ؛ وأن عثمان قتل مظلوما ، وأن معاوية أحق من يطالب بدمه ، وفيه فوق ذلك إضاعة وقت خسر فيه على ما خسر ، من تخاذل جيشه والفت فى عضد أشياعه ، بقدر ما كسب معاوية من كمال الاستعداد وتمام الأهبة ، وبذلك تمكن من سلخ ما كان تحت يد على شيئا شيئا فى الوقت الذى أصيب فيه على بفئة خارجة عليه لقبوله التحكيم فى أمر يعتقد فيه أنه على الحق وبدرجة يطالبونه فيها إذا كان يعتقد ذلك أنه كان كافراً ويجب أن يتوب وهذا مما يعسر عليه رحمه الله . لذلك قضى معهم رد حا

من الزمن يحاول إقناعهم فلا يقتنعون ويجاهدهم فلا ينهزمون ، وإذا انهزموا عادت فلولهم إلى ما كان عليه المنهزمون من تجمع وخروج ، حتى قتل بيد أحدهم غيلة كما تقدم سنة أربعين ، فصفا لمعاوية الجو وعظم سلطانه وتوطد ملكه ، ثم صارت خلافته شرعية بتنازل الحسن بن على له وكان قد بويع مكان أبيه سنة إحدى وأربعين المعروفة لهذا التنازل بعام الجماعة ، على أن يكون الأمر من بعده شورى حقناً لدماء المسلمين وتخليصاً للأمة من رزايا هذا الخلاف ، ولكن معاوية عقد البيعة لابنه يزيد قبل أن يموت كما هو معروف .

هذه سيرة على السياسية ولها دخل أيما دخل فى حياته الكلامية ولذا لم نتحرج من الإطالة فيها بعض الإطالة .

ثالثاً — حياته الكلامية

لقد أحيط على بن أبى طالب ببيئات كثيرة ورثته فصاحة وبلاغة ، وأهلته لأن يكون القوال البارع والمتكلم الفارع ، فهو فوق أنه قرشى ثم هاشمى ، ابن أبى طالب سيد قريش فى سياستها ، وخطيبها يوم جمعها ، وشاعرها فى مفاخرها ، وحسبك أن تعلم عن سعة عقله وسداد قصده قوله من وصيته لقريش عند موته : أنتم صفوة الله من خلقه وقلب العرب ، فيكم المطاع ، وفيكم المقدم الشجاع ، والواسع الباع ، لم تتركوا للعرب فى المآثر نصيباً إلا أحرزتموه ، ولا شرفاً إلا أدركتموه ، فلكم بذلك على الناس الفضيلة ، ولهم به إليكم الوسيلة ، أوصيكم بتعظيم هذه البنية فإن فيها مرضاة للرب وقواما للمعاش ، ثم يقول منها — فى شأن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « وايم الله لكأنى أنظر إلى صعاليك العرب وأهل البدو فى الأطراف والمستضعفين من الناس قد أجابوا دعوته ، وصدقوا كلمته وعظموا أمره فخاض بهم غمرات الموت ، فصارت رؤساء قريش وصناديدها أذنابا ، ودورها خرابا وضعفاؤها أربابا ، وإذا أعظمهم عليه أحوجهم إليه ،

وأبعدهم منه أحظاهم عنده ، قد محضته الحرب ودادها ، وأعطته قيادها ، دونكم يامعشر قريش كونوا له ولاة ولحزبه حماة ، والله لا يسلك أحد سبيله إلا رشد ، ولا يأخذ أحد بهديه إلا استهدى . أليس فى هذه الوصية ما يقفك على ما كان عند أبى طالب من صدق حدس وقوة تخمين ، ومن بلاغة قول وشدة تأثير وهل حادث قريش مع رسول الله عما رسم .

فى هذا الحجر قضى على سن التمييز ثم غادره إلى حجر أفصح فصيح وأبلغ بليغ ، حجر ابن عمه محمد خير البشر سيد الرسل ، فلم يزل فى كفالته حتى شرف صلى الله عليه وآله وسلم بالرسالة فآمن به على إيماناً لم يسبقه شرك دعى إليه وهو صبى ، ثم كان أن آخاه رسول الله فكان يدعوه يا أخى ويقول لأصحابه إنه أخى فى الدنيا والآخرة ، وكان من تلك المؤاخاة التى صحبت بمصاهرته فى ابنته البتول أن خالط على منبع الدين وخالطه الدين ، وسمع القرآن ووعى الحديث ، فكان قلبه الطاهر مستقر المعانى العالية ، ولسانه الفصيح مرسل الحكم الغالية ، وكان إلى رسول الله فى علمه كما قال صلى الله عليه وآله وسلم فيما قيل . (أنا مدينة العلم وعلى بابها) . وهذا شئ وعاه الصحابة جميعاً وأقروا به إقرارا . قال ابن عباس للصحابة (لقد أعطى على تسعة أعشار العلم ، وايم الله لقد شاركهم فى العشر العاشر) وكان يقول (إذا ثبت لنا الشىء عن على لم يعدل به إلى غيره) . وقال ابن مسعود : (كنا نتحدث أن أقضى أهل المدينة جميعاً على بن أبى طالب) . وقال المسيب . كان عمر يتعوذ من معضلة ليس لها أبو حسن ، يقصد إلى قول عمر : قضية ولا أبا حسن لها » . وسئل عطاء أكان فى أصحاب محمد أعلم من على ، فقال لا والله لا أعلم ، وسأل سعد بن عمرو بن العاص عياش بن أبى ربيعة ، لم كان صغو الناس إلى على فقال يابن أخى إن عليا كان له ما شئت من ضرس قاطع فى العلم وكان له البسطة فى العشيرة والقدم فى الإسلام والصهر لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، والفقه فى السنة ، والنجدة فى الحرب ، والجود بالماعون ، ولقد زينه الله بزينة أخرى غير زينة

العلم هى الزهد فى الدنيا وما يتطلبه من الانصراف عنها والإقبال على الآخرة قال عمار بن ياسر سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لعلى ابن أبى طالب إن الله عز وجل قد زينك بزينة لم تزين العباد بزينة أحب إليه منها هى الزهد فى الدنيا فجعلك لا تنال من الدنيا شيئاً ولا تنال الدنيا منك شيئاً ووهب لك حب المساكين ورضوا بك إماماً ورضيت بهم أتباعا ، فطوبى لمن اتبعك وصدقك وويل لمن أبغضك وكذب عليك ، فأما الذين أحبوك وصدقوا فيك فهم جيرانك فى دارك ، ورفقاؤك فى قصرك ، وأما الذين أبغضوك وكذبوا عليك فحق الله أن يوقفهم موقف الكذابين يوم القيامة .

هاتان ناحيتان فى على لم تجتمعا فى غيره كبعض ما اجتمعتا فيه ، وجدير بهما مع فصاحته وبلاغته أن تخلفا عنه مأثوراً كثير الكم عظيم القدر فى أمور العلم ومرامى الزهد ، يحس الإنسان إذ تلاه بالسعة العلمية غير المحدودة والزهد الذى لا يعرف غير الآخرة طريقاً ، والحكمة التى تتفجر على هذه الجوانب سقياً لأغصانها المورقة وأفنانها المزهرة ، ولعل معظم كلامه رحمه الله قبل الخلافة كان مقصوراً على هذه المنابع ينبع منها وإلى هذه المناحى يتجه إليها ، أما إذ جاءت الخلافة بما جاءت ، بما قدمنا وبما لم يجعل له فى هذه الحياة كما قال رسول الله نصيباً ، فقد جره جانبها السياسى إلى الخطب السياسية المترامية الأطراف المتشعبة المعانى المختلفة الأغراض ، وإلى الرسائل الدائرة حول ذلك ذات الطول الباسق والحجج القاطعة ، على أن تلك الأحداث وهذه الغير لم تلهه عن أن يعلو زهده وتصفو حكمته ويفيض منهما ومن علمه الغزير على هذه النواحى السياسية الجديدة ، ما يرفع من شأنها ويزيد من قدرها كما هو ظاهر فيما اخترناه هنا وحيث الكلام على النثر فى صدر الإسلام من خطب ورسائل وحكم وأمثال ، ولسنا فى حاجة إلى أن نزيد على ما اخترنا وإن كان قليلا لأنا لا نريد غير التمثيل ومن أراد المزيد فليرجع إلى نهج البلاغة لجامعه السيد الشريف الرضى من آل على رحمه الله وفيه

نحو ثلثمائة خطبة ومائة كتاب وخمسمائة حكمة قيدها فى ثلاثة أبواب على هذا الترتيب ، وقـــد يأتى شىء من الاختيار اضطراراً حيث الكلام على هذا الكتاب .

وبعد فهمتنا الآن عن كلام على ومناحيه أن نزيد ذلك الكلام وصفا وتلك المناحى إيضاحا ثم نعقب هذا بكلمة فاصلة عما دار حول النهج من الطعن فى نسبته إليه ، دحضاً لتلك الطعون ، وبعدئذ بذكر الكلمة الختامية فى موقفه رحمه الله من الشعر وفى نسبة الديوان المزعوم له إليه .

فأما وصف كلامه ومناحيه فلم نجد فيه خيراً مما ذكره عنه الشريف الرضى فى مقدمة النهج ، والأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده فى مقدمة شرحه له ولسنا ندعى إذا انفردنا بالكلام دونهما بلوغ شأوهما بله التفوق عليهما ، فقد حلقا فيما أرادا تحليقاً رفيعاً بلغ السماكين وتجاوز الفرقدين ، على أن لنا فى إيراد كلامهما تأييداً لما قدمنا وحجة على ما أوردنا .

قال السيد الشريف ، سألنى جماعة من الأصدقاء والإخوان أن أبدأ بتأليف كتاب يحتوى على مختار كلام مولانا أمير المؤمنين عليه السلام فى جميع فنونه ومتشعبات غصونه ، من خطب وكتب ومواعظ وآداب ، علما أن ذلك يتضمن من عجائب البـــلاغة وغرائب الفصاحة وجواهر العربية وثواقب الكلم الدينية والدنيوية ما لا يوجد مجتمعاً فى كلام ولا بمجموع الأطراف فى كتاب ، إذ كان أمير المؤمنين عليه السلام مشرع الفصاحة وموردها ومنشأ البلاغة ومولدها ، ومنه عليه السلام ظهر مكنونها ، وعنه أخذت قوانينها ، وعلى أمثلته حذا كل قائل خطيب ، وبكلامه استعان كل واعظ بليغ ، ومع ذلك فقد سبق وقصروا وتقدم وتأخروا ، ولأن كلامه عليه السلام ، الكلام الذى عليه مسحة من العلم الإلـــهى وفيه عقبة من الكلام النبوى ؛ فأجبتهم إلى الابتداء بذلك عالماً بما فيه من عظيم النفع ومنشور الذكر ومذخور الأجر ، واعتمدت به أن أبين من عظيم قدر أمير المؤمنين عليه السلام فى هذه الفضيلة مضافة إلى المحاسن الدائرة والفضائل الجمة ، وأنه عليه

السلام انفرد ببلوغ غايتها عن جميع السلف الأولين الذين إنما يؤثر عنهم منها القليل النادر والشاذ الشارد، وأما كلامه فهو من البحر الذى لا يساجل، والجم الذى لا يحافل، وأردت أن يسوغ لى التمثيل فى الافتخار به عليه السلام بقول الفرزدق.

أولئك آبائى فجئنى بمثلهم إذا جمعتنا يا جرير المجامع

ورأيت كلامه عليه السلام يدور على أقطاب ثلاثة، أولها الخطب والأوامر، وثانيها الكتب والرسائل، وثالثها الحكم والمواعظ فأجمعت بتوفيق الله تعالى على الابتداء باختيار محاسن الخطب ثم محاسن الكتب ثم محاسن الحكم والأدب، مفرداً لكل صنف من ذلك بابا، ومفصلا فيه أوراقا، لتكون مقدمة لاستدراك ما عساه يشذ عنى عاجلا، ويقع إلى آجلا، وإذا جاء شيء من كلامه عليه السلام فى أثناء حوار، أو جواب سؤال، أو غرض آخر من الاغراض فى غير الأنحاء التى ذكرتها، وقررت القاعدة عليها، نسبته إلى أليق الأبواب به، وأشدها ملاحمة لغرضه، وربما جاء فيما أختاره من ذلك فصول غير متسقة، ومحاسن كلم غير منتظمة، لأنى أورد النكت واللمع ولا أقصد التتالى والنسق، ومن عجائبه عليه السلام التى انفرد بها، وأمن المشاركة فيها، أن كلامه عليه السلام، الوارد فى الزهد والمواعظ والتذكير والزواجر، إذا تأمله المتأمل وفكر فيه المتفكر وخلع من قلبه أنه كلام مثله ممن عظم قدره ونفذ أمره، وأحاط بالرقاب ملكه، لم يعترضه الشك فى أنه من كلام من لاحظ له فى غير الزهادة، ولا شغل له بغير العبادة، قد قبع فى كسر بيت، أو انقطع فى سفح جبل، لا يسمع إلا حسه ولا يرى إلا نفسه ولا يكاد يوقن بأنه كلام من ينغمس فى الحرب مصلتاً سيفه فيقط الرقاب ويجندل الأبطال، ويعود به ينطف دما، ويقطر مهجا، وهو مع تلك الحال زاهد الزهاد، وبدال الأبدال وهذه من فضائله العجيبة، وخصائصه اللطيفة التى جمع بها بين الأشذاذ، وألف بين الأشتات، وكثيراً ما أذكر الإخوان بها، وأستخرج عجبهم منها، وهى موضوع للعبرة بها والفكرة فيها. (إلى أن قال) ورأيت بعد، تسمية هذا الكتاب بنهج

البلاغة، إذ كان يفتح للناظر فيه أبوابها ويقرب عليه طلابها، فيه حاجه العالم والمتعلم، وبغية البليغ والزاهد؛ ويمضى فى أثنائه من الكلام فى التوحيد والعدل، وتنزيه الله سبحانه عن شبه الخلق، ما هو بلاء كل غلة وجلاء كل شبهة، ومن الله سبحانه أستمد التوفيق والعصمة، واتنجز التسديد والمعونة، وأستعيذه من خطأ الجنان قبل خطأ اللسان، ومن زلة الكلام قبل زلة القدم، وهو حسبى ونعم الوكيل.

وقال الأستاذ الإمام، أوفى لى حكم القدر بالاطلاع على كتاب نهج البلاغة مصادفة بلا تعمل، أصبته على تغير حال، وتبلبل بال وتزاحم أشغال، وعطلة من أعمال، فحسبته تسلية وحيلة للتخلية، فتصفحت بعض صفحاته، وتأملت جملا من عباراته، فى مواضع مختلفات، وموضوعات متفرقات، فكان يخيل لى فى كل مقام، أن حروبا شبت وغارات شنت، وأن للبلاغة دولة وللفصاحة صولة، وأن للأوهام عرامة وللريب دعارة، وأن جحافل الخطابة وكتائب الذرابة، فى عقود النظام وصفوف الانتظام، تنافح بالصفيح الأبلج والقويم الأملج، وتمتلج المهج برواضع الحجج، فتقتل من دعارة الوساوس وتصيب مقاتل الخوانس، فما أنا إلا والحق منتصر والباطل منكسر، ومرج الشك فى خمود وهرج الريب فى ركود، وأن مدبر تلك الدولة وباسل تلك الصولة، هو حامل لوائها الغالب، أمير المؤمنين على بن أبى طالب، بل كلما انتقلت من موضع إلى موضع، أحس بتغير المشاهد وتحول المعاهد، فتارة كنت أجدنى فى عالم يعمره من المعانى أرواح عالية فى حلل من العبارات الزاهية، تطوف على النفوس الزاكية وتدنو من القلوب الصافية، توحى إليها رشادها وتقوم منها مرادها، وتنفر بها عن مداحض المزال إلى جواد الفضل والكمال. وطورا كانت تنكشف لى الجمل عن وجوه باسرة، وأنياب كاشرة، وأرواح فى أشباح النمور ومخالب النسور، قد تحفزت للوثاب ثم انقضت للاختلاب فخلبت القلوب عن هواها، وأخذت الخواطر دون مرماها،

واغتالت فاسد الأهواء ، وباطل الآراء . وأحياناً كنت أشهد أن عقلا نورانياً لا يشبه خلقاً جسدانياً ، فصل عن الموكب الإلهى واتصل بالروح الإنسانى فخلعه ، عن غاشيات الطبيعة ، وسما به إلى الملكوت الأعلى ونحا به إلى مشهد النور الأجلى وسكن به إلى غمار جانب التقديس بعد استخلاصه من شوائب التلبيس ، وآنات كأنى أسمع خطيب الحكمة ينادى بأعلياء الكلمة وأولياء أمر الأمة ، يعرفهم مواقع الصواب ويبصرهم مواضع الارتياب ، ويرشدهم إلى دقائق السياسة ويهديهم طرق الكياسة ويرتفع بهم إلى منصات الرياسة ، ويصعدهم شرف التدبير ويشرف أبهم على حسن المصير . ذلك الكتاب الجليل هو جملة ما اختاره السيد الشريف الرضى رحمه الله من كلام سيدنا ومولانا أمير المؤمنين على بن أبى طالب كرم الله وجهه ، جمع متفرقة وسماه بهذا الاسم ، ولا أعلم اسما أليق بالدلالة على معناه منه ، وليس فى وسعى أن أصف هذا الكتاب بأزيد مما دل عليه اسمه ، ولا أن آتى بشىء فى بيان مزيته فوق ما أتى به صاحب الاختيار فى مقدمة الكتاب ، ولولا أن غرائز الجبلة وقواضى الذمة تفرض علينا عرفان الجميل لصاحبه ، وشكر المحسن على إحسانه ، لما احتجنا إلى التنبيه على ما أودع نهج البلاغة من فنون الفصاحة وما خص به من وجوه البلاغة ، خصوصاً وهو لم يترك غرضاً من أغراض الكلام إلا أصابه ولم يدع للفكر مرمى إلا جابه (إلى أن قال) وليس فى أهل هذه اللغة إلا قائل بأن كلام الإمام على بن أبى طالب هو أشرف الكلام وأبلغه بعد كلام الله تعالى وكلام نبيه ، وأغزره مادة ، وأرفعه أسلوباً ، وأجعله لجلائل المعانى ، فأجدر بالطالبين لنفائس اللغة والطامعين فى التدرج لمراقيها ، أن يجعلوا هذا الكتاب أهم محفوظهم ، وأفضل مأثورهم ، مع تفهم معانيه فى الأغراض التى جاءت لأجلها وتأمل ألفاظه فى المعانى التى صيغت للدلالة عليها ، ليصيبوا بذلك أفضل غاية وينتهوا إلى خير نهاية . والله أسأل نجاح عملى وأعمالهم وتحقيق أملى وآمالهم) اهـ .

وأما المطاعن التى وجهت فى نسبة النهج إلى علىّ عليه السلام ، وأنه

صنع الشريف الرضى : فهى ما لا يقول به عارف لتاريخ الإمام ، بصير بجواهر الكلام وكل ما أورده الطاعنون شبه لا تلبث إذا وجه إليها ضوء الحقيقة أن يتبدد ظلامها وينقشع سحابها .

فهم يستكثرون هذا المقدار من الكلام على الإمام رحمه الله حيث لم يبلغ كلام أحد من الخلفاء قبله بل ولا كلامهم الثلاثة مجتمعاً بعض ما فى النهج ، ولكنهم ناسون أو متناسون ما امتاز به رحمه الله عليهم من تملك زمام الفصاحة وقدرة التصرف فى القول ، مع فسحة أجل رافق فيه ثلاثتهم وامتد به إلى من بعدهم ، وإحاطة ظروف لم تعرض لواحد منهم ، إلى غير ذلك مما يجعلنا نستقل النهج عليه ولا نزال نطلب فوقه من قوله المزيد ، وإلا فمن منهم رضى الله عنهم تهيأت فى نفسه ناحية العلم والزهد كما تهيأت فى نفس على وهى ناحية يرجع إليها شطر كبير من خطبه ، ومواعظه ، وحكمه ، ووصاياه ، ومن منهم منى بما منى به من خلاف منذ أن بويع إلى أن قتل قد تشعبت نواحيه وتعددت مناهجه ، فكان بينه وبين الأمويين وبينه وبين الزبيريين وبينه وبين الخوارج وبينه وبين كثير من الأسر والأفراد كآل عثمان وآل طلحة وكعقيل أخيه وابن عمه عبد الله بن عباس وهذه ناحية ثانية أوسع أفقاً من الأولى وأكثر منها مأثوراً ، فيها خطب متنوعة وكتب متخالفة وحكم كانت تنطقه بها الحوادث فترسل إرسالا ، ومواعظ تنهمر منه انهمارا . فهل إذا جردنا النهج مما جاء فيه نتيجة لهاتين الناحيتين ولم نبق إلا على ما قيل فى مثل ما كان يعرض للخلفاء قبله لا نزال نستكثر ما بقى فيه ، اللهم إنى موقن بأنا نجد مأثوره فى هذه الناحية الباقية أقل من مأثورهم آحادا ، وإذن يكون استكثار الطاعنين مبنياً على غير أساس ، ملقى عن غير نظر .

وهم يطعنون معظم ما ورد فى النهج بأنه لم يرد فى غيره من الكتب المؤلفه قبله أمثال الطبرى والمسعودى ونحوهما ، وهذا قول يستقيم بعض الاستقامة لو كان عمد عامد قبل الشريف الرضى المتوفى سنة ٤٠٤ والمنتهى

من جمع النهج كما قال بآخره فى رجب سنة ٤٠٠ إلى جمع كلام على ، فهناك يكون اشتمال النهج على مالم يرد فى هذه المجموعة المفروضة حجة على الوقوف أمامه موقف الشك لتمحيصه والتثبت منه ، أما ولم يتصد لذلك قبل الرضى متصد والكتابان المذكوران وأمثالها إنما هى كتب تاريخ ليس غرض مؤلفيها إثبات مأثور ولا رواية أدب وما تذكر ما تذكر من ذلك استطراداً وكلما تعرض مناسبات الاستطراد إلى الأدب فى التاريخ ، فهذه حجة بيوت العنا كب أشد منها تماسكا وأدوم بقاء ، على أن لنا فى بعض هذه الكتب التى يحتج بخلوها من كثير مما ورد فى النهج دليلا على صحة ما فيه . فقد ذكر المسعودى المتو فى سنة ٣٤٦ فى مروج الذهب أن الناس يروون لعلى ٤٨٠ خطبة معروفة ، ومع ذلك لم يذكر هو منها فى كتابه هذا إلا النادر القليل ، فهذا إزاء ما قدمنا من أن خطب النهج نحو ثلثمائة ، دليل قاطع على أن بعض ما عده المسعودى قدضاع من النهج نفسه، ودليل على أن الشريف الرضى كان محقاً فيما ذكره بخطبته السالفة من تركه فى نهاية كل باب أوراقا فاضلة لاستدراك ما عسى أن يكون قد فاته إذا وقع له بعد ، كما كان صادقا فيما ذكره ولم نأت عليه فيما أتينا من قوله (ولا أدعى مع ذلك أن أحيط بأقطار جميع كلامه عليه السلام حتى لا يشذ عنى شاذ ولا يند ناد ، بل لا أبعد أن يكون القاصر عنى فوق الواقع إلى ، والحاصل فى ربقتى دون الخارج من يدى ، وما على إلا بذل الجهد وبلاغ الوسع ، وعلى الله سبحانه نهج السبيل ورشاد الدليل ان شاء الله) فلو كان الرضى مختلقاً لا محققاً ما ترك تلك الأوراق الفاضلة لزاد ولم يعتذر من اختلاف الرواية حيث يقول مما ننقله أيضاً : (وربما جاء فى أثناء هذا الاختيار اللفظ المردد والمعنى المكرر والعذر فى ذلك أن روايات كلامه تختلف اختلافا شديداً فربما اتفق الكلام المختار فى رواية فنقل على وجهه ، ثم وجد بعد ذلك فى رواية أخرى موضوعا غير وضعه الأول: إما بزيادة مختارة أو بلفظ أحسن عبارة ، فتقتضى الحال أن يعاد ، استظهاراً

للاختيار وغيرة على عقائل الكلام . وربما بعد العهد أيضا بما اختير أولا فأعيد بعضه سهوا أو نسياناً لا قصدا واعتمادا) . هذا على أن كلام على فى الكلام أشهر كما يقولون من ولد الفرس الأبلق فى الدهم العراب . ولقد نحلت خطبة من خطبه إلى معاوية بن أبى سفيان وهو من هو فى تدفق الفصاحة وسداد المنطق فأبى الجاحظ بعد أن أوردها فى بيانه وتبيينه تصديق تلك النحلة ، وردها إلى على بتعليق قال فيه عنها إنها أشبه بكلام على ومعانيه وبحاله منها بحال معاوية ، ووافقه على ذلك الرضى فى النهج ، فأنى له أو لغيره أن يدس على على كلاماً ذا معنى كمعانيه ، وفى بيان كبيانه .

هاتان شبهتان أثبتت الرد عليهما أنهما داحضتان ، وهناك أخريان ليستا فى حاجة إلى رد ودحض: هما الطعن فى كلامه بما فيه من دقة وصف وتنميق سجع كما يظهر ذلك فى وصفه الخفاش والطاووس والنملة ، وفى غلبة كثير من السجع على كثير من خطبه ، والمظهران كما يقول الطاعنون ليسا من روح العصر الذى كان فيه على ، ولكن القارىء لخطب الأوصاف السابقة يرى أن المعانى ليست من الدقة العلمية بالحال التى تحتاج إلى بحوث لم تعرف إلا بعد ، فما هى إلا وحى الفطر السليمة من ذوى العقول الراجحة أمثال الإمام وأقل من الإمام وهل عدا فى وصف الخفاش أنه طائر لا كالطيور ، أو جاز فى وصف الطاووس ذيله وأنه بدع فى اختلاف الألوان ، أو حاد عن أن النملة على صغرها فيها ما يلجىء العقول لى الاعتراف بعظمتها ! وكل ذلك مسوق فى القالب المعروف عن على قالب التفكير فى صنع الخالق والتدبر فى ملكوته أما كثرة السجع ، وقد تأتت منمقة لغيره من غير تكلف أمثال البديع الهمذانى فهى بعلى أولى لقرب عهده باللغة وشدة فقهه لمفرداتها وعظم قدرته على استخدامها . فما بالنا وهو لم يتقيد بالسجع تقيد المتأخرين ، ولم يظهر تكلفه فى كلامه ظهوره فى عبارات المتكلمين . ولسنا فى إجمال الرد على هاتين الشبهتين بأحق منا فى إجماله للرد على شبهتين ثالثتين هما ما كثر فى كلامه من الاطالة والاسهاب ومن سمو الفكرة ودقة الحكمة ، فليستا عن على بالغريبتين ، وقد أسفلنا عنه

ما أسلفنا من نشأة ومكانة ، إنما الغرابة كل الغرابة أن يتجرد كلامه منهما ويخرج قوله عنهما .

بقى أن نعترف بشبهتين رابعتين يخرج بهما شيء من النهج ليس لعلى. أولاهما التعريض ببعض الصحابة بمالم يعرف قبل النهج عن على مما هو مذكور فى أسفار التاريخ ، وإنما كانت معرفته حيث اشتد التشيع وأعمى حب على شيعته عن حق السلف الصالح ، فقالوا فيهم مالا يقبله عقل ولا يؤيده تاريخ ، وظنوا أن مكانة على لا ترتفع إلا بالحط من قيم هؤلاء حطا لا يقبله منصف ولا يرضى به على نفسه . وأغلب هذا النوع لا يتناول من كلام على الخطبة فالخطبة ، وإنما يأتى من هؤلاء دساً فى كلام مثبوت الرواية معروف للقدماء حتى يجوز على العقول ويصعب فيه التمييز ، مثل الذى أودع خطبته الشقشقية المعروفة بهذا الاسم من قديم عن الخلفاء الثلاثة قبله ، من تنقيص لهم وتهجين ، كأن يقول عن الصديق رحمه الله . (أما والله لقد تقمصها فلان ، وإنه ليعلم أن محلى منها محل القطب من الرحى ، ينحدر عنى السيل ولا يرقى إلى الطير) إلى أن يتمثل بقول الأعشى بعد قوله عن أبى بكر أيضا : (فأدلى بها إلى فلان بعده) ، يقصد عمر رضى الله عنه :

شتان ما يومى على كورها ويوم حيان أخى جابر

ثم يقول ، يقصدهما (فياعجبا ، بينا هو يستقيلها فى حياته إذ عقدها لآخر بعد وفاته ، لشد ما تشطرا ضرعيها ، فصيرها فى حوزة خشناء ، يغلظ كلامها ، ويخشن مسها ، ويكثر العثار فيها والاعتذار منها ، فصاحبها كراكب الصعبة ، إن أشنق لها خرم ، وإن أسلس لها تقحم . ففى الناس لعمر الله بخبط وشماس وتلون واعتراض) وكأن يقول فى رجال الشورى الذين عهد إليهم عمر باختيار الخليفة بعده (فصغى رجل منهم لضغنه ومال الآخر لصهره مع هن وهن) . يقصد بالأول سعد بن أبى وقاص ، وبالثانى عبد الرحمن بن أبى بكر ، ويقصد بالصهر عثمان الذى يقول فيه (إلى أن قام ثالث القوم نافجا حضنيه بين نثيله ومعتلفه ، وقام معه بنو أبيه يخضمون مال الله خضمة الابل نبتة الربيع ، إلى أن انتكث فتله وأجهز عليه عمله

وكبت به بطنته) فمثل هذه المعانى لا تتفق وسيرة على مع الخلفاء ، ولا تتلاءم مع ما أثر عنه فيهم من أقوال .

والثانية الاطالة الطويلة فيما لم يعرف عن على الطول فى مثله والمعروف التوسط إن لم يكن الايجاز وذلك كعهدة إلى الأشتر النخعى حين ولاه مصر ، فقد ذكره صاحب النهج فى خمس عشرة ورقة ، وهذه كمية لم تعرف ولا شىء منها عن على فى عهد من العهود ، حتى إلى من لم يكونوا كالأشتر محل ثقة منه فى معرفتهم للأمور ، وخبرتهم بالأيام واعتقاده ذلك فيهم ، وهذا محمد بن أبى بكر الذى يقول فيه للأشتر حين استقدمه ليوليه مصر مكانه : (وكنت وليت محمد بن أبى بكر مصر ، فخرجت عليه بها خوارج ، وهو غلام حدث ليس بذى تجربة للحرب ولا بمجرب للأشياء) لم يزد فى عهده إليه حين ولاه مع حاجته إلى المزيد على عشرة سطور ، كما رواه الطبرى وعلى ورقة ونصفها كما هو ثابت ببعض زيادات فى النهج ، فكيف يكون عهده إلى الأشتر الذى يعتقد فيه ما يعتقد مما ليس معه فى حاجة إلى إيضاء ، بالغا من الطول المبلغ الذى ذكرنا ! وما بالنا إذا أضفنا إلى ذلك أن الطبرى حين تكلم على تولية الأشتر ، لم يذكر من على له عهدا ، فإن علياً لم يك منه للأشتر سوى قوله : (ليس لها غيرك . اخرج رحمك الله ، فانى إن لم أوصك اكتفيت برأيك واستعن بالله على ما أهمك ، فاخلط الشدة باللين ، وارفق ما كان الرفق أبلغ ، واعتزم الشدة حين لا يغنى عنك إلا الشدة) ثم بعث معه بكتابه إلى أهل مصر ، وهو كتاب موجز ذكره الطبرى أيضاً . ولعل قائلا يقول إن الطبرى ربما استطال العهد فترك إثباته ولكن ذلك لا يتفق مع عادته فى إثبات الطوال ، فقد أثبت عهد طاهر بن الحسين لابنه عبد الله حين ولاه المأمون الرقة ومصر وهو باسق الطول ، ولعلنا لا نخرج إذا قلنا إن عهد الأشتر صنع على احتذاء هذا العهد ، ولكن غير جازمين فى ذلك أن الذى صاغه الشريف الرضى ، إذ يجوز أن يكون قد صاغه غيره من الشيعة قبل ، وأثبته هو على أنه لعلى . وإنما قلنا ذلك عن

العهدين ، لأنهما فوق تقارب الأسلوب فيهما ، جاءت معانيهما واحدة متسقة ، وروح العصر الذى كان فيه المأمون ، حيث تنوعت قواعد السياسة العربية ، ودخلها مالم يكن فيها مما كان للأمم المتحضرة القديمة وبخاصة الفرس .

وهناك شبهة ثالثة ليست بأقل من هاتين ، تميزا لما دخلت فيه من كلام عن كلام على : هى أن ترى الروح الصوفى بما كنفه من فلسفة متجلياً ، وأسلوب علم الكلام بما وضع له من مصطلحات باديا ؛ مما لم يعرف عنهما إلا فى العصر العباسى ، حيث تقدمت هذه العلوم فوضعت أصولها وفرعت فروعها ، وهذا يظهر فى بعض خطبه ظهوراً بارزاً . كما فى خطبة بدء الخلق ، على أن لنا أن نضيف إلى هذه الشبهة أخرى مميزة هى ماتراه أحيانا من سجع لازم متكلف ، كما فى خطبته فى التقوى ص ٤٣٣ ج ١ ، لأن ذلك بالمتأخرين أشبه ، وعن أسلوب على أبعد . فهذه شبه أقررناها ولكنها لا تخرج من النهج إلا مقداراً لا يطعن فى نسبة مجموعه إلى أمير المؤمنين ، فاتخذها مسبارا تخرج به الزائف القليل ، وما عداه هو الصحيح الكثير .

رابعاً — موقفه من الشعر

إن موقفنا إزاء موقف على رحمه الله من الشعر ، ونسبة الديوان المزعوم منه إليه — معاكس لما كان من موقفنا إزاء النهج ، إذ كنا هناك نثبت له النهج إلا ما قام الدليل على اختلاقه وهو قليل ، وهنا ننفى الديوان عنه إلا ما قام الدليل على ثبوته وهو أقل . ولسنا فى هذا النفى بحاجة إلى المجهود الذى احتجنا إليه فى ذاك الإثبات ، لأن مجرد الاطلاع على الديوان يوحى إلى المطلع بأمور تجعله موقناً أنه ليس لعلى ، وأن عليا منه براء وهذا بعضها : —

١ — صدر هذا الديوان غفلا من النسبة إلى جامعه حتى جهلناه وجهلنا العصر الذى جمع فيه ، كأن ذلك الجامع أحس من نفسه الاختلاق

فأشفق أن ينال اسمه من النقد ما يقرن عادة بأسماء المختلقين . على أنا مع هذا نكاد نجزم بأنه متأخر الزمن إلى ما بعد العصر العباسى الأول على الأقل لاحتوائه كثيراً من الأشعار المتأخرة عن ذلك العصر .

٢ — اشتمل على كثير من الشعر المعروف النسبة إلى غير على من الشعراء ، قدماء ومحدثين ، فمن شعر القدماء بيتا طرفة بن العبد .

كل خليل كنت خالته ... لا ترك الله له واضحه
كلهم أروغ من ثعلب ... ما أشبه الليلة بالبارحه

ومن شعر المحدثين أبيات أبى العتاهية :

لا تأمن الموت فى طرف ولا نفس ... ولو تمتعت بالحجاب والحرس
واعلم بأن سهام الموت نافذة ... فى كل مدرع منا ومترس
ما بال دينك ترضى أن تدنسه ... وثوب جسمك مغسول من الدنس
ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها ... إن السفينة لا تجرى على اليبس

وأمثال هذين فى الديوان كثيرة ، بحيث تتناول منه الكم الوفير . وكثيراً ما كان الجامع يحس بافتضاح الأمر وخصوصاً فى الأبيات الطويلة فيقول مثلا وقد تنسب هذه الأبيات إلى فلان ويذكر اسم قائلها كقوله عن أبيات لابن الحضرمى صفحة ٦ ولبعض بنى سليم ص ٧ ولفاطمة ص ٢٦ ، ولحصين بن المنذر ص ٥٥ ، على أنه مع ذلك كان لا يصرح باسم الشاعر فى كل ما أخذ عنه فابن الحضرمى هذا نقل عنه لعلى من غير نسبة أبياته المشهورة .

وحى ذوى الأضغان تسب عقولهم ... تحيتك الحسنى وقد يرقع النعل
فإن دحسوا بالكره فاعف تكرما ... وإن خنسوا عنك الحديث فلا تسل
فإن الذى يؤذيك منه سماعه ... وإن الذى قالوا وراءك لم يقل

وعلى أنه أيضاً ، كان يترك هذه النسبة حتى فى القصائد المطولة غير المشكوك فى أصحابها كالقصيدة الزينبية المعروفة لصالح بن عبد القدوس المثبتة فى آخر الديوان .

٣ — جاء بعض ما فيه طعناً لا يصح صدوره من على فى الخلفاء قبله على النحو الذى بينا فى رد بعض المنثور من أجله ، كقوله من أبيات ص ٣٩ :

وأسكت عن أشياء لو شئت قلتها ... وليس علينا فى المقال أمير
أصبر نفسى باجتهادى وطاقتى ... وإنى بأخلاق الجميع خبير

وكقوله وهو أصرح ص ٣٢ .

لنا ما تدعون بغير حق ... إذا ميز الصحاح من المراض
عرفتم حقنا فجحدتموه ... كما عرف السواد من البياض
كتاب الله شاهدنا عليكم ... وقاضينا الإله ونعم قاض

وكقوله عن أبى بكر ، وهو ظاهر الخروج عن عقيدة على فيه :

تعلم أبا بكر ولاتك جاهلا ... بأن علياً خير حاف وناعل
وأن رسول الله أوصى بحقه ... وأكد فيه قبله فى الفضائل
فلا تبخسنه حقه واردد الورى ... إليه فإن الله ليس بزائل

٤ — امتلأ بأشعار تشتمل على ما لم يعرف القول فيه ، إلا فى عصور المتأخرين ، كقوله من أبيات ص ٤٢ عن المهدى المنتظر

بنى إذا ما حاشت الترك فانتظر ... ولاية مهدى يقوم فيعدل

وكقصيدته ص ٤٣ فى التوسل والضراعة ، مما لم يعرف إلا فيما عرف بعد بأشعار الأوراد ، ومطلعها :

لك الحمد ياذا الجود والمجد والعلا ... تباركت تعطى من تشاء وتمنع

وهى طويلة . ويلى هذا البيت فيها ٢٤ بيتاً كلها مبدوءة بقوله يا إلهى .

٥ — انحط كثير من الشعر الذى به إلى درك لا يستحق معه أن يسمى شعراً ، بله نسبته إلى على من حيث ابتذال المعانى ، أو تفكك الأساليب ، أو هما معاً .

فمن الأول قوله على قبر السيدة فاطمة

حبيب ليس يعدله حبيب ... وما لسواه فى قلبى نصيب

حبيب غاب عن عيني وجسمي وعن قلبي حبيب لا يغيب

ومن الثانى قوله :

العجز عن درك الأدراك إدراك والبحث عن سر ذات السر إشراك

يهدى اليه الذى منه اليه هدى مستدركا وولى الله مدراك

ومن الثالث مقطعته ص ٣ التى يذكر فيها الأيام وما ينبغى أن يكون فى كل يوم من الأعمال ، وأولها :

لنعم اليوم يوم السبت حقا لصيد إن أردت بلا امتراء

هذا بعض ما يقال فى تنزيه على عن معظم ما بهذا الديوان من شعر ، بقطع النظر عن أن المقدار الذى يحتويه وهو نحو ألف وخمسمائة بيت لكثرته كاف وحده لهذا الطعن . ولكن ليس معنى ذلك أن علياً لم يكن يقول الشعر أو أن كل ما بهذا الديوان ليس له ، كلا فان علياً رحمه الله كان يقول الشعر كسائر الخلفاء ، وقد سبق أنه أشعرهم ، ولكن لا إلى الحد الذى يعتبر فيه من الشعراء ، أو الذى يسمح له بأن يصدر مثل هـــذا المقدار ، على أن ما قاله حقاً لا يعدو البيت والأبيات فى لفظ يتفق مع درجته فى الفصاحة ، ومعنى أشبه بما هو معروف عنه من المعانى . وكل ما هو مروى له فى كتب التاريخ كالطبرى والمسعودى ومجامع الأدب كالكامل والعقد من شعر وأراجيز يؤيد ما نقول أتم تأييد ومعظم هذا مثبت فى الديوان .

ومن أمثلة ذلك قوله وهو ما سنختتم به الترجمة :

ولما رأيت الخيل تقرع بالقنا فورسها حمر العيون دوامى

وأقبل رهج فى السماء كأنه غمامة دجن أو عراض قتام

ونادى ابن هند بالكلاب ويحصب وكندة مع لخم وحنت جذام

تيممت همدان الذين هم هم إذا ناب أمر جنتى وسهامى

إلى أن قال بعد أبيات فى وصف شجاعتهم وإخلاصهم هذا البيت الأخير منها

فلو كنت بوابا على باب جنة لقلت لهمدان ادخلوا بسلام

جميـــــل بثينة

أولا ــ نسبه ونشأته

هو جميل بن عبد الله الملقب بصباح بن معمر العذرى ، وعذرة من قضاعة باتفاق ، وقضاعة من حمير على الصحيح فهى حميرية لا معدية كما يتوهم بعض النسابين ، وما كان يعنينا من أمر هذا التحقيق شئ لولا أن جميلا أخذ برأى هذا البعض فجعل نفسه حين يفخر معديا لا حميريا كان يقول :

أنا جميل فى السنام من معـــد فى الذروة العلياء والعيص الأشد

وليست هذه النسبة مما ينفرد به جميل بل يشركه فيها معظم شعراء قضاعة ولا سيما الإسلاميون منهم لما كان من مجد عدنان على قحطان فى الإسلام ، وإنما نشأت الشبهة فى ذلك من أن معد بن عدنان تزوج من أم قضاعة وهى حامل فيه من أبيه مالك الحميرى فولدته على فراشه فتبناه فنسب إليه فخيل أنه أخو نزار وليس الأمر كذلك بل الصحيح ما ذكرنا من أن عذرة وكذا أخواتها الست المتفرعات من قضاعة وهن جرم ونهد وجهينة وبلى وبهرام وكلب قحطانيات لا عدنانيات . ومساكن عذرة قبيلة جميل كانت بالحجاز وكان فى عذرة جمال وعفة فكثر فيها المحبون المغرمون حتى نسب الغشق والتتيم إليها فقيل لصادق الحب والغرام «الهوى العذرى» . قيل لرجل منهم ، ما بال العشق يقتلكم يابنى عذرة فقال لأن فينا عفة وجمالا ، وقيل لآخر منهم ما بال الرجل منكم يموت فى هوى امرأة إنما ذلك ضعف فيكم يابنى عذرة فقال أما والله لو رأيتم النواظر الدعج تحتها المباسم الفلج فوقها الحواجب الزج لاتخذتموها اللات والعزى .

وكان بنو قيس رهط جميل وبنو الأحب رهط بثينة كابنى العم فى نسبتهما إلى عذرة ، وكانوا يقيمون بوادى القرى بالحجاز وهو واد يزيد بجوه فى جمال عذرة جمالا وفى هواها العفيف تأججاً واشتعالا ، وإذ نشأ

جميل وبثينة يرعيان لأبويهما فى هذا الوادى فلا غرو وفيهما مع ذلك فرط جمال وعفة أن تعلق حبالها وأن تمتد أواصر الهوى بينهما .

ثانيا — سيرة هواه ومكانة نسيبه

١ — أقبل جميل يوما بإبله فأوردها واديا يقال له بغيض ثم اضطجع وأرسلها مصعدة ، وكان أهل بثينة بذنب الوادى فأقبلت بثينة وجارة لها واردتين فمرتا على فصال له بروك فعرقنهن بثينة وهى إذ ذاك جويرية صغيرة ، فسبها جميل فسبته فلح إليه سبابها فأحبها وفى ذلك يقول ، وهذا أول بوادر الهوى بينهما :

وأول ما قاد المودة بيننا ... بوادى بغيض يابثين سباب
وقلنا لها قولا فجاءت بمثله ... لكل كلام يابثين جواب

أما أول ما عرف العشق عنهما فكان سببه أنه خرج فى يوم عيد والبنات إذ ذاك يتزين ويبدو بعضهن لبعض ويبدون كذلك للرجال ، فوقف على بثينة وأختيها أم الحسين وسليمى وبنتى خالتها ليلى ونجيا ، ومعهن غيرهن من بنات الأحب فرأى منظراً أعجبه فجلس وكان نظره صوب بثينة لا يحول ، فعرف فتيان بنى الأحب وفيهم زوج أختها أم الحسين جواس بن قطبة ابن عمها وأخوه عبيد الله ، فحب جميل لبثينة فى نظره ووجدوا عليه وعرف هو ذلك فراح وهو يقول :

عجل الفراق وليته لم يعجل ... وجرت بوادر دمعك المتهلل
لن تستطيع إلى بثينة رجعة ... بعد التفرق دون عام مقبل

قال ذلك واليأس يتملك عليه نفسه غير أن بثينة وقد بلغها شغفه بها ونسيبه فيها مع ما علقت منه بغرام أيضا ، آلت لا يأتيها على خلاء إلا خرجت إليه لا تتوارى منه فكان يأتى عند غفلات الرجال فيتحدث إليها على خلاء ، أو ومعها أختاها وابنتا خالتها ويتحدثن إليه ، حتى نمى ذلك إلى رجالهن وكانوا قوما غيارى فرصدوه بجماعة حتى إذا جاء على ناقته

الصهباء ووقف على بثينة وأختيها ينشدهن :

حلفت برب الراقصات إلى منى ... هوى القطا يحتزن بطن دفين
لقد ظن هذا القلب أن ليس لاقياً ... سليمى ولا أم الحسين لحين
فليت رجالا فيك قد نزروا دمى ... وهموا بقتلى يابثين لقونى

تكاثروا عليه ولكنه فاتهم بناقته وهو يقول عن جواس وأخيه وكانا على الراصدين :

إذا جمع الإثنان جمعاً رميتهم ... بأركانها حتى تخلى سبيلها

٢ — عاود جميل الكرة والكرات على وعد من بثينة وعلى غير وعد فحدث أن ذهب إلى موضع على موعد منها فمر به أعرابى استضاف قومها فأنزلوه فقال لهم : قد رأيت فى بطن هذا الوادى ثلاثة نفر متفرقين متوارين فى الشجر ، وأنا خائف عليكم أن يسلبوا بعض إبلكم . فعرفوا أنه جميل وصاحباه[1] فخرسوا بثينة أن تخرج ومنعوها الوفاء ، فلما أسفر الصبح انصرف جميل كئيباً سيء الظن ورجع إلى أهله ، فجعل نساء الحى يقرعنه بذلك ويقلن له إنما حصلت منها على الباطل والكذب والغدر ، وغيرها أولى بوصلك منها كما أن غيرك يحظى بها ، فقال من قصيدة تؤيد صدق هواه لها وحسن اعتذاره عنها .

صادت فؤادى يا بثين حبالكم ... يوم الحجون وأخطأتك حبائلى
منيتنى فلويت ما منيتنى ... وجعلت عاجل ما وعدت كآجل
وأطعت فى عواذلا فهجرتنى ... وعصيت فيك وقد جهدن عواذلى
حاولننى لأبت حبل وصالكم ... منى ولست وإن جهدن بفاعل
فرددتهن وقد سعين بهجركم ... لما سعين له بأفوق ناضل
يعضضن من غيظ على أناملا ... وودت لو يعضضن صم جنادل
ويقلن إنك يا بثين بخيلة ... نفسى فداؤك من ضنين باخل

---

(١) هما روق ومسعود ابنا عمه ، وكان يلزمانه إذا زارها خوفاً عليه وإشفاقا ، كما كان يلقاهما إذا لم يزرها ليسريا عنه ويخففا من وجده .

ويقلن إنك قد رضيت بباطل ... منها فهل لك فى اجتناب الباطل
ليزلن عنك هواى ثم يصلنى ... وإذا هويت فما هواى بزائل
ولباطل مما أحب حديثه ... أشهى إلى من البغيض الباذل
ولرب عارضة علينا وصلها ... بالجد تخلطه بقول الهازل
فأجبتها فى القول بعد تستر ... حبى بثينة عن وصالك شاغلى
لو كان فى صدرى كقدر قلامة ... فضلا وصلتك أو أتتك رسائلى
أبثين إنك قد ملكت فأسجعى ... وخذى بحظك من كريم واصل

وهذه أخرى له فى هذا المعنى النبيل تعد بحق من خير المسيب روعة وجلالا ، يقول فيها وكانت بثينة تكنى أم المسور .

يا صاح عن بعض الملامة أقصر ... إن المنى للقاء أم المسور
لو قد تجن كما أجن من الهوى ... لعذرت أو لظلمت إن لم تعذر
وكأن طارقها على علل الكرى ... والنجم وهنا قد دنا لغور
يستاف ريح مدامة معلولة ... بفتيت مسك أو سحيق العنبر
إنى لأحفظ غيبكم ويسرنى ... إذ تذكرين بصالح أن تذكرى
ويكون يوم لا أرى لك مرسلا ... أو نلتقى فيه على كأشهر
يا ليتنى ألقى المنية بغتة ... إن كان يوم لقائكم لم يقدر
أو استطيع تجلداً عن ذكركم ... فيفوق بعض صبابتى وتفكرى
لا تحسبى أنى هجرتك طائعاً ... حدث لعمرك رائع أن تهجرى
فلتبكين الباكيات وإن أبح ... يوما بسرك معلنا لم أعذر
يهواك ماعشت الفؤاد فإن أمت ... يتبع صداى صداك بين الأقبر
إنى اليك بما وعدت لناظر ... نظر الفقير إلى الغنى المكثر
يعد الديون وليس ينجز موعدا ... هذا الغريم لنا وليس بمعسر
ما أنت والوعد الذى تعدينى ... إلا كبرق سحابة لم تمطر
قلبى نصحت له فرد نصيحتى ... فتى هجرته فمنه أكثرى

٣ — وعلى ذكر ابنى عمه السالفين قيل إنه أقام مدة لا يلم ببثينة إثر شكاة

أهلها وتحذير أهله فأصابه من ذلك وجد مبرح وألم حزاز فشكا ذلك إلى ابنى عمه هذين وأنشدهما :

فقدتك من نفسى شعاع فانى ... نهيتك عن هذا وأنت جميع
فقربت لى غير القريب وأشرفت ... هناك ثنايا ما لهن طلوع
يقولون صب بالغوانى موكل ... وهل ذاك من فعل الرجال بديع
وقالوا رعيت اللهو والمال ضائع ... فكالناس فيهم صالح ومضيع

على أنه كان يلقى منهما أحيانا بعض اللوم والتعنيف رجاء صرف هواه عنها كما حدث حين طلب منهما الزيارة فى قوله :

زورا بثينة فالحبيب مزور ... إن الزيارة للمحب يسير
إنى عشية رحت وهى حزينة ... تشكو إلى صبابة لصبور
وتقول بت عندى فديتك ليلة ... أشكو إليك فان ذاك يسير
غراء مبسام كأن حديثها ... در تحدر نظمه منثور
مخطوطة المتين مضمرة الحشا ... ريا الروادف خلقها ممكور
لاحسنها حسن ولا كدلالها ... دل ولا كوقارها توقير
إن اللسان بذكرها لموكل ... والقلب صاد والخواطر صور
ولئن جزيت الود منى مثله ... إنى بذلك يابثين جدير

فان روقا قال له حينئذاك : إنك لعاجز ضعيف فى استكانتك لهذه المرأة وترك الاستبدال بها مع كثرة النساء ووجود من هو أجمل منها وإنك منها بين فجور أرفعك عنه أو ذل ، لا أحبه لك أو كمد يؤديك إلى التلف أو مخاطرة بنفسك لقومها إن تعذرت لها بعد أعذارهم اليك ، وان صرفت نفسك عنها وغلبت هواك فيها وتجرعت مرارة الحزم حتى تألفها وتصبر نفسك عليها طائعة له أو كارهة ألفت ذلك وسلوت ، فبكى جميل وقال يا أخى لو ملكت اختيارى لكان ما قلت صوابا ولكن لا أملك لى اختيارا وما أنا إلا كالأسير لا يملك لنفسه نفعاً ثم قال :

أبى القلب إلا حب بثنة لم يرد ... سواها وحب القلب بثنه لايجدى

لقد لامنى فيها أخ ذو قرابة ... حبيب اليه من ملامته رشدى
وقال أفق حتى متى أنت هائم ... ببثنة فيها قد تعيد وقد تبدى
فقلت له فيها قد قضى الله ما ترى ... على وهل فيما قضى الله من رد
فإن يك رشدا حبها أو غواية ... فقد حثته ما كان منى على عمد
لقد لج ميثاق من الله بيننا ... وليس لمن لم يوف لله من عهد
فلا وأبيها الخير ماخنت عهدها ... ولا لى علم بالذى فعلت بعدى
وما زادها الواشون إلا كرامة ... على وما زالت مودتها عندى
أفى الناس أمثالى أحب فخالهم ... كحالى أم احببت من بينهم وحدى
وهل هكذا يلقى المحبون مثل ما ... لقيت بها أم لم يجد أحد وجدى

٤ — ومما كان يسعده فى لقـــاء بثينة ما عرف عنه وعنها من عفة حب وطهارة ذيل فقد كان يقنع منها بالقليل كما يقول :

وإنى لأرضى من بثينة بالذى ... لو أبصره الواشى لقرت بلابله
بلا وبألا استطيع وبالمنى ... وبالأمل المرجو قد خاب آمله
وبالنظرة العجلى وبالحول تنقضى ... أواخره لا نلتقى وأوائله

وكان أبوها وأخوها يغضبان عنها لذلك ، غير أن هذا التغاضى منهما ما كان ليدوم بعد أن تزوجت من نبيه بن الأسود العذرى ، فان نبيها حملهما على أن يطارداه معه ففعلا وشقت على جميل الزورات وضاقت فى عينه الأرض على رحبها ، فكان يصعد قور الأرض[1] يتنسم الريح من نحو حيها ويقول :

أيا ريح الشمال أما ترينى ... أهيم وأننى بادى النحول
هبى لى نسمة من ريح بثن ... ومنى بالمهبوب إلى جميل
وقولى يابثينة حسب نفسى ... قليلك أو أقل من القليل

ولكن لم يك ذلك ليشفى من جميل غلة ، فكان يتحيل فى لقائها تارة يخفق وأخرى يصيب ، فان أخفق قص حاله قصص المغرم المسلوب وإن أصاب حمد المغبة وسكت أو ألم به فى الشعر الإلمام اليسير .

(١) هى الجبال الصغيرة أو الصخور العظيمة .

بعث اليها مرة لتأتيه على موعد فعلم بذلك أهلها فحالوا بينها وبين الموافاة فأقام جميل ما أقام ثم انصرف وهو يقول قول الحائر فى تصوير ودها

خليلى عوجا اليوم حتى تسلما ... على عذبة الأنياب طيبة النشر
ألما بها ثم اشفعا لى وسلما ... عليها سقاها الله من سائغ القطر
وبوحا بذكرى عند بثنة وانظرا ... أترتاح يوماً أم تهش إلى ذكرى
فان لم تكن تفرى قوى الود بيننا ... ولم تنس ما أسلفت من سالف الدهر
فسوف يرى منها اشتياق ولوعة ... ببين وغرب من مدامعها يجرى
وإن تك قد حالت عن العهد بيننا ... وأصغت إلى قول المؤنب والمزرى
فسوف يرى منها صدود ولم تكن ... بنفسى من أهل الخيانة والغدر
أعوذ بك اللهم أن تشحط النوى ... ببثنة فى أدنى حياتى ولا حشرى
وجاور إذا ما مت بينى وبينها ... فياحبذا موتى إذا جاورت قبرى
عدمتك من حب أما منك راحة ... ومابك عى من توان ولا فتر
ألا أيها الحب المبرح هل ترى ... أخا كلف يغرى بحب كما أغرى
جديدك لا يبلى وقد بلى الهوى ... ولا ينتهى حتى ببثنة للزجر
هى البدر حسناً والنساء كواكب ... وشتان ما بين الكواكب والبدر
لقد فضلت حسناً على الناس مثلما ... على ألف شهر فضلت ليلة القدر

وفى هذه القصة أو فى مثيلة لها يقول أيضا

ألم تسأل الدار القديمة هل لها ... بأم حسين بعد عهدك من عهدى
سل الركب هل عجنا بمغناك مرة ... صدور المطايا وهى موقرة تخدى
وهل فاضت العين الشروق بمائها ... من أجلك حتى اخضل من دمعها بردى
وانى لأستجرى لك الطير جاهداً ... لتجرى بيمن من لقائك من سعد
وانى لأستبكى إذا الركب غردوا ... بذكراك أن يحيا بك الركب إذ تخدى
فهل تجزينى أم عمرو بودها ... فان الذى أخفى بها فوق ما أبدى
وكل محب لم يزد فوق جهده ... وقد زدتها فى الحب منى على الجهد
إذا ما دنت زدت اشتياقاً وإن نأت ... جزعت لنأى الدار عنها وللبعد

وظفر مع هذا التشديد مرة برؤيتها وأرته إياها أم منظور وهى عجوز ائتمنوها عليها فخرج وهو يقول :

ما أنس لا أنس منها نظرة سلمت بالحجر يوم جلتها أم منظور

وقد روى عن الهيثم بن عدى فى هذه الجلوة أن رجلا أنشد مصعب بن الزبير هذا البيت فقال لوددت أنى عرفت كيف جلتها فقيل له إن أم منظور هذه حية فكتب فى حملها اليه مكرمة ، فلما وصلته قال لها أخبرينى كيف كانت هذه الجلوة فقالت ، ألبستها قلادة بلح ومخنقة بلح واسطتها تفاحة وضفرت لها شعرها وجعلت فى مفرقها شيئاً من الخلوق ،

٥ — ولما كان كثير رواية جميل وكان به إلى عزة بعض ما لجميل فى بثينة ، كان من مسعديه فى إرساله إلى بثينة حيناً وفى مبادلة الهوى وبث الشكوى حينا ، لقيه جميل مرة فقال له من أين أقبلت وإلى أين تحضر قال من عند أبى الحبيبة إلى الحبيبة يريد بثينة وعزة ، فقال له لابد أن ترجع عودك على بدئك ، فتتخذ لى موعداً من بثينة ، قال عهدى بها الساعة وأنا أستحيى أن أرجع ، قال لابد من ذلك ، قال فمتى عهدك بها ، قال بأسفل وادى الدوم وقد خرجت ومعها جارية لها تغسل ثيابها ، فعاد كثير إلى أبى بثينة فقال له ما ردك ، قال ثلاثة أبيات عرضت لى فأحببت أن أعرضها عليك قال هاتها فأنشده وبثينة تسمع :

فقلت لها يا عز أرسل صاحبى إليك رسولا والموكل مرسل
بأن تجعلى بينى وبينك موعدا وأن تأمرينى ما الذى فيه أفعل
وآخر عهدى منك يوم لقيتنى بأسفل وادى الدوم والثوب يغسل

ففهمت بثينة ثم خرجت إلى هذا الوادى ومعها لبلى ونجيا ابنتا خالتها ، وكانت قد أنست بهما واطمأنت إليهما ، فتقابلن مع جميل وكثير فكان كثير يقول ما رأيت مجلساً قط أحسن من ذلك ولا مثل علم أحدهما بضمير الآخر ما أدرى أيهما كان أفهم .

واجتمعا مرة فتذاكرا النسيب فقال كثير يا جميل أترى بثينة لم تسمع

بقولك :

يقيك جميل كل سوء أما له ... لديك حديث أو إليك رسول
وقد قلت فى حبى لكم وصبابتى ... محاسن شعر ذكرهن يطول
فإن لم يكن قولى رضاك فعلمى ... هبوب الصبا يابثن كيف أقول
فما غاب عن عينى خيالك لحظة ... ولا زال عنها والخيال يزول

فقال جميل أترى عزة يا كثير لم تسمع بقولك .

يقول العدا يا عز قد حال دونكم ... شجاع على ظهر الطريق مصمم
فقلت لها والله لو كان دونكم ... جهنم ما راعت فؤادى جهنم
وكيف يروع القلب يا عز رائع ... ووجهك فى الظلماء للسفر معلم
وما ظلمتك النفس يا عز فى الهوى ... فلا تنقمى حبى فما فيه منقم

فبكيا قطعة من الليل ثم انصرفا .

٦ — وكان جميل لا يزال يسرى على نفسه ، يتلمس الحيلة أو يتعرض للحين فى زيارة بثينة ، مدفوعاً إلى ذلك بالوجد القاسى والهوى الحزاز . جاء إلى بثينة ليلة فى ثياب راع فوجد عندها ضيفانا فانتبذ ناحية فسألته من أنت فقال مسكين مكاتب فعشت ضيفانها وعشته وحده ثم جلست هى وجارية لها على صلائهما واضطجع القوم منتحين فقال جميل :

هل البائس المقرور دان فمصطل ... من النار أو معطى لحافا فلابس

فقالت لجاريتها صوت جميل والله اذهبى فانظرى ، فرجعت اليها تقول هو والله جميل فبعثتها فجاءت به فأقام ليلته ثم خرج . وهجم عليها ذات ليلة وقد وجد غفلة فقالت له أهلكتنى والله وأهلكت نفسك ويحك أما تخاف فقال لها هذا وجهى إلى الشام إنما جئتك مودعاً وبكى وبكت ، فقال وهو يبكى

ألا لا أبالى جفوة الناس ما بدا ... لنا منك رأى يابثين جميل
ومالم تطيعى كاشحاً أو تبدلى ... بنا بدلا أو كان منك ذهول
وانى وتكرارى الزيارة نحوكم ... بثين لذو هجر بثين يطول
وإن صباباتى بكم لكثيرة ... بثين ونسيانيكم لقليل

وكانت رحلته هذه إلى الشام غير رحلة له سابقة إلى اليمن حين استعدى قوم بثينة عليه مروان بن الحكم والى المدينة لمعاوية ، فأنذره ليهدرن دمه أو ليقطعن لسانه ، فلحق بأخواله جذام وهو يقول :

أتانى عن مروان بالغيب أنه ... مقيد دمى أو قاطع من لسانيا
ففى العيس منجاة وفى الأرض مذهب ... إذا نحن رفعنا لهن المثانيا

وأقام هناك حتى عزل مروان فعاد إلى موطنه وله فى هذا الهجر نسيب ، منه قوله .

سقى منزلينا يا بثين بحاجر ... على الهجر منا صيف وربيع
ودورك يا ليلى وإن كن بعدنا ... بلين بلى لم تبلهن ربوع
وخيماتك اللاتى بمنعرج اللوى ... لقمريها بالمشرقين سجيع
وإنى من ان يعلى بها اللوم أو ترى ... بدار أذى من شامت لجزوع

ومنه قوله

ألم خيال من بثينة طارق ... على النأى مشتاق إلى وشائق
سرت من تلاع الحجر حتى تخلصت ... إلى ودنى الأشعرون وغافق
كأن فتيت المسك خالط نشرها ... تعل به أردانها والمرافق
تقوم إذا قامت به عن فراشها ... ويغدو به من حضنها من تعانق

ومنه أيضا :

ألا لا أرى إلا بثينة للقلب ... بوادى بدى لا بحسمى ولا الشعب
ولا ببراق قد تيممت فاعترف ... لما أنت لاق أو تنكب عن الركب
أفى كل يوم أنت محدث صبوة ... تموت لها بدلت غيرك من قلب

ولما عاد من اليمن عاد إلى ما كان فيه من تردد وزيارات فتأذى لذلك آل بثينة وأعذروا إلى أهله وكانوا متجاورين ، فمشت مشيخة الحى إلى أبى جميل وناشدوه الله والرحم أن يكف ابنه عما يتعرض له ويفضحهم به فى فتاتهم ، فوعدهم كفه ومنعه ما استطاع ثم انصرفوا فدعا به أبوه فقال يا بنى حتى متى أنت عمه فى ضلالك ، وأخذ ينفره من بثينه بأنهـــا تغرر به وتخلص

لزوجها دونه وبأن فى النساء عنها عوضا ، فقال له الرأى كما رأيت ولكن هل رأيت قبلى أحدا قدر أن يدفع عن قلبه هواه ، والله لو قدرت أن أمحو ذكرها من قلبى أو أزيل شخصها عن عينى لفعلت ولكن لا سبيل إلى ذلك وإنما هو بلاء بليت به لحين قد أتيح لى ، وأنا أمتنع من طروق هذا الحى ولو مت كمدا وهذا جهدى ومبلغ ما أقدر عليه ، ثم قام وهو يبكى ويقول محاولا فى غير طائل الصبر عنها والسلوان

ألا من لقلب لا يمل فيذهل ... أفق فالتعزى عن بثينة أجمل
سلا كل ذى ود علمت مكانه ... وأنت بها حتى الممات موكل
فما هكذا أحببت من كان قبلها ... ولا هكذا فيما مضى كنت تفعل
فيا قلب دع ذكرى بثينة إنها ... وإن كنت تهواها تضن وتبخل
وقد أيأست من نيلها وتجهمت ... وللبأس إن لم يقدر النيل أمثل
وإلا فسلها نائلا قبل بينها ... وأبخل بها مسئولة حين تسأل
وكيف ترجى وصلها بعد بعدها ... وقد جذ حبل الوصل ممن تؤمل
وإن التى أحببت قد حيل دونها ... فكن حازما والحازم المتحول
فقى اليأس ما يسلى وفى الناس خلة ... وفى الأرض عمن لا يواتيك معزل
بدا كلف منى بها فتثاقلت ... وما لا يرى من غائب الوجد أفضل
هبينى بريا نلته بظلامة ... عفاها لكم أو مذنب يتنصل
قناة من المران ما فوق حقوها ... وما تحته منها نقا يتهيل

ولكنه عاد فعدل عن هذا التعزى بقوله من الوزن والروى

أعن ظعن الحى الألى كنت تسأل ... بليل فردوا عيرهم وتحملوا
فأمسوا وهم أهل الديار وأصبحوا ... ومن أهلها الغربان بالدار تحجل
على حين ولى الأمر عنا وأسمحت ... عصا البين وانبت الرجاء المؤمل
فما هو إلا أن أهيم بذكرها ... ويحظى بجدواها سواى ويجذل
وقد أبقت الأيام منى على العدا ... حساما إذا مس الضريبة يفصل
ولست كمن إن سيم ضيما أطاعه ... ولا كامرىء إن عضه الدهر ينكل

لعمرى لقد أبدى لى البين صفحة ... وبين لى ما شئت لو كنت أعقل
وآخر عهدى من بثينة نظرة ... على موقف كادت من البين تقتل
فلله عيناً من رأى مثل حاجة ... كتمتكها والنفس منها تململ
وإنى لأستبكى إذا ذكر الهوى ... اليك وإنى من هواك لأوجل
نظرت بيشر نظرة ظلت أمترى ... بها عبرة والعين بالدمع تكحل
إذا ما كررت الطرف نحوك رده ... من البعد فياض من الدمع مهمل

وكان بعد هذا ما كان من هجمتـــه السابقة وذهابه إلى الشام عسى أن يكون فى البعاد بعض السلوان ، ولكن شيئاً من هذا لم يكن ، فانه لما طال مقامه بها غلبه شوقه فقدم وبلغ ذلك بثينة فراسلته مع بعض نساء الحى فسار اليها وقد كان أهلها رصدوها فلما فقدوها تبعها أبوها وأخوها حتى هجما عليهما فشد عليهما جميل وانصرف وهجرته بثينه مدة ، فذلك حيث يقول وهو عائد إلى الشام :

ألم تسأل الربع الخلاء فينطبق ... وهل تخبرنك اليوم بيداء سملق
وقفت بها حتى تجلت عمايتى ... ومل الوقوف الأرحبى المنوق
تعز وإن كانت عليك كريمة ... لعلك من رق لبثنة تعتق
لعمركم إن البعاد لشائق ... وبعض بعاد البين والنأى أشوق
لعلك محزون ومبد صبابة ... ومظهر شكوى من أناس تفرقوا
وبيض غريزات تثنى خصورها ... إذا قمن أعجاز ثقال وأسوق
عزائز لم يلقين بؤس معيشة ... يجن بهن الناظر المتتوق
وغلغلت من وجد اليهن بعدما ... سريت وأحشائى من الخوف تخفق
معى صارم قد أخلص القين صقله ... له حين أغشية العريبة رونق
فلولا احتيالى ضقن ذرعاً بزائر ... به من صبابات اليهن أولق
تسوك بقضبان الأراك مفلجاً ... يشعشع فيه القارسى المروق
أبثنة للوصل الذى كان بيننا ... نضا مثل ما ينضو الخطاب فيخلق
أبثنة ما تنأين إلا كأننى ... بنجم الثريا ما نأيت معلق

٧ — ولقد كان الشوق وهو بالشام يجذبه إلى وادى القرى وإن لم يشق بلقاء فيلق هنالك ما يلق من مكافحة وطراد ، وقد نبت به أرض بالشام أيضاً فأراد النزوح إلى عبد العزيز بن مروان بمصر ، وزار بثينة زورة أخيرة حدثت بها عجوز من عذرة قالت والله إنا لعلى ماء لنا بالجناب وقد تنكبنا الجادة لجيوش كانت تأتى من قبل الشام تريد الحجاز ، وقد خرج رجالنا لسفر وخلفوا معنا أحداثنا ؛ فانحدروا ذات عشية إلى قوم قريب منا يتحدثون إلى جوار منهم ، إذ انحدر علينا منحدر من هضبة تلقاءنا فسلم ونحن مستوحشون ، فتأملته ورددت السلام فاذا جميل فقلت أجميل ؟ فقال إى والله وإذا به لا يتماسك جوعا فقمت إلى قعب لنا فيه أقط مطحون وإلى عكة فيها سمن فعصرتها على الأقط ، ثم أدنيتها منه وقلت أصب من هذا فأصاب منه وقمت إلى سقاء فيه لبن فصببت عليه ماء بارداً فشرب منه وتراجعت نفسه ، فقلت له لقد بلغت ولقيت شراً ؛ فما أمرك قال أنا والله فى هذه الهضبة التى ترين منذ ثلاث ما أريمها أنتظر أن أرى فرجة ، فلما رأيت منحدر فتيانكم أتيتكم لأودعكم وأنا عامد إلى مصر قالت فتحدثنا ساعة ثم ودعنا وشخص فلم تطل غيبته أن جاءنا نعيه .

وفى هذه الرحلة قال قصيدته الدالية ذات الشهرة والمكانة فى عالم النسيب وهى .

ألا ليت أيام الصفاء جديد ... ودهرا تولى يابثين يعود
فنغنى كما كنا نكون وأنتم ... صديق وإذ ما تبذلين زهيد
وما أنس ملا شيء لا أنس قولها ... وقد قربت نضوى أمصر تريد
ولا قولها لولا العيون التى ترى ... أتيتك فاعذرنى فدتك جدود
خليلى ما أخفى من الوجد ظاهر ... ودمعى بما أخفى الغداة شهيد
ألا قد أرى والله أن رب عبرة ... إذا الدار شطت بيننا ستزيد
إذا قلت ما بى يا بثينة قاتلى ... من الحب قالت ثابت ويزيد
وإن قلت ردى بعض عقلى أعش به ... مع الناس قالت ذاك منك بعيد

فلا أنا مردود بما جئت طالبا ... ولا حبها فيما يبيد يبيد
جزتك الجوازى يابثين ملامة ... إذا ما خليل بات وهو حميد
وقلت لها بينى وبينك فاعلمى ... من الله ميثاق له وعهود
وقد كان حبيكم طريفاً وتالدا ... وما الحب إلا طارف وتليد
وإن عروض الوصل بينى وبينها ... وإن سهلته بالمنى لصعود
فأفنيت عيشى بانتظارى نوالها ... وأبليت ذاك الدهر وهو جديد
فليت وشاة الناس بينى بينها ... تدوف لهم سماً طماطم سود
وليتهم فى كل يمسى وشارق ... تضاعف أكبال لهم وقيود
ويحسب نسوان من الجهل أننى ... إذا جئت اياهاهن كنت أريد
فأقسم طرفى بينهن فيستوى ... وفى الصدر بون بينهن بعيد
ألا ليت شعرى هل أبيتن ليلة ... بوادى القرى إنى إذا لسعيد
وهل أهبطن ارضا تظل رياحها ... لها بالثنايا العاويات وئيد
وهل ألقين سعدى من الدهر مرة ... ومارث من حبل الصفاء جديد
وقد تلتقى الأهواء من بعد يأسة ... وقد تطلب الحاجات وهى بعيد
وهل أزجرن حرفا علاة شملة ... بخرق تباريها سواهم قود
على ظهر مرهوب كان نشوزه ... إذا جاز هلاك الطريق رقود
سبتى بعينى جؤذر وسط ربرب ... وصدر كفاثور اللجين وجيد
تزيف كما زافت إلى سلفاتها ... مباهية طى الوشاح ميود
إذا جئتها يوما من الدهر زائرا ... تعرض منقوض اليدين صدود
يصد ويقضى عن هواى ويجتنى ... ذنوباً عليها إنه لعنود
فأصرمها خوفاً كأنى مجانب ... ويغفل عنا مرة فنعود
فمن يعط فى الدنيا قرينا كمثلها ... فذلك فى عين الحياة رشيد
يموت الهوى منى إذا ما لقيتها ... ويحيا إذ فارقتها فيعود
يقولون جاهد ياجميل بغزوة ... وأى جهاد غيرهن أريد
لكل حديث بينهن بشاشة ... وكل قتيل بينهن شهيد

ومن كان فى حى بثينة يمترى فبرقاء ذى ضال على شهيد
ألم تعلمى يا أم ذى الودع أننى أضاحك ذكراكم وأنت صلود

ثم كانت وفاته رحمه الله بمصر سنة اثنتين وثمانين هجرية . حـــدث رجل شهده فى احتضاره ، أنه لما حضرته الوفاة دعا به فقال له هل لك فى أن أعطيك كل ما أخلفه على أن تفعل شيئاً أعهد به إليك قال فقلت اللهم نعم قال إذا أنا مت فخذ حلتى هذه التى فى عيبتى فاعزلها جانباً ثم كل شىء سواها لك ، وارحل إلى رهط بنى الأحب فإذا صرت إليهم فارتحل ناقتى هذه واركبها ، ثم البس حلتى هذه واشققها ، ثم اعل على شرف وصح بهذه الأبيات وخلاك ذم ثم أنشد .

صدع النعى وما كنى بجميل وثوى بمصر ثواء غير قفول
ولقد أجر الذيل فى وادى القرى نشوان بين مزارع ونخيل
قومى بثينة فاندبى بعويل وابكى خليلك دون كل خليل

فلما قضى وواريته أتيت رهط بثينة ففعلت ما أمرنى به فما استتممت الأبيات حتى برزت لى امرأة يتبعها نسوة وقد فرقنهن طولا وبرزت أمامهن كأنها بدر قد برز فى دجنة وهى تتعثر فى مرطها حتى أتتنى فقالت ، ياهذا والله لئن كنت صادقا لقد قتلتنى ولئن كنت كاذبا لقد فضحتنى ، قلت والله ما أنا إلا صادق وهذه حلته فلما تأملتها صاحت بأعلى صوتها وصكت وجهها واجتمع نساء الحى إلى يبكين معها ويندبنه حتى صعقت فمكثت مغشياً عليها ساعة ثم قامت وهى تقول ولا يعرف لها شعر غيره

وإن سلوى عن جميل لساعة من الدهر ما حانت ولا حان حينها
سواء علينا يا جميل بن معمر إذا مت بأساء الحياة ولينها

قال الرجل فلم أر يوما كان أكثر باكياً وباكية منه .

تكلم كلمة عن سيرة هوى جميل مع بثينة ونسيبه فيها ، وهذى أخرى عن مكانته فى هذا النسيب .

١ — رأى كثير فيه :

جمع جميل بين الشعر والرواية وهذا فى الشعراء قليل ، فكان راوية لهدبة ابن خشرم العذرى راوية الحطيئة ، والحطيئة راوية زهير وابنه كعب ، وما من هؤلاء إلا شاعر ضليع مقدم فصيح . ثم كان كثير راوية جميل فكان يقدمه على نفسه ويتخذه إماما وإذا سئل عنه قال ، وهل علم الله عز وجل ماتسمعون إلامنه . وحدث جويرية بن أسماء ، قال كان أبو صخر كثير صديقاً لى وكان يأتى أبى كثيراً فقلما استنشدته إلا بدأ بجميل فأنشد له ثم أنشد لنفسه وكان يفضله ويتخذه إماما وحدث أبو عبيدة عن أبيه قال ، دخل علينا كثير يوما وقد أخذ بطرف ريطته وألقى طرفها الآخر وهو يقول ، هو والله أشعر الناس حيث يقول « من نفس القصيدة »

وخبرتمانى أن تيماء منزل ... لليلى إذ ما الصيف ألقى المراسيا
فهذى شهور الصيف عنى قد انقضت ... فما للنوى ترمى بليلى المراميا

ويجر ريطته حتى يبلغ إلينا ثم يولى عنا ويجرها ويقول ، هو والله أشعر الناس حيث يقول

وأنت التى إن شئت كدرت عيشتى ... وإن شئت بعد الله أنعمت باليا
وأنت التى ما من صديق ولا عدا ... يرى نضو ما أبقيت إلا رثى ليا

ثم يرجع إلينا ويقول ، هو والله أشعر الناس فقلنا من تعنى يا أبا صخر فقال ومن أعنى سوى جميل . هذا وبعضهم ينسب هذا الشعر للمجنون تأثراً باسم ليلى وليس ذلك صحيحاً فقد قال أبو الفرج عقب ذكر القصة ما نصه « وتيماء خاصة منزل لبنى عذرة وليست من منازل عامر وإنما يرويه عن المجنون من لا يعلمه » ، وهذه الأبيات الأربعة من قصيدة كان سببها أن وقع بين جميل وبثينة هجر فى غيرة غارها عليها من فتى كان يتحدث إليها من بنى عمها فكان هو يتحدث إلى غيرها فيشق ذلك عليهما معاً وكلاهما كاره أن يبدى لصاحبه ، غير أن جميلا غلبه الأمر فدخل إلى البيت الذى كان يجتمع فيه مع بثينة فلما رأته جاءت ولكنها لم تبرز له فجزع وجعل يطالعها وتطالعه فأنشد تلك الأبيات الأربعة ، وبعدها

وقالوا به داء عياء أصابه ... وقد علمت نفسى مكان دوائيا
وما زلتم يا بثن حتى لو آننى ... من الشوق أستبكى الحمام بكى ليا
إذا خدرت رجلى وقيل شفاؤها ... دعاء حبيب كنت أنت دعائيا
وما زادنى النأى المفرق بعدكم ... سلوا ولا طول التلاقى تقاليا
ولا زادنى الواشون إلا صبابة ... ولا كثرة الناهين إلا تماديا
ألم تعلمى ياعذبة الريق أننى ... أظل إذا لم ألق وجهك صاديا
لقد خفت أن يغتالنى الموت بغتة ... وفى النفس حاجات إليك كما هيا
وإنى لينسينى لقاؤك كلما ... لقيتك يوماً أن أبثك مابيا

وهذ الرأى الذى يراه كثير فى أن جميلا إمامهم وقدوتهم فى النسيب كان معروفا لشعراء عصره وللأدباء بعده ، سئل نصيب أجميل أنسب أم كثير فقال : أنا سألت كثيرا عن ذلك فقال وهل وطأ لنا النسيب إلا جميل ، وذكر أمامه جميل فقال ذاك إمام المحبين وهل هدى الله عزوجل لما ترون إلا بجميل ، وقال له محمد بن عبد ربه : أخبرنى عنك وعن أصحابك فقال : جميل إمامنا وعمر أوصفنا لربات الحجال وكثير أبكانا على الدمن وأمدحنا للملوك وأما أنا فقد قلت ماسمعت قال أما إن الناس يزعمون أنك لا تحسن أن تهجو فضحك ثم قال أفتراهم يقولون إنى لا أحسن أن أمدح فقلت لا قال أفما ترانى أحسن أن أجعل مكان عافاك الله أخزاك الله قال بلى قال : فانى رأيت الناس رجلين إما رجل لم أسأله شيئاً فلا ينبغى أن أهجوه فأظلمه أو رجل سألته فمنعنى فنفسى كانت أحق بالهجاء منه إذ سولت لى أن أسأله وأن أطلب ما لديه .

٢ — رأى ابن أزهر وابن حسان فيه :

حدث كثير قال ، قدمت المدينة فسألت عن أعلم أهلها بالشعر فقيل لى ، الوليد بن سعد الأسلمى قال : فوجدته بشعب سلع مع عبد الرحمن بن حسان وعبد الرحمن بن أزهر ، فإنا لجلوس إذ طلع علينا رجل طويل مابين المنكبين يقود راحلة عليها بزة حسنة فقال ابن حسان لابن أزهر يا أبا بحتر هـــذا

جميل فادعه لعله أن ينشدنا فصاح به هيا جميل هيا جميل فالتفت فقال من هذا فقال عبد الرحمن أنا عبد الرحمن بن أزهر قال قد علمت أنه لا يجترىء على إلا مثلك فأتاه فقال له أنشدنا فأنشدهم ، وكانت بثينة تلقب جملا ، .

أمن منزل قفر تعفت رسومه ... شمال تغاديه ونكباء حرجف
فأصبح قفرا بعد ما كان آهلا ... وجمل المنى تشتو به وتصيف
ظللت ومستن من الدمع هامل ... من العين لما عجت بالدار ينزف
أأن هتفت ورقاء ظلت سفاهة ... تبكى على جمل لورقاء تهتف
فلو كان لى بالصرم ياصاح طاقة ... صرمت ولكنى عن الصرم أضعف
لها فى سواد القلب بالحب منعة ... هى الموت أوكادت على الموت تشرف
وما ذكرتك النفس يابثن مرة ... من الدهر إلا كادت النفس تتلف
وإلا اعترتنى زفرة واستكانة ... وجاد لها سجل من الدمع يذرف
وما استطرفت نفسى حديثاً لخلة ... أسر به إلا حديثك أطرف
أمنصفتى جمل فتعدل بيننا ... إذا حكمت والحاكم العدل ينصف
تعلقتها والجسم منى مصحح ... فما زال ينمى حب جمل وأضعف
إلى اليوم حتى سل جسمى وشفنى ... وأنكرت من نفسى الذى كنت أعرف
قناة من المران ما فوق حقوها ... وما تحته منها نقا يتقصف
لها مقلتا ريم وجيد جداية ... وكشح كطى السابرية أهيف
ولست بناس أهلها حين أقبلوا ... وجالوا علينا بالسيوف وطوفوا
وقالوا جميل بات فى الحى عندها ... وقد جردوا أسيافهم ثم وقفوا
وفى البيت ليث الغاب لولا مخافة ... على نفس جمل والإلـه لأرعفوا
هممت وقد كادت مرارا تطلعت ... إلى حربهم نفسى وفى الكف مرهف
وما سرنى غير الذى كان منهم ... ومنى وقد جاءوا إلى وأرجفوا
فكم مرتج أمراً أتيح له الردى ... وكم خائف لم يلتقصه التخوف
ونحن منعنا يوم إرل نساءنا ... ويوم أقى والأسنة ترعف
ويوم ركايا ذى الجداة ووقعة ... بتينان كانت بعض ماقد تسلفوا

يحب الغوانى البيض ظل لوائنا إذا ما أتانا الصارخ المتلهف
نسير أمام الناس والناس خلفنا فان نحن أو مأنا إلى الناس وقفوا
فأى معد كان فى رماحه كما قد أفانا والمفاخر ينصف
وكنا إذا ما معشر نصبوا لنا ومرت جوارى طيرهم وتعيفوا
وضعنا لهم صاع القصاص رهينة بماسوف نوفيها إذا الناس ظففوا
إذا استبق الأقوام مجداً وجدتنا لنا معزفا مجد وللناس معزف

فقال له أنشدنا هزجا . قال وما الهزج ؟ لعله هذا القصير . قال نعم، فأنشده

رسم دار وقفت فى طلله كدت أقضى الحياة من جلله
موحشاً ما ترى به أحداً تنتسج الريح ترب معتدله
وصريعاً بين الثمام ترى قى صارمات الهدب من اسله
بين علياء رائس قبلى فالغميم الذى إلى جبله
واقفاً فى ديار أم حسيـ ـن من ضحى يومه إلى أصله
ياخليلىّ إن أم الحسيـ ـن حين يدنو الضجيج من علله
روضه ذات حنوة وخزامى جاد فيها الربيع من سبله
بينما هن بالأراك معا إذ بدا راكب على جمله
فتأخرن ثم قلن لها أكرميه حييت فى نزله
فظللنا بنعمة واتكأنا وشربنا الخـلال من قلله
قد أصون الحديث دون خليـ ـل لا أخاف الأذاة من قبله
غير ما بغضة ولا لاجتنا ب غير أنى ألحت من وغله
وخليل صافيت مرتبا وخليل فارقت من مله

ثم اقتاد راحلته موليا فقال ابن أزهر هذا أشعر أهل الاسلام فقال ابن حسان نعم والله وأشعر أهل الجاهلية ، والله ما لأحد منهم مثل نسيبه ولا هجائه فقال ابن أزهر صدقت .

٣ — سرقات كثير وغيره منه .

قال محمد بن سلام موازنا بينه وبين كثير ، كان لكثير فى النسيب

حظ وافر وجميل مقدم عليه وعلى أصحاب النسيب فى النسيب ، وكان كثير رواية جميل ، وكان جميل صادق الصبابة والعشق ولم يكن كثير بعاشق ولكنه كان يتقول ، وكان الناس يستحسنون بيت كثير فى النسيب

أريد لأنسى ذكرها فكأنما تمثل لى ليلى بكل سبيل

ورأيت من يفضله على بيت جميل

خليلى فيما عشتما هل رأيتما قتيلا بكى من حب قاتله قبلى

ولكنه أخذه من قول جبيل :

أريد لأنسى ذكرها فكأنما تمثل لى ليلى على كل مرقب

هذا ما قال ابن سلام وهو ما أرى ، ومما يؤيده فيما يراه من سبق جميل إلى هذا المعنى بالبيت السابق الذى هو له وليس للمجنون كما قد يتوهم ، ماروى من أن الفرزدق لقى كثيرا يوما فقال يا أبا صخر أنت أنسب العرب حيث تقول :

أريد لأنسى ذكرها فكأنما تمثل لى ليلى بكل سبيل

يعرض له بسرقته من بيت جميل المذكور ، فقال وأنت يا أبا فراس أفخر الناس حيث تقول :

ترى الناس ماسرنا يسيرون خلفنا وإن نحن أومأنا إلى الناس وقفوا

يعرض له بسرقته من قول جميل أيضاً :

نسير أمام الناس والناس خلفنا فإن نحن أومأنا إلى الناس وقفوا

وهذا البيت قد تقدم فى القصيدة الفخرية آنفاً ؛ والبيت الباقى فلم تعرف له قصيدة فيما عرف من شعر جميل الذى ضاع معظمه ولم يبق إلا القليل ، أما البيت اللامى فمن قصيدة يقول فيها عقب زواج بثينه من نفيه وتطبعتها له قطعية سر من أجلها الوشوان .

لقد فرج الوشوان أن صرمت حبلى بثينة أو أبدأت لنا جانب البخل

يقولون مهلا يا جميل وإننى لأقسم ما بى عن بثينة من مهل

أحلما فقبل اليوم كان أوانه أم آخشى فقبل اليوم أوعدت بالقتل

ولو أن ألفا دون بثنة كلهم غيارى وكل مزمعون على قتلى

لحاولتها إما نهارا مجاهراً وإما سرى ليل ولو قطعوا رجلى
لقد أنكحوا جهلا نبيها ظعينة لطيفة طى الكشح ذات شوى جذل
وكم قد رأينا ساعياً بنميمة لآخر لم يعمد بكف ولا رجل
إذا ما تراجعنا الذى كان بيننا جرى الدمع من عينى بثينة بالكحل
كلانا بكى أو كاد يبكى صبابة إلى إلفه واستعجلت عبرة قبلى
خليل فيما عشتما هل رأيتما قتيلا بكى من حب قاتله قبلى
فلو تركت عقلى معى ما طلبتها ولكن طلابيها لما فات من عقلى
فياويح نفسى حسب نفسى الذى بها وياويح أهلى ما أجيب به أهلى
وقالت لأتراب لها لا زعانف قصار ولا كس الثنايا ولا ثعل
إذا حميت شمس النهار اتقينها بأكسية الديباج والخز ذى الخمل
تداعين فاستعجمن مشياً بذى الغضا دبيب القطا الكودى فى الدمث السهل
إذا ارتعن أو فزعن قمن حوالها قيام بنات الماء فى جانب الضحل
أرانى لا ألقى بثينة مرة من الدهر إلا خائفا أو على رحل
أبيت مع الهلاك ضيفا لأهلها وأهلى قريب موسعون ذوو فضل
ثلاثة أبيات فبيت أحبه وبيتان ليسا من هواى ولا شكلى
ألا أيها البيت الذى حيل دونه بنا أنت من بيت وأهلك من أهل

وكما أخذ كثير والفرزدق من شعر جميل أخذ غيرهما منه أيضا، وهذى بعض المآخذ، قال جميل

ماصائب من نابل قذفت به يد ومر العقدتين وثيق
له من خوافى النسر حم نظائر ونصل كنصل الزاعبى فتيق
على نبعة زوراء أيما خطامها فمتن وأيما عودها فعتيق
بأوشك قتلا منك يوم رميتنى نوافذ لم تعلم لهن خروق
كأن لم نحارب يا بثين لو آنها تكشف غماها وأنت صديق

فأخذه أبو حية النميرى من أبيات مختارة هى :

وإن دما لو تعلمين جنيته على الحى جانى مثله غير سالم
أما إنه لو كان غيرك أرقلت اليه القنا بالراعفات اللهاذم

ولكن لعمر الله ماطل مسلما كغر الثنايا واضحات الملاغم
إذا هن ساقطن الحديث كأنه سقاط حصا المرجان من سلك ناظم
رمين فأقصدن القلوب فلم نجد دما مائرا إلا جوى فى الحيازم

ولجميل فى هذا المعنى غير ما تقدم قوله :

بثينة من صنف يقلبن أيدى الر ماة وما يحملن قوسا ولا نبلا
ولكنما يظفرن بالصيد كلما جلون الثنايا الغر والأعين النجلا

وقال :

أقلب طرفى فى السما لعله يوافق طرفى طرفها حين ينظر

فأخذه المعلوط السعدى فقال :

أليس الليل يلبس أم عمر وايانا فذاك بنا تدانى
أرى وضح الهلال كما تراه ويعلوها النهار كما علانى

وقال أيضا :

خليلى فيما عشتما هل رأيتما قتيلا بكى من حب قاتله قبلى

فأخذه أبو العتاهية فقال :

لم يبق منى حبها ما خلا حشاشة فى بدن ناحل
يامن رأى قبلى قتيلا بكى من شدة الوجد على القاتل

رابعاً — عيون غزله وأصوات غنائه

ثم موازنة بينه وبين ابن أبى ربيعة

أطلنا الحديث عن سيرة جميل فى هواه ، ومكانته فى نسيبه ، وأوسعنا الصفحات لما أثر عنه فى ذلك من أشعار ، ليحس القارىء إحساساً قوياً أنه كان حقاً إمام المحبين وأنه كان حقا معلم الشعراء الغزليين ، كما شهد بذلك من أسلفنا من الشعراء الفطاحل والأدباء الحاذقين ، وانا لمثبتون هنا بعض ما فى نسيبه من عيون غزل وأصوات غناء ، متبعين ذلك بموازنة بينه وبين ابن أبى ربيعة .

ا — العيون والأصوات :

١ — قال فى استهانته بحياته إزاء حبه لبثينة

فليت رجالا فيك قد نذروا دمى وهموا بقتلى يا بثين لقونى

وقال

أبيت مع الهلاك ضيفاً لأهلها وأهلى قريب موسعون ذوو فضل
ألا أيها البيت الذى حيل دونه بنا أنت من بيت وأهلك من أهل
ثلاثة أبيات فبيت أحبه وبيتان ليسا من هواى ولا شكلى

وقال

يقولو مهلا ياجميل وإننى لأقسم ما بى عن بثينة من مهل
أحلماً فقبل اليوم كان أوانه أم اخشى فتقبل اليوم أوعدت بالقتل
ولو أن ألفاً دون بثنة كلهم غيارى وكل مزمعون على قتلى
لحاولتها إما نهاراً مجاهراً وإما سرى ليل ولو قطعوا رجلى

وقال

وأحسن أيامى وأبهج عيشتى إذا هيج بى يوماً وهن شهود

٢ — وقال فى وصف حبه وتبريح الهوى به

يهواك ما عشت الفؤاد فإن أمت يتبع صداى صداك بين الأقبر

وقال

أعوذ بك اللهم أن تشحط النوى ببثنة فى أدنى حياتى ولا حشرى
فجاور إذا مت بينى وبينها فياحبذا موتى إذا جاورت قبرى

وقال

أفى الناس أمثالى أحب فخالهم كحالى أم احببت من بينهم وحدى
وهل هكذا يلقى المحبون مثل ما لقيت بها أم لم يجد أحد وجدى

وقال

فهل تجزينى أم عمرو بودها فان الذى أخفى بها فوق ما أبدى
وكل محب لم يزد فوق جهده وقد زدتها فى الحب منى على الجهد

إذا ما دنت زدت اشتياقا وإن نأت جزعت لنأى الدار منها وللبعد

وقال

خليلى ما أخفى من الوجد ظاهر ودمعى بما أخفى الغداة شهيد
ومن كان فى حبى بثينة يمترى فبرقاء ذى ضال على شهيد

ويقول مخاطباً الحب

جديدك لا يبلى وقد بلى الهوى ولا ينتهى حبى بثينة للزجر

٣ — وقال فى منازعة قلبه يريد منه سلواً والقلب يلج إلا هياماً :

فياقلب دع ذكرى بثينة إنها وإن كنت تهواها تضن وتبخل
وإلا فسلها نائلا قبل بينها وأبخل بها مسئولة حين تسأل
سلا كل ذى ود علمت مكانه وأنت بها حتى الممات موكل
فما هكذا أحببت من كان قبلها ولا هكذا فيما مضى كنت تفعل

٤ — وقال يصف موقفها من حبه :

إذا قلت ما بى يابثينة قاتلى من الحب قالت ثابت ويزيد
وإن قلت ردى بعض عقلى أعش به مع الناس قالت ذاك منك بعيد
قلا أنا مردود بما جئت طالبا ولا حبها فيما يبيد يبيد
وإن عروض الوصل بينى وبينها وإن سهلته بالمنى لصعود
فأفنيت عيشى بانتظارى نوالها وأبليت ذاك الدهر وهو جديد

وقال

وأنت التى إن شئت كدرت عيشتى وإن شئت بعد الله أنعمت باليا
وأنت التى ما من صديق ولاعدا يرى نضو ما أبقيت إلا رثى ليا
وقالوا به داء عياء أصابه وقد علمت نفسى مكان دوائيا
وما زلتم يابثن حتى لو اننى من الشوق أستبكى الحمام بكى ليا
ألم تعلمى يا عذبة الريق أننى أظل إذا لم ألق وجهك صاديا

٥ — وقال يصف موقفه من حبها :

بدا كلف من بها فتثاقلت وما لا يرى من غائب الوجد أفضل

وقال

وتثاقلت لما رأت كلفى بها ... أحبب إلى بذاك من متثاقل

وقال

وأطعت فى عواذلا فهجرتنى ... وعصيت فيك وقد جهدن عواذلى
يعضضن من غيظ على أناملا ... ووددت لو يعضضن صم جنادل
ويقلن إنك يابثين بخيلة ... نفسى فداؤك من من ضنين باخل
ويقلن إنك قد رضيت بباطل ... منها فهل لك فى اجتناب الباطل
ولباطل مما أحب حديثه ... أشهى إلى من البغيض الباذل

وقال

وما زادها الواشون إلا كرامة ... على وما زالت مودتها عندى
فان يك رشداً حبها أو غواية ... فقد جئته ما كان منى على عمد

وقال

إذا خدرت رجلى وقيل شفاؤها ... دعاء حبيب كنت أنت دعائيا
وما زادنى النأى المفرق بعدكم ... سلواً ولا طول التلاقى تقاليا
ولا زادنى الواشون إلا صبابة ... ولا كثرة الناهين إلا تماديا
وإنى لينسينى لقاؤك كلما ... لقيتك يوما أن أبثك ما بيا
لقد خفت أن ألقى المنية بغتة ... وفى النفس حاجات إليك كما هيا

٦ — وقال فى صرف هواه عن غيرها على رغبة منهن فيه :

ويحسب نسوان من الجهل أننى ... إذا جئت إياهن كنت أريد
فأقسم طرفى بينهن فيستوى ... وفى الصدر بون بينهن بعيد

وقال

أبثين إنك قد ملكت فأسجحى ... وخذى بحظك من كريم واصل
فلرب عارضة علينا وصلها ... بالجد تخلطه بقول الهازل
فأجبتها فى القول بعد تستر ... حبى بثينة عن وصالك شاغلى
لو كان فى صدرى كقدر قلامة ... فضلا وصلتك أو أتتك رسائلى

٧ — وقال يصف تألمه لفراقها وشوقه إليها لتجدد ذكراها :

ويكون يوم لا أرى لك مرسلا ... أو نلتقى فيه على كأشهر
ياليتنى ألقى المنية بغتة ... إن كان يوم وصالكم لم يقدر
أو استطيع تجلداً عن ذكركم ... فيفيق بعض صبابتى وتذكرى

وقال

أبثنة ما تنأين إلا كأننى ... بنجم الثريا ما نأيت معلق

وقال

أأن هتفت ورقاء ظلت سفاهة ... تبكى على جمل لورقاء تهتف
فلو كان لى بالصرم ياصاح طاقة ... صرمت ولكنى عن الصرم أضعف
لها فى سواد القلب بالحب منعة ... هى الموت أوكادت على الموت تشرف
وما ذكرتك النفس يابثن مرة ... من الدهر إلا كادت النفس تتلف
وإلا اعترتنى زفرة واستكانة ... وجاد لها سجل من الدمع يذرف
وما استطرفت نفسى حديثاً لخلة ... أسر به إلا حديثك أطرف

وقال

إن المنازل هيجت أطرابى ... واستعجمت آياتهـا بجوابى
قفرى تلوح بذى اللجين كأنها ... أنضاء رسم أو سطور كتاب
لما وقفت بها القلوص تبادرت ... منى الدموع لفرقة الأحباب
وذكرت عصراً يا بثينة شاقنى ... وذكرت أيامى وشرخ شبابى

٨ — وقال فى استعطافها

أمنصفتى جمل فتعدل بيننا ... إذا حكمت والحاكم العدل ينصف
تعلقتها والجسم منى مصحح ... فما زال ينمى حب جمل وأضعف
إلى اليوم حتى سل جسمى وشفنى ... وأنكرت من نفسى الذى كنت أعرف

وقال

هبينى بريا نلته بظلامة ... عفاها لكم أو مذنبا يتنصل

وقال

يقيك جميل كل سوء أما له ... لديك حديث أو إليك رسول
وقد قلت فى حبى لكم وصبابتى ... محاسن شعر ذكرهن يطول
فان لم يكن قولى رضاك فعلمى ... هبوب الصبا يا بثن كيف أقول
فما غاب عن عينى خيالك لحظة ... ولا زال عنها والخيال يزول

وقال

ألما بها ثم اشفعا لى وسلما ... عليها سقاها الله من سائغ القطر
وبوحا بذكرى عند بثنة وانظرا ... أترتاح يوما أم تهش إلى ذكرى

وقال

ألا هل إلى إلمامة أن ألمهـــا ... ببثنة يوما فى الحياة سبيل
فإن هى قالت لا سبيل فقل لها ... عناء على العذرى منك طويل
على حين يسلو الناس عن طلب الصبا ... ويلسى اتباع الوصل منك خليل

٩ — وقال يعتذر عنها إذا صدت

فإن تك قد حالت عن العهد بيننا ... وأصغت إلى قول المؤنب والمزرى
فسوف يرى منها صدود ولم تكن ... بنفسى من أهل الخيانة والغدر

١٠ — وقال يعتذر لها إذا هجر

لاتحسبى أنى هجرتك طائعاً ... حدث لعمرك رائع أن تهجرى

١١ — وقال فى رضاه منها بالقليل الذى يقر به الواشى

وإنى لأرضى من بثينة بالتى ... لو أبصره الواشى لقرت بلابله
بلا وبألا أستطيع وبالمنى ... وبالأمل المرجو قد خاب آمله
وبالنظرة العجلى وبالحول تنقضى ... أواخره لا نلتقى وأوائله

وقال

أيا ريح الشمال أما ترينى ... أهيم وأننى بادى النحول
هبى لى نسمة من ريح بثن ... ومنى بالهبوب إلى جميل
وقولى يا بثينة حسب نفسى ... قليلك أو أو أقل من القيل

١٢ — وقال : فى أن بثينة عنده كل شى وأنه هاجر على مايكرر من زورات

ألا لا أبالى جفوة الناس ما بدا ... لنا منك رأى يابثين جميل
وإنى وتكرارى الزيارة نحوكم ... بثين لذو هجر بثين يطول

١٣ — وقال فى آخر نظرة له إليها :

وآخر عهدى من بثينة نظرة ... على موقف كادت من البين تقتل
إذا ما كررت الطرف نحوك رده ... من البعد فياض من الدمع مهمل

١٤ — قال وقد أزمع الرحيل :

فياليت شعرى هل تقولن بعدنا ... إذا نحن أزمعنا غداً لرحيل
ألا ليت أياما مضين رواجع ... وليت النوى قد ساعدت بجميل

١٥ — وقال فى تذكر أيام سلفت :

ألا ليت أيام الصفاء جديد ... ودهراً تولى يابثين يعود
فنغنى كما كنا نكون وأنتم ... صديق وإذ ما تبدلين زهيد
وما أنس م الأشياء لا أنس قولها ... وقد قربت نضوى أمصر تريد
ولا قولها لولا العيون التى ترى ... أتيتك فاعذرنى فدتك جدود

وقال

ألا ليت شعرى هل أبيتن ليلة ... بوادى القرى إنى إذن لسعيد
وهل أهبطن أرضاً تظل رياحها ... لها بالثنايا العاويات وئيد
وهل ألقين سعدى من الدهر مرة ... ومارث من حبل الصفاء جديد
وقد تلتقى الأهواء من بعد يأسة ... وقد تطلب الحاجات وهى بعيد

١٦ — ومن عيون شعره التى كانت ذات أحاديث قوله

يقولون جاهد ياجميل بغزوة ... وأى جهاد غيرهن أريد
لكل حديث بينهن بشاشة ... وكل قتيل بينهن شهيد

ومن أجله قالت له سكينة بنت الحسين (والله مازلت مشتاقة لرؤيتك منذ سمعت قولك هذا ، جعلت حديثنا بشاشة وقتلانا شهداء) .

١٧ — وقوله :

فيالتنى أعمى أصم تقودنى ... بثينة لا يخفى على كلامها

ومن أجله قالت سكينة لكثير راويته (رحم الله صاحبك إنه كان صادقا فى شعره وكان جميلا كاسمه) .

١٨ — وقوله :

وقد كان حبيكم طريفا وتالدا ... وما الحب إلا طارف وتليد
يموت الهوى منى إذا ما لقيتها ... ويحيـــا إذا فارقتها فيعود

وهذا البيت الثانى هو الذى ذكر أحد سمار الوليد بن يزيد له إنه أغزل بيت قالته العرب .

١٩ — وقوله :

لوجز بالسيف رأسى فى مودتها ... لمر يهوى سريعاً نحوها راسى

وقد قال ابن أبى ربيعة حين سمعه « لقد أحسن والله وأجاد » .

٢٠ — وقوله :

قفى تسل عنك النفس بالخطة التى ... تطيلين تخويفى بها ووعيـــدى
فقد طالما من غير شكوى قبيحة ... رضينا بحكم منك غير سديد

وهما البيتان الذان سمعهما الزبير بن بكار - وكان مرتحلا عن العراق فقال : « لو لم أنصرف من العراق إلا بهما لرأيتهما غناء » .

٢١ — وقوله :

فما لك لما خبر الناس أننى ... غدرت بظهر الغيب لم تسامنى
فأحلف بتا أو أجىء بشاهد ... من الناس عدل أنهم ظلمونى

وهما البيتان اللذان كان عبد الله بن العباس بن الفضل بن الربيع لا ينشدهما إلا بكى وتحدرت دموعه على لحيته .

٢٢ — ودخل إبراهيم الموصلى على الرشيد يوما فقال له أنشدنى أحسن ما تعرف فى عتاب محب وهو ظالم متعتب ، فأنشده هذه الأبيات :

رد الماء ما جاءت بصفو ذنائبه ... ودعه إذا خيضت بطرق مشاربه
أعاتب من يحـــلو لدى عتابه ... وأترك من لا أشتهى وأجانبه
ومن لذة الدنيا وإن كنت ظالما ... عتابك مظلوما وأنت تعاتبه

وهى لجميل فقال أحسن والله ، أعدها على فأعدتها حتى حفظها ؛ فأمر لى بثلاثين ألف درهم وتركنى ودخل إلى دار الحرم

٢٣ — وقال هذين البيتين يرمى إلى معنيين :

سلينى مالى يابثين فانما ... يبين عند المال كل بخيل

وإنى وتكرارى الزيارة نحوكم ... بثين لذو هجر بثين طويل

فكشف فى أولها عن نقص معنى طالما تمدح به العاشقون ، هو هبة النفس إذ فى مقدور كل أن يدعيها لعدم المطالبة بتنفيذها ، أما هبة المال والخروج منه فلا سبيل إلى دعواها لغير المتفانين لأمكان المطالبة بها . وكشف فى ثانيهما عن أن ما بين الزورة مع تكرار الزيارة يعتبر من المحبين هجراً طويلا .

٢٤ — وقال فى طيب الرائحة :

كأن فتيت المسك خالط نشرها ... تعل به أردانها والمرافق

تقوم إذا قامت به عن فراشها ... ويغدو به من حضنها من تعانق

وقال

وكان طارقها على علل الكرى ... والنجم وهنا قد دنا لتغور

يستاف ريح مدامة معلولة ... بفتيت مسك أو سحيق العنبر

وقال

يا خليلى إن أم حسين ... حين يدنو الضجيج من علله

روضة ذات حنوة وخزامى ... جاد فيها الربيع من مسله

إلى غير تلك من العيون التى أمدت الغزلين والمغنين بالمدد الفياض ، والتى لم يشاركه فيها إلى قدر سوى روايته كثير لروايته عنه ومحاكاته له ، ولذلك كان المسور بن عبد الله يقول : « ما ضر من يروى شعر كثير وجميل ألا تكون عنده مغنيتان مطربتان ، ولكن شتان بين أصيل وتبيع باعتراف كثير ، فأصوات كثير محدودة معروفة ولكن أصوات جميل تغلغلت فى شعره حتى لم تدع منه إلا القليل ، فكل عين اخترناها آنفاً غنى فيها وله غيرها من الأصوات كثير .

١ — منها :

أتعجب أن طربت لصوت حاد ... حدا بزلا يسرن ببطن واد
فلا تعجب فان الحب أمسى ... لبثنة فى السواد من الفؤاد

٢ — ومنها :

أعاذلتى أكثرت جهلا من العذل ... على غير شىء من ملامى ولا عذلى
نأيت فلم يحدث لى النأى سلوة ... ولم ألف طول البعد عن حبها يسلى

٣ — ومنها يقصد الابل :

لهن الوجا كم كن عونا على النوى ... ولا زال منها ظالع وكسير
كأنى سقيت السم يوم تحملوا ... وجد بهم حاد وحان مسير

ومما يذكر ملائما لهذا قوله فى جمله جديل وقد أوصله إلى بثينة فأناخه عندها

أنخت جديلا عند بثنة ليلة ... ويوما أطال الله رغم جديل
أليس مناخ النضو يوما وليلة ... لبثنة فيما بيننا بقليل

ومنها على مافى البيتين من إقواء :

وبين الصفا والمروتين ذكرتكم ... بمختلف ما بين ساع وموجف
وعند طوافى قد ذكرتك ذكرة ... هى الموت بل كادت على الموت تشرف

وعلى ذكر هذين البيتين ، نرى بيان فضل عفته فيهما على عفة كثير ونصيب فى بيتين لكل منهما ، قال كثير .

طلعن علينا بين مروة والصفا ... يمرن على البطحاء مور السحائب
فكدن لعمر الله يحدثن فتنة ... لمختشع من خشية الله تائب

وقال نصيب :

ألام على ليلى ولو أستطيعها ... وحرمة ما بين البنية والستر
لملت على ليلى بنفسى ميلة ... ولو كان فى يوم التحالق والنحر

٤ — ومنها :

خليلى عوجا بالمحلة من جمل ... وأترابها بين الأصيفر والخبل
نقف بمغان قد محا رسمها البلى ... تعاقبها الأيام بالريح والوبل

فلو درج النمل الصغار بجلدها ... لأندب أعلى جلدها مدرج النمل
وأحسن خلق الله جيدا ومقلة ... تشبه فى النسوان بالشادن الطفل

٥ — ومنها

أمنك سرى يابثن طيب تأوبا ... هدوا فهاج القلب شوقا وأنصبا
عجبت له أن زار فى النوم مضجعى ... ولو زارنى مستيقظاً كان أعجبا

٦ — ومنها

رحل الخليط جمالهم بسواد ... وحدا على إثر البخيلة حادى
ما إن رحلت ولا علمت بينهم ... حتى سمعت به الغراب ينادى

٧ — ومنها

ألا ناد عيرا من بثينة ترتعى ... نودع على شحط النوى ونودع
وحثوا على جمع الركاب وقربوا ... جمالا ونوقا جلة لم تضعضع
مللن ولم أملل وما كنت سائما ... لأجمال سعدى ما أنخن بجعجع

٨ — هذا وقد كان يغنى برجزه ، والتغنى بالرجز قليل ، ومن ذلك قوله :

ارحمينى فقد بليت فحسبى ... بعض ذا الداء يا بثينة حسبى
لامنى فيك يا بثينة صحبى ... لا تلوموا قد أقرح الحب قلبى
زعم الناس أن دائى طبى ... أنت والله يا بثينة طبى

إلى غير هذه الأصوات مما كثر ووضح فى قصائده ومقطعاته بل ورجزه .

(ب) الموازنة :

كان جميل على رأس طائفة الغزلين ذوى الهوى الصادق والحب العفيف . وحين وضع الرواة اسم الهوى العذرى على هذا النوع من الحب ، لم يترددوا أن يكون جميل أبا عذرته وابن بجدته غير مدافع ولا مشروك ، وحسبه هذا شهادة معقوداً عليها لواء الإجماع . فقد كان رحمه الله روحانى الحب ، وقف هواه على امرأة لاتزال تتمنع عليه فيقنعه ذلك ولا يطمع منها فى أكثر من الزورات وقلما تتاح ، ولا يزال يشكو بثه وحزنه وصبابته ووجده ، فى ذلك الشعر المنتزع من قرارة القلب النابع من صافى الوجدان ،

لا كمن توزعت أبصارهم فى مجالى الحسن المتغير الكثير ، فلم تقف أفئدتهم عند محبوبة واحدة ؛ بل هم طلاب جمال يتلمسونه أنى وجد ويتمتعون به ما أقام ، حتى إذا ماذهب أو زاحمه أجمل منه غادروه وطاروا وراء الجديد مسرعين ، وإمام هذا النوع عمر بن عبد الله بن أبى ربيعة بالأجماع فهو زعيم التغزل اللاهى كما أن جميلا زعيم الغزل الباكى ، ولكل أتباع وشعراء . ولاختلاف الوجهة بين عمر وجميل كثرت الأوصاف الحسية ، وتنوعت القصة فى شهر الأول دون الثانى وإن كان لم يتجرد منهما ، إذ لا يعدم الحب الجنسى القصة مهما ضاق ، ولا يستغنى عن أن يلم صاحبه بالناحية الحسية الإلمام اليسير ، وإلا كان حب تصادق وتصاحب كالذى يحدث بين رجل ورجل أو امرأة وأخرى مما لا أثر للجنسية فيه ، ولهذا لا يعاب على جميل إزاء عمر قلة القصة فى شعره ، ولا يضر بروحانيته إلمامه أحياناً بالناحية المادية . وإذن فمن التمام للقول فى غزله ذكرى شىء عن هذين الأمرين فيه .

(١) فمن قصصه الموجزة قوله فى تصوير مفاجأة منه لبثينة وصواحباتها :

بينما هن بالأدراك معاً ... إذ بدا راكب على جمله
فتأطرن ثم قلن لها ... أكرميه حبيت فى نزله
فظللنا بنعمة واتكأنا ... وشربنا الحلال من قلله

ومنها بسطه المعنى الذى أراده بقوله :

إنى إليك بما وعدت لناظر ... نظر الفقير إلى الغنى المكثر
يعد الديون وليس ينجز موعدا ... هذا الغريم لنا وليس بمعصر
ما أنت والوعد الذى تعدينى ... إلا كبرق سحابة لم تمطر

فى هذه القصيدة .

وقلت لها اعتللت بغير ذنب ... وشر الناس ذو العلل البخيل
ففاتينى إلى حكم من اهـ ... ـلى وأهلك لا يحيف ولا يميل
فقالت أبتغى حكما من اهلى ... ولا يدرى بنا الواشى المحول
فولينا الحكومة ذا سجوف ... أخا دين له طرف كليل

فقلنا ما قضيت به رضينا ... وأنت بما قضيت به كفيل
قضاؤك نافذ فاحكم علينا ... بما تهوى ورأيك لا يفيل
فقلت لها قتلت بغير حرم ... وغب الظلم مرتعه وبيل
فسل هذى متى تقضى ديونى ... وهل يقضيك ذو العلل المطول
فقالت إن ذا كذب وبطل ... وشر من خصومته طويل
أأقتله وما لى من سلاح ... وما بى لو أقاتله حويل
ولم آخذ له مالا فيلفى ... له دين على كما يقول
وعند أميرنا حكم وعدل ... ورأى بعد ذلكم أصيل
فقال أميرنا هاتوا شهوداً ... فقلت شهيدنا الملك الجليل
فقال يمينها وبذاك أقضى ... وكل قضائه حسن جميل
فبتت حفة ما لى لديها ... نقير أدعيه ولا فتيل
فقلت لها وقد غلب التعزى ... أما يقضى لنا يا بئن سول
فقالت ثم زجت حاجبيها ... أطلت ولست فى شىء تطيل
فلا يحدنك الأعداء عندى ... فتشكلنى وإياك الثكول

(٢) ومن أوصافه الحسية قوله :

سبتنى بعينى جؤذر وسط ربرب ... وصدر كفاثور اللجين وجيد

وقوله

لها مقلتا ريم وجيد جداية ... وكشح كطى السابرية أهيف
قناة من المران ما فوق حقوقها ... وما تحته منها نقا يتقصف

وقد أدخل هذا البيت الأخير بألفاظه فى قصيدة أخرى مغيرا كلمة القافية فقال :

قناة من المران ما فوق حقوها ... وما تحته منها نقا يتهيل

وقوله

هى البدر حسنا والنساء كواكب ... وشتان ما بين الكواكب والبدر
لقد فضلت حسنا على الناس مثلما ... على ألف شهر فضلت ليلة القدر

وهذا أقصى ما تغلغل فيه من الوصف الحسى ، على أنه كثيراً ما كان يصحبه بما يكسر من حدته ، فيقول مثلا : —

مخطوطة المتنين مضمرة الحشا ربا الروادف خلقها ممكور
غراء مبسام كأن حديثها در تحدر نظمه منثور
لا حسنها حسن ولا كدلالها دل ولا كوقارها توقير

وكثيراً ما كان يشرك مع محبوبته قريباتها ، دلالة منه على أن عشقه إلى الناحية العامة أرجع منه إلى الخاصة فيقول : —

إذا حميت شمس النار اتقينها بأكسية الديباج والخز ذى الخمل
نداعين فاستعجمن مشيا بذى الغضا دبيب القطا الكودى فى الدمث السهل
إذا ارتعن أو فزعن قمن حوالها قيام بنات الماء فى جانب الضحل

كما كان قد يسوى بينهن وبينها فيقول .

وبيض غريرات تثنى خصورها إذا قمن أعجاز ثقال وأسوق
عزائز لم يلقين بؤس معيشه يجن بهن الناظر المتشوق
يسكن بقضبان الأراك مفلجا يشعشع فيه القارسى المروق

وهو فى هاتين الناحيتين أقصر باعا وأحد قدرة من عمر ، إذا اجاراه فيهما انقطع وكان لعمر السابق ، أما فى الناحية العذرية فهو السابق المجلى ، لا يشق له بعمر ولا بغيره غبار .

رابعا — شعره فى غير النسيب

لم يفارق جميل النسيب العذرى الذى ملك عليه نفسه وشغل منه روحه وحسه ، إلى شىء من فنون الشعر الأخرى ، سوى الفخر والهجاء ، على أن معظم ماجاء منه فى هذين البابين ، لم يكن الدافع له إليه الا بثينة وهوى بثينة ، يفخر ليعظم فى عينها ، ويهجو قاصدا من وقف فى طريقها .

١ — فأما الفخر فمنه قوله يذكر حسبه وشجاعته وقد سأله مروان بن الحكم ، وكانا مسافرين أن ينزل فيرجز به ظناً منه أن يمدحه فقال .

أنا جميل فى السنام الأعظم ... الفارع الناس الأعز الأكرم
أحمى ذمارى وجدودى القرم ... كانوا على غارب طود خضرم
أعيا على الناس فلم يهدم

فقال له عد عن دا ، فقال مفتخراً أيضاً : —

لهفا على البيت المعدى لهفا ... من بعد ما كان قد استكفا
ولو دعا الله ومد الكفا ... لرجفت منه الجبال رجفا

فقال له اركب لاركبت .

ومنه قوله وقد كان مع الوليد بن عبد الملك فى سفر ، والوليد على نجيب وكان معهما مكين العذرى ، فقال مكين .

يا بكر هل تعلم من علاكا ... خليفة الله على ذراكا

فطمع الوليد فى مدح جميل ، وقال له انزل فارجز بنا فنزل فقال .

أنا جميل فى السنام من معد ... فى الذروه العلياء والركن الأشد
والبيت من سعد بن زيد والعدد ... ما يبتغى الأعداء منى ولقد
أضر بالشتم لسانى ومرد ... أقود من شئت وصعب لم أقد

فقال الوليد اركب لاحملك الله

وكثيراً ماكان يضمن مفاخره الأراجيز ، ولعل أكبر أرجوزة له فى الفخر تلك التى كانت بينه وبين آل قطبة أبناء عم بثينة وقد خلط فيها الحماسة بالفخر والهجاء كما هو شأنه وهى (وكانت بثينة تكنى أم عبد الملك) :

يا أم عبد الملك اصرمينى ... فبينى صرمى أوصلينى
أبكى وما يدريك ما يبكينى ... أبكى حذار أن تفارقينى
وتجعلى أبعد منى دونى ... إن بنى عمك أوعدونى
أن يقطعوا رأسى إذا لقونى ... ويقتلونى ثم لا يدونى
كلا ورب البيت لو لقونى ... شفعا ووترا لتوا كلونى
قد علم الأعداء أن دونى ... ضرباً كايزاغ المخاض الجون

ألا أسب القوم إذ سبونى بلى وما مر على دفين
وسابحات بلوى الحجون قد جربونى ثم جربونى
حتى إذا شابوا وشيبونى أخزاهم الله ولا يخزينى
أشباه أعيار على معين أحسسن حسى أسد حرون
فهن يضرطن من اليقين أنا جميل فتعرفونى
وما تقنعت فتنكرونى وما أعنيكم لتسألونى
أنمى إلى عادية طحون يشق عنها السيل ذو الشئون
غمر يدق رجح السفين ذو حدب إذا برى حجون
تنحل أحقاد الرجال دونى

قال العباس بن سهل — وكان حاضر هذه المراجزة — وقد غلب جميل جواساً ما رأيت غلبة مثلها قط .

ومن مفاخره غير الرجزية قوله وقد أطال المكث عند بثنة فحذرته أهلها :

لعمرك ما خوفتنى من مخافة بثين ولا حذرتنى موضع الحذر
فأقسم لا يلقى لى اليوم غرة وفى الكف منى صارم قاطع ذكر

وقوله يفخر بهذا الصارم :

معى صارم قد أخلص القين صقله نه حين أغشيه الضريبة رونق
فلولا احتيالى ضقن ذرعا بزائر به من صبابات إليهن أولق

وقوله مشبها نفسه بهذا الحسام :

وقد أبقت الأيام منى على العدا حساماً إذا مس الضريبة يفصل
ولست كمن إن سيم ضيما أطاعه ولا كامرىء إن عضه الدهر ينكل

ولقد كان عدم خوفه من قومها راجعاً إلى شجاعته لا لضعف فيهم ، وكيف ومنهم من يقول فيه :

إذا جئتها يوما من الدهر زائرا تعرض منقوض اليدين صدود
يصد ويغضى عن هواى ويجتنى ذنوبا عليها إنه لعنود
فأصرفها خوفا كأنى مجانب ويغفل عنا مرة فنعود

ولعل أجمع ما عرف من فخره قوله من فائيته الماضية يذكر عزة أهلها وقوته عليهم « ولست بناس أهلها حين أقبلوا » إلى آخرها فارجع إليه .

هذا وإن مفاخره لتدل على عزة قعساء أبت نفسه معها أن يمدح إنساناً ، حتى قيل إنه ما مدح أحداً قط وهذا حق يؤيده الواقع ويشهد له ما روينا من موقفه مع مروان والوليد ، ولذلك لم يعرف له مديح إلا مدحه لأخواله من جذام ، وليس فى الحق من المدح بل من الفخر بهم حيث يقول وقد لجأ إليهم فى رحلته إلى اليمن .

جذام سيوف الله فى كل موطن ... إذا أزفت يوم اللقاء أزومى
هم منعوا ما بين مصر فذى القرى ... إلى الشام من حل به وحرام
بضرب يزيل الهام عن سكناته ... وطعن كايزاغ المخاض تؤام
إذا قصرت يوما أكف قبيلة ... عن المجد نالته أكف جذام

٢ — وأما الهجاء فمنه قوله فى نبيه العذرى حين تزوجت منه بثينة معرضاً بعدم كفاءته لها .

لقد أنكحوا جهلا نبيها ظعينة ... لطفة طى الكشح ذات شوى جذل

وقوله فى ذلك أيضاً يخاطبها .

أعيذك بالرحمن من عيش شقوة ... وأن تطمعى يوما إلى غير مطمع

وقد تقدم فى أرجوزة الفخرية هجوه لآل قطبة وكانوا أول المؤلبين عليه الراصدين له كما سلف .

ومنه هجوه النخار العذرى أحد بنى الحارث حين قال إن قطبة كان خيراً من صباح ، وقد نال فيه من بنى الأحب قوم بثينة وهو .

إن أحب سفل أشرار ... حشالة عودهم خوار
أذل قوم حين يدعى الجار ... كما أذل الحارث النخار

فجميل كان شديد الهجاء مخشوه وإن لم يتجاوز به الوادى الذى حددناه .

وقف مرة على الحزين الديلى والحزين ينشد حتى إذا فرغ قال له كيف تسمع شعرى قال صالح طيب فغضب الحزين وقال : والله لأهجونك

وعشيرتك فقال جميل إذن تندم فأقبل الحزين يهمهم يريد هجاءه فأعجله جميل بقوله :

الديل أذناب بكر حين تنسبهم وكل قوم لهم من قومهم ذنب

فقامت له الديل وناشدوه الله إلا كف عنهم ، ولم يزالوا به حتى أمسك وانصرف .

هذا وما كان جميل يتهيب هجاء أحد إلا رجلين ، جعفر بن سراقة أحد بنى قرة ، وهدبة بن خشرم ، روى فى تأييد ذلك أن جعفراً هذا حين قال فى تفضيل قطبة على صباح هذه الأبيات

نحن منعنا ذا القرى من عدونا وعذرة إذا نلقى يهودا وبعثرا
منعناه من عليا معد وأنتم سفاسيف روح بين قرح وخيبرا
فريقان رهبان بأسفل ذى القرى وبالشام عدا نون فيمن تنصرا

وبلغ جميلا اتقاه وعلم أنه إذا هاجاه علا عليه ، فقال — وكانت بنو عامر من عذرة قد كلت فخالفت لأياً — يذمهما ويمدح قرة ليسكت عنه جعفر .

بنى عامر أنى انتجعتم وكنتمُ إذا حصل الأقوام كالخصية الفرد
فأنتم ولاى موضع الذل حجرة وقرة أولى بالعلاء وبالمجـــد

فأعرض عنه جعفر ، ولكن غضب لذلك هدبة فى سجنه إذ هو عامرى ، وكان جميل متعودا التردد عليه فى السجن ومده ، فلما دخل عليه بعد قوله هذا بنفقة وبردين قال له هدبة أنت يا بن قمئة الذى تقول (بنى عامر أنى انتجعتم وكنتم) وذكر الأبيات ، أما والله ائن خلص الله لى ساقى لأمدن لك فى مضمارك خذ برديك ونفقتك فخرج جميع حتى إذا بلغ باب السجن خارجا سمع وهو يقول (اللهم أغن عنى أجدع بن عامر) يريد هدبة .

وأخيرا — إذا كان جميل قد قصر قوله على بثينة نسيباً وساقه لأجلها فخرا وهجاء ، يمكن أن نقول إنه عاش لبثينة ومات فى بثينة ؛ ومن دلائل ذلك أنه لم يكثر أحد من العاشقين ذكر اسم معشوقته فى شعر كما أكثر جميل — وهو واضح فيما سبق من أشعار ، وأدل منه ما يذكر عنه أنه

كان يستمد العون منها ولا يعمل مايعمل إلا بها، روى أن توبة بن الحمير خرج مرة إلى الشام فمر ببنى عذرة فرأته بثينة فجعلت تنظر إليه لأنه صاحب ليلى الأخيلية، فشق ذلك على جميل وكان ذلك أول هواه لها فقال لتوبة هل لك فى الصراع قال ذلك إليك فصارعه فصرعه جميل، ثم قال له وهل لك فى النضال قال نعم فناضله فنضله جميل، ثم قال له وهل لك فى السباق قال نعم فسابقه فسبقه جميل، فقال له توبة يا هذا إنما تفعل ذلك بريح هذه الجالسة ولكن اهبط بنا إلى الوادى ففعل فصرعه توبة ونضله وسبقه :

خامسا — هل فى شعر جميل ما يعاب ؟

سؤال يمكن أن يجاب عنه بنعم، غير أنها تكون ضعيفة لا تعنى هاما، ضيقة الدائرة لا تتناول كثيراً، وهذا أقصى مايمكن أن يعاب على جميل :—

١ — قالت له بثينة وقد لقيته بعد تهاجر، ويحك ياجميل أتزعم أنك تهوانى وأنت الذى تقول :

رمى الله فى عينى بثينة بالقذى وفى الغر من أنيابها بالقوادح

فأطرق طويلا يبكى ثم قال بل أنا القائل

ألا ليتنى أعمى أصم تقودنى بثينة لا يخفى على كلامها

فقالت له ويحك مايحملك على هذه المنى أوليس فى سعة العافية ما كفانا جميعاً.

٢ — وكانت بثينة تعرف فى جميل قصوره عن عمر فى القصة، ذهب عمر إليها مرة حتى إذا وقف على أبياتها وتأنس قال يا جارية أنا عمر بن أبى ربيعة فأعلمى بثينة مكانى، فخرجت إليه فى مباذلها وقالت والله يا عمر لا أكون من نسائك اللاتى يزعمن أن قد قتلهن الوجد بك، فانكسر عمر ولم ينشدها من قوله وأنشدها قول جميل الذى يحاكيه فيه :

وهما قالتا لو ان جميلا عرض اليوم نظرة فرآنا

بينما ذاك منهما رأيانى أعمل النص سيره زيفانا

نظرت نحو تربها ثم قالت قد أتا وما علمنا فتانا

فقالت إنه استملى منك ما أملح

٣ — وقالت سكينة بنت الحسين لراوية جميل أليس صاحبك الذى يقول

فو تركت عقلى معى ما طلبتها ولكن طلابها لما فات من عقلى

قال نعم قالت فما أرى به من هوى إنما يطلب عقله .

٤ — وقد أخذوا عليه استعانته فى قوله :

وكأن طارقها على علل الكرى والنجم وهنا قد دنا لتغور

يستاف ريح مدامة معلولة بفتيت مسك أو سحيق العنبر

يقول النعمان بن بشير :

كأن الرضاب وصوب السحاب بات يشاب بذوب العسل

من الليل خالط أنيابها بعيد الكرى واختلاف العلل

وأنه أخذه منه . وأنا لا أرى فى هذا استعانة فضلا عن الأخذ لاختلاف مآخذ التشبيه فيهما ، ولأن لجميل تصرفات فى هذا المعنى ذكرنا منها قولين آخرين فيما مضى مع قوله هذا . إنما الذى كان يكون أخذا حقا لو قالوه هو قوله :

هى البدر حسنا والنساء كواكب وشتان ما بين الكواكب البدر

فقد أخذه بتصرف قليل من قول النابغة فى النعمان .

فإنك شمس والملوك كواكب إذا طلعت لم يبد منهن كوكب

وكذا قوله :

إذا قلت ما بى يا بثينة قاتلى من الحب قالت ثابت ويزيد

فقد أخذه بدون تصرف من قول الحطيئة :

إذا حدثت أن الذى بى قاتلى من الحب قالت ثابت ويزيد

٥ — وإنى مع استحسانى الكثير لأول بيتيه حيث يقول :

يا ليتنى ألقى المنية بغتة إن كان يوم لقائكم لم يقدر

أو أستطيع تجلداً عن ذكركم فيفيق بعض صبابتى وتفكرى

أراه فى بيته الثانى قد تمنى التجلد والصبر وليس هذا بالمستحسن فى مثل

هواه فمثل ذلك لا يحمد إلا إذا كان توطئة وتمهيداً لعذاب فى الهجر جديد كقوله من نفس القصيدة وهو آخر بيت فيها .

قلبى نصحت له فرد نصيحتى فمتى هجرته فمنه أكثرى

أو لم تك فيه هذه الصراحة كقوله .

تعز وإن كانت عليك كريمة لعلك من رق لبثنة تعتق

ومن هذه الناحية يؤخذ عليه قوله :

فقدتك من نفس شعاع فإننى نهيتك عن هذا وأنت جميع

وقوله :

عدمتك من حب أما منك راحة وما بك عنى من من توان ولا فتر

وكذا قوله :

أفى كل يوم أنت محدث صبوة تموت لها بدلت غيرك من قلب

٦ — ولم يكن يجمل بالذى يقول :

وإن تك قد حالت عن العهد بيننا وأصغت إلى قول المؤنب والمزرى

فسوف يرى منه صدود ولم تكن بنفسى من أهل الخيانة والغدر

أن يقول شاكا فى مودتها مصيخاً إلى قول الوشاة فيها .

بينا حبال ذات عقد لبثنة أتيح لها بعض الغواة فحلها

فعدنا كأنا لم يكن بيننا هوى وصار الذى حل الحبال هوى لها

وقالوا تراها يا جميل تغيرت وغيرها الواشى فقلت لعلها

إذ ما كان أحراه أن يكون قوله هنا مثل ما قدمنا له فى الوشاة وإنه لكثير كقوله .

وما زادها الواشون إلا كرامة على وما زالت مودتها عندى

وقوله .

وما زادنى الواشون إلا صبابة ولا كثرة الناهين إلا تماديا

٧ — ولو أنصف لاستبدل بكلمته الأخيرة الدالة على القلة فى قوله .

وإنى وتكرارى الزيارة نحوكم بثين لذو هجر بثين يطول

وإن صباباتى بكم لكثيرة بثين ونسانيكم لقليل

كلمة أخرى دالة على العدم حتى يبقى على هذا المعنى ما يريد له من قوة وجلال .

٨ — ولست أستسيغ فى قوله .

إذا ما تراجعنا الذى كان بيننا جرى الدمع من عينى بثينة بالكحل

كلانا بكى أو كاد يبكى صبابة إلى إلفه واستعجلت عبرة قبلى

أشياء : منها قوله « أو كاد يبكى » بعد قوله « كلانا بكى » فإنه سلبه قوته وأضعفه . ومنها جعله البكاء من بثينة يسبق بكاءه إذ المألوف المتعارف فى الموله أمثاله أن يكونوا أشد جزعا وأسبق بكاء إن لم ينفردوا بالبكاء دون اللائى يحبون . ومنها أن لفظ قبلى على ما أفسد من معنى قد جاء مكررا مع قوله فى نفس القصيدة .

خليلى فيما عشتما هل رأيتما قتيلا بكى من حب قاتله قبلى

وهو البيت الذى غطى بحسنه على ما كان قبله من هنات .

٩ — ولقد كان ينبغى أن يصرح بأن الخوف فى قوله .

أرانى لا ألقى بثينة مرة من الدهر إلا خائفاً أو على رحل

وقوله :

فأصرمها خوفاً كأنى مجانب ويغفل عنا مرة فنعود

إنما كان على بثينة لا عليه حتى يتشاكل مع قوله عن نفسه .

لعمرك ما خوفتنى من مخافة بثين ولا حذرتنى موضع الحذر

فاقسم لا يلقى بى اليوم غرة وفى الكف منى صارم قاطع ذكر

ومع قوله كذلك

ولو أن الفا دون بثنة كلهم غيارى وكل مزمعون على قتلى

لحاولتها إما نهارا مجاهرا وإما سرى ليلى ولو قطعوا رجلى

ومع قوله عنهن

فلولا احتيالى ضقن ذرعاً بزائر له من صبابات اليهن أولق

١٠ — ولولا أن قوله لبثينة

يا أم عبد الملك اصرمينى فبينى صرمى أو صلينى

كان بدء أرجوزة يفاخر فيها ابنى عمها جواس وعبيد الله ، لأخذناه عليه كما أخذ على الأحوص قوله .

فإن تصلى أصلك وإن تعودى لهجر بعد وصلك لا أبالى

فإن الهوى الحق أن يكون العاشق كما قال الأحوص .

أدور ولولا أرى أم جعفر بأبياتكم ما درت حيث أدور

وما كنت زوارا ولكن ذا الهوى إذا لم يزر لابد أن سيزور

لقد منعت معروفها أم جعفر وإنى إلى معروفها لفقير

ومع ذلك هو مأخوذ عليه ، إذ لا يليق من مثله لمثل بثينة أن يقول ذلك بحال ، لأنه لا يتفق وصدق هواه .

ذلك أقصى ما يمكن أن يعاب على شعر جميل ، وهو كما ترى هين نزر لا يطعن فى فحولته وإمامته ، وكم كنت أتمنى أن يصلنا ديوانه الذى كان معروفاً على أيام ابن خلكان وغير موقوف على خبره الآن ، إذ كانت تزخر أمامنا من شعره أودية لا واد ، تمدنا بالكثير فيما أردنا وبالجديد فيما جهلنا ، حتى إذا ما تعرضنا لترجمة أبرزتاها ملائمة لشخصيته متفقة مع مكانته ، ولكن حسبنا الآن ما قدمنا ، والله المرجو فى العثور على هذا الديوان المفقود .

عبد الحميد الكاتب

أولا — نسبه ونشأته وموته

هو عبد الحميد بن يحيى بن سعيد مولى ابن عامر ، نشأ بالأنبار كما ينشأ أبناء الموالى مقبلا على العلوم يستوعبها وعلى اللغة وآدابها يحذق فنونها ، ليكون ذلك زلفى إلى أصحاب الدولة ورجالاتها ، فقرأ القرآن وحفظ الحديث وروى المنثور والمنظوم وألم الإلمام الواسع بما أثر عن العرب وعن غير العرب من سير وأخبار ، وقد ساعده على هذا النبوغ طبع صاف واستعداد واف ، على تردد كثير إلى مصر من أمصار الأدب العربى إذ ذاك هو الكوفة القريبة منها الأنبار .

وأول ما عرف عرف معلم صبيان بالكوفة ، ولكنه لم يلبث أن غادرها إلى الشام مقر الملك والسلطان وموطن الخلفاء والعظماء ، فاتصل بسالم مولى هشام بن عبد الملك والقائم على ديوان الرسائل فى عهده ، ومن ثم أخذ نبوغه يتحول إلى ناحية الكتابة ويتركز فى صناعتها بحكم هذه الصلة بصاحب ديوانها ، فأحبه سالم وزاد فى تقريبه ، حتى زوجه من إحدى قريباته ، فكان بذلك فى يمينه وأقرب الكتاب إليه . وفى هذا الدور دور اتصاله بسالم أحاط خبراً بأعمال ديوان الرسائل ، وخالط عن كثب تصريف الأمور فيه ، ووقف على ما هدت إليه التجارب من وضع نظمه وتنسيق أعماله أيام خلافة هشام التى طال أمدها وكان لسالم المقام الكبير فيها ، وهل أدل على ذلك من أن يقول هشام وقد أراد قوم لفته عن سالم ، هذا البيت متمثلا .

يديرونى عن سالم وأديرهم ... وجلدة بين العين والأنف سالم

وفى هذا الدور أيضاً تسرب إلى كتابته مزاج من محاسن اليونانية وآدابها ، إذ كان سالم يحذقها ويعمل على نفع الكتابة العربية بمزايا كتابتها ، ولذا ترجم منها إلى العربية رسائل كرسائل أرسطو إلى الأسكندر فكانت بجوار ما

ابتكر فى الرسائل العربية أول ما عرف فى النوعين عن صناعة الإنشاء ووضع أصولها .

وقد اطمأن سالم إلى تمام نضج عبد الحميد فى الكتابة حتى كان يترك إليه توجيه بعض الرسائل إلى الأقاليم عن لسان هشام ، ذكر ابن طيفور فى الجزء الثالث عشر من كتابه « اختيار المنظوم والمنثور » رسالة كتبها عبد الحميد عن هشام إلى يوسف بن عمر واليه على اليمن فى السلامة وفيها يقول : فإن أمير المؤمنين كتب إليك وهو فى نعمة الله عليه وبلائه عنده فى ولده وأهل بيته ، والخاص من أموره والعـــام ، والجنود والقواصى والثغور والدهماء من المسلمين ، عـلى مالم يزل ولى النعم يتولاه من أمير المؤمنين ، حافظاً له فيه مكرماً له بالحياطة ، لما ألهمه الله فيه من أمور رعيته على أعظم وأحسن وأكمل ما كان يحوطه فيه ويندب له عنه ، والله محمود مشكور إليه فيه مرغوب . أحب أمير المؤمنين لعلمه بسرورك به أن يكتب إليك بذلك لتحمد الله عليه وتشكره به ، فإن الشكر من الله بأحسن المواضع وأعظم المنازل ، فازدد منه تزدد به وحافظ عليه تحفظ به وارغب فيه يهد إليك مزيد الخير ونفائس المواهب وبقاء النعم ، فاقرأ على من قبلك كتاب أمير أمير المؤمنين إليك ليسر به جندك ورعيتك ومن حمله الله النعم بأمير المؤمنين ، ليحمدوا ربهم على ما رزق الله عباده من سلامة أمير المؤمنين فى بدنه ورأفته بهم واعتنائه بأمورهم ، فإن زيادة الله تعلو شكر الشاكرين والسلام .

ولما نبه شأن عبد الحميد وذاع نبوغه اتخذه مروان بن محمد والى الجزيرة وما إليها ، كاتب سره وصاحب ديوان رسائله ، فكان من حظ الكتابة وحظه أن اتخذ عبد الله بن المقفع له صديقاً وخليلا واتخذه عبد الله كذلك وتوثقت بينهما عرى المودة والألفة حتى كانا لا يكادان يفترقان ، فكانت إجادة ابن المقفع للفارسية واشتغاله بنقل كثير من آدابها إلى العربية لقاحا جديداً لكتابة عبد الحميد أفادها كما أفادها المزاج اليونانى آنفا ، فنضجت بهذين الغذاءين المريئين مهما ، دون أن يكون لهما سوء أثر فى أسلوبه العربى ،

لأنه عاش ما عاش لا يعرف أدب هاتين اللغتين إلا عن طريق الترجمة والنقل، ولذا بقى أسلوبه على ما استفاد منهما عربياً خالصاً، فتجدد على يده لمروان أكثر مما تجدد على يد أستاذه سالم لهشام، وأخذت الطريقة التى ابتكرها سالم ونماها عبد الحميد تسير إلى الأمام قدما فى سرعة ونهوض، وإنى لمثبت هنا رسالة صدرت عن ديوان مروان غير شاك أنها من صنع عبد الحميد وأن القارىء لها لا يعدو أن ينضم معى فى هذا اليقين تلك هى رسالته بالبيعة إلى الوليد بن يزيد سنة ١٢٥ وفيها يقول :

بارلا الله لأمير المؤمنين فيما أصاره إليه من ولاية عباده ووراثة بلاده، وكان من تغشى غمرة سكرة الولاية ما حمل هشاماً على ما حاول من تصغير ما عظم الله من حق أمير المؤمنين، ورام من الأمر المستصعب عليه الذى أجابه إليه المدخولون فى آرائهم وأديانهم، فوجد ما طمع فيه مستصعبا وزاحمته الأقدار بأشد مناكبها، وكان أمير المؤمنين بمكان من الله حاطه فيه حتى آزره بأكرم مناطق الخلافة، فقام بما أراه الله له أهلا ونهض مستقلا بما حمل منها، مثبتة ولايته فى سابق الكتب بالأجل المسمى، خصه الله بها على خلقه وهو يرى حالاتهم فقلده طوقها ورمى بأزمتها وعصم الأمور، فالحمد لله الذى اختار أمير المؤمنين لخلافته ووثائق عرى دينه، وذب له عما كاده فيه الظالمون فرفعه ووضعهم. فمن أقام على تلك الخسيسة من الأمور أوبق نفسه وأسخط ربه، ومن عدلته التوبة نازعاً عن الباطل إلى حق وجد الله توابا رحيما. أخبر أمير المؤمنين أكرمه الله أنى عندما انتهى إلىّ من قيامه بولاية خلافة الله، نهضت إلى منبرى على سيفان مستعداً بهما لأهل الغش حتى أعلمت من قبلى ما امتن الله به عليهم من ولاية أمير المؤمنين، فاستبشروا لذلك وقالوا لم تأتنا ولاية خليفة كانت آمالنا فيها أعظم ولا هى لنا أسر من ولاية أمير المؤمنين، وقد بسطت يدى لبيعتك فجددتها ووكدتها بوثائق العهود وترداد المواثيق وتغليظ الأيمان، فكلهم حسنت إجابتهم وطاعتهم، فأثنهم يا أمير المؤمنين بطاعتهم من مال الله الذى آتاك، فانك أجودهم جوداً

وأبسطهم يداً، وقد انتظروك راجين فضلك قبلهم بالرحم الذى استرحموك وزدهم زيادة تفضل بها من كان قبلك ، حتى يظهر بذلك فضلك عليهم على رعيتك . ولولا ما أحاول من سد الثغر الذى أنا به لخفت أن يحملنى الشوق إلى أمير المؤمنين أن أستخلف رجلا عن غير إمرة وأقدم لمعاينة أمير المؤمنين فأما لا يعدلها عندى عادل نعمة وإن عظمت ، فإن رأى أمير المؤمنين أن يأذن لى فى المسير إليه بعد ، لأشافهه بأمور كرهت الكتابة بها فعل .

مكث عبد الحميد بالجزيرة مع مروان حتى اضطرب أمر الملك بعد قتل الوليد بن يزيد على يد ابن عمه يزيد بن الوليد ، فلم يخاص مروان ليزيد وأخذ يمهد الطريق لنفسه متظاهراً بالمطالبة بدم الوليد ومستعيناً بقلم كاتبه عبد الحميد ، وهذى رسالة أخرى صدرت من ديوانه إلى الغمر بن يزيد أخى الوليد يأمره فيها بطلب دم أخيه ، ولا نشك أيضاً أنها من إنشاء عبد الحميد، قال ومنها على ما ذكره الطبرى ج ٩ ص ٣٤ :

أما بعد فان هذه الخلافة من الله على مناهج نبوة رسله وإقامة شرائع دينه ، أكرمهم الله بما قلدهم يعزهم ويعز من يعزهم ، والحين على من ناوأهم فابتغى غير سبيلهم ، فلم يزالوا أهل رعاية لما استودعهم الله منها ، يقوم بحقها ناهض بأنصار لها من المسلمين ، وكان أهل الشام أحسن خلقه فيه طاعة وأذبه عن حرمه وأوفاه بعهده وأشده نكاية فى مارق مخالف ناكب عن الحق ، فاستدرت نعمة الله عليهم ، وقد عمر بهم الأسلام وكبت بهم الشرك وأهله وقد نكثوا أمر الله وحاولوا نكث العهود ، وقام بذلك من أشعل ضرامها وإن كانت القلوب عنه نافرة ، والمطلوبون بدم الخليفة ولاية من بنى أمية ، فإن دمه غير ضائع وإن سكنت بهم الفتنة والتأمت الأمور فأمر أراده الله لا مرد له. قد كتبت بحالك فيما أبرموا وما ترى ، وإنى مطرق إلى أن أرى غيرا فأسطوا بانتقام وأنتقم لدين الله المتبول وفرائضه المتروكة بجانة ، ومعى قوم أسكن الله طاعتى قلوبهم، أهل إقدام إلى ماقدمت بهم عليه ، ولهم نظراء صدورهم مترعة ممتلئة او يجدون مترعاً ، وللنقمة دولة تأتى من الله ووقت

موكل ، ولم أشبه محمداً ولا مروان إن لم أشمر للقدرية إزارى وأضربهم بسيفى ورمحى جار حاً وطاعنا ، يرمى قضاء الله فى ذلك حيث أخذ ، أو يرى فى عقوبة الله حيث بلغ منهم فيها رضاه ، وما إطراقى إلا لما أنتظر مما يأتينى عنك ، فلا تهن عن ثأرك بأخيك فإن الله جارك وكافيك وكفى بالله طالباً ونصيرا .

هذا ومع أن مروان بايع ليزيد فقد بقى يعمل لنفسه حتى جاءه الأمر من دمشق بالخلافة سنة ١٢٧ فسجد وسجد من معه إلا عبد الحميد فقال له مروان لم لا سجدت فقال ولم أسجد ؟ على أن كنت معنا فطرت عنا قال إذن تطير معى . قال الآن طاب السجود وسجد ، ثم شخص معه إلى دمشق فكان على ديوان الرسائل بها طول خلافته ، وهى وإن لم تبلغ خمس سنوات أنتجت فى الكتابة أطيب الثمرات

فقد كانت الاضطرابات والفتن وظهور الدعوة العباسية فيها ، باعثة لعبد الحميد أن يكتب وأن يتصرف فيما يكتب ، حتى أظهر من النبوغ فى فنون الكتابة والتفرد بكثير من جديدها ما جعل الناس يقولون عنه مجمعين ، بدئت الكتابة بعبد الحميد وختمت بابن العبيد ، ثم يلقبونه كذلك بشيخ الكتاب .

ولما اشتد الطلب على مروان بعد تتابع هزائمه ضن بعبد الحميد أن يقتل معه ، لبالغ فضله وعظيم منزلته فقال له ، قد احتجت أن تصير مع عدوى وتظهر الغدر بى فإن إعجابهم بأدبك وحاجتهم إلى كتابتك تحوجهم إلى حسن الظن بك ، فإن استطعت أن تنفعنى فى حياتى وإلا لم تعجز عن حفظ حرمى بعد وفاتى ، فقال له عبد الحميد ، إن الذى أشرت به على أنفع الأمرين لك وأقبحهما بى وما عندى إلا الصبر حتى يفتح الله تعالى عليك أو اقتل معك وأنشد .

أسر وفاء ثم أظهر عذرة فمن له بعذر يوسع الناس ظاهره

ولما قتل مروان كان عبد الحميد عند صديقه عبد الله بن المقفع ففاجأه الطلب ، فقال الذين دخلوا عليهما أيكما عبد الحميد ، فقال كل واحد منهما أنا خوفا

على صاحبه، وخاف عبد الحميد أن يسرعوا إلى ابن المقفع فقال ترفقوا بنا فإن لكل منا علامات فوكلوا بنا بعضكم ويمضى بعض آخر يذكر تلك العلامات لمن وجهكم، ففعلوا وأخذ عبد الحميد إلى السفاح فسلمه إلى صاحب شرطته عبد الجبار بن عبد الرحمن فكان يحمى له طستا يضعه على رأسه حتى مات سنة ١٣٢، وهذه رسالته إلى أهله وهو منهزم مع مروان ولعلها آخر ما كتب.

قال على ما ذكر ابن نباتة فى كتابه سرح العيون ص ١٦٥

أما بعد فإن الله تعالى جعل الدنيا محفوفة بالكره والسرور، فمن ساعده الحظ فيها سكن إليها ومن عضته بنابها ذمها ساخطا عليها وشكاها مستزيداً لها، وقد كانت أذاقتنا أفاويق استحليناها ثم جحت بنا نافرة ورحتنا مولية، فملح عذبها وخشن لينها، فأبعدتنا عن الأوطان وفرقتنا عن الأخوان، فالدار نازحة والطير بارحة، وقد كتبت والأيام تزيدنا منكم بعداً وإليكم وجداً، فإن تتم البلية إلى أقصى مدتها يكن آخر العهد بكم وبنا، وإن يلحقنا ظفر جارح من أظفار من يليكم نرجع إليكم بذل الأسار والذل شرجار، نسأل الله الذى يعز من يشاء ويذل من يشاء أن يهب لى ولكم ألفة جامعة فى دار آمنة تجمع سلامة الأبدان والأديان فإنه رب العالمين وأرحم الراحمين.

ثانياً — طريقته فى الكتابة وفضله عليها

لم يكن العهد الجاهلى عهد ترسل وإنشاء، لأن طبيعة عيشه البدوى كانت تأباه وهى فى غير حاجة إليه، ولذلك انقضى كله غن غير ترسل، ولكن الإسلام إذ جاء بملك وسلطان ورث فيه العالم المتحضر بعد، فى أملاك فارس والروم، وجد الترسل بحكم هذا الملك الجديد، وسرعان ما راسل رسول الله صلى الله عليه وسلم الملوك وذوى الرياسات إيذانا برسالته وطلبا لإجابته برسائل شتى، وكذلك سار خلفاؤه من بعده، وكثر ترسلهم باتساع سلطانهم وامتداد نفوذهم فتولد من كتابة الترسل ضرب من

الانشاء تملك زمام الفصاحة والبلاغة فى سداد قصد ونبل غرض وقوة أداء وتمام إيجاز، مع محاكاة للقرآن فى الجزالة البعيدة عن الغرابة وفى امتداد الجمل الخالى من التعقيد حتى نعت عن جدارة واستحقاق بالسهل الممتنع.

وقد استمرت الكتابة طوال صدر الإسلام شركة بين رجاله لا يختص بها فريق دون آخر، فالنبى وخلفاؤه كانوا كلهم كتاباً ينشئون بملكتهم ويكتبون بأيديهم أو يملون غيرهم، وقل أن يكلف أحدهم غيره الكتابة عنه، وإذا حدث لم لك إلا كما يفعل الأخ للأخ والصديق للصديق، ولهذا لم توجد طائفة خاصة تعرف باسم الكتاب، غير أنه لما اتسعت الفتوح على عهد عمر رحمه الله وغزرت موارد الدولة ووفرت الغنائم، احتاجت الدولة إلى إنشاء ديوان يضبط هذا الوارد ويحصى الصادر، وبخاصة أعطيات الجنود، فأنشأه عمر رضى الله عنه، وبقى أيامه وأيام الخليفتين من بعده قصراً على الضرورى من هذه الناحية، أما سائر فروع الكتابة الديوانية على كثرة تشعبها وامتداد غصونها، فكانت تؤدى بلغات الأمم المفتوحة. الفارسية فى فارس والرومية بالشام والقبطة بمصر، ولم يك بد للدولة الناشئة من هذه الاستعانة لقرب عهدها بالبداوة ولاستحالة التعريب عليها فى هذه الدواوين ذات الأمور الاصطلاحية المختلفة الألوان، وأنى لها التعريب لو تجشمته قبل أن ينشأ جيل عربى يعرف لغات الأمم المفتوحة وآخر من أبناء هذه الأمم يجيد لغة العرب، ثم أنى لذلك أن يتم قبل فترة من الزمن لم تك قد مرت بعد لتنشئة هذين الجيلين.

ولما انقضى صدر الإسلام وجاء العهد الأموى ورث ذلك النوع من الكتابة وسار فيه كما كان، ثم انقضى صدره السفيانى على هذا الغرار ذى التبسط فى أطرافه، والسهولة فى عباراته، والإيجاز فى مقادره، والخلو من التكلف فى ألفاظه ومعانيه، وكان خلفاء هذا الصدر يكتبون بأنفسهم، أو يملون غيرهم كما كان يفعل النبى صلوات الله عليه وخلفاؤه الراشدون وعلى هذا انتهى العهد السفيانى دون أن يحدث فى الكتابة جديد إلا ما كان

من إنشاء معاوية ديوان الخاتم ، ومهمته أن يرسل إليه ما يكتب الخليفة ليصدر منه مختوماً لا يعرف حامله ما دون فيه ، وكان سبب إنشائه على ما ذكر الفخرى فى كتابه « الآداب السلطانية » أن معاوية أحال رجلا على زياد وإلى العراق بمائة ألف درهم ، فقرأ الرجل الكتاب وكان غير مختوم وجعل المائة مائتين، ولما رفع زياد حسابه إلى معاوية أنكر ذلك ثم تبين حقيقة الأمر فاستعاد المال من الرجل وأمر بإنشاء ديوان الخاتم ، ولسنا من القائلين بأن استعانة هؤلاء جميعاً بمن كانوا يستعينون بهم ولا إقامة معاوية لديوان الخاتم تعتبر إيجاداً لديوان الرسائل ، فما كانت استعانتهم متجاوزة حدود الأملاء وما كانت الدواوين العربية بمعناها قد وجدت بعد .

ولكن حدث منذ عهد عبد الملك واستقرار الأمور له أن حولت الدواوين من الرومية فى الشام والفارسية فى العراق إلى العربية ، كما حول ديوان مصر من القبطية إليها فى عهد ابنه الوليد، فعجت هذه الدواوين جميعاً بأبناء العربية ومن حذقها من أبناء الأمم المفتوحة ، وجعل لكل عمل من أعمال الدولة ديوان على شبه من النسق المعروف الآن فى الوزارات والمصالح ، وتبع هذا تشعب لأنواع الرسائل وكثرة فى صادرها وواردها، فعجز أورفه الخلفاء عن أن يلوا أمورها بأنفسهم وأنتج كل هذا خلقاً لديوان جديد بازاء هذه الدواوين هو ديوان الرسائل ، وقد كان يعهد به إلى كل ذى مكانة فى الكتابة يعرف بصاحب ديوان الرسائل ومن هنا أخذت الكتابة تسير نحو الفنية وتتحول إلى صناعة ينشأ عليها فتنة ديوان الرسائل، وبغير هذه التنشئة لا يصلحون أن يكونوا كتاباً فيه ، غير أن هذا التأثر بالفنية واتخاذ مزايا الصناعة لم يظهر إلا فى أيام هشام بن عبد الملك على يد صاحب ديوانه أبى العلاء سالم بن عبد الله مولاه ، فقد كان ينوب عنه فى الإنشاء بعد تعرف رأيه أو الاطلاع على توقيعه، كما ترى فى رسالة هشام إلى خالد القسرى وإليه على العراق المثبتة بتوقيع سالم آخر الجزء الثانى من كامل المبرد، وبذلك تزحزحت الكتابة عن حالتها السابقة ذات التبسط والاطلاق إلى نظم

ذال شرائط وقيود ، وتتلمذ عليه كثير كان أقربهم إليه وأشدهم تأثراً بطريقته وأقدرهم على الزيادة فيها ، صاحبنا الذى نترجمه عبد الحميد بن يحيى على عهد توليه الكتابة لمروان بن محمد فى الجزيرة والياً وفى دمشق من بعدها خليفة ، فقد فاق أستاذه سالما ونبغ فى صناعة الإنشاء نبوغا أتم ما بدأه سالم ، وكان الأساس لدولة الكتابة فى العصر العباسى الأول ، وذلك لأنه نشأ نشأة عربية بحتة وغذاها بعد بغذاء يونانى من سالم وآخر فارسى من ابن المقفع ، بطريق ترجمتها عن هاتين اللغتين لامعرفته هو لهما كما أسلفنا ، وأنتج إنتاجاً كبيراً جعل ابن النديم ينسب إليه مجموعة رسائل قال إنها تبلغ ألف ورقة ، فى حين قال عن مجموعة أستاذه سالم إنها مائة ورقة فحسب ، ولهذا نسب بدء الكتابة إليه ولقب شيخ الكتاب غير مدافع واعتبرو وصناعة الإنشاء فى آخر العهد الأموى وأول العهد العباسى شيئاً واحداً ، وماكانت هذه الأشياء لتنسب له جزافا أو يلقى بها إليه إلقاء لو لم يك له من الفضل على الكتابة ما أنطق الناس مجمعين وراضين بالتسليم له فيها ، هذا وإنا لآخذون فى تدوين هذا الفضل وأماراته مستدلين عليه ومستشهدين له بما وصل إلينا متناثراً من مأثوره فى ثنايا الكتب وتضاعيف الأخبار ، فإن تلك المجموعة التى ذكرها ابن النديم قد ذهبت فيما ذهب ولم يبق إلا تعريفه عنها ، ولولا فهرسه ماكان للناس بها علم ولا خبر .

واليك طرفا من آيات هذا الفضل نسوقه واحدة تلو أخرى .

١ — المبادئ والخواتيم

لم يكن لكتاب صدر الإسلام والدولة الأموية إلى عهد عبد الحميد نظرة فى رسائلهم إلى غير مافى كنه الموضوع المكتوب فيه ، ولذلك كانوا يقدمون على مبادئها إقداما هينا يسيراً لا يجاوز ذكر المكتوب له والمكتوب اليه ثم تحميد الله والصلاة على نبيه بأوجز الصيغ وأيسر الأساليب ، وكذلك كانوا يخرجون من الخواتيم فلا يذكرون فيها إلا السلام

وإذا زادوا عليه شيئا لم يعد أمثال المشيئة والحسبلة، ولكن عبدالحميد أطال فى الأمرين إطالة باسقة وتصرف فيهما تصرفاً كبيراً

ففى الفواتح كان يأتى بكثير من صيغ التحميدات المختلفة الأساليب المتنوعة المعانى فى سطور لا جملة، وإليك من ذلك صورة فى كتاب فتح يقول فيها .

الحمدلله العلى مكانه، المنير برهانه، العزيز سلطانه، الثابتة كلماته، الشافية آياته، النافذ قضاؤه، الصادق وعده. الذى قدر على خلقه بملكه، وعز فى سماواته بعظمته، ودبر الأمور بعلمه، وقدرها بحكمه على ما يشاء من عزته، مبتدعاً لها بانشائه إياها، وقدرتها عليها واستصغار عظيمها، لا تجرى إلا على تقديره، ولا تنتهى إلا إلى تأجيله، ولا تقع إلا على سبق من حتمه، كل ذلك بلطفه وقدرته وتصريف وحيه، لا معدل له عنه ولا سبيل لها غيره ولا علم لأحد بخفاياها إلا هو فإنه يقول فى كتابه الصادق «وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو»

ثم يأخذ بعد ذلك فى المقصود الذى لا سبيل إلى نقله لطوله .

وفى الخواتيم كان يعمد إلى الطول بمثل هذا التنويع، ولكن فى صيغ الدعاء وأساليبه، وهذه واحدة منها فى آخر كتاب بعث به إلى أخيه مخبرا له بمولود كان أول ما رزق من أبناء يقول فيها : —

فأسأل الله الذى من علينا بحسن صنعه فى الأرحام تأديبه بالذكاء وحراسته بالعافية، وأن يرزقنا شكر ما حملنا فيه وفى غيره، وأن يجعل ما يهب لنا من سلامته والمد فى عمره مرصداً بالزيادة مقرونا بالعافية محوطاً من المكروه، فانه المنان بالمواهب والواهب للنى لا شريك له، حملنى على الكتاب اليك بعلم ما سررت به علمى بحالك فيه وشركتك إياى فى كل نعمة أسداها إلى ولى النعم، وأهل الشكر أولى بالمزيد من الله جل ذكره والسلام عليك .

ومما يذكر من سومه فى المبادى، والخواتيم فوق ما تقدم من الأطالة

فيها بصيغ التحميد فى الأولى والدعاء فى الثانية ، مراعاته اختلاف معانيها باختلاف أغراض كتبها، وعدوله عنها فى الكتب التى لا تقتضيها، كأن يختمها فى العهود بأمثال قوله تعالى « وكفى بالله شهيدا » ، وفى المشارطات بأمثال قوله « حسبنا الله ونعم الوكيل » ، وفى التعازى بآية الاسترجاع « إنا لله وإنا إليه راجعون » ، وهكذا .

٢ — الأطناب والإيجاز

مالت الكتابة قبل عبد الحميد إلى الإيجاز أكثر مما مالت إلى الأطناب ، ولا سيما فى صدر الاسلام والعهد السفيانى من العصر الأموى، فلم يك فيها خلالها من الأطناب إلا اليسير ، ولكنها قبيل عهده فى العصر المراوانى بدأت تخطو إلى الأطناب بما كان من عبد الملك فى بعض رسائله إلى الحجاج وإجابات الحجاج عنها، ومن سالم أستاذ عبد الحميد فى بعض رسائله عن لسان الخليفة هشام كرسالته إلى خالد القسرى وغيرهما ، ولكنها لم تبلغ فى ذلك بعض ما بلغته أيام عبد الحميد ، فقد تفجرت ينابيع الكتابة على يديه وأطال فى بعض ما كتب إطالات لم يك للناس بها عهد ولا إلى الحد الذى بلغته حدس . روى أنه حين أعلن أمر أبى مسلم الخراسانى بالدعوة العباسية ، كتب اليه عن لسان مروان خليفته كتاباً كبير الحجم حمل إليه على بعير وقالى لمروان عنه « لقد كتبت إليه كتاباً متى قرأه بطل تدبيره فان يك ذاك وإلا فالهلاك » ، وكأن أبا مسلم خشى هذا التأثير إذا قرأ الكتاب فلم يكد يصله حتى أمر بإحراقه قبل أن يقرأه وكتب على جذاذة منه إلى مروان هذا البيت :

محا السيف أسطار البلاغة وانتحى عليك ليوث الغاب من كل جانب

وإنى استعظمت أن يكون السبب فى حمل هذا الكتاب على بعير ، كبر حجمه حتى عثرت على تعليق بشأنه لابن أبى الحديد فى شرحه لنهج البلاغة استبعد فيه أيضاً أن يكون الحجم إلى الدرجة التى لا يحمله معها إلا بعير ،

وجعل سبب الحمل تعظيم أمر الكتاب والتنبيه على رفعة شأنه بعد أن ذكر عنه ما ذكر من ضخامة ولكن لا إلى الحد المذكور . على أنه قد بقى من آثار عبد الحميد ما يدل على طول باعه فى الكتابة وامتداد شوطه فى حلبتها . فقد قال القلقشندى فى الجزء العاشر من كتابه صبح الأعشى ما نصه « كتب عبد الحميد بن يحيى الكاتب عن مروان بن محمد لبعض ولاته » ثم ساق بعد هذا النص رسالة بدأت بالصفحة ١٩٥ وانتهت فى الصفحة ٢٣٣ مذيلة بهذه العبارة « وكتب سنة تسع وعشرون ومائة » . ثم دل ابن طيفور فى كتابه « المنظوم والمنثور » أن تلك الرسالة كانت لولى عهد مروان ابنه عبد الله ابن مروان حين توجه لمحاربة الضحاك بن قيس الشيبانى رأس الخوارج وأثبتها فى ستمائة سطر بالخط الدقيق . وهى قد جاءت فى أكثر من هذه السطور بالصبح إذ شغلت ٣٩ صفحة نصيب كل منها ١٩ سطرا فضؤل إزاءها كل ما طول فى أمثالها بعد كعهد طاهر بن الحسين إلى ابنه عبد الله ابن طاهر ، وهذه نبذة من أولها يقول فيها .

أما بعد فإن أمير المؤمنين عندما اعتزم عليه من توجيهك إلى عدو الله الجلف الجافى الأعرابى المتسكع فى حيرة الجهالة وظلم الفتنة ومهاوى الهلكة ، ورعاعه الذين عاثوا فى الأرض فسادا وانتهكوا حرمة الإسلام استخفافا وبدلوا نعمة الله كفرا واستحلوا دماء أهل سلمه جهلا ، أحب أن يعهد إليك فى اطائف أمورك وعوام شئونك ودخائل أحوالك ومصطرف تنقلك ، عهدا يحملك فيه أدبه ويشرع لك به عظته ، وإن كنت بحمد الله من دين الله وخلافته بحيث اصطنعك الله لولاية العهد مختصاً لك بذلك دون لحمتك وبنى أبيك ، ولولا ما أمر الله تعالى به دالا عليه وتقدمت فيه الحكماء آمرين به من تقديم العظة والتذكير لأهل المعرفة ، وإن كانوا أولى سابقة فى الفضل وخصيصاء فى العلم لاعتمد أمير المؤمنين على اصطناع الله إياك وتفضيله لك بما رآك أهله فى محلك من أمير المؤمنين وسبقك إلى رغائب أخلاقه وانتزاعك محمود شيمه واستيلائك على مشابه تدبيره ، ولو كان

المؤدبون أخذوا العلم من عند أنفسهم أو لقنوه إلهاماً من تلقائهم، ولم نصبهم تعلموا شيئاً من غيرهم، لحلناهم علم الغيب ووضعناهم بمنزلة قصر بها عنها خالقهم، المستأثر بعلم الغيب عنهم بوحدانيته فى فردانيته وسابق لاهوتيته احتجاباً منهم، لتعقب فى حكمه، وتثبت فى سلطانه، وتنفيذ إرادته على سابق مشيئته، ولكن العالم الموفق للخير المخصوص بالفضل المحبوب بمزية العلم وصفوته، أدركه معانا عليه بلطف بحثه وإذلال كنفه وحجة فهمه وهجر سآمته. وقد تقدم أمير المؤمنين إليك آخذا بالحجة عليك مؤدياً حق الله الواجب عليه فى إرشادك وقضاء حقك، وما ينظر به الوالد المعنى الشفيق لولده، وأمير المؤمنين يرجو أن ينزهك الله عن كل قبيح يهش له طمع، وأن يعصمك من كل مكروه حاق بأحد وأن يحصنك من كل آفة استولت على امرىء فى دين أو فى خلق، وأن يبلغه فيك أحسن ما لم يزل يعوده من آثار نعمة الله عليك، سامية بك إلى ذروة الشرف متبحبحة بك بسطة الكرم لائحة بك فى أزهر معالى الأدب مورثة لك أنفس ذخائر العز، والله يستخلف عليك أمير المؤمنين ويسأله حياطتك وأن يعصمك من زيغ الهوى، ويحضرك داعى التوفيق، معاناً على الإرشاد فيه، فإنه لا يعين على الخير ولا يوفق له إلا هو.

هذه نبذه الديباجة من الرسالة، وبعدها أخذ يجول فى ميادين النصح والإرشاد حتى أنهى تلك الصفحات الطوال بقوله فى آخرها داعيا.

« أيدك الله بالنصر وغلب لك على القوة، وأعانك على الرشد، وعصمك من الزيغ، وأوجب لمن استشهد معك ثواب الشهداء، ومنازل الأصفياء، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته ».

وكما أطال عبد الحميد فكان باسق الطول، أوجز فكان إيجازه الإيماء، وهاتان رسالتان له بالغتا الإيجاز.

كتب موصيا بشخص: « حق موصل كتابى إليك كحقه على، إذ جعلك موضعاً لأمله ورآى أهلا لحاجته، وقد أنجزت حاجته فصدق أمله ».

وطلب إليه مروان أن يكتب ذاما فى إيجاز ، لعامل أهدى إليه عبداً أسود فكتب إليه « لو وجدت لوناً شرا من السواد وعدداً أقل من الواحد لأهديته » .

ولقد كان رحمه الله يتخير لكل من الأطناب والإيجاز مواطنه ، فكان يوجز فى الأخبار بالهزائم ووصف الأعداء وتغيير شىء كان مقراً ، ونحو ذلك مما لا يحمد معه إلا الإيجاز ، ثم كان يطنب فى الأخبار بالفتوح والحث على الجهاد والوعد المرغب والوعيد المخوف والوصايا ونحوها مما لا يغنى فيه إلا الأطناب ، ولكن فضله على الأطناب أكثر منه على الإيجاز . فقد جرى من الثانى على سنن كان معروفاً ، فى حين ابتدع فنون الأطناب ابتداعا ، حتى عدت رسائله فى الأغراض السياسية والأخلاقية والعلمية والوصايا — كرسائل زميله وصديقه عبد الله بن المقفع ومن حذا حذوهما من حلبتهما — طلائع لعصر التأليف والتدوين فى الصدر العباسى بعد . ولعل هذه الفكرة فى التطويل سرت إلى هذين العلمين ، أضرابهما من كتب اليونان والفرس فحققاها فى لغة العرب بما ابتدعا من تكرار الحمد والدعاء ، وتفخيم الأوصاف والألقاب ، وإكثار الترادف فى الجمل والمفردات ، وزيادة الشرح باستقصاء المعانى واستطراد المناسبات ، وهكذا مما هو ظاهر البسط ، واضح البيان ، فى المطول من رسائل هذه الطبقة جميعاً مما لا سبيل إلى نقله هنا ، وإنا لنوصى بالرجوع إلى مصادر ما أشرنا إليه منه .

٣ — إخوانيـــاته

كانت الرسائل الإخوانية قبل عبد الحميد ضيقة الأنواع قليلة الأشياع ، كما لم تكن شيئاً يذكر بجانب ما كان من رسائل ومكاتبات ، فلما زاول من أمر ديوان الرسائل مازاول أكثر من أغراضها وشعب من فنونها فعبد طريقها أمام الكتاب ، بما أنشأ فيها من التهانى والتعازى والمذام والتواصى ، والشكوى والعتاب ، إلى غير هذا مما أصل أصوله وفرع فروعه وبقى فيه مع ذلك السابق المجلى ، وهذا طرف منه .

كتب وقد رزق أول أبنائه إلى أخيه يردد إليه تهنئته لنفسه وله فقال : « أما بعد فإنه ليس مما أتعرف من مواهب الله نعمة خصصت بمزيتها وأصفيت بخصيصتها ، كانت أسرى من هبة الله لى ولداً أسميته فلانا ، وأملت بيقائه بعدى حياة وذكرى وحسن خلافة من حرمتى وإشراكه لى فى دعائه شافعاً لى إلى ربه ، عند خلواته وصلواته وحجه وكل موطن من مواطن طاعته ، فإذا نظرت إلى شخصه تحرك به وجدى وظهر به سرورى وتعطفت عليه منى أنسة الولد ، وتولت عنى وحشة الوحدة ، فأتابه جذل فى مغيبى ومشهدى أحاول مس جسده بيدى فى الظلم وتارة أعانقه وأرشفه ، ليس يعدله عندى عظيمات الفوائد ولا منفسات الرغائب ، سرنى به واهبه لى على حين حاجتى إليه ، فشد به أزرى وحملنى من شكره فيه ماقد آدنى بثقل حمل النعم السالفة إلى به ، المقرونة سراؤها فى العجب بما يتداركنى من رقة الشفقة عليه ، مخافة مجاذبة المنايا إياه ووجلا من عواصف الأيام عليه » . ثم أتى عقب ذلك بالخاتمة التى ذكرت فى المبادىء والخواتيم .

وكتب إلى هشام بن مروان يعزيه عن سرية من حظاياه : « إن الله تعالى أمتع أمير المؤمنين من أنسيته وقرينته متاعاً مدد إلى أجل مسمى ، فلما تمت له مواهب الله ورعايته قبض إليه العارية ، ثم أعطى أمير المؤمنين من الشكر عند بقائها والصبر عند ذهابها أنفس منها فى المقلب وأرجح فى الميزان وأسنى فى العوض ، فالحمد لله رب العالمين ، وإنا لله وإنا إليه راجعون » .

وقد تقدمت رسالته عن مروان أيضاً ، فى ذم العامل الذى أهدى إليه عبدا أسود ، وكذا رسالته فى الإيصاء ، كما تقدمت رسالته إلى أهله وهو منهزم مع مروان فى شكوى الأيام وعتبها والتصبر لها واحتمال مكارهها .

٤ — تملكه زمام الألفاظ والمعانى

وهذه ميزة رابعة أخرنا الكلام فيها إلى ما بعد سوالف اخواتها لحاجتها إلى السبق بشىء من مأثوره وقد سبق ، وتلك هى حسن انتقائه

للمفردات ، وجودة تسهيله للأساليب ، ودقة اختراعه للمعانى . فهو يختار من المفردات ما عذب نطقه وخف سمعه وعظم بكثرة استعمال الفصحاء له صقاله ، مع بعده عن الحوشية والابتذال ، وهو يراعى فى الأساليب سلامتها من الركاكة والاضطراب وبعدها فى الدلالة على معانيها من الخفاء والتعقيد ، مع ما يفرغ عليها من رقة الحاشية ولطف الاشارة ، أما المعانى فهو الغواص على لآلئها الناظم لجواهرها ، المخترع لدقائقها ، فبعيدها قريب من يده ، وجامحها ذلول بصنعه ولذا كان يقتحم فى الكتابة أموراً لم يقتحمها غيره ، ويعالج من صعابها فنوناً لا يعالجها سواه ، فإذا هو حسن النسج جميل الأسلوب ، قوى الحجة ناصع البرهان ، وإنا للسوق لذلك بعض فقرات من رسالة كتب بها عن لسان مروان إلى ولاة الأمصار يأمره فيها بالضرب على أيدى المستهترين بلعبة الشطرنج إذ ذاك ، قال — بعد ديباجة ممهدة للموضوع عما شرع الدين وما كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم فى إقامة معالمه باتباع أوامره واجتناب نواهيه —

« فكان فيما تقدم إليهم فيه ، نهيه وأعلمهم سوء عاقبته ومغبة أمره ، وأوعز إليهم فيه ناهيا وواعظاً وزاجراً ، الاعتكاف على هذه التماثيل من الشطرنج والمواصلة عليها ، لما فى ذلك من عظيم الأثم وموبق الوزر مع مشغلتها عن طلب المعاش وإضرارها بالعقول ومنعها من حضور الصلوات فى مواقيتها مع المسلمين . وقد بلغ أمير المؤمنين أن ناساً ممن قبلك من أهل الاسلام ، قد ألهجهم الشيطان بها وجمعهم عليها وألف بين قلوبهم فيها ، فهم معتكفون عليها من لدن صحبهم إلى ممساهم وهى ملهية لهم عن الصلوات شاغلة إياهم عما أمروا به من القيام بسنن دينهم وافترض عليهم من شرائع أعمالهم مع مداعبتهم فيها وسوء لفظهم عليها ، وأن ذلك من فعلهم ظاهر فى الأندية والمجالس غير منكر ولا مستفظع عند أهل الفقه وذوى الورع والأديان والأسنان منهم ، فأكبر أمير المؤمنين ذلك وأعظمه وكرهه واستكبره ، وعلم أن الشيطان عندما يئس من بلوغ إرادته فى معاصى الله عز وجل

بمصر المسلمين وبجمعهم ، صراحاً وجهاراً ، أقدم على شبهة مهلكة ، وزين لهم ورطة موبقة ، إرادة استهوائهم بالخدع وإضلالهم بالشبه إلى أن قال .

وقد أحب أمير المؤمنين أن يتقدم اليهم فيما بلغه عنهم وأن ينذرهم ويوعز إليهم ما فى أعناقهم عليها ، ويعلمهم مالهم فى قبول ذلك من الحظ وعليهم فى تركه من الوزر . فأذن بذلك فيهم وأشده فى أسواقهم وجميع أنديتهم وأوعز اليهم فيه ، وتقدم إلى عامل شرطتك فى إنهاك العقوبة لمن رفع اليه من أهل الاعتكاف عليها والأظهار للعب بها ، وإطالة حبسه فى ضيق وضنك ، وطرح اسمه من ديوان أمير المؤمنين . ولا يجدن أحد عندك هوادة فى التقصير فى حق الله عز وجل والتعدى لأحكامه ، فتحل بنفسك ما يسوءك عاقبة مغبته ، وتتعرض به لغير الله عزوجل ونظامه ، واكتب إلى أمير المؤمنين ما يكون منك إن شاء الله والسلام .

٥ — بديهته وجوامع كلمه ، وشعره

لقد كان لعبد الحميد من سرعة البديهة ما جعل ابراهيم بن العباس الصولى يقول فيه وقد ذكر عنده « كان والله الكلام معاناً له ، ما تمنيت كلام أحد من الكتاب قط أن يكون لى مثل كلامه . ومع هذه البديهة كان يصدر عنه من الحكم والجوامع ما يعنى غيره على التأنى والإمهال . ساير مروان يوما على دابة قد طالت مدتها معه فقال له مروان ، قد طالت صحبة هذه الدابة لك ، فقال يا أمير المؤمنين إن من بركة الدابة طول صحبتها وقلة علفها . فقال له فكيف سيرها ؟ فقال همها أمامها وسوطها عنانها ، وما ضربت قط إلا ظلماً .

ومن كلام له يعرض بشعار بنى العباس وكان أسود « فرويداً رويدا حتى ينصب السبل وتمحى آية الليل » ومنه فى تباين الناس « والناس أخياف مختلفون وأطوار متباينون ، منهم علق مضنة لا تباع ، وغل مظنة لا تتباع » وقيل له يوما :

أيما أحب اليك أخوك أم صديقك؟ فقال : « انما أحب أخى إذا كان صديقى » : وسئل عن خير الكلام فقال : « خير الكلام ما كان لفظه فخلا ومعناه بكراً » . وقال فيما ينبغى أن يكون عليه القلم والفكر « القلم شجرة ثمرتها الألفاظ ، والفكر بحر لؤلؤه الحكمة »

وكثيراً ما كان ينشد فى تخريج الكتاب .

إذا خرج الكتاب كانت دويهم قسياً وأقلام الدوى لها نبلا

وكما شهد له الصولى بما ذكرنا آنفاً شهد له غيره من ذوى الأقدار .

كان أحمد بن يوسف يقول فى صفة رسائله « ألفاظ محكمة وتجارب محنكة » .

ومما قال فيه ابن نباتة « هو البالغ إلى أعلى المراتب فى الكتابة البليغة ، وهو أول من اتخذ التحميدات فى فصول الكتب ، واستعمل فى بعض كتبه الايجاز البليغ وفى بعضها الاسهاب المفرط على ما اقتضاه الحال » ومما قال فيه قاضى القضاة ابن خلكان « به يضرب المثل فى البلاغة حتى قيل فتحت الرسائل بعبد الحميد وختمت بابن العميد ، وكان فى الكتابة وفى كل فن من العلم والأدب إماماً وعنه أخذ المترسلون ، ولطريقته لزموا ولآثاره اقتفوا ، وهو الذى سهل سبيل البلاغة فى الترسل ، ومجموع رسائله مقدار ألف ورقة ، وهو أول من أطال الرسائل ، واستعمل التحميدات فى فصول الكتب فاستعمل الناس ذلك بعده . »

وكان رحمه الله فوق منزلته هذه فى الكتابة ، إذا أراد أن يقول الشعر قال فأجاد ، وهأنت ذا قد استمعت إلى بيتين له مفردين دلفا خلال ما سلف من كلام ، فلتستمع إلى هذين البيتين المجتمعين ، يصف فيهما مدى ما برح به من أحزان .

كفى حزنا أنى أرى من أحبه قريباً ولا غير العيون تترجم
فأقسم لو أبصرتنا حين نلتقى ونحن سكوت خلتنا نتكلم

ومن شعره يصف نعيما ترحل وشقاء أقام :

ترحل ما ليس بالقافل وأعقب ما ليس بالزائل
فلهفى لذى خلف قادم ولهفى على سلف راحل
سأبكى على ذا وأبكى لذا بكاء مولهة ثاكل
فتبكى من ابن لها قاطع وتبكى على ابن لها واصل

ثالثا — أخلاقه ووصاياه للكتاب

أما أخلاق عبد الحميد فقد كانت المثل الأعلى، ويكفى أنه ذهب ضحية وفائه لمروان على ماسلف، وقد كانت له مندوحة للنجاة بالتقرب إلى الدولة الجديدة التى ما كانت تضن عليه بالحياة لبالغ فضله، والرغبة فى الانتفاع بآثار قلمه.

وهذه وصاياه للكتاب فى تلك الرسالة البليغة الخالدة، قد رأينا الابقاء عليها إلى حيث نتكلم عن أخلاقه، لأنها جماع للفضائل التى حبب اليها ورغب فيها، وللرذائل التى كره فيها ورغب عنها، فإنه رحمه الله لم يكد يبدؤها بالدعاء لهم حتى خلص إلى بيان منزلتهم بالكتابة ومنزلة الكتابة بهم، ثم أخذ يطالبهم بما توجبه هذه المنزلة عليهم، من ضرورة اجتماع خلال الخير فيهم وتحليهم بكثير من فضائل عدها ضرورة لهم، كضرورة نظرهم فى كل علم وفن، وبعدئذ أخذ يطالبهم بالترفع بأنفسهم عن المطامع والدنايا والسعاية والكبر، وأن يتواصى بعضهم ببعض. ولم يفته والكتابة سلم الرقى أن يوصيهم إذا صعدوا بالعدل والرفق والأمانة والتواضع، كما لم يفته أن يحذرهم الأشر والبطر وتجاوز المرتبة والمنزلة، والحرص على الاختبار قبل الصحبة، مع معرفة حقوقها وسياستها. وما كان أجمل ما أوصاهم به من الاخلاص لمن اصطنعوهم والوفاء لهم فى شدتهم وبلواهم، وأجمل منه إلزامه نفسه أن يكون فى ذلك قدوتهم وإمامهم بقوله فى آخرها «من تلزمه النصيحة يلزمه العمل»، ثم أجمل من هذين أنه قضى نحبه فى التمسك بهذه الوصاة فذهب المثل الأعلى كما قدمنا للوفاء. وإذ كانت هذه الرسالة

على ما ذكرنا من مكانة فى الأخلاق فليس من سبيل إلى إغفال اثباتها وهى خير معبر عن خلاله وأفصح مترجم عن سجاياه ، قال تغمده الله برحمته وحباه رضوانه « نقلا عن مقدمة ابن خلدون » .

أما بعد حفظكم الله يا أهل صناعة الكتابة وحاطكم ووفقكم وأرشدكم ، فان الله عز وجل جعل الناس بعد الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ومن بعد الملوك المكرمين ، أصنافاً وإن كانوا فى الحقيقة سواء ، وصرفهم فى صنوف الصناعات وضروب المحاولات إلى أسباب معاشهم وأبواب أرزاقهم ، فجعلكم معشر الكتاب فى أشرف الجهات ، أهل الأدب والمروءات والعلم والرزانة ، بكم تنتظم للخلافة محاسنها وتستقيم أمورها . وبنصائحكم يصلح الله للخلق سلطانهم وتعمر بلدانهم ، لا يستغنى الملك عنكم ولا يوجد كاف إلامنكم ، فموقعكم من الملوك موقع أسماعهم التى بها يسمعون ، وأبصارهم التى بها يبصرون . وألسنتهم التى بها ينطقون وأيديهم التى بها يبطشون ، فأمتعكم الله بما خصكم من فضل صناعتكم ولا نزع عنكم ما أضفاه من النعمة عليكم .

وليس أحد من أهل الصناعات كلها أحوج إلى اجتماع خلافا الخير المحمودة وخصال الفضل المذكورة المعدودة منكم أيها الكتاب ، إذا كنتم على ما يأتى فى هذا الكتاب من صفتكم ، فإن الكاتب يحتاج من نفسه ويحتاج منه صاحبه الذى يثق به فى مهمات أموره ، أن يكون حليما فى موضع الحلم فهيما فى موضع الحكم ، مقداماً فى موضع الأقدام ، محجما فى موضع الأحجام مؤثراً للعفاف والعدل والإنصاف ، كتوما للأسرار وفياً عند الشدائد عالما بما يأتى من النوازل ، يضع الأمور فى مواضعها والطوارق فى أماكنها ، قد نظر فى كل فن من فنون العلم فأحكمه وإن لم يحكمه أخذ منه بمقدار ما يكتفى به ، يعرف بغريزة عقله وحسن أدبه وفضل تجربته ما يرد عليه قبل وروده ، وعاقبة مايصدر عنه قبل صدوره ، فيعد لكل أمر عدته وعتاده ، ويهيء لكل وجه هيئته وعادته .

فتنافسوا يا معشر الكتاب فى صنوف الآداب وتفقهوا فى الدين وابدءوا بعلم كتاب الله عز وجل والفرائض ثم العربية فإنها ثقاف ألسنتكم، ثم أجيدوا الخط فإنه حلية كتبكم وارووا الأشعار واعرفوا غريبها ومعانيها وأيام العرب والعجم وأحاديثها وسيرها، فإن ذلك معين لكم على ما تسمو إليه هممكم، ولا تضيعوا النظر فى الحساب فإنه توأم كتاب الخراج.

وارغبوا بأنفسكم عن المطامع سنيها وهينها، وسفساف الأمور ومحاقرها، فأنها مذلة للرقاب، مفسدة للكتاب، ونزهوا صناعتكم عن الدناءة واربئوا بأنفسكم عن السعاية والنميمة وما فيه أهل الجهالات، وإياكم والكبر والسخف والعظمة فانها عداوة مجتلبة من غير إحنة، وتحابوا فى الله عز وجل فى صناعتكم، وتواصوا عليها بالذى هو أليق لأهل الفضل والعدل والنبل من سلفكم.

وإن نبا الزمان برجل منكم فاعطفوا عليه، وواسوه، حتى يرجع إليه حاله ويثوب إليه أمره، وإن أقعد أحدا منكم الكبر عن مكسبه ولقاء إخوانه، فزوروه وعظموه وشاوروه واستظهروا بفضل تجربته وقديم معرفته.

وليكن الرجل منكم على من اصطنعه واستظهر به ليوم حاجته إليه، أحوط منه على ولده وأخيه، فان عرضت فى الشغل محمدة فلا يصرفها إلا إلى صاحبه، وإن عرضت مذمة فليحملها هو من دونه. وليحذر السقطة والزلة والملل عند تغير الحال، فان العيب اليكم معشر الكتاب أسرع منه إلى الفراء، وهو لكم أفسد منه لها، فقد علمتم أن الرجل منكم إذا صحبه من يبذل له من نفسه ما يجب عليه من حقه، فواجب عليه أن يعتقد له من وفائه وشكره واحتماله وخيره ونصيحته وكتمان سره وتدبير أمره، ما هو جزاء لحقه ويصدق ذلك تبعاً له عند الحاجة إليه والاضطرار إلى ما لديه، فاستشعروا ذلك وفقكم الله من أنفسكم فى حالة الرخاء والشدة والحرمان، والمواساة والاحسان، والسراء والضراء، فنعمت الشيمة هذه لمن وسم بها من أهل الصناعة الشريفة.

وإذا ولى الرجل منكم أو صير اليه من أمر خلق الله وعياله أمر ، فليراقب الله عز وجل وليؤثر طاعته، وليكن على الضعيف رفيقاً وللمظلوم منصفا ، فان الخلق عيال الله وأحبهم اليه أرفقهم بعياله ، ثم ليكن بالعدل حاكما وللاشراف مكرما وللفيء موفراً وللبلاد عامرا وللرعية متألفا وعن أذاهم متخلفاً ، وليكن فى مجلسه متواضعاً حليما ، وفى سجلات خراجه واستقضاء حقوقه رفيقاً .

وإذا صحب أحدكم رجلا فليختبر خلائقه ، فإذا عرف حسنها وقبيحها أعانه على ما يوافقه من الحسن ، واحتال على صرفه عما يهواه من القبيح بألطف حيلة وأجمل وسيلة ، وقد علمتم أن سائس البهيمة إذا كان بصيراً بسياستها التمس معرفة أخلاقها، فإن كانت رموحا لم يهجها إذا ركبها ، وإن كانت شبوبا اتقاها من بين يديها ، وإن خاف منها شروداً توقاها من ناحية رأسها ، وإن كانت حروناً قمع برفق هواها فى طرقها ، فإن استمرت عطفها يسيراً فيسلس له قيادها ، وفى هذا الوصف من السياسة دلائل لمن ساس الناس وعاملهم وجربهم وداخلهم ، والكاتب لفضل أدبه وشريف صنعته ولطيف حيلته ومعاملته لمن يحاوله من الناس ويناظره ويفهم عنه أو يخاف سطوته ، أولى بالرفق لصاحبه ومداراته وتقويم أوده من سائس البهيمة التى لا تحير جوابا ولا تعرف صوابا ولا تفهم خطابا ، إلا بقدر ما يصيرها إليه صاحبها الراكب عليها . ألا فارفقوا رحمكم الله فى النظر واعملوا ما أمكنكم فيه من الروية والفكرة تأمنوا بإذن الله ممن صحبتموه النبوة والاستثقال والجفوة ، ويصر منكم إلى المواتقة وتصيروا منه إلى المؤاخاة والشفقة إن شاء الله .

ولا يجاوز الرجل منكم فى هيئة مجلسه وملبسه ومركبه ومطعمه ومشربه وعياله وخدمه وغير ذلك من فنون أمره قدر حقه ، فانكم مع ما فضلكم الله به من شرف صنعتكم خدمة لا تحملون فى خدمتكم على التقصير وحفظة لا تحتمل منكم أفعال التضييع والتبذير ، واستعينوا على عفافكم بالقصد فى كل ما ذكرته لكم وقصصته عليكم ، واحذروا متالف السرف وسوء عاقبة

الترف فانهما يعقبان الفقر ، ويذلان الرقاب ، ويفضحان أهلهما ، ولاسيما الكتاب وأرباب الآداب .

وللأمور أشباه وبعضها دليل على بعض ، فاستدلوا على مؤتنف أعمالكم بما سبقت إليه تجربتكم ، ثم اسلكوا من مسالك التدبير أوضحها محجة وأصدقها حجة وأحمدها عاقبة ، واعلموا أن للتدبير آفة متلفة ، وهى الوصف الشاغل لصاحبه عن إنفاذ علمه ورويته ، فليقصد الرجل منكم فى مجلسه قصد الكافى من منطقة وليوجز فى ابتدائه وجوابه وليأخذ بمجامع حجته ، فإن ذلك مصلحة لفعله ومدفعة للشاغل عن إكتاره ، وليضرع إلى الله فى صلاته توفيقه وإمداده بتسديده ، مخافة وقوعه فى الغلط المضر ببدنه وعقله وآدابه ، فإنه إن ظن منكم ظان أو قال قائل إن الذى برز من جميل صنعته وقوة حركته إنما هو بفضل حيلته وحسن تدبيره ، فقد تعرض بحسن ظنه أومقالته إلى أن يكله الله عز وجل إلى نفسه فيصرفها إلى غير كاف وذلك على من تأمله غير خاف ، ولا يقول أحد منكم إنه أبصر بالأمور وأحمل لعبء التدبير من مرافقه فى صناعته ومصاحبه فى خدمته ، فإن أعقل الرجلين عند ذوى الألباب من رمى بالعجب وراء ظهره ورأى أن أصحابه أعقل منه وأجمل فى طريقته ، وعلى كل واحد من الفريقين أن يعرف فضل نعم الله جل ثناؤه من غير اغترار برأيه ولا تزكية لنفسه ولا تكاثر على أخيه أو نظيره وصاحبه وعشيرته ، وحمد الله واجب على الجميع وذلك بالتواضع لعظمته والتذلل لعزته والتحدث بنعمته .

وإنما أقول فى كتابى هذا ما سبق به المثل « من تلزمه النصيحة يلزمه العمل » ، وهو جوهر هذا الكتاب وغرة كلامه بعد الذى فيه من ذكر الله عز وجل فلذلك جعلته آخره وتممته به .

تولانا الله وإياكم يا معشر الطلبة والكتبة ، بما يتولى به من سبق علمه باسعاده وإرشاده ، فإن ذلك إليه وبيده ؛ والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

جدول الخطأ والصواب

صفحة	سطر	الخطأ	الصواب
٥	١٤	صحابهم	صحاريهم
٤٦	٢٥	المؤتمون	المؤتون
٥٨	١١	المجال	المحال
٧١	٢٤	الضعيف	الضعف
٩١	٢٤	لنقله	لنقله
١١٢	٣	القصص	القصاص
١١٧	٢٥	المنافقون	المنافقين
١٢٠	١٣	تمله	تأمله
١٢٧	١	لأسقياهم	لأسقيناهم
١٣٦	٣	قال	قل
١٤٧	٢٠	كبكوا	كبكبوا
١٥٢	١٠	مدى	أن
١٦٣	١٣	هوزان	هوازن
١٨٣	٣	للدابة	الدابة
١٨٤	٣	ذى	ذا
١٨٦	٢٤	التحرير	التحوير
١٨٩	٢٥	حجو	حجر
١٩٠	٢١	العاهرة	العاهر
١٩١	٥	الأزرار	الإزار
١٩٣	٢٥	نشبلته	نشيله
١٩٦	١٠	عنه	عند
٢٠٦	١٣	جزاؤه	جزاءه
٢١٧	٢٤	المكات	الملكات

صفحة	سطر	الخطأ	الصواب
٢٢٤	١٣	فهديكم	فمهديكم
٢٣٠	٥	خطوط	خطوب
٢٣٠	١٨	منهما	منهم
٢٤٢	١٢	أحد	أحدا
٢٤٧	٢٥	معا	معها
٢٥٦	٢٤	الحداث	الحراث
٢٦٤	٢٠	امرء	امرئ
٢٦٦	١٠	واقعة	وقعة
٢٧٦	٢٢	عدا	عد
٢٨٢	٢١	أنشر	انتشر
٢٨٣	١٤	لها من تره	لهاترة
٢٨٩	١٩	لنج	فنهج
٢٩٠	٦	وامراؤها	وأمراؤهم
٢٩١	١٧	عبد	عبد الملك
٢٩٣	٣، ٤	يؤمنون	يؤمون
٢٩٤	٢١	الأست	الأسلت
٢٩٦	٢٢	أبا	أنا
٢٩٨	١٨	فقال	فقالت
٢٩٩	١٩	وجربت	وجربت الأمور
٢٩٩	٢٤	التمثيل	التمثل
٣٠٠	١٨	وأصبحت	أصبحت
٣٠١	٢٠	منهم	مهن
٣٠٢	١٢	اثنى	اثنتى

صفحة	سطر	الخطأ	الصواب
٣٠٢	١٨	ونحوه	وغيرهم
٣٠٣	١٤	المطلوعة	المطاوعة
٣٠٨	٢٥	لم	أسلم
٣١١	٢٢	يجاره	يجاريه
٣١٧	٨	عماوله	عماله
٣٣٨	٢٠	وبكر	بكر
٣٤٥	٢٤	وبفضل	وبفصل
٣٤٧	٧	بدأ	بدا
٣٤٨	١٢	بن	بنى
٣٤٩	١٩	خير	خيرا
٣٦١	٢٢	إلى	إلا
٣٦٩	١٧	عينها	عينيها
٣٧١	١٨	الجدوال	الجداول
٣٧٤	٢٠	بؤس	ببؤس
٣٧٥	٢	جيد	جد
٣٨٢	٢٢	الجليل	الجلل
٣٩١	٢٠	إذا	إذ
٣٩٨	٢	من البحر .	البحر
٣٩٨	٩	مفصلا	مفضلا
٤٠٠	٢٠	وأجعله	وأجمعه
٤٠٢	٦	وكلما	وقلما
٤٠٣	٢٠	لزاد	ولزاد
٤٠٤	١٧	قصيرها	قصيراها

صفحة	سطر	الخطأ	الصواب
٤١١	٦	فعزقنهن	فعزقتهن
٤١٥	٣	قد قضى	قضى
٤١٩	١٤	ودنى	ودونى
٤٢٠	١٩	مذنب	مذنبا
٤٢١	١٣	فينطبق	فينطق
٤٢٨	١٣	الحسيد	حسيد
٤٢٨	٢٠	مرتبا	مرتقبا
٤٢٩	١٩	فلم	لم
٤٣٠	٢٣	من	فى
٤٣١	١٧	رابعا	ثالثا
٤٣٩	٢٠	إلى	وإلى
٤٤٠	٥	ولا	من
٤٤٢	١٩	بمعصر	بمعسر
٤٤٣	٤	فسل	وسل
٤٤٤	١٥	اجاراه	جاراه
٤٤٦	٤	حسى	حس
٤٤٨	٥	اذا	إذ
٤٤٨	٢٠	جميع	جميل
٤٥٠	٣	فو	فلو
٤٦٠	١٣	تشبعها	تشعبها
٤٦١	١٩	فتنة	فتية
٤٦٣	٩	وقدرتها	وقدرته

فهـــرس

تاريخ الأدب العربى فى العصر الإسلامى ٣

أولا — عصر صدر الإسلام ٤

أثر الإسلام فى العرب وفى لغة العرب حسا ومعنى ..... ٤ — ١١

القرآن الكريم : نزوله ، جمعه وروايته ، إعجازه ..... ١٢ — ٢٤

وجوه الاعجاز ، والوجه الحق منها ..... ٢٥ — ٣٤

القرآن معجز بفصاحته وبلاغته وفواصله ..... ٣٥ — ٤١

فواصل القرآن ..... ٣٦ — ٤١

فصاحة القرآن ٤٢

مهدات لفصاحته ، من حيث ، التنافر ، ومخالفة القياس وضعف التأليف ، والغرابة والتعقيد ..... ٤٢ — ٥٦

درجة الفصاحة ، من حيث التشبيه والمجاز والكناية ..... ٥٧ — ٧٤

بلاغة القرآن ٧٥

الخبر والإنشاء ..... ٧٦ — ٨١

الجمل فعلية واسمية ومتعلقاتها ..... ٨١ — ٨٤

التنكير والتعريف ..... ٨٤ — ٩٠

الإفراد والتذكير وفروعهما ..... ٩٠ — ٩٣

الذكر وعدم الذكر ..... ٩٤ — ٩٦

التقديم والتأخير ..... ٩٦ — ١٠٠

الاطلاق والقصر ..... ١٠٠ — ١٠٣

الفصل والوصل ..... ١٠٤ — ١٠٧

الإيجاز والاطناب والمساواة ..... ١٠٧ — ١٢٠

خروج الكلام عن مقتضى الظاهر ..... ١٢٠ — ١٢٤

الدقة فى استعمال المفردات والتراكيب ..... ١٢٤ — ١٢٨

تنوع القسم فى القرآن وحكمته ..... ١٢٩ — ١٣٢

الجدل فى القرآن ..... ١٣٢ — ١٣٧

بدائع القرآن من حيث المحسنات اللفظية والمحسنات المعنوية ١٣٧ — ١٤٥

مزايا القرآن بوجه عام ..... ١٤٥ — ١٥٣

النثر فى صدر الإسلام ١٥٤
الخطابة — نماذجها وحالها ..... ١٥٥ — ١٦٨
الكتابة — نماذجها وحالها ..... ١٦٩ — ١٨٢
مميزات النثر فى صدر الاسلام وأثر الكتاب والسنة فيه ... ١٨٢ — ١٩١
الشعر فى صدر الاسلام — نماذجه وحاله ..... ١٩١ — ٢٠٧
ثانيا — العصر الأموى ٢٠٨
الخطابة — نماذجها وحياتها ..... ٢٠٨ — ٢٢٨
الكتابة — نماذجها وحياتها ، إنشائية وعلمية وخطية ..... ٢٢٩ — ٢٤٩
لغة التخاطب واللحن والتحريف ..... ٢٤٩ — ٢٥٤
الشعر — نماذجه وحياته ، وفنونه والغناء والرجز ..... ٢٥٥ — ٢٧٩
عناية الخلفاء والأمراء باللغة والأدب ثم نشأة الرواية وكثرة الرواة ٢٩٠ — ٣٠٤
ثالثا — التراجم ٣٠٥
عمر بن الخطاب من حيث : نسبه ومولده ونشأته وصفته ، وإسلامه ، وهجرته ، وسيرته ، فى إسلامه قبل الخلافة وبعدها ثم أدبه ، وعلاقته بالشعر ، وأخيرا وفاته ..... ٣٠٥ — ٣٣٦
الحطيئة من حيث — نسبه ونشأته ، ومكانته فى مدحه وهجائه وفنونه غيرهما ، ثم آراء المتقدمين فيه ..... ٣٣٧ — ٣٨٠
على بن أبى طالب من حيث — نسبه ونشأته ، وما كان بينه وبين طلحة والزبير وعائشة وحرب الجمل ، وما كان بينه وبين معاوية وحرب صفين ، ثم حياته الكلامية ، وموقفه من الشعر ٣٨١ — ٤٠٩
جميل بثينة من حيث — نسبه ونشأته ، وسيرة هواه ومكانة نسيبه ، وعيون غزله وأصوات غنائه مع موازنة بينه وبين عمر بن أبى ربيعة ، وشعره فى غير النسيب ، وأخيرا ما أخذ على شعره من معايب ..... ٤١٠ — ٤٥٣
عبد الحميد الكاتب من حيث — نسبه ونشأته ومولده ، وطريقته فى الكتابة وفضله عليها فى المبادئ والخواتيم ، والإطناب والإيجاز ، والأخوانيات ، وملكة زمام الألفاظ والمعانى ، وبديهته وجوامع كلمه ، ثم أخلاقه ، وصاياه للكتاب ..... ٤٥٤ — ٤٧٦
جدول الخطأ والصواب ..... ٤٧٧ — ٤٧٨
الفهرس ..... ٤٧٩ — ٤٨٠

بيومى ،السباعى
تاريخ الادب العربى
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01032906

American University of Beirut

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT
UT VITAM HABEANT ABUNDANTIUS HABEANT
1866
الجامعة الاميركية في بيروت

General Library